AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٧٣ - السنة ٥٠ - رجب ١٤٣٢ هـ - حزيران ٢٠١١م

لوحة زيتية للفنان مروان شاهين

الشمال والجنوب

الدكتور رياض عصمت

وزير الثقافة

هاني الراهب مبدع خارج حدود الزمن

د. علي القيم

رئيس التحرير

بدايات النقد اللغوي الحديث

د. سمر روحي الفيصل

أسواق العرب قبل الإسلام

د. نزار عوني

اللغة العربية والنشر الإلكتروني

د. تركي صقر

التلوث النووي

د. حسين فاضل

أوعية المعرفة

د. هزوان الوز

الشعر الأرمني المعاصر بين الحب والثورة

نصر الدين البحرة

ليلى والمجنون

عبد الفتاح قلعه جي

الذكرى المئوية لولادة جان جينيه

إبراهيم سلوم

الإبداع

يدار الشعر (شعر) سليمان العيسى

هنيهات الوردة (شعر) عصام ترشحاني

قلب السماء (قصة) جرجس حوراني

ترميم تمثال بوذا (قصة) خالد زغريت

حوار العدد مع المخرج السينمائي أمين البني

كتاب الشهر الطريق من دمشق إلى قرطبة محمد سليمان حسن

AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٧٣ السنة ٥٠ - رجب ١٤٣٢ هـ - حزيران ٢٠١١ م

رئيس مجلس الإدارة

الدكتور رياض عصمت

وزير الثقافة

رئيس التحرير

د. علي القيّم

معاون وزير الثقافة

أمين التحرير

محمد سليمان حسن

الإشراف الفني والطباعي:

أنس الحسن

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني

د. عبد الكريم الأشتر

د. حسام الخطيب

أ. شوقي بغدادي

أ. وليد إخلاصي

د. بدر الدين عرودكي

أ. محمد قجة

التصميم والإخراج:

أحمد إسماعيل

التدقيق اللغوي:

سمر الزركي

التنضيد:

ريما محمود - ابتسام عيسى

دعوة إلى الكتّاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلّة المعرفة بإسهامات الكتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية
- يفضّل أن تتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ - ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كلمة
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلّة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلّة أن تردها الإسهامات منضّدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها
- تلتزم المجلّة بإعلام الكتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها
- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلّة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلّة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي: مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

الشمال والجنوب

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

كلمة العدد

هاني الراهب مبدع خارج حدود الزمن

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

بدايات النقد اللغوي الحديث ونقد النقد ..... د. سمر روحي الفيصل ٢٠

من تاريخ الشعر في سورية ..... د. محمد رضوان الداية ٤١

سليمان العيسى بين الأصالة والتجديد الشعري..... د. ملكة أبيض ٥٧

الشعر الأرمني المعاصر بين الحب والثورة ..... نصر الدين البحرة ٧٠

ليلى والمجنون: تراتيل العشق والجنون..... عبد الفتاح قلعه جي ٨٨

الذكرى المئوية لولادة جان جينيه ..... إبراهيم سلوم ١٠٤

افتراءات معاصرة على علم الفلك ..... ترجمة: حازم محمود فرج ١١٩

إضاءات على نشوء الطب وتطوره ..... د. محمد يحيي خراط ١٣٥

على دروب الصبر ..... عبد الباقي يوسف ١٥٧

اقتصاد المعرفة ..... د. محمد سعيد الحلبي ١٦٩

الولايات المتحدة والاختراق المجتمعي..... غسان حيدر ١٨٧

الإبداع

شعر :

يدار الشعر ..... سليمان العيسى ١٩٩

هُنيهات الوردة ..... عصام ترشحاني ٢٠٣

قصة :

قلب السماء ..... د. جرجس حوراني ٢٠٩

ترميمُ تمثال بوذا ..... خالد زغريت ٢١٤

آفاق المعرفة

الحوار مع الذات ومع الآخر..... د. خير الدين عبد الرحمن ٢١٩

الدكتور المفكر عبد الله شريط ومعركة المفاهيم ..... محمود محمد أسد ٢٣٤

أسواق العرب قبل الإسلام..... د. نزار عوني ٢٤٤

اللغة العربية والنشر الإلكتروني..... د. تركي صقر ٢٥٠

التلوث النووي..... د. حسين فاضل ٢٦٠

أكلوني البراغيث (لغة لها أنصارها) ..... حسن موسى النميري ٢٦٥

وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ..... د. محمد البخاري ٢٧٧

أوعية المعرفة ..... د. هزوان الوز ٣٠٢

الطعام والتغذية ..... ترجمة: شريف الموسى ٣١٠

دور علم النفس في الحوار مع الغرب..... عبد محمد بركو ٣٢٠

المتاحف الفنية..... رحاب محمد ٣٢٧

حوار العدد

المخرج أمين البني: مذكرات وطن ..... إعداد: عادل أبو شنب ٣٣٥

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي ..... إعداد: أحمد الحسين ٣٣٥

كتاب الشهر

الطريق من دمشق إلى قرطبة ..... محمد سليمان حسن ٣٥٢

آخر الكلام

محمود أمين العالم: مفكر استثنائي ..... رئيس التحرير ٣٦٥

كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

الشـــمال والجنـــوب

لم أغـرم يومـاً مـن الأيـام بالجغرافيـة. لكننـي في كل مرة أحتكّ فيها بالتاريخ، أندم لأنني لم أبحر منذ مطلع الشـباب في خضم محيطاته، لأكتشف مزيداً من مجاهل جزره النائية، فأقلـل جهلـي بما يضـفيه من معـارف، وأصـقل حكمتي بما

يمليه من عبر. كثيراً ما تمزج مادتا الجغرافية والتاريخ مع بعضهما في مناهجنا الدراسية، لكنني اكتشفت أن التاريخ يتضمن الجغرافية، وليس العكس. كان الأباطرة والسلاطين والملوك والخلفاء والولاة يحكمون امبراطوريات أو بلاداً أو أقاليم أو مدناً. كانت التجارة من ناحية، والغزوات من أخرى، تجري عبر أصقاع تتخللها وديان وجبال، تعبرها أنهار، وتحفها بحار. بالتالي، كان للتاريخ من الجغرافية نصيب كبير. لم يجعلني حب الترحال، وشغف السياحة، أفرق بين غرب وشرق، أو شمال وجنوب. ربما كان هذا سبباً في أن فيلم ألفريد هتشكوك المفضل لدي هو «شمال، شمال - غرب». ولعل امتزاج الجهات، وانتقال المرء من أقصاها إلى أقصاها، يوسع المدارك -إن لم أقل روح التسامح والتفهم- ويضاعف سبل التواصل والحوار بين الثقافات. الأكثر من ذلك، إذا أجاد الإنسان التغلغل في ثنايا الحضارات، ومحاولة استيعاب سماتها الداخلية الخفية، أي عدم اتخاذ موقف مسبق -دفاعي أو عدواني- بل الانفتاح نحو تلقي الظلال الرمادية. للأسف، نجد بعض البيض (من ذوي الرقاب الحمراء،) أي المتعصبين عرقياً أو عنصرياً- وحتى بعض الشرق-آسيويين، عاجزين عن تقبل الاختلاف الحضاري، أو التكيف معه. إن قدرتهم تقتصر على السياحة فحسب، وبشغف شديد، سعياً وراء عنصر الغرابة Exotic. لكنهم، بمجرد أن يقيم هؤلاء في بلاد غير بلادهم، ينحون باللائمة والنقد على طرق الحياة والأعراف المختلفة عما ألفوه. لا أستثني سوى أولئك الأدباء العظام، نساءً ورجالاً، ممن سحرتهم أفريقيا عامة (مثل دوريس ليسنغ وإسحاق دنسين)، أو أولئك الذين فتنتهم المغرب خاصة، وبالتحديد طنجة. بالمقابل، كثيراً ما ألمس روح التعالي ونزعة

التفوق بادية على بعض أبناء الحضارات البيضاء، القادمة من الشمال. كذلك، فإن بعض أبناء حضارات الجنوب يشعرون بالدونية تجاه الشماليين، وكأنهم لم يخرجوا بعد من آثار حقبة الاستعمار القديم. على كل إنسان أن يدرك أن الجهات أربع، وأن الفصول أربعة، وأن التعددية والتباين هما سمة الوجود الجوهرية. ولو لم تشرق الشمس وتغرب، لما استمتعنا بضياء القمر.

إن ترحيب البشر وانسجامهم مع التنوع، جغرافياً ومناخياً، إنما يعكس إيمانهم بالديمقراطية، وانفتاحهم على الحوار مع الآخر، ورفضهم للاستبداد والأحادية والشمولية. في اعتقادي، تكمن بين خياري «انغلاق المعتقد الواحد» و«انفتاح التعددية المتسامحة» هوة يصعب أن تبنى فوقها الجسور. وعندما نقرأ سولجنتسين، نابوكوف، بولغاكوف، أو أعمالاً تتناول ألمانيا الديمقراطية، أو ربيع براغ، فإننا نرتجف لذكرى «الأخ الكبير» - إذا استعرنا تعبير الكاتب البريطاني جورج أورويل حول المجتمع البوليسي في روايته التنبؤية الشهيرة «١٩٨٤»- في الوقت نفسه، لا يملك كثير من الناس إلا أن يشعروا بالأسى إزاء زوال تلك الحقبة الشيوعية، ويترحمون هذه الأيام أمام هيمنة القطب الأمريكي الواحد، سياسة المحافظين الجدد، وتصدير الحروب إلى العالم بقسرٍ فاضح، لأن التوازن الذي كان يجسده الشرق الشيوعي مع الغرب الرأسمالي إبان الحرب الباردة -بغض النظر عن أعبائه على شعوبه في الداخل- قد حفظ كثيراً من حريات العالم الثالث -أو «العالم النامي» كما أفضل تسميته- عن طريق تصدير مبادئ الثورة عالمياً، وإن ساد آنذاك عدم تفهم، بل تجاهل، لخصوصيات الثقافات الوطنية. ولعل محاولة قسم العالم بأسره آنذاك إلى معسكرين مناهضين لبعضهما إلى حد التحفز للاقتتال

هو ما ساعد على إطلاق حركة «الحياد الإيجابي» الوسطية المعتدلة أيام عبد الناصر ونهرو وتيتو، وهي تيار ينطلق من المصلحة الوطنية، نحو تكتل له وزن وثقل مؤثر على كلا المعسكرين، من دون الالتزام بأجندة أي منهما.

حرضني على التفكير بقضية الشمال والجنوب مسلسل وثائقي أمريكي شهير وقيم بعنوان «الحرب الأهلية»، من إنتاج كين بارنز، نال كثيراً من التكريم والجوائز. يتطرق المسلسل إلى التاريخ الأمريكي، الذي يتضمن كثيراً من معلومات الجغرافية، حول الصراع الذي نشب لإقرار روح الدستور الأمريكي، وتحرير العبيد من ربقة العبودية التي كان يصر عليها أبناء الجنوب، وبالطبع يتوقف طويلاً عند دور الرئيس الأمريكي العظيم إبراهام لينكولن. كما لا يغفل المسلسل الوثائقي أثر الأدب المبشر بتحرر الزنوج، فيشير إلى رواية هنرييت بيشر ستاو «كوخ العم توم» (١٨٥٢)، التي بيع منها مليون ونصف نسخة خلال عام واحد. يذكرنا ذلك بالنجاح الأسطوري لرواية وفيلم «ذهب مع الريح» لمارغريت ميتشل، وأيضاً بروايات مارك توين «هكلبري فين» و«توم سوير» التي تتناول حياة الجنوب بواقعية سمحة. كانت الحرب الأهلية الأمريكية الشرسة، في جوهرها، حرباً ناجمة عن صراع بين المبادئ والمصالح. قبل ذلك، وعند اكتساب الولايات المتحدة استقلالها بالكفاح المسلح، كان يمكن أن تكون الولايات المتحدة فرنسية أو إسبانية بمنتهى السهولة. فهل نسي الأمريكان في الألفية الثالثة معنى الكفاح من أجل التحرر، التحرر من التبعية لدولة أجنبية، والتحرر من عبودية الرق في الأوطان؟ إذا كان الأدباء يبشرون بالثورة، كما فعل جان جاك روسو وفكتور هوغو في فرنسا، وكما فعل غوغول وتشيخوف وتولستوي ودوستويفسكي في روسيا، فإن وليم فوكنر وجون

شتاينبك وعديد سواهم من أدباء أمريكا الشرفاء فعلوا ذلك في أعمالهم الرائدة أيضاً. وإذا كان الفرنسيون قد خسروا في شرق الولايات المتحدة، وفي مدينة بوسطن العريقة تحديداً، على يد جورج واشنطن، فإن الإسبان قبلهم -الذين أتى كولومبوس البرتغالي على متن أسطولهم عندما تبنى مشروعه كل من الملكة إيزابيلا والملك فيرديناند- قد خسروا أيضاً في كاليفورنيا، أي في غرب أمريكا، مخلفين أسماءً عديدة لشوارع سان- فرانسيسكو ولوس- أنجلوس، بل وأسماء مدن مثل سان- خوسيه وسانتا- مونيكا وكثير سواها. هل يتعظ الأمريكيون من تاريخهم، ويعيدون قراءته بعمق لاستخلاص العبر؟ هل يتذكرون كيف نشأت الولايات المتحدة عبر الهجرة من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا؟ آمل أن يفعلوا. كيف أفنى أولئك المهاجرون قبائل الهنود الحمر العديدة جداً التي كانت تقطن تلك الأرض الشاسعة الواسعة -كما صورت مسرحية آرثر كوبيت «الهنود»- فزحف البيض بقوة البنادق والمسدسات نحو الغرب، وبنوا المستعمرات، واستوطنوها كما تصور أفلام الكاوبوي، ثم أتوا بالسكك الحديدية وأسسوا بعض المدن، وشرعوا قوانينهم البيضاء، وزرعوا أسس العنصرية تجاه من تبقى من سكان الأرض الأصليين، الذين ورَّدوا لهم الأسلحة والمشروبات الكحولية حتى أفسدوهم، وتعاملوا معهم بعقلية «فرق تسد». ثم جاء دور العبيد، الذين اختطفوا من أفريقيا، كما صورت رواية «الجذور» لألكس هيلي، والمسلسل البديع المقتبس عنها. وكذلك رواية الكاتبة توني موريسون «اللون الأرجواني»، والتي حولها المخرج الكبير ستيفن سبيلبرغ إلى فيلم ممتاز تقاسمت بطولته آنذاك مقدمة البرامج النجمة أوبرا وينفري مع الممثلة القديرة ووبي غولدبرغ.

فات أوان الحديث عن كتاب صموئيل هنتنغتون «صراع الحضارات»، فثمة ردود عليه جعلت صاحبه يعرب عن تراجعه، وأنه لم يعبر عن رأيه الخاص، بل كان يوصِّف واقعاً كان يخشى حدوثه أو استفحاله. والحقيقة، أنه يوجد مفكرون شرفاء كثر في الغرب، مثل واشنطن إيرفينغ وروجيه غارودي ومكسيم رودنسون وجاك بيرك وكارين آرمسترونغ وسواهم، ممن أظهروا تفهماً عميقاً لدين الإسلام، وكتبوا عن تسامحه، وأشادوا بقيمه السامية. أدرك هؤلاء أن الصراع بين الشمال والجنوب صراع مفتعل، ليس له أساس حقيقي، ولا يجوز أن تذكى ناره بوقود النزعات المتطرفة، والحوادث الإرهابية، وقتل النفس والآخر بلا حق ولا ذنب، وهي أمور تشكو منها وتعاني الغالبية العظمى من المسلمين أنفسهم، قبل سواهم، بعد أن طالت أمنهم بشظاياها وأذاها.

كلمة العدد

هاني الراهب
مبدع خارج حدود الزمن

د. علي القيّم
رئيس التحرير

يحتاج المرء إلى قدر إضافي من الشجاعة إذا قرر الكتابة عن الأديب والروائي والناقد هاني الراهب، الذي رحل عن عالمنا وهو في قمّة العطاء والتجدّد والإبداع. فهذا الأديب الذي لم يأخذ حقّه من النقد والدراسة والتكريم، كان يمتلك مخالب ثقافية حسنة الشحذ، وكان يجيد التعامل مع أدواته ويحسن استخدامها، في محاولة للوصول إلى ذرا من الجمال والمتعة التي لم يصل إليها إلا قلّة من الأدباء والروائيين العرب.

هاني الراهب من الذين يدركون معنى الكلمة، فهو يجيد التغلغل في أعماق مدلولاتها، والتحليق المبدع في آفاقها. وقد تميّزت رواياته وأعماله بالشاعرية الرائعة، واللغة الجيدة المتفردة، التي اتسمت بواقعية قاسية، ارتقت إلى مستوى كبير من الصدق والأصالة. وقد نزع فيها إلى تحديث تقنياته السردية، فاستخدم التقطيع، والصورة الفيلمية، وتداخل الأزمنة، والعودة إلى الوراء، مستخدماً الوصف الدقيق للحياة اليومية المبتذلة التي تعيشها الشخصيات. وقد بدت ملامح استفادته واضحة جيداً، في استخدامه تقنيات الرواية الفرنسية الجديدة، من خلال التصوير الدقيق، وتفتيت الحدث، وتقليص الحوار -في بعض الأحيان- إلى درجة إعدامه. وقد تميّزت قصصه بالحبكة المحكمة، وبلغة متفردة ومميزة، استطاع من خلالها أن يدخل إلى أعماق شخصياته، ويستنبط دواخلها الإنسانية، والتباسات ضياع فرصها في الحياة، من دون أن يبتعد فيها عن الهمّ القومي والاجتماعي. وكان في القصص التي كتبها، على قلّتها، حكّاءً بارعاً، خفيف الظل، وعميق المعنى، على الرغم من أنه كان يكتب القصة كنوع من الاستراحة، بين رواية وأخرى، ولا يعتبر نفسه كاتب قصة قصيرة.

لقد أنجز هاني الراهب خلال حياته الصاخبة (١٩٣٩- ٢٠٠٠م) تسعة أعمال روائية هي: المهزومون- شرخ في تاريخ طويل- ألف ليلة وليلتان- الوباء- بلد واحد هو العالم- خضراء كالبحار- خضراء كالمستنقعات- رسمت خطاً على الرمال- التلال. وصدر له ثلاث مجموعات قصصية، وكتب مئات من المقالات الصحفية والدراسات المتمردة، الحافلة بالسخرية من الواقع العربي الذي نعيشه. ولم تغب عنه في كل ما كتب وأنجز من أعمال، تعددية الصوت، واستلهام التراث السردي، والقيام بنسف الزمن التقليدي، ليخلق الزمن النصّي المستقل عن أزمنتنا. وكان فعل الكتابة لديه لا ينفصل عن البحث، مع إصراره على التجريب والاستفادة

من التجارب المتقدمة في العالم؛ لاقتناعه بأن النص الأدبي المتطوّر فوق قواعد اللغة النحوية التقليدية، فتمرد عليها في كثير من كتاباته ونصوصه، لذلك صنّف بين أوائل كتّاب التجريب والتمرد في الوطن العربي، لأنه قام بتفكيك لغة السرد وجعلها تنطق بأكثر من دلالة، خطابها تغلّب على الوظيفة البلاغية، نهجت لغة وليدة، هي لغة الأثر الفني والتصوير السينمائي، التي تحتوي المشهد الروائي برمته (حسب تعبيره).

❁ ❁ ❁

هاني الراهب، كان لديه مشاريع ثقافية، بعضها تحقق، والآخر بقي حبيس الخيبات، التي مني بها جيل الستينات من القرن الماضي، حيث انتهى عصر الأحلام العظيمة الملهمة، ليبدأ عصر الوقائع الصغيرة الفاترة.. كل الأشياء والقيم العربية الكبيرة والأحلام الوحدوية، صارت متعبة. لم يعد ثمة ما يريح، سوى ركن صغير من الصدق مع الذات.. الحقيقة التي وعاها هاني الراهب منذ بدايات وعيه وإبداعاته الأدبية والروائية، أن الكتلة البشرية التي ينتمي إليها الروائي والقارئ، كتلة مهزومة، كل مشاريعها القومية هزمت وأحبطت.. الروائي والقارئ معاً ينظران حولهما فلا يجدان سوى اليباب.. فكان في كثير من الأحيان، الانكفاء نحو الذات هو الفعل الوحيد المتاح لهما.. لقد خسرا العالم، وعليهما -الآن- ألاَّ يخسرا نفسيهما، ومع ذلك لم يندثر الأمل الداخلي لدى هاني الراهب، فالروايات الذاتية التي كتبها كانت جميلة ويحدوها الأمل. وكانت استجابة القارئ العربي لها أجمل، لأنه كان يرى في كل ما كتب، أن الحلم خير من الكابوس، ويدعو إلى تصحيح المنطلقات والمسارات، ونحن نعرف أن الحضارات بدأت بحلم، ثم انطلقت باستجابة.

هاني الراهب في رواياته المتعددة الأساليب والرؤى، لم يقدم مواعظه لأبناء

أمته العربية بطريقة مباشرة وتقليدية. بل بتقنية متقدمة لم يعتد عليها قراء العربية.. لقد كتب عن الروح وحظوظها، من منطلق أن كل ثقافة تهتم بالروح، وكتب في كثير من الأحيان.. ببساطة تتكاثف وتزداد غنى وحيوية وإشراقاً، دونما تعقيدات أو التواءات، فتتجاوز الرواية عنده، صعيد الحكاية والحدوثة، فتصير رمزاً. ولذلك نرى تلك التفاؤلية البسيطة العميقة، والتشاؤمية المتمردة، ما يذكرنا بأسلوب الروائي البرازيلي الشهير «باولوكويليو» وخاصة في روايته «الكيميائي» وغيرها من أعماله التي أخذت طريقها للترجمة إلى العربية في السنوات القليلة الماضية. وبغضّ النظر عمّا ذهبنا إليه من قول، فإن روايات هاني الراهب لم تأخذ حقّها من الدراسة والنقد والقراءة. وهذا ليس عيباً بأعماله، بل قصور في الدعاية والترويج لها، وأحب أن أقول بأن قيمة أعمال الراهب الأساسية، في أنها خاطبت شوقاً متأزماً في أعماقنا، وحاول من خلالها، رغم تمردها، الوصول إلى عالم أنقى وأروع وأقل استلاباً. فالناس -كما يقول- الذين لا يملكون القدرة على الحب، أو لا يملكون الفرصة للوصول إليه، والذين يتبعون قيماً ومبادئ سائدة، لا تستمد قوتها من الروح، ولا ترتكز على صدقهم الداخلي، محتاجون بالتأكيد في كل زمان ومكان، إلى صوت يصيح في بريّة حياتهم.

لقد جعل هاني الراهب من الصوت العنصر الأهم في رواياته، وهو صوت ذاتي بالدرجة الأولى، له قدرة فائقة على منح قارئه حسّاً بالتماهي معه، وإحلال ذاته محلّ الرواية ذاتها. ولعلّ أهم مكوناته عنصران يندر أن يجتمعا معاً، وإذا اجتمعا فيندر أن يأتلفا معاً.. إنهما الشعر والفكر.. إن ائتلاف هذين العنصرين في صوت الرواية، قد سلب كلاً منهما بعض القوة التي يمتلكها أساساً وهو منفرد. وبالتالي لم يتمكن أيٌّ منهما أن يصل إلى الذروة التي وصلها صوت البطل، وفي ائتلاف العنصرين في بعض الأحيان استطاع هاني الراهب أن يصل إلى ذروته الخاصة،

مع الحفاظ على ما يسمى بالحدث أو الحبكة. بعفوية ومقدرة على تجريد المشخّص، وتشخيص المجرد، وهذا ما أغنى رواياته وأعطاها ميزة خاصة ومتفردة في الرواية العربية، من دون أن ينسى الميل إلى الإبهار وطرح الأفكار.

❁ ❁ ❁

في حوار صحفي نشر في «القبس» الكويتية منذ أكثر من /١٥/ سنة قال هاني الراهب، بأن الله منحهُ فطرة ربّانية، فهو لا يشعر بالارتواء إلا في التقديم الشامل الاستيعابي، لتجربة العيش، والأمر لا يتعلق بالجانب المعرفي فقط، وإنما بالجانب الإبداعي أيضاً، ذلك أنه إذا كان كلام النقاد حجّة، فرواياته ذات المحاور العريضة والمتعددة، قد أضافت نوعيّاً إلى تقنيات الرواية ومعمارها.. و«الوباء» هي واحدة من أجمل رواياته، وأكثرها قدرة على التعامل بذكاء، مع التاريخ الذي تماسّ معه تماساً متمايزاً، وعبر أكثر من معضل وقد تسلسلت حوادث الرواية تسلسلاً واعياً، ورغم امتلاء الرواية بالطروحات «الأيديولوجية» إلا أن ذلك لم يخف اليومي والإنساني فيها.. يقول عن «الوباء» إنها قطعة من كبدي، ليس بيني وبينها أية مسافة، كما هو الأمر مع «التلال» أو مع «بلد واحد هو العالم» إنها الرواية التي أوصلتني إلى أقرب التصاق ممكن بالإنسان.. بأوجاعه الشخصية والعاطفية والمعيشيّة، وأوجاعه ككائن يتفاعل مع الزمن وتغيّراته، ومع الأحداث العظمى، ومع التكرار اليومي، وبصورة خاصة مع استجابته للتغيّر، فالإنسان يحب الطمأنينة والأمان، وهذان لايتوافران، إلاّ إذا حاول تجميد التاريخ في أنساق وأنماط ثابتة لا تتغيّر، عندما يحس أنه ليس ثمة ما يهدد يومه وغده، ولا يهدد عقله بأفكار ووسائل جديدة هو في غنى عنها، وعن قلقها وضناها. لكن التغيير حتمية لا جدال فيها.. الصيرورة والتغيّر ناموس الحياة، وميزة «الوباء» أنها تابعت خوف شخصياتها وعذاباتهم ومعاناتهم في تفاعلهم مع التغيّر..

وكانت المرأة هي المحرّكة الرئيسية لأحداث رواياته منذ «المهزومون» وحتى «برج العذراء» رغم أنها ليست دائماً صاحبة المساحة الأوسع. لكن «مريم خضير» في «الوباء» هي النقيض الحي لعالم ميّت يمثّله الشيخ عبد الجواد، وقد استطاعت ابنتها «زهرة» التي تقمّصتها كرمز ومعان، أن تشد إلى عالمها الحي المكافح شداد ابن عبد الجواد، وليس العكس، هو بذلك كان يريد أن يقول: أليست الحياة أجمل مع شخصية حرة، مستقلة تختار هي بذاتها أن تعيش معنا، وبالتالي أن تكرّس نفسها وحياتها لهذا الاختيار؟ امرأة تكون نداً لا امتداداً للرجل..

الهمّ السياسي كان في روايات هاني الراهب دائماً وجذرياً. ففي «ألف ليلة وليلتان» تتبع البعد الحضاري لهزيمة ١٩٦٧، وفي «الوباء» رصد مراحل صعود الطبقة المتوسطة وانهيارها، وفي «التلال» حاول رصد تجربة التقدم في العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية، إلى انهيار الأنظمة الشيوعية. في «خضراء كالمستنقعات».. السياسة عنده كانت بالمعنى الأرسطي، وليس بمعنى المزايدات الانتخابية والإعلامية.. السياسة بمعنى الفن الجميل والأخلاقي لإدارة حياة الناس، وتحقيق فرحهم وطموحهم. وقد تأثر بتجربة الروائي الرائع نجيب محفوظ، الذي ابتدع لغة الحوار الجميلة القوية البسيطة، المتمكنة من استخدام تقنيات أدبية وفنية مجددة لا تخلو من الجرأة والمغامرة.

❁ ❁ ❁

هاني الراهب، يرى الأديب ممثلاً للطبقات الشعبية الكادحة.. يراه «بلورة شعبية».. لقد ظهر جيل من الأدباء الذين تكلموا باسم البرجوازية، وانطلق من مفاهيمها، وبشّر بقيمها وتقاليدها، ولكن هذا الجيل لم يستطع إزاء الهجمات الإمبريالية المتوالية أن يسهم في تيار الثورة الجماهيرية التي تصدّت للإمبريالية.. فهو بحكم تأطره البرجوازي ظلّ غريباً عن قضية النضال القومي، التي هي

بالدرجة الأولى، قضية الشعب الكادح. أو أنه في أفضل الحالات تبنّى موقفاً تطوّرياً ليبرالياً، يتناقض والموقف الثوري، الذي فرضته حتميات التصدّي للغزو الإمبريالي الصهيوني.. إن ما يعنيه بالأديب في مواجهة الإمبريالية، هو الأديب المتمثل لهموم وتطلعات سواد الشعب، المتكلم باسمه، والراصد لموجات نضاله. وهو في هذا الميدان يضطلع بمهمتين أساسيتين، الأولى مشاركته الفعلية والحاسمة في النضال السياسي والاجتماعي لشعبه. فالأديب ليس متفرجاً، ولا هو شاهد وحسب، وحياته لا تكتسب معانيها وقيمها إلا بالممارسة.. وفي حدود إمكاناته الشخصية، يستطيع أن يأخذ دوره في معركة وطنه..

المهمة الثانية، هي تكريس الأديب نتاجه لتقديم نماذج ثورية مكافحة عبر الزمان والمكان.. إن المعاني والقيم العالمية الإنسانية والجمالية، تنبثق من نضال الشعوب لتحرير ذواتها وطاقاتها، ولتحطيم الاستعمار، فلسفة ووجوداً. ويرى أن محاربة عصر الإمبريالية ليس فرض كفاية، وإنما هو واجب محتم على جميع الشرفاء.. إن الأديب في هذا المحتوى، وفي هذه الظروف، لا يسعه، وهو ضمير أمة، إلا أن يتغلغل عميقاً في وجدان أمته، المضطرم، وتجارب حياتها المنتكسة والظافرة..

في كتاباته ومقالاته، كان يرى الراهب، بأننا وجميع شعوب العالم الثالث، نعيش مخاضاً حضارياً، ونعاني من تدخل قوى خارجية معادية، تحاول إجهاض ولادتنا الجديدة. وأن معنى حياتنا واستمرارها، ومفتاح مدينة التجارب الخالدة، رهن بالتصدي للإمبريالية ودحرها. وهنا يبرز دور الأديب المعبّر عن شخصية الأمة وطموحاتها..

لقد رفض «الراهب» شعراء البلاط، وحكايات الجنس والحب الخائب، والنتاج الترفيهي المسطّح، وطالب بمضاعفة مهمة الأديب وشمولية رسالته، التي يجب أن تشمل ثلاثة مواقف:

- مقاومة الغزو الثقافي الإمبريالي «العولمي».
- التحرر الذاتي.
- تقديم التراث تقديماً إيجابياً.

الإمبريالية تقوم بدورها، فهي تعمل جاهدة لإدامة سيطرتها على العالم، من خلال أسلحة ثقافية فعّالة، تشمل الأفلام والكتب والمجلات والصحف والنشرات وعالم الفضاء المفتوح والإنترنت والمراكز الثقافية، والمنح الدراسية والمدرّسين. وتعمد كذلك إلى إفقار شعوب العالم الثالث، من مثقفيها، بامتصاصهم أو خنق مواهبهم، وإلى تشويه تراث الأمم، وتقديم بديل كاذب تخلقه هي وتفرضه..

ويرى الراهب أن أفضل ما نحارب به مخلفات الإمبريالية، وضغوطها المستمرة على وعي الجماهير. هو تقديم تجارب ونماذج عربية، تحارب اليأس والمغامرات المرضية. ونتاج الأديب، هو عملية توعية في حد ذاتها، فهو معلم، ونموذج وقائد، والشعب ينتظر منه نتاجاً منيراً، وأن عملية البناء القائمة في جميع مجالات حياة الأمة، ينبغي أن تمتد إلى عالم الثقافة. فكما نبني مصنعاً وسدّاً، ينبغي أن نبني أدباً خلاقاً يصنع ثقافة الأمة، ويقف سدّاً أمام التآمر الثقافي الإمبريالي على وعي شعبنا..

هكذا كان هاني الراهب، في وعيه وفكره وتمرده وإبداعاته.. لقد حمل رسالة الأديب وناضل من أجلها، وطالب بتعرية أشباه الأدباء، وخاض معارك أدبية، من أجل أن يكون للعرب ثقافة عالمية. وكان الوطن هاجسه الوحيد، ومتّكاً لمعظم كتاباته، كما رفع الصوت عالياً، وحطّم الأبواب والنوافذ، ليجعل من الوطن والإنسان، غاية وآفاقاً سامقة في كل نتاجات فكره الخلاّق..

- بدايات النقد اللغوي الحديث ونقد النقد ..... د. سمر روحي الفيصل
- من تاريخ الشعر في سورية ..... د. محمد رضوان الداية
- سليمان العيسى بين الأصالة والتجديد الشعري ..... د. ملكة أبيض
- الشعر الأرمني المعاصر بين الحب والثورة ..... نصر الدين البحرة
- ليلى والمجنون: تراتيل العشق والجنون ..... عبد الفتاح قلعه جي
- الذكرى المئوية لولادة جان جينيه ..... إبراهيم سلوم
- افتراءات معاصرة على علم الفلك ..... ترجمة: حازم محمود فرج
- إضاءات على نشوء الطب وتطوره..... د. محمد يحيى خراط
- على دروب الصبر ..... عبد الباقي يوسف
- اقتصاد المعرفة ..... د. محمد سعيد الحلبي
- الولايات المتحدة والاختراق المجتمعي..... غسان حيدر

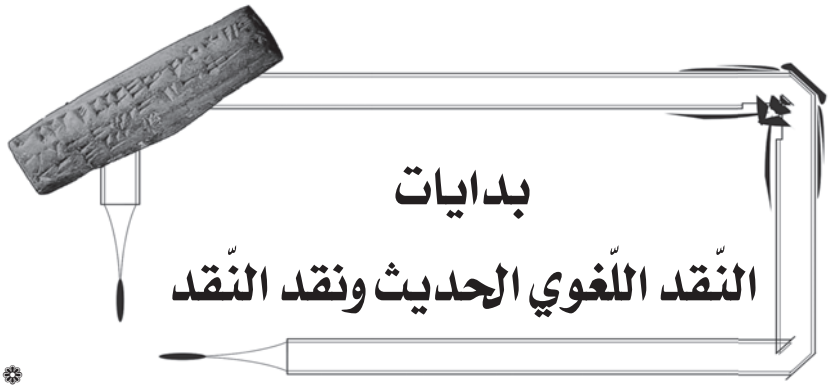

بدايات
النّقد اللّغوي الحديث ونقد النّقد

د. سمر روحي الفيصل

ليس هنـــاك تحديد صارم لبدايات النّقد اللّغــويّ الحديث ونقد النّقد، ولكنّ الثّابت أنّ المجلات والصُّحف التي صدرت في مصر وسورية في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، وفي العقود الثّلاثة الأولى من القرن العشرين، كالجنان (١٨٧٠)، والمقتطف (١٨٧٦)، والهلال (١٨٩٢)، والجامعة (١٨٩٤)، والضّيــاء (١٨٩٧)، والمشــرق (١٨٩٨)، والمضمــار (١٩٢١)، ومجلــة المجمع

أديب وباحث سوري مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة.

العمل الفني: الفنان دلدار قلمز.

العلميّ العربيّ (١٩٢١)، ومنيرفا (١٩٢٣)، وغيرها[١]، هي التي شجَّعتْ على ظهور هذا النّقد، ونشرت نصوصه الأولى التي جُمِع بعضها في كتب، وبقي بعضها الآخر ينتظر من ينهض بهذه المهمّة.

وكان للكتب المطبوعة التي ضمَّت جوانب من النّقد اللّغويّ فضل آخر غير الإسهام في حركة التّصويب اللّغويّ، هو التّشجيع على ظهور نقد النّقد اللّغويّ عند قُسطاكي الحِمْصيّ ومحمّد سليم الجنديّ، انطلاقاً من كتاب (لغة الجرائد) لإبراهيم اليازجيّ الذي طُبِع عام ١٩٠٠، وانتهاءً بكتاب (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد) لمحمد سليم الجندي الذي طُبِع عام ١٩٢٥. وسيكون من هدفي، هنا، الحديث عن هذه البدايات، تمهيداً لتحريري الكتابين المذكورين، وتوضيحاً لطبيعة النّقد اللّغويّ ونقد النّقد ومهمّتهما وعلاقتهما بالنّقد الأدبيّ.

أوّلاً: النّقد اللّغويّ

ليس هناك غموض في مفهوم النّقد اللّغويّ، فقد دلَّ، من بداياته الأولى، على تصويب الخطأ في الأصوات والألفاظ والتّراكيب والأساليب، استناداً إلى اللّغة العربيّة الفصيحة. وكان هدفه حماية اللّغة العربيّة، وتنقية لغة مستعمليها من أخطاء النُّطق والكتابة. وعلى الرّغم من أنّ كلمة (اللّحن) لا تعني الخطأ وحدَه، فإنّ علماء العربيّة اختاروا معنى الخطأ من بين معاني اللّحن، وغلّبوه في الاستعمال حتّى أصبح (اللّحن) مصطلحاً دالاً على الوقوع في الخطأ. وليس بين أيدينا ما يدلُّ على زمن اختيار معنى الخطأ للّحن، أو على المناخ اللّغويّ الذي ساعد على انتقال الدّلالة من المعنى العامّ إلى المعنى الخاصّ، وإن كان هناك قبول لمبدأ انتقال الدّلالة بعد اختلاط العرب بالأعاجم إثر الفتوحات، وشيوع معنى (الخطأ) وحدَه على ألسنة اللغويّين[٢].

وقد اتّصل بمصطلح (اللّحن) مصطلح آخر هو (العامّة) أو (العوامّ)، فأصبح من المألوف أن نقرأ في تاريخ النّقد اللّغويّ عناوين كتب ورسائل جَمَعَتْ بين المصطلحين، منها: ما تلحن فيه العوام للكسائي[٣] (ت ١٨٩ هـ)، ولحن العوام لأبي بكر الزُّبيديّ[٤] (ت ٣٧٩ هـ)، وخير الكلام في التّقصّي عن أغلاط العوام لعلي بن بالي القسطنطيني[٥] (ت

٩٩٢ هـ). ولهذا السّبب حَرَصت الدّراسات الحديثة على الجمع بين المصطلحين نفسيهما وهي تؤرِّخ لحركة النّقد اللّغويّ، ككتاب عبد العزيز مطر (لحن العامّة في ضوء الدّراسات اللغويّة الحديثة)[٦]، وكتاب رمضان عبد التواب: (لحن العامّة والتّطوّر اللغويّ)[٧]، وكتاب محمّد ضاري حمّادي (حركة التّصحيح اللّغويّ في العصر الحديث، ١٨٥٠، ١٩٧٨) وكتاب أحمد محمّد قدُّور (مصنّفات اللّحن والتّثقيف اللّغويّ حتى القرن العاشر)[٨]. بيد أنّ هناك لبساً في استعمال مصطلح (العامّة) في الكتب والرسائل القديمة، أزالته الدّراسات الحديثة التي أشرتُ إليها. هو أنّ مفهوم مصطلح (العامّة) عند مؤلِّفي كتب اللّحن اقتصر، في الغالب الأعمّ، على الأخطاء اللّغويّة التي وقع فيها العوامّ وانتقلت منهم إلى الخاصّة وإنْ جمَعَ بعضها، ككتاب أبي بكر الزُّبيديّ، بين لحن العامّة ولحن الخاصّة. ذلك أنّ الهدف الذي سعى علماء العربيّة إلى تجسيده هو تنقية لغة الخاصّة من الأغلاط التي تسرَّبت إليهم من العامّة. وقد ظنَّ بعضهم أنّ هدف مؤلِّفي هذه الكتب هو تصويب لغة العامّة، انطلاقاً من أنّ الدّلالة المباشرة للحن العامّة هي الأخطاء اللّغويّة التي عرفتها اللّهجات العامّيّة، في حين لاحظ علماء العربيّة انتقال هذه الأخطاء من اللّهجات العامّيّة إلى لغة الخاصّة، فرغبوا في أن يصوّبوها لتبقى لغة الخاصّة سليمة من اللّحن. يؤيِّد ذلك عزوف آخرين من علماء العربيّة عن استعمال مصطلح (العامّة) في عناوين كتب التّصويب التي ألَّفوها، واستعمالهم مصطلح (الخاصة) بدلاً منه، كما فعل أبو هلال العسكريّ (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه: (لحن الخاصّة)، و: الحريريّ (ت ٥١٦ هـ) في كتابه: (درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ)[٩]، و: ابن الحنبليّ (ت ٩٧١ هـ) في كتابه: (الخلاص في نقد الخواصّ). ومن ثَمَّ أصبح مفهوم مصطلح (الخاصّة) في كتب اللّحن دالاً على (علماء اللّغة والشّعراء والخطباء والفقهاء والمحدِّثين وأهل الطّبّ والحكمة ومن في مستواهم. أمّا العامّة فهم ما عدا هؤلاء من فئات المجتمع، وفيهم بعض المتعلِّمين والطّلاب والتُّجّار وأصحاب الحِرَف)[١٠].

ثمّ إنّ نقّاد اللّغة استندوا في أثناء

التّخطئة والتّصويب إلى معيار محدَّد هو اللّغة العربيّة الفصيحة. وكان هذا المعيار، أوّل الأمر، واضحاً محدَّداً عند النّقّاد لايحتاج إلى تقنين؛ لأنّ النّاس كانوا آنذاك يستعملون اللّغة العربيّة الفصيحة في الحياة اليوميّة في المجتمع العربيّ؛ أي إنّ التّمييز بين الخطأ والصّواب، في زمن البدايات، كان ممكناً هيِّناً لا يحتاج إلى قواعد ومعايير. ولكنّ تقدّم الزّمن، وانتشار العربية في البلاد الإسلاميّة المترامية الأطراف، واختلاط العرب بسكّان البلاد المفتوحة، وما ارتبط بذلك كلّه من تزاوج وعلاقات اجتماعية وتجاريّة، شكَّل اللّهجات العامّيّة، وزاد اللّحن في نُطق الفصيحة وقراءتها وكتابتها، وسيطرت العامّيّات على الحياة اليوميّة في المجتمع العربيّ، واقتصرت الفصيحة على زوايا المساجد وحلقات العِلْم، فبرزت الحاجة إلى ابتداع قواعد يستند إليها نقّاد اللّغة في التّمييز بين الكلام العربيّ الفصيح الذي يُحْتَجُّ به والكلام العربيّ غير الفصيح الذي لا يُحْتَجُّ به؛ ويتبعونها في أثناء تخطئتهم كلام الكُتَّاب وتصويبه. وقد لبَّى علماء العربيّة هذه الحاجة، فوضعوا قواعد عدّة، أبرزها الاحتجاج بالقرآن الكريم، والحديث النَّبويّ، والشِّعْر الجاهليّ والإسلاميّ (حتى إبراهيم بن هرمة)، وكلام مَنْ يُوثَق بفصاحته حتّى نهاية القرن الرّابع الهجريّ[11]. وأصبح من المعروف أنّه (يُحتَجُّ بالكلام العربيّ لغرضين: غرض لفظيّ يدور حول صحّة الاستعمال من حيث اللّغة والنَّحو والصَّرْف، وغرض معنويّ لا علاقة له باللّفظ)[12]. ولكنّ علماء العربيّة لم يتَّفقوا على رأي واحد في قضيّة الاحتجاج بالحديث الشّريف، وبكلام الإسلاميّين والمولَّدين[13]، وهذا ما جعلهم يختلفون في بعض أمور التّخطئة والتّصويب. وقد ورث نقّاد العصر الحديث من علماء العربيّة الأقدمين اختلافهم في بعض قواعد الاحتجاج واتِّفاقهم في بعضها الآخر، وورثوا معهما شيئاً أكثر خطورة، هو اعتقاد بعضهم أنّ اللّغة العربيّة مستوى واحدٌ ثابت لم يتغيَّر ولم يتبدَّل ولم يتطوّر طَوَال القرون التي مرَّتْ بها. بل إنّ فريقاً منهم آمن بالكلام المسموع كما دوَّنته معاجم اللّغة، دون أن يلتفت إلى أنّ المعجميّين العرب كانوا (يُسجِّلون كلَّ ما يسمعون حينئذٍ ولو لغيّة رديئة أو لهجة ضعيفة، فكثرت الوجوه في المسألة الواحدة

دون تمييـــز بين مـــا كان عليـــه أكثر العرب وما انفرد به بعضهـــم)[١٤]. وإنّ فريقاً آخر حجَّـــر واسعاً حين رفضـــ الاحتجاج بكلام الإسلاميّـــين والمولَّدين، فحجب عن العربيّة التّطوُّر الدّلاليّ، ووسّع دائرة اللّحن، فأصبح كلُّ كلام إسلامـــيّ ومولَّـــد لحناً، واقتصرت الفصاحـــة عنده على القـــرآن الكريم، وما رُوي مـــن الحديث الشّريـــف بلفظه ومعناه، والشِّعْـــر الجاهليّ. ومن ثَـــمَّ برزت في كتب النّقد اللّغـــويّ (نزعتـــان متعارضتان، هما نزعـــة التّشدُّد في المقياس الصّوابيّ باختيار الفصيح وحدَه، ونزعـــة التَّوسُّع في المقياس والتَّخفُّـــف من التّخطئـــة بقبول ما جاء عن العرب من غير تدقيـــق في درجة الاحتجاج به)[١٥]. ولهذا السّبب برزت في كتب الأقدمين قضيّـــة التّباين بين نقّـــاد اللّغة في التّخطئة والتّصويب، فمـــا يراه أحدهم خطأً استناداً إلى قاعـــدةٍ من قواعد الاحتجاج يراه الآخر صوابـــاً استناداً إلى قاعدةٍ أخرى من قواعد الاحتجاج.

هـــذا يعنـــي أنّ تاريـــخ النّقـــد اللّغويّ انتهـــى إلى نقّاد اللّغـــة في العصر الحديث وهو يضمُّ معايـــير للتّصويب والتّخطئة غير متَّفـــق عليها اتّفاقاً نهائيّاً، ويضمُّ في الوقت نفسه هدفاً مشتركاً محـــدَّداً هو نقد اللّحن في لغـــة الخاصّة. أمّا الهـــدف فلم يتغيّر في النّقـــد اللّغويّ الحديـــث وإنْ ضمَّتْ عناوين كتب النّقّـــاد ألفاظاً لا تدلُّ دائمـــاً على أنّ هدفهم هـــو نقد لغة الخاصّـــة. فقد صرَّح أسعد داغر بهدفـــه في عنوان كتابه (تذكرة الكاتـــب)[١٦]، وذيَّل العنـــوان بعبارة محدَّدة، هي أنّـــه: (كتاب يتضمَّـــن التّنبيه على أهمّ الغلطات اللّغويّة الدّائرة في ألسنة الخطباء وأقـــلام الكُتَّـــاب). وزاد التّصريح تحديداً في مقدّمـــة كتابـــه، فقال: (هـــذه الألفاظ والتّراكيـــب التـــي انتقدتُهـــا مأخـــوذة كلّها تقريبـــاً من أقوال الكُتَّـــاب والشّعراء الذين يُشار إليهـــم بالبنان، ولكنّنـــي اجتنبتُ ذِكْرَ أسمائهم مخافة الاتّهـــام بالغضّ منهم)[١٧]. أمّا الكثرة الكاثرة من نقّاد اللّغة فقد اكتفت بذِكْـــر مصطلح (الكاتب، أو جَمْعه: الكُتَّاب) الدّالّ على هدفهـــا في مقدّمات كتبها هرباً مـــن التّصريح بـــه في عناويـــن كتبها. ولجأ بعضهم الآخـــر إلى الإيحاء، فاعتمد عنواناً عامـــاً، كما فعـــل ابن كمال باشـــا في كتابه (التّنبيه على خطأ الجاهل والنّبيه)[١٨]. فقد

استعمل كلمتي (الجاهل والنّبيه) وهو يقصد بهما الكاتب والأديب وغيرهما من المثقَّفين بحسب تعبير رمضان عبد التّوّاب[١٩]. وكان شاكر شقير لجأ قبل ابن كمال باشا بثلاثة عقود ونيِّف إلى الإيحاء نفسه فسمَّى كتابه (لسان غصن البان في انتقاد العربيّة العصريّة)[٢٠] جاعلاً العنوان دالاً على انتقاد العربيّة وهو يقصد أهلها على سبيل الإفادة من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه بحسب تعبير النَّحويّين، ومن مجاز الحذف بحسب تعبير الجرجاني. وكان للصّحافة التي ضمّت نصوص هؤلاء النّقّاد أثر في اختيار عناوين كتبهم أحياناً، كما فعل إبراهيم اليازجيّ حين سمَّى كتابه (لغة الجرائد).

أمّا قواعد الاحتجاج غير المتَّفق عليها اتّفاقاً نهائيّاً بين علماء العربيّة الأقدمين فقد ورثها النّقد اللّغويّ الحديث من تاريخ النّقد اللّغويّ، وكانت سبب الاختلاف بين نقّاد اللّغة في أمور التّصويب والتّخطئة. والظّنّ أنّ النّقد اللّغويّ الذي قدَّمه شهاب الدّين محمود الآلوسيّ[٢١] وأحمد فارس الشّدياق وإبراهيم اليازجيّ ويوسف الأسير[٢٢] وشاكر شقير وسعيد الشرتوني وعبد الرحمن سلام[٢٣] وبطرس البستاني وإبراهيم الأحدب[٢٤] وغيرهم، ابتداءً من النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر هو البدايات الأولى للنّقد اللّغويّ الحديث، وهي بدايات تأثَّرتْ بما ورثته من قواعد الاحتجاج عن العلماء الأقدمين، بحيث

كانت تركــة الاختلاف الموروثة سبباً مباشراً من أسباب نشــوء ظاهرة نقد النّقد اللّغويّ الحديث.

ومــن المفيــد، قبــل الحديث عــن نقد النّقد اللّغويّ، التّذكــير بنموذج إيجابيّ من نماذج النّقد اللّغويّ خلا من الاختلاف، هو النّمــوذج الذي قدَّمه المجمع العلميّ العربيّ بدمشق ابتداء من إنشائه عام ١٩١٩. فهذا النّمــوذج خال من شوائب النّقد التي عرفها العقدان الأخيران مــن القرن التّاسع عشر، والعقــدان الأوّلان من القرن العشرين. فقد ابتعد عن البذاء والشّتائم وتوهين المنقودين، وأعلــن هدفاً وحيداً هو تنقية اللّغة العربية الفصيحة من الأغــلاط، وتحلّى بقدر كبير مــن المرونة في أثنــاء الاستنــاد إلى قواعد الاحتجــاج، وكان أعضاؤه يتتبَّعون (ما يُنشَر في الصّحــف والمجلات، فــإذا وقعوا على لحن شائــع، أو تركيب ركيك، أو تعبير غيرُه أعربُ منه، جمعوا ذلك ثمّ نشروه على النّاس مبيِّنين موضــع العيب فيه، ومشيرين إلى ما يقوم مقامه من تعبير سليم)[٢٥].

ومن المفيد أيضاً التّذكير بموقف آخر، هو موقف نقّاد الأدب الحديث من النّقد اللّغويّ. فهو موقف يتَّسم بالسّلبيّة في الغالب الأعمّ؛ لأنّ أصحابــه اعتقدوا، حين بدؤوا يؤرِّخون للنّقد اللّغــويّ ضمن تأريخهم للنّقد الأدبيّ، أنّ النّقد اللّغويّ بعضٌ من النّقد الأدبيّ وليس مستقلاً عنه. ولما رأوه على غير هذه الصّورة وصفوه بالعقم والمماحكة اللّغويّة[٢٦]، وخلعوا على أصحابه صفــات متناقضة، من نحو: التّزمُّــت والتّشــدُّد والاعتــدال[٢٧] والعناية بالشَّــكْل دون المضمــون[٢٨]، وعدم الاطّلاع على أصــول النّقد الحديــث[٢٩]. فإبراهيم اليازجــيّ، في رأي هاشــم ياغــي في أثناء تأريخــه للنّقــد الأدبيّ الحديــث في لبنان، (ممثِّل للقديم الذي تصــدَّى لعوامل النَّماء في الحيــاة الأدبيّة تصدّياً متزمِّتاً يرمي إلى تحديد قيود وقوانين معيَّنة ثابتة تُوضَع فيها لغة التّعبير فلا تتجاوزها)[٣٠]. وشاكر شقير، في رأي هاشــم ياغي نفسه، (من المحافظين الذيــن اتَّخذوا التَّزمُّت آناً والتّكيُّف آناً آخر طريقاً من طرق التَّفاعل بعوامل الحياة)[٣١]. وكان مــن واجب نقّاد الأدب ومؤرِّخي النّقد الأدبــيّ في العصر الحديــث الانصراف إلى نــوعٍ آخر مــن النّقد اللّغــويّ الحديث، هو النّقــد اللّغــويّ الذي جَعَل هدفــه نقد لغة

النّصوص الأدبيّة، كنقد إبراهيم اليازجي رواية (عذراء الهند) لأحمد شوقي عام ١٨٩٧، ومقالاته في مجلّة (الضّياء) حول مفهومه للانتقاد والشّعر والقصّة[٣٢]. فهذا النّقد اللّغويّ جزء من النّقد الأدبيّ؛ لأنّه نَقَدَ لغة النّصوص الأدبيّة، وكان نوعاً آخر من النّقد اللّغويّ معروفاً عند النّقّاد العرب الذين أدركوا أنّ (النّصّ الأدبيّ نسيج لغويّ قبل كلّ شيء)[٣٣]. إنّه نقد مختلف عن النّقد اللّغويّ الذي نتحدَّث عنه هنا. وهذا النّوع من النّقد اللّغوي المرتبط بالنّصوص بالأدبيّة هو الذي أصبح، في ثمانينيّات القرن العشرين، جزءاً من الأسلوبيّة، وأفاد من اهتماماتها اللّغويّة.

ثانياً: نقد النّقد اللّغويّ

كانت الصَّحافة حافزاً إلى نقد النّقد اللّغويّ كما كانت حافزاً إلى النّقد اللّغويّ. فقد مالت إلى البساطة، وابتعدتْ عن الرَّكاكة وزُخرف القول ومحسِّناته، وحرصتْ على الاهتمام بالمعاني المستحدثة وابتداع الألفاظ الملائمة لها. وكان للصّحافة الشّاميّة (اللّبنانيّة خصوصاً) والمصريّة طَوَال النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، فضل تشجيع الكُتَّاب على التَّخلُّص من ركاكة اللّغة الصّحفيّة، بغية إحياء اللّغة العربيّة الفصيحة، كما كان لها فضل التّشجيع على المساجلات النّقديّة المتّصلة بهذا الإحياء، بما كانت تنشره على صفحاتها من نقد لغويّ ونقد لهذا النّقد. وتهمّني، هنا، الإشارة إلى بدايات نقد النّقد التي عرفتها الصّحافة في العقود الأخيرة من القرن التّاسع عشر، وهي بدايات تحتاج إلى تأنٍّ وإنعام نظر، لأنّ غالبيّة نصوصها ما تزال حبيسة الصُّحف والمجلات. ويغلب على ظنّي أنّ هناك رائدين من روَّاد هذه البدايات، هما أحمد فارس الشدياق[٣٤] وإبراهيم اليازجيّ، نهضا بنقد النّقد، وشجَّعا عليه، وقدّما له الطّبيعة التي عُرِف بها بعد ذلك، نتيجة الاختلاف اللّغويّ بينهما. ولا بأس، هنا، في الحديث عنهما قليلاً.

من المتَّفق عليه أنّ أحمد فارس الشِّدْياق كان عالماً باللّغة لا يُشَقُّ له غبار. أنشأ عام ١٨٦١ (وقيل: ١٨٦٠) في الآستانة، صحيفة (الجوائب) التي عاشت ثلاثاً وعشرين سنة حتى عام ١٨٨٤[٣٥]، وكان لها أثر واضح في حركة الإحياء اللّغويّ والأدبيّ لا ينكره

غير جاحد. ولكنّــه كان (عصبيّ المزاج)[٣٦] ذا طبيعــة خاصّــة، وضَّحهــا محمّــد عبد الغني حسن فقــال: (خُلِق للنِّضال والعراك والخصام والهجــاء، وكان ذلك طبيعة فيه، حتّــى إذا لم يجد معتركاً مــع غيره جَعَل من نفسه مجالاً للعراك. وكان شديد الحساسيّة، متوفِّزاً للغضب من أدنى شيء. فإذا غضب صبَّ جام غضبه، ونفث حمم غيظه، هجاءً مــرّاً، وسَبّاً مقذعــاً، وشتيمة بذيئة. وكانت ثروتــه اللّغويّة الغزيــرة تواتيــه دائماً بما يسعفه في هذا السبيل)[٣٧]. والظّنّ أنّ طبيعة الشّدياق ومعرفته اللّغويّــة الواسعة أشعلتا فتيــل نقد النّقد اللّغويّ حــين نَقَدَ ناصيف اليازجــيّ. ذلك أنّ (ناصيــف اليازجيّ) أبا (إبراهيــم اليازجيّ) مَدَحَ الشّدياق بقصيدة تُعبِّر عن الــوداد بينهما. وحين نشرها ثانيةً في ديوانــه قدَّم لها بقوله: (وقال يمدح أحد الأدباء)، فغضــب الشّدياق (لهــذا التّنكير والتّجهيــل لــه، وعدّه مقصوداً مــن الشّيخ ناصيــف. وبهــذا فسد جوّ الــوداد ما بين الصّديقــين، وقامت المعــارك بينهما، وكان ميدانها جريدة الجوائب للشّدياق وصحيفة الجنان لبطرســ البستانيّ. وانضــمَّ اثنان مــن علماء المسلمين إلى الشّيخ أحمد فارس انتصــاراً له ومناجدة، وهما الشيخ إبراهيم الأحــدب والشّيخ يوســف الأسير، وكانا من علماء النهضة أيضــاً، ووقف كلُّ واحد من هؤلاء في المعركة يتربَّص بخصومه الدّوائر. فلمّا نظــم الشّيخ اليازجــيّ قصيدته التي مطلعها:

لا تبكِ مَيْتاً ولا تفرحْ بمولودِ
فالمَيْتُ للدُّود والمولودُ للدُّودِ

انتقدها الشيخ يوسف الأسير، وأسماها علــى سبيــل التَّهكُّم والسّخريــة: القصيدة الدُّوديّة. ومات الشيخ ناصيف اليازجي سنة ١٨٧١ وفي نفس الشّديــاق منه أشياء... ولم يستطع الشّدياق أن يسكت عن رثاء اليازجيّ في صحيفــة الجوائب، ولكــنّ طبيعة طُوْل اللّسان فيــه حملته على أن ينتقده لغويّاً في مقــام كان ذِكْرُ المحاسن فيه أولى من تصيُّد المســاوئ... ومن نقده له تخطئته في ضبط كلمــة: فطحل التــي وردت في كتاب: مجمع البحرين لليازجــي مضبوطة بسكون الطّاء والصّواب تحريكهــا. ولعلّ ذلك من أخطاء الطَّبْــع... فقــام الشيخ إبراهيــم اليازجيّ يدافع عن والــده وينتصر له على صفحات

صحيفة الجنان لبطرس البستانيّ. وهنا عادت للشّدياق شِرَّتُه، ففتح صدر جوائبه للسِّباب في البستانيّ وفي الشّيخ إبراهيم اليازجيّ، ولو أنّه ردَّ النّقد اللّغويّ بالرّدّ اللّغويّ لكان أكرم)[٣٨].

تشير هذه القصّة التي سردها محمد عبد الغني حسن وغيره[٣٩] إلى أنّ نقد النّقد برز عام ١٨٧١ في صحيفة (الجوائب)[٤٠] لأحمد فارس الشدياق، وفي صحيفة (الجنان) لبطرس البستانيّ[٤١]، استجابة لدواع شخصيّة، هي، بالنّسبة إلى الشّدياق، اعتداده بذاته وغرامه بالمعارك والمساجلات، وبالنّسبة إلى إبراهيم اليازجيّ دفاعه عن أبيه وحماسة الشّباب عنده. بيد أنّ الدّواعي الشّخصيّة لم تؤثِّر في لغة النّقد وقِيَمه عند اليازجي حين راح ينتقد أخطاء الشّدياق في (سر الليال في القلب والإبدال)، فبقي أسلوبه هادئاً، موضوعيّاً علميّاً، فيه احترام للشّدياق المنقود[٤٢]. أمّا الدّواعي الشّخصيّة عند الشّدياق فأثَّرتْ تأثيراً سلبيّاً في لغة النّقد وقِيَمه عنده، فكان فيها إلغاء لليازجيّ المنقود، وتوهين له، وشيء كثير من السِّباب والعنف. فهو، في رأي الشّدياق، (صاحب السّفاهة الكبرى، والقذف والافتراء. وقد بلغني ممن يوثَق بكلامه أنّه من أهل الأسواق، وأولاد الزِّقاق)[٤٣]. ويبدو أنّ الشّدياق، ابن الثّانية والسّتين آنذاك، خدم بأسلوبه العنيف، وقيمه غير النّقديّة، إبراهيم اليازجيّ، الفتى الذي لم يجاوز الرّابعة والعشرين من عمره آنذاك، خِدْمتين، الأولى هي حفزه إلى مراجعة كتب أبيه وتصويب ما وقع فيها من أغلاط تمهيداً لطباعتها[٤٤]، والثّانية إكسابه الشّهرة في المعرفة اللّغويّة، والموضوعيّة في العرض، والسُّموّ في قيم احترام المنقود وتقديره والحفاظ على مكانته وعدم المساس بأيّ جانب من جوانب شخصيّته. صحيح أنّ الشّدياق حرَّض عبد الرحمن سلام على تأليف كتاب (دفع الأوهام)[٤٥] الذي ردَّ فيه على إبراهيم اليازجيّ، كما حرَّض ميخائيل عبد السّيّد[٤٦] على تأليف كتاب آخر في الردّ على إبراهيم اليازجيّ عنوانه: (سلوان الشجي في الرّدّ على إبراهيم اليازجيّ)[٤٧]، ولكنّ الصّحيح أيضاً أنّ هذين الكتابين رسّخا بشكل غير مباشر الخدمتين اللّتين قدَّمهما الشّدياق لليازجيّ، وأضافا إليهما أنصاراً لليازجيّ شاركوا في الرّدّ على الشّدياق. وإذا

كان إبراهيم اليازجيّ قد شعر بأنّه، وهو فتى، غير قادر على مجاراة أسلوب الشّدياق وقيمه، فانسحب من المساجلة النّقديّة، فإنّ سعيد الشرتونيّ[٤٨] لم ينسحب من مواجهة الشّدياق، بل انتقد كتابه: (غنية الطالب ومنية الراغب)[٤٩] في عدد من المقالات، ثمّ جمعها في كتاب سمَّاه: (السَّهم الصّائب في تخطئة غنية الطّالب)[٥٠]. وهذا ما جدَّد دماء المساجلة اللغويّة، فانتصر يوسف الأسير للشّدياق بتأليف كتاب ردَّ فيه على الشّرتوني، سمَّاه: (ردّ الشّهم للسّهم)[٥١]. كما انتصر إبراهيم الأحدب للشّدياق، فألّف كتاباً ردّ فيه على الشرتوني، سمّاه: (ردّ السهم عن التصويب وإبعاده عن مرمى الصّواب بالتّقريب)[٥٢]. وهذا ما شجَّع إبراهيم اليازجيّ على المشاركة من جديد في المساجلة الثّانية الجديدة المكمِّلة للأولى، ومعه بطرس البستانيّ، انتصاراً لسعيد الشرتونيّ، دون أن تدلّ المساجلة الثّانية على شيء مغاير لم تعرفه المساجلة الأولى في أسلوب النّقد ونقد النّقد، وفي قِيَمهما معاً، وإنْ كانت الدّقّة في تأريخ نقد النّقد تدعو إلى التّأنّي[٥٣] بغية جَمْع الكتب السّابقة كلّها ودراستها قبل إصدار حُكْم على طبيعة القيم النّقديّة فيها.

تجلّى الوجه الآخر لنقد النّقد اللّغويّ في النّقد اللّغويّ الذي وجَّهه محمد سليم الجنديّ لكتاب (لغة الجرائد) في صحيفة (الفيحاء) عام ١٩٢٤، وفي ردّ قسطاكي الحِمْصيّ عليه في مجلة (منيرفا) عام ١٩٢٤ انتصاراً لليازجيّ. وقد ردَّ الجنديّ على النّقد الذي وجَّهه الحمصيّ إليه، ثمّ أضاف إلى نقده اليازجيّ والحمصيّ نقدات أخرى، وطبعها كلّها في كتاب سمَّاه (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد) عام ١٩٢٥. وقد وضَّحتُ طبيعة النّقد عند اليازجيّ في مقدّمتي لتحرير (لغة الجرائد)، وفعلتُ الشّيء نفسه بالنِّسبة إلى محمّد سليم الجنديّ وقسطاكي الحِمْصيّ في مقدّمتي لتحرير (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد). وأكتفي هنا بالإشارة إلى الدّلالات العامّة لحركة نقد النّقد اللّغويّ. ذلك أنّ إبراهيم اليازجيّ بعد نضجه، وزيادة معارفه اللّغويّة وقراءاته، وعمله في صحيفة (الجنان) للبستانيّ، ومجلّة (النّجاح) ليوسف الشَّلفون، وتولّيه تحرير مجلة (المصباح)، وإصداره مجلّة (الطّبيب) مع بشارة زلزل

وخليل سعادة، ومجلّة (البيان) مع بشارة زلزل، وإنشائه مجلّة (الضّياء) في مصر عام ١٨٩٨، أصبح ضليعاً من اللّغة، متمرِّساً في العمل الصُّحفيّ، حريصاً على العروبة وتنقية لغة الكُتَّاب من اللّحن. وصار، نتيجة ذلك كلّه، (يألم ممن يرتكب غلطاً لغويّاً ألمه ممن يسيء إليه مباشرة. فما كان يغفل عن نقد معظم ما كان يُهْدَى إليه من الكتب الجديدة لتقريظه والتّنويه بصاحبه. وكلّ ذلك حتّى لا يعبث باللّغة عابث. وكان أقصى أمانيه أن يُعيد إلى اللّغة بهجتها الأولى، ويرد النّاشئة من كُتَّاب العصر إلى النَّهج القويم من الاحتفاظ بقواعدها وأصولها المقرَّرة في أمّهات المعاجم وكتب البلاغة المعروفة بصحّة التّعبير وفصاحة الألفاظ)[٥٤]. وعلى الرّغم من أنّ السِّمات الغالبة على اليازجيّ هي تحلّيه بالرّيث والأناة والدّقّة واحترام المنقودين والمرونة في قواعد الاحتجاج، فإنّه لجأ أحياناً إلى قليل من السّخرية والعنف[٥٥] في سلسلة مقالاته في الطبيب، ثمّ رجع إلى طبيعته الموضوعيّة الأصيلة الغالبة عليه في سلسلة مقالاته في (الضّياء)، وهي المقالات التي جمعها في كتاب (لغة الجرائد). ولاشكَّ في أنّ النّقد الذي وجَّهه اليازجيّ إلى لغة الكُتَّاب في المقالات الكثيرة المتسلسلة، كمقالات (أغلاط العرب)[٥٦] ومقالات (أغلاط المولَّدين)[٥٧]، لم يُجمَع من المجلات والصُّحف التي نُشر فيها ماعدا مقالات لغة الجرائد. ولكنّه أشعل، آنذاك، نار نقد النّقد، دون أن يعني ذلك إغفال ما قدَّمه الشّدياق والأسير وصرّوف وعبد السّيِّد وشكيب أرسلان[٥٨] والحِمْصيّ والجنديّ وغيرهم لنقد النّقد. ويمكنني القول إنّ حركة نقد النّقد التي نهض بها هؤلاء اللّغويّون دلّت على أمور أستطيع إيجازها في النّقاط الآتية:

١- ارتبطت فعاليّة نقد النّقد بالدّواعي الشّخصيّة غالباً، فكانت تعبيراً عن اعتقاد أصحابها أنّ النّقد اللّغويّ أساء إلى مكانتهم وسمعتهم. وعلى الرّغم من أنّ هذه الدّواعي الشّخصيّة كانت متباينة في طبيعتها وحدّتها ودقّتها بين النّقّاد في أثناء نقد النّقد، فإنّها أحدثتْ في حركة نقد النّقد اللّغويّ أمراً إدّاً، هو عدم قبول النّقد اللّغويّ، والخوف منه، وعدّه إهانة للمنقود ومساساً بأهليّته ومكانته في عالم اللّغة والكتابة. وقد يُفسَّر

تلكُّؤ نقد النّقد اللّغويّ، بل تراجعه في العقود اللاحقة إلى هذا الرّبط المبكِّر بين النّقد والذّات النّاقدة والمنقودة.

٢- أساءت بدايات نقد النّقد اللّغويّ إلى القيم النّقديّة إساءة بالغة حين رسَّخت قيمة إلغاء الآخر، من خلال توهينه وتسفيه آرائه ونعته بأسوأ النّعوت، بغية الانتصار عليه. ذلك أنّ النّقد يحيا بقيمة الاعتراف بالآخر المنقود، والإعلاء من مكانته ورأيه، قبل مناقشة آرائه اللّغويّة. فلا نقد دون احترام المنقود، والاعتراف بأنّه شخصٌ آخرُ عارفٌ عالمٌ صاحبُ رأي وخبرة ووجهة نظر. والمنقود، قبل ذلك وبعده، إنسان له أحاسيس وعواطف وكرامة، لا بدَّ من مراعاتها وتقديرها قبل توجيه النّقد لآرائها اللّغويّة. ويخيَّل إليَّ أنّ بدايات نقد النّقد رسَّخت المبالغة في إلغاء الآخر حين لجأت إلى التَّحزُّب ومراعاة الخلفيّات غير النّقديّة أحياناً، كما هي الحال في تحزُّب الأسير وسلام وعبد السّيّد وأرسلان للشّدياق، وتحزُّب صرُّوف والحمصيّ والبستانيّ لليازجيّ. كما يُخيَّل إليَّ أنّ العقود اللاحقة تلقَّفتْ هذا التَّحزُّب، واتَّسعت فيه، وزادت من حدَّته وأثره السّلبيّ. وكان ذلك عاملاً آخر من عوامل تراجع نقد النّقد اللّغويّ في العقود المذكورة.

٣- لجأ النّقد اللّغويّ أحياناً إلى عدم تسمية المنقود، بغية الانصراف إلى الهدف اللّغويّ، وهو تصويب اللّحن وتنقية اللّغة من شوائبه. ومن ثَمَّ استعمل النّقّاد عبارات من نحو: (يقولون، وقول الآخر، ومن ذلك قولهم، وقول بعضهم...). وهذه العبارات التي لم تُسَمّ المنقودَ عبَّرتْ عن وجه مضيء يحسن اتّباعه في النّقد اللّغويّ الحديث، كما اتّبعه نقّاد اللّغة الأقدمون، كأبي بكر الزُّبيديّ في (لحن العوامّ)، والحريريّ في (درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ)، وابن الحنبليّ في (بحر العوام فيما أصاب فيه العوامّ). إذ ليس من المهمّ، ولا المفيد، أن يشير النّاقد إلى اسم الكاتب الذي أخطأ، بل المهمّ والمفيد أن يشير ناقد اللّغة إلى الخطأ وحدَه ليتجنَّبه المنقود وغيره من العرب، فضلاً عن أنّ إغفال اسم المنقود يُبعد الحرج والحساسيّة الفرديّة، ويجعل هدف تصويب اللّحن مقدَّماً على أيّ شيء آخر. وهذا ما فعله إبراهيم اليازجيّ في (لغة الجرائد)،

وأسعد داغر في (تذكرة الكاتب) حين لجأا إلى إغفال أسماء المنقودين في كتابهما. بيد أنّ الحمصيّ والجنديّ لم يغفل كلٌّ منهما اسم زميله الآخر في أثناء نقد النّقد، فكان ذلك سبباً في حدّة الخلاف بينهما، وتشعُّبه، وسيادة قدر من ألفاظ التوهين فيه.

٤- انطلق اختلاف نقّاد اللّغة من شيء موضوعيّ، هو عدم الاتّفاق على قواعد الاحتجاج كلّها. فكان فيهم المتشدِّد والمرن، والمؤمن بثبات اللّغة والمؤمن بتطوّرها وتعدُّد مستوياتها، والمتمسِّك باللّفظ المسموع الواضح المحدَّد والميَّال إلى القياس على ما له وجه في اللّغة. وقد ورث نقد النّقد هذا التّباين والاختلاف في الرأي وقواعد الاحتجاج في زمن لم تكن فيه أمّهات اللّغة قد طُبِعت كلّها بعدُ. ولكنّ هذه الأمّهات حُقِّقت الآن تحقيقاً جيِّداً، وسدَّت مجامع اللّغة العربيّة النّقص في قواعد الاحتجاج، ومالت إلى المرونة التي عبَّرت عنها مقدّمة (المعجم الوسيط)، وآمنت المجامع اللّغويّة العربيّة بتوافر المستويات في اللّغة بدلاً من المستوى الواحد الثّابت، واعتمدت مبدأ التّطوُّر في اللّغة وما ارتبط به من الحاجة إلى مواكبة العصر دون التّخلّي عن سنن اللّغة العربيّة الفصيحة. وزال، نتيجة ذلك كلّه، العامل الموضوعيّ الذي سبَّب اختلاف نقّاد اللّغة، ولكنّ الحاجة اللّغويّة إلى النّقد ونقد النّقد ما زالت ماسّة في الحياة اللّغويّة العربيّة، تبعاً لبقاء اللّحن وشيوعه. والأمل أن تُصبح الحاجة الجديدة عاملاً موضوعيّاً يُحيي ثانيةً النّقد اللّغويّ ونقد النّقد.

٥- انطلق نقد النّقد اللّغويّ من عامل موضوعيّ ثان، هو (المعياريّة) التي وُصِفتْ بها اللّغة العربيّة الفصيحة نتيجة حرصها على التّمييز اللّغويّ بين الصّواب والخطأ. وعلى الرّغم من أنّ نقّاد اللّغة العربيّة اختلفوا في بعض جوانب هذا المعيار، وتشدَّدوا في بعضها الآخر، فإنّ ذلك لم يؤثِّر في اللّغة العربيّة تأثيراً سلبيّاً، بل أثَّر فيها تأثيراً إيجابيّاً، إذ سمح بالمحافظة عليها، دون أن ينفي قابليّتها للتطوُّر ومواكبتها حاجات العرب الجديدة. فبدا لنا أنّه لا عيب في أن تكون اللّغة العربيّة معياريّة، فهذه طبيعتها طَوَال تاريخها المعروف. وقد عزَّز نقد النّقد هذه المعياريّة؛ لأنّ أصحابه مؤمنون بهذه الميزة المعياريّة اللُّغويّة العربيّة

وإن اختلفوا في بعض جوانبها، راغبون في الإبقاء عليها وإن نقدوها قليلاً أو كثيراً.

٦- كان نقد النّقد اللّغويّ (تطبيقيّاً) غير (نظريّ)، يشير النّاقد فيه إلى الخطأ ويشفعه بالصّواب انصياعاً للمعياريّة التي أشرتُ إليها في الفقرة السّابقة، ويروح يُعلِّل رأيه بالاستناد إلى كتب اللّغة ومعاجمها، ويبدو مجتهداً بمقدار إحاطته بمصادر اللّغة العربيّة. وقد تفاوت نقّاد اللّغة في إيجاز النّقد وتفصيله، وفي اعتمادهم على بعض المصادر دون بعض، وفي موازنتهم أحياناً بين الأقوال والآراء، وفي انتهائهم إلى وجهة نظر أو ترجيح رأي على آخر. ولكنّهم كانوا، في الحالات كلّها، مخلصين للتّطبيق، لا يبتعدون عنه، ولا يغرقون في التّعليلات النّظريّة. واتّسم بعضهم بالدّقّة، فحدَّد المادّة والجزء والصّفحة في المصادر التي رجع إليها، أو نَقَلَ اقتباساً منها يؤيِّد رأيه. وهذا كلّه دليل على أنّ نقد النّقد لا يستقيم أمره إذا لم يقم النّاقد، في نقد التّطبيقيّ، باستقصاء الآراء والموازنة بينها في أثناء نقد النّقد قبل أن ينتهي إلى وجهة نظر تراعي سنن العربيّة، وتحافظ في الوقت نفسه على مفهوم خدمة العصر الحديث ومستجدّاته، وتُخلِّص النّقد اللّغويّ من آفة التّباين في التّخطئة والتّصويب.

٧- اللافت للنّظر أن تصدق على بدايات النّقد اللّغويّ ونقد النّقد في العصر الحديث الملاحظة التي ذكرها الدّكتور أحمد محمد قدور حول كتب اللّحن حتّى القرن العاشر، وهي ملاحظة خاصّة بندرة أمثلة اللّحن في النّحو والأصوات، وكثرتها في الصَّرْف والدّلالة. وهذه الملاحظة غير غريبة. ذلك أنّ النّقّاد لاحقوا اللّحن في النّصوص المكتوبة ولم يلاحقوه في النّصوص المنطوقة. ومن ثَمّ خلت أمثلتهم من اللّحن في الأصوات، دون أن يعني ذلك عدم توافر اللّحن في الأصوات. والدّليل على ذلك ملاحقة أسعد داغر اللّحن عند الخطباء في كتابه (تذكرة الكاتب)، وملاحقة عبد القادر المغربيّ (عثرات الأفمام). كذلك الأمر بالنّسبة إلى اللّحن في النّحو. فمعيار النّحو واضح، له قواعد محدَّدة، والمنقودون كُتَّاب يجيدون النّحو، والأخطاء فيه نادرة عندهم، ولهذا كلّه كانت أمثلة اللّحن في النّحو نادرة في النّقد ونقد النّقد، ماعدا مسائل قليلة،

من أبرزها مسألة تعدية الأفعال بالحروف. أمّا كثرة أمثلة الصَّرْف والدّلالة فبديهيّة؛ لأنّ بناء الكلمة مرتبط بدلالتها. ويبدو أنّ الأخطاء الصّرفيّة هي التي أنتجت الأخطاء الدّلاليّة، وإن كانت هناك مسوِّغات أخرى لهذه الأخطاء.

٨- أثَّر النّقد اللّغويّ ونقد النّقد في لغة الصّحافة العربيّة النّاشئة آنذاك، فساعدها على التّخلُّص من الرّكاكة والعجمة، وقرَّبها من الفصاحة، ومَنَحها القدرة على التّلاؤم مع العصر دون مجافاة سنن العربيّة. وكان ذلك كلُّه بداية ما عُرِف، بعد ذلك بعقود، بلغة الصَّحافة، وهي لغة قريبة من الحياة اليوميّة، فصيحة، قادرة على نَشْر مصطلحات العلوم والفنون والآداب بين القرّاء العرب، فضلاً عن أنّها دليل حيويّة اللّغة العربيّة الفصيحة، وملاءمتها حاجات العصر الحديث. ويُخيَّل إليَّ أنّ الفائدة الثّانية التي جنتها الحياة العربيّة من النّقد اللّغويّ ونقد النّقد بعد إحياء اللّغة العربيّة الفصيحة والمحافظة عليها، هي الإسهام في ابتداع لغة الصّحافة التي بدت، أوّل الأمر، عصيَّة على التّعبير عن المعاني، متردِّدة، بعيدة عن الوضوح والبساطة والفصاحة، ولكنّها سَرْعان ما اقتربت شيئاً فشيئاً من هذه الصِّفات، ونجحت في أن تُصبح مستوى من مستويات اللّغة العربيّة في العصر الحديث.

❁ ❁ ❁

أخلص من ذلك كلّه إلى أنّ بدايات النّقد اللّغويّ الحديث حرصتْ على تنقية لغة الكُتَّاب من الأغلاط التي تسرَّبتْ إليها من العامّة، وأسهمت في إحياء اللّغة العربيّة الفصيحة، وفي التّدقيق في لغة الصَّحافة. بيد أنّ الاختلاف في بعض قواعد الاحتجاج أنتج نقد النّقد اللّغويّ، وهو نقد أفاد الحياة اللّغويّة، بل كان أساسيّاً فيها. ولكنّه أُصيب بلوثة (الذّات) و(التَّحزُّب) فأخفق في احترام الآخر، ورسَّخ في المجتمع العربيّ نوعاً من الخوف نابعاً من المزج بين توهين المنقود وتصويب لغته. والظّنّ أنّ مرحلة البدايات مازالت تحتاج إلى دراسات تُدقِّق في كتب النّقد اللّغويّ ونقد النّقد، وفي المقالات الحبيسة في الصُّحف، قبل أن تُطلق أحكام القيمة النّهائيّة عليها، وقبل أن تنطلق منها إلى دراسة مرحلة النّقد القابلة، تلك المرحلة التي قادتها مجامع اللّغة العربيّة، وانحسر فيها البحث عن اللّحن في لغة الكُتَّاب.

الإحـــــالات

١- للاطلاع على أسماء هذه المجلات يمكن الرجوع إلى: د.محمد يوسف نجم: نظرية النقد والفنون والمذاهب الأدبية في الأدب العربي الحديث مقدمة ودليل، دار صادر، بيروت، ط٢/١٩٨٥، ص١٦٨، ١٦٩. و: د.محمد يوسف نجم: فن المقالة، دار الثقافة، بيروت د.ت، ص٦٤ وما بعد. و: د.محمد ضاري حمّادي: حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ص٣٦٤، ٣٦٥.

٢- د. صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٦٨، ص١٢٧. وقد اجتهد الدكتور صبحي الصالح في تحديد دلالة (اللحن)، ورجّح أن يكون انتقاله، من معناه الأصلي، وهو أسلوب التعبير أو طريقته، إلى معنى الخطأ، قد تحقّق في زمن متأخر، بعد شيوع معنى الخطأ وحده على ألسنة اللّغويين.

٣- حقَّق عبد العزيز الميمني الراجكوتي كتاب الكسائي، وطبعته المطبعة السلفية في القاهرة عام ١٣٨٧.

٤- حقَّق رمضان عبد التواب كتاب أبي بكر الزُّبيدي، وطبعته دار العروبة في القاهرة عام ١٩٦٤.

٥- حقَّق الدكتور حاتم صالح الضامن كتاب علي بن بالي القسطنطيني، وطبعته مؤسسة الرسالة في بيروت، ط٣/ عام ١٩٨٥.

٦- الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.

٧- دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧.

٨- وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٦.

٩- طُبِع الكتاب في مطبعة الجوائب في الآستانة عام ١٢٩٩ هـ، وحقَّقه هنريش توربيكه عام ١٨٧١م.

١٠- د. أحمد محمد قدور: مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص٥٧. و: د.عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص٤٠. وانظر تحديداً لمصطلحي (لحن العامّة ولحن الخاصّة) في: د.عبد العزيز مطر: في النقد اللغوي، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ١٩٨٧، ص١٥٣، ١٥٤.

١١- انظر تفصيلات قواعد الاحتجاج في: جلال الدين السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق: د.أحمد الحمصي و: د.محمد أحمد قاسم، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٨، ص٣٦ وما بعد. و: سعيد الأفغاني: في أصول النحو، مطبعة جامعة دمشق، دمشق ١٩٦٤، ص٥ وما بعد. و: صلاح الدين الزعبلاوي: مسالك القول في النقد اللغوي، الشركة المتحدة، دمشق، ١٩٨٤، ص١٠ وما بعد. و: د.مسعود بوبو: أثر الدخيل على العربية الفصحى في عصر الاحتجاج، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٢، ص٥٦. وهناك من يرى أن الحد الزمني للأخذ عن أعراب البوادي هو منتصف القرن الرابع الهجري. انظر: د.عبد العزيز مطر: في النقد اللغوي، ص٣٨، ٣٩.

١٢- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، ص١٦.

١٣- المراد بألفاظ المولَّدين الألفاظ التي استعملها الناس قديماً بعد عصر الرواية. انظر مقدمة المعجم الوسيط، ص١٦.

١٤- سعيد الأفغاني: في أصول النحو، ص٦٦.

١٥- د. أحمد محمد قدور: مصنفات اللحن والتثقيف اللغوي حتى القرن العاشر، ص٦٢ (بتصرف).

١٦- أسعد خليل داغر (ت١٣٥٣ هـ/١٩٣٥م)، أديب ولغوي لبناني. من كتبه: تاريخ الحرب الكبرى، مذكرات مدام اسكويث (ترجمة)، مذكرات غليوم الثاني (ترجمة). أما كتابه (تذكرة الكاتب) فقد طُبِع في القاهرة، مطبعة المقتطف، عام ١٩٢٣، وكان الكتاب نُشِر مقالات مسلسلة في أواخر السنة الأولى من مجلة (المضمار)، وفي الأجزاء التي صدرت من المجلة في سنتها الثانية، بالعنوان نفسه: تذكرة الكاتب، ثم أضاف إليه أسعد داغر ما عثر عليه في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية وبعض الكتب ودواوين الشعر، وطبعه بعنوان: تذكرة الكاتب. أما مجلة المضمار فقد أصدرها خليل وحبيب داغر ابنا أسعد داغر عام ١٩٢١ وعاشت نحواً من سنتين.

١٧- أسعد داغر: تذكرة الكاتب، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص٨. (ذكرت دار الرائد أنها الطبعة الثانية، والصواب أن الطبعة الثانية صدرت عام ١٩٣٣ عن المطبعة العصرية في القاهرة. ولعل طبعة دار الرائد هي الثالثة).

١٨- طُبِع الكتاب في دمشق عام ١٩٢٥. أمّا ابن كمال باشا فهو أحمد بن سليمان بن كمال باشا (ت٩٤٠هـ/ ١٥٣٤م) قاضٍ عالم بالحديث، تركي الأصل، مستعرب. من كتبه: مجموعة رسائل، رسالة في الكلمات العربية، تغيير التنقيح.

١٩- د. رمضان عبد التواب: مقدمة تحقيق (لحن العوام) لأبي بكر الزُّبيدي، دار العروبة، القاهرة ١٩٦٤، ص٤.

٢٠- شهاب الدين محمود الآلوسي (ت١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م) لغوي عراقي. من كتبه: كشف الطرة عن الغرة. ويُقال إن هذا الكتاب أول كتاب في النقد اللغوي في العصر الحديث.

٢١- طُبِع الكتاب في بعبدا، لبنان عام ١٨٩١. أمّا شاكر شقير (١٢٦٦/ ١٣١٤-١٨٥٠/ ١٨٩٦) فهو كاتب روائي باحث لبناني. من كتبه: لسان غصن البان في انتقاد العربية العصرية، أساليب العرب في صناعة الإنشاء، نفح الأزهار، مصباح الأفكار.

٢٢- يوسف الأسير (١٢٣٢/١٣٠٧-١٨١٧/١٨٨٩) شاعر كاتب فقيه لبناني. من كتبه: رائض الفرائض، شرح أطواق الذهب، إرشاد الورى في تخطئة جوف الفرا (في نقد كتاب: نار القرى في شرح جوف الفرا لناصيف اليازجي).

٢٣- هو عبد الرحمن سلام (١٢٨٨/ ١٣٦٠-١٨٧١/ ١٩٤١) أديب شاعر لغوي لبناني. أبوه (جرجس الصفدي) من مسيحيي صفد، نزح إلى بيروت وأسلم على يد أسرة (سلام)، وتزوج فتاة منهم، وانتسب إليهم، وتسمَّى: محمد سليم المهتدي. أما ابنه عبد الرحمن سلام فقد وُلد في بيروت، وتلقى علومه فيها حتى أصبح ضليعاً من العربية. عمل قاضياً ومدرساً وأميناً للفتوى. من كتبه: دفع الأوهام، خزانة الفوائد، الأذواء، النظم المفيد في علم التجويد، الصافي في علمي العروض والقوافي، غاية الأماني في علم المعاني، شرح ديوان النابغة الذبياني.

٢٤- إبراهيم الأحدب (١٢٤٠/ ١٣٠٨-١٨٢٤/١٨٩١) شاعر أديب لبناني. من كتبه: فرائد اللآل في مجمع

الأمثـال، كشف الأرب عن سر الأدب، تأهيل الغريب، فرائـد الأطواق، مقامات في الأخلاق، كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان، النفح المسكي.

٢٥- سعيـد الأفغاني: مـن حاضر اللغة العربية، دار الفكر، دمشـق، ط٢/١٩٧١، ص١٠٣. ويمكن الرجوع إلى الفصـل الثالـث من هذا الكتاب، وعنوانـه: (عمل المجمع العلمي العربي في خدمـة اللغة) للاطلاع على تفصيلات كثيرة حول الخدمات اللغوية التي قدّمها المجمع ابتداء من عام ١٩١٩.

٢٦- د. هاشـم ياغي: النقد الأدبي الحديث في لبنان، الحركـة النقدية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ١/٤٧ و٧٥.

٢٧- د. جميل صليبا: اتجاهات النقد الحديث في سورية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٤٧ وما بعد.

٢٨- المرجع السابق، ص٦٣.

٢٩- د. أحمد مطلوب: النقد الأدبي الحديث في العراق، معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٨، ص١١٥.

٣٠- د. هاشم ياغي: النقد الأدبي الحديث في لبنان، ١/١٥٠ (بتصرف).

٣١- المرجع السابق نفسه (بتصرف).

٣٢- انظر حول مفهوم اليازجي للشعر المقالات التي كتبها في الضياء: س٢، ج١ وج٣ وج٦ (عام ١٨٩٩)، وس٣، ج١٠ وج١٤ (عـام ١٩٠٠). وانظر حول مفهومه للانتقاد والقصـة مقالاته في مجلة الضياء نفسها: س ٦، ج١٨ (حزيران ١٩٠٤).

٣٣- د. أحمـد بـن عثمان رحماني: النقـد التطبيقي الجمالي واللغوي في القرن الرابـع الهجري، عالم الكتب الحديث وجدارا للكتاب العالمي، عمَّان، الأردن، ٢٠٠٨، ص٢٤٣.

٣٤- أحمـد فارس الشديـاق ١٢١٩/١٣٠٤-١٨٠٤/١٨٨٧) لغويّ أديب شاعر لبنـاني، أصدر جريدة الجوائب عـام ١٢٧٧. مـن كتبه: الساق على الساق في ما هو الفارياق، غنية الطالب، الجاسوس على القاموس، كنْز الرغائب في منتخبات الجوائب، سر الليال في القلب والإبدال، الواسطة في أحوال مالطة.

٣٥- ذكـر ميخائيـل صوايا أنّ (الجوائب) عُطِّلت عـام ١٨٨٤ في الآستانة، فنقلها الشديـاق إلى تونس، ولكنّ (عوامـل جديدة قاهرة حالت دون مواصلة إصدارها). ويُفهَم من كلام صوايا ومن قرينة استمرارها ثلاثة وعشريـن عاماً أنّهـا توقفت في العام نفسه. انظـر: ميخائيل صوايا: أحمد فارسـ الشدياق، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٢، ص٣٠.

٣٦- المرجع السابق، ص٣٥.

٣٧- محمـد عبـد الغني حسن: أحمد فارس الشديـاق، الدار المصرية للتأليف والترجمـة، أعلام العرب ٥٠، القاهرة، د.ت (١٩٦٦ غالباً)، ص١٦٦.

٣٨- المرجـع السابـق، صـ١٧١، ١٧٢(بتصرف). وانظر أيضـاً: حنا فاخوري: تاريـخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، بيروت، ط٩/د.ت، ص١٠٤٢.

٣٩- ذكـر د.هاشم ياغي في كتابـه: النقد الأدبي الحديث في لبنان، ١/٧٥،٧٦، هـذه القصة أيضاً، ودقَّق في بداياتهـا، وخصوصـاً انتصار يوسف الأسير للشدياق، وتناوله كتاب ناصيـف اليازجي (نارالقرى في شرح

جوف الفرا) بالنقد في كتاب سمَّاه: (إرشاد الورى في تخطئة جوف الفرا). وقد نُشِر كتاب الأسير في مطبعة الجوائب بالآستانة عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. كما ذكر محمد ضاري حمّادي القصة نفسها في كتابه: حركة التصحيح اللغوي، ص٩٨، ٩٩.

٤٠- أنشأ أحمد فارس الشدياق صحيفة (الجوائب) عام ١٨٦١ (وقيل: ١٨٦٠) في الآستانة، وكان يطبعها في المطبعة السلطانية، ثم أنشأ لها عام ١٨٧٠ مطبعة، سمَّاها (مطبعة الجوائب). وقد طبعت هذه المطبعة عدداً كبيراً من الكتب، فضلاً عن طباعتها صحيفة الجوائب.

٤١- أنشأ اللغوي الباحث بطرس البستاني (١٨١٩/١٨٨٣) صحيفة الجنان عام ١٨٧٠، وهو صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف وشرح ديوان المتنبي.

٤٢- محمد عبد الغني حسن: أحمد فارس الشدياق، ص١٧٣. و: د .ميشال جحا: إبراهيم اليازجي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن/ قبرص، ١٩٩٢، ص٢٠.

٤٣- ميخائيل صوايا: أحمد فارس الشدياق، ص١٦٩.

٤٤- نصَّ مارون عبود في مقدمة ديوان (العقد) لليازجي على أن الفضل يعود إلى الشدياق في حفز إبراهيم اليازجي إلى جبر عثرات أبيه وتصحيح كتبه. انظر مقدمة ديوان العقد لإبراهيم اليازجي، دار مارون عبود، بيروت، الطبعة الجديدة، ١٩٨٣، ص١٩.

٤٥- نُشِر كتاب عبد الرحمن سلام: دفع الأوهام في المطبعة الأدبية في بيروت عام ١٣١٧ هـ.

٤٦- ورد في الصفحة الأولى من كتاب (سلوان الشجي في الرد على إبراهيم اليازجي) أن ميخائيل عبد السيد مصري عمل في تعليم اللغة الإنكليزية في مدرسة الأمريكان في القاهرة. والمعروف أن ميخائيل عبد السيد صحفي أيضاً، أنشأ صحيفة (الوطن) في القاهرة في ١٨٧٧/١١/١٧، وهو أول مسيحي يُصْدِر صحيفة في مصر كما ذكر رامي عطا في كتابه: صحافة الأقباط وقضايا المجتمع المصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

٤٧- نُشِر كتاب ميخائيل عبد السيد: سلوان الشجي في الرد على إبراهيم اليازجي في مطبعة الجوائب بالآستانة عام ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م. وقد نصَّ د .هاشم ياغي على أن قارئ كتاب (سلوان الشجي) يدرك أن الكتاب للشدياق وليس لعبد السيد (اسمه عند ياغي: عبد المسيح). انظر: النقد الأدبي الحديث في لبنان، ٧٥/١. ونصَّ مارون عبود في كتابه (صقر لبنان)، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٠، ص١١٢، ١٨١، ١٨٥ على أن كتاب (سلوان الشجي) للشدياق وإنْ نُسِب إلى غيره. وذكر د .محمد ضاري حمّادي أن سمة الشتم في هذا الكتاب دفعت بعض الدارسين إلى الشك في نسبته، ورأوا أنه للشدياق نفسه لا لغيره. انظر: حركة التصحيح اللغوي، ص٩٨. بل إن أنيس المقدسي في كتابه (الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة)، ص١٤٥، ١٤٦ أورد نصوصاً من كتاب (سلوان الشجي) ناسباً إياها إلى الشدياق.

٤٨- سعيد الشرتوني (١٢٦٥/١٣٣٠-١٨٤٩/١٩١٢) لغوي باحث لبناني، من كتبه: أقرب الموارد، ذيل أقرب الموارد، شروح على كتاب بحث المطالب، الشهاب الثاقب، السهم الصائب، مطالع الأضواء، الغصن الرطيب.

٤٩- نُشِر كتاب أحمد فارس الشدياق: (غنية الطالب ومنية الراغب) في مطبعة الجوائب بالآستانة عام

١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م.

٥٠- نُشِر كتاب سعيد الشرتوني: (السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب) في المطبعة الكلية في بيروت عام ١٨٧٤.

٥١- نُشِر كتاب يوسف الأسير: (رد الشهم للسهم) في مطبعة الجوائب بالآستانة عام ١٢٩١ هـ/ ١٨٧٤م. وكان يوسف الأسير انتصر للشدياق قبل ذلك بعام انتصاراً آخر تناول فيه كتاب ناصيف اليازجي (نار القرى في جوف الفرا)، فألَّف كتابه: (إرشاد الورى في تخطئة جوف الفرا). وقد نُشِر الكتاب في مطبعة الجوائب بالآستانة عام ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م.

٥٢- نُشِر كتاب إبراهيم الأحدب: (رد السهم عن التصويب وإبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب) في مطبعة الجوائب بالآستانة عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م.

٥٣- رأى د.هاشم ياغي أن هذه المساجلات النقدية أثارت زوبعة نقدية لم تتعدّ فنجاناً صغيراً في عالم النقد بسبب انحرافها إلى تناول جزئيات لغوية ضئيلة، وأخرى نحوية شاحبة. وهذا الرأي يحتاج إلى التأني؛ لأنه وجهة نظر ناقد أدبي في النقد اللغوي. انظر: د.هاشم ياغي: النقد الأدبي الحديث في لبنان، ١/٤٧. وانظر رأياً آخر له مماثلاً لذلك في أحمد فارس الشدياق: ١/٧٥ و١/٧٦.

٥٤- محمد كرد علي: المعاصرون، مجمع اللغة العربية، دمشق١٩٨٠، ص١٦.

٥٥- المرجع السابق نفسه. وقد نصّ محمد كرد علي على أنّ اليازجي كسب فريقاً من الأعداء الذين أصلاهم نار نقده، مثل صاحبي المقتطف وسعيد الشرتوني وشكيب أرسلان وجماعة اليسوعيين.

٥٦- نُشِرت مقالات (أغلاط العرب) في مجلة الضياء، السنة الثالثة (١٣١٨ هـ/١٩٠٠/١٩٠١). انظر تفصيلات حول ذلك في: د.محمد ضاري حمّادي: حركة التصحيح اللغوي، ص٧٩.

٥٧- نُشِرت مقالات (أغلاط المولَّدين) في مجلة الضياء، السنة الثامنة (١٣٢٣ هـ/١٩٠٥، ١٩٠٦). انظر تفصيلات حول ذلك في: د.محمد ضاري حمّادي: حركة التصحيح اللغوي، ص٧٩.

٥٨- شكيب أرسلان (١٢٨٦/ ١٣٦٦- ١٨٦٩/ ١٩٤٦) عالم بالأدب والسياسة كاتب مؤرخ لبناني. من كتبه: الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية، لماذا تأخر المسلمون، رحلة إلى الحجاز، شوقي أو صداقة أربعين سنة، آخر بني سراج (رواية لشاتو بريان، ترجمها أرسلان وأضاف إليها خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، مع رسالتين قديمتين في الموضوع نفسه).

من تاريخ الشعر في سورية
الدكتور خالد الخطيب:

د. محمد رضوان الداية

شعره وعاء للقضايا الوطنية والذاتية والإنسانية

في أعلام بلاد الشام في القرن الماضي طبيب. مجاهد، قضى معظم حياته (على قصرها) في ظلال الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي أو في ظلال النفي عن سورية من قبل الفرنسيين، والخروج منها لتعزيز فرص جهاد المستعمر، وتقوية صفوف المجاهدين.

وكان الدكتور خالد بن محمد الخطيب، إلى جانب كونه طبيباً بارعاً ينظم الشعر مرّة بعد مرّة. وهو شعر يعكس ظروف حياته الجهادية، والمتعلقة

أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بالاغتراب، والمنطلقة من رفقه بأسرته وأهله وأصحابه، والمناضلين معه في ساحة القتال. وقد خلف ديوان شعر مطبوع، يخلد ذكره، ويُضيف اسمه إلى أسماء شعراء الشام وأدبائهم. وهو يُفيد دارسي شخصية هذا الرجل المرموق، ودارسي حركة الأدب (شعره ونثره) في بلاد الشّام عامّة، وسورية خاصّة.

(١)

وإذا كان نتاج خالد الخطيب لم يدرس دراسة فنية، كما يستحقّ فإنّ كتاباً صدر عنه، خاصاً به ألفه محيي الدين غنيم[١] إحياء لذكرى خالد الخطيب الذي كان صديقاً وزميلاً لوالده محمد سعيد غنيم، فقد كانا زميلين في حركة الجهاد ضد فرنسة؛ وفي صدور أحكام بالإعدام من العدو المستعمر، وفي الفرار من سورية والنجاة بالنفس لمتابعة الاستعداد للجهاد في بعض الأقطار العربية المجاورة.

ونتذكر هنا عدداً من الشعراء الذين عاصروا الثورة السّورية وسجلوا في دواوينهم قصائد عن المجاهدين عامة، وعن يوسف العظمة ومعركة ميسلون خاصة، إضافةً إلى أسماء عدد كبير من المجاهدين، والشهداء وفيهم خير الدين الزركلي، وخليل مردم بك، وشفيق جبري، وعمر أبو ريشة، وبدر الدين الحامد، وعمر يحيى..

ويضاف إليهم الدكتور خالد الخطيب الذي مات شاباً ابن ٣٥ سنة الذي خلد ذكره في جهاده، ونذره حياته للثورة، وتسخيره قلمه في التعبير عن شؤون النفس في جوانب الحياة، وقضية الوطن على رأسها..

ولد الدكتور خالد بن محمد بن سليم الخطيب في مدينة حماة لأسرة عريقة، فقد كان والده من رجال القضاء المشهورين المشهود لهم بالمعرفة والعلم والاستقامة، وكانت أسرته من المهتمين بالقضايا الأدبية والاجتماعية والوطنية.

درس في (حماة) وفي (حمص) ثم درس الطب في معهد الطب العثماني ومقرّه (دمشق) وتخرج في المعهد طبيباً عامّاً مع اختصاص في الجراحة والتوليد.

وقد انتسب خالد الخطيب، وهو طالب في معهد الطب، إلى النادي العربي الذي كان يناوئ حركة التتريك وجماعة الاتحاد والترقي الطورانية المعادية للعرب والعروبة، ذات النيات الاستعمارية.

وظهر من مواهب هذا الرَّجُل: البراعة في علم الطب، والقدرة على الخطابة، وإتقان نظم الشعر الذي أعانه على التعبير عن مشاعره الوطنية وعلى تسجيل قضايا كثيرة

عــن مجريات حياتــه الشخصية والجهادية معاً.

وحــين وجــد وزيــر الحربيــة السوري نفســه، وأمّته في الموقــف الصّعب للوقوف ضــد جيوشــ فرنســة بإمكاناتــه القليلة، وتخطيطه لملاقــاة العدو عند ميسلون وفق خطة عسكرية محكمة التحق خالد الخطيب بالجيشــ العربي الذي لملمه يوسف العظمة بعد أن كان الملك فيصل حله وسرّح ضباطه وجنوده بنــاءً على (إنذار) الجنرال (غورو): في خدعة لم تنطل على وزير الحربيّة. وكان دور خالد الطبيب أن يكون في قرية الديماس مع الفرقة الطبية الملحقة بالجيش.

ومعلوم أن خطة يوسف العظمة لم تنفذ، وتدخلــت عناصر متعــدّدة في عدم نجاحها ومنهــا عناصر مريبة كما ذكــر أخو يوسف العظمــة في كتابه (مــرآة الشّام) الذي طبع أكثر من مرة.[٢]

وكان خالــد الخطيب مــن رجال الثورة الذيــن قبضت عليهم السلطــات المستعمرة الفرنسية وصار في جملة المعتقلين في جزيرة (أرواد). واستمر سجنــه، للمرة الأولى نحو سنة ونصف السنة.

ثم سُجن ثانيــةً حين جاءت لجنة كراين الأمريكية للإشــراف على الاستفتاء لتقرير مصــير سوريــة: الاستقــلال أو الانتداب، وقد خطــب خالــد الخطيــب في المسجد الأموي وحرّض الناســ على التظاهر أمام القنصليات الأجنبية للمطالبة بالاستقلال. ألقــت السلطات الفرنسيــة المحتلة القبض على خالد الخطيب مع عــدد من أصحابه المجاهدين، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وأرســل إلى أرواد، وبقي هنــاك من نيسان إلى تشريــن الأول ١٩٢٣ حيث أطلق سراحه بعد المظاهرات الوطنية والاعتراضات على سجن خالد الخطيب وزملائه.

واضطــر خالــد الخطيــب إلى مغادرة سورية بسبب التضييق والملاحقة، وأقام مدة في الحجاز (كان آنذاك تحت سلطة علي بن الحسين. وعُيّن وزيــراً للصحة هناك مدّة. وأسهم بخدماتــه الطبية المتميــزة إسهاماً كبــيراً. وعاد الخطيب إلى سورية بعد انتهاء الحقبة الهاشمية هناك.)[٣]

ولم تلبــث الثــورة السوريــة الكــبرى أن اندلعت سنة ١٩٢٥ فانخرط فيها في مدينة حمــاة، والتحم مع الثــوار في سائر البلدان السورية: حمص، والغوطة، والجبل وغيرها. وكان يعمل في الجناحين: المجاهدة بالسّلاح، والخدمة الطبية العسكرية.

وانتقــل بناء على اقتراحــات الثوار إلى الأردن (الأزرق)، فلمــا طردتــه السلطــات الإنجليزية من الأردن لحق بمصر وأقام مدّة

تابع فيها نشاطه الوطني عن بُعد... وفي طريق مغادرته من مصر إلى العراق، أقام في عمّان، واقترح عليه عدد من أصحابه المجاهدين البقاء قريباً من سورية، وزاول عمله الطبي، متواصلاً مع رفاقه هناك.

وأصابه مرض ذات الرّئة، الذي كان يعالج الناس منه، وأدركته الوفاة في عَمّان في ١٢ رمضان ١٣٥١هـ- ٨كانون الثاني ١٩٣٣م.[٤]

وهكذا مات الدكتور خالد الخطيب، وهو في ريعان الشباب، يقوم بواجبه الطبي، ويتابع صِلاته مع رفاقه المجاهدين...

(٢)

كانت حياة خالد الخطيب، على قِصَرها، حياة حافلةً، مؤثرة، وزاد في تأثيرها: حيويّة هذا الرّجل، وفاعليته، واستمرار حياته على هذا النّمط من الحركة الدّؤوب؛ وتنوع جوانبه من إتقان الطب وممارسته، والإبداع فيه، ومن الانخراط في العمل الوطني الجهادي الذي يستغرق من المجاهد الوقت ويشغل حواسّه وعواطفه، ومن معاناة الاغتراب المؤثر، من بلد إلى بلد واستسهال أحوال الغربة في سبيل القضية التي تملأ قلبه ووجدانه...

ويضاف إلى ذلك جانب فني أدبي: هو ممارسة فنّ الخطابة، وممارسة نظم الشعر. ويظهر أنّ عنايته بالشعر كانت عن موهبة أوّلاً، ومن يقرأ ديوان شعره (وهو ليس بالكبير) يشهد لصاحبه بالإجادة، وباللمح الشعري الذي لا يخفى، وقد وصف خير الدين الزركلي شعر خالد الخطيب بأنه «حَسَن» وهو تعبير نقدي يستعمله الزركلي في الشعراء الذين يتقنون صناعة الشعر، ويبلغون منه درجةً حسنةً.

والعنصر الثاني في صناعته للشعر تأثره بوالده، فقد كان له نظم أيضاً وكان الأب يضع في رسائله إلى ابنه بعض الشعر، فقد ورد في رسالة من الوالد إلى ولده قوله:

إخالك بدراً في سَما المجد خالداً وماأنت إلا الشّهمُ ذو الفضل خالدُ فـ (خالد) الأولى من الخلود، و(خالد) الثانية اسم ولده الطبيب؛ وقد ردّ على والده برسالة جاء في ثناياها قوله:[٥]

إذا كنتُ بدراً في سما المجد خالداً
فأنت بنا شمس الهدى للمحامدِ
أفاخر فيك القومَ إمّا تفاخروا
فأسمو عليهم واحداً بعد واحِدِ

وتلاحظ النزعة الشخصية الواضحة، والنّبرة الذاتية العالية. والإعجاب بالأسرة، والنفس واضح بارز.

وكتب مرّةً إلى أبيه، من سجنه، رسالة فيها هذان البيتان:

سُجِنْتُ ولم أسجن لأمرٍ يشينني
ولكنْ لما فيه عَلائي وسُؤددي
فحال عليَّ الحولُ والسجن موطني
ومازال قيد الظلم في معصم اليدِ

فأجابه أبوه برسالة، كان في ثناياها هذان البيتان:

واصبرْ لها غير محتال ولا ضجرٍ
إن التضجّر شأن الخائف الوجلِ
وكن جَلوداً عزيز النفس سوفَ ترى
في حادث الدهر ما يُغني عن الحيلِ

وفي شعر الأب وابنه أدبيات مشهورة، ترجع إلى أشعار عدد من شعراء العرب الذين تعرضوا للسجن، وفي أشهرهم عليّ ابن الجهم[٦] الذي حبسه المتوكل العباسي بوشايات من بعض خصومه، وكان ابن الجهم أصلاً من أنصار الخليفة المذكور، فقد قال من قصيدة طنانة:

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائري
حبسي وأيُّ مهنّدٍ لا يُغمَدُ
والحبسُ إن لم تَغْشَهُ لدنيّةٍ
شنعاء نِعْم المنزل المتورّد

وسأرجع إلى قضية السجن التي أنتجت في ديوانه عدداً من القصائد والأناشيد.

والعنصر الثالث المؤثر في شعره هو الثقافة العربية والإسلامية التي كان يتزوّد بها الدارس بصفة عامة، فقد كان إتقان العربية والحفظ الكثير من النصوص أساساً لابد منه لكلّ متعلم، في التخصصات المختلفة، ومن هنا يلاحظ قارئ شعره الغنى اللغوي، وطواعية العبارة لأسلوبه، وإتيانه بالمفردات والمصطلحات المناسبة.

وإذا لم يكن خالد الخطيب في زمانه مذكوراً في الشعراء البارزين، فإنه بلا شك يضاف إلى أسماء الشعراء في بلاد الشام: ويزاد على ذلك خصوصية شعره من التغني بالوطن والجهاد (من القضايا العامة) والاغتراب والحنين إلى الأهل والديار (من القضايا الخاصة).

(٣)

وعلى صغر ديوان خالد الخطيب تنوعت موضوعاته؛ ودخلت قصائده، ومقطعاته جوانب كثيرةً من حياته، وظروفها، وأحوالها...

- ورأس الموضوعات في ديوانه القصائد الوطنيّة، وهذا انعكاس حقيقي لشخصية الرجل ووجوه اهتمامه؛ فإن جملة حياته كانت مرهونة لقضية الوطن: جهاد العدو، والالتحام مع المجاهدين، والكرّ والفرّ

مــن سوريــة إلى بعضــ الأقطار العربية نجاةً بالنفس، أو استعداداً للانقضاضــ بالاستعانــة بسائــر رجال الثورة السورية.

– ويلحــق بالموضــوع السابــق شعره الذي نظمه في السجن أو عن السجن الــذي دخله مرتين وقضى فيه أكثر من سنتين من الزّمن.

– ويلحق بالوطنيات شعر نظمه في محــاورة مع منطــق الاستعمار، ودعــوى احتلالهم بلادنــا بحجة تمديننــا ونقلنا إلى عــالم حضارة الغــرب. وفي هذا الشعــر تيارات من المعالجــة الفكريــة والمنطقية والعاطفية، واستحضار لأمور مهمة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية التي يعرفها الأوروبيون معرفةً تامة.

– والوطنيات في أشعاره تغطي: ما يخص القطر العربي السُّوري بقضاياه وأحواله؛

–: وما يخص بلاد الشام؛

–: وما يعم الأقطــار العربية. وقد كان أكثرها يتململ من حال الاستعمار، ويحاول بأساليب شتــى أن يخلص نفسه من قيوده، ومظالمه، وطغيانه.

– وجمــع الشاعــر، كثــيراً، بــين القيم الأخلاقيــة، والقيم الوطنيــة. والتفت إلى

الشباب يــروي لهم من مشاهداته ما يدلهم على طــريق القيم: الحسنة الجيدة الكريمة التي ينبغي أن يتحلوا بها، ويلتزموا قواعدها، ثم الآخر مــن الأخلاق والعادات التي يجب عليهم أن يجتنبوها..

– وللإنسانيات وجود في ديوان الشاعر، ومن شعره قصيــدة في سائل أعْمى (يحتاج يمــدّ يده للناس)، وقصيدة في زلزال أصاب مدينة يوكوهاما في اليابان فدمّر وقتل..

– وللاجتماعيــات جانب من شعر خالد الخطيب: يدخل فيه أشعاره في أسرته وأهله وبعض أصدقائه.. ويدخــل فيه دعوته إلى

العناية بالمـرأة، وتعليمهـا وإعطائها حقها في وجـوه الحياة المختلفة. لقـد كان صوتاً متقدّمـاً في هذا الجانب، يسبـق كثيراً من أدباء زمانه.

(٤)

أ) – في الديـوان نشيد، عنوانه «باستيل سورية» أو جزيرة أرواد.[٧] وقد سبق الكلام علـى أنه سُجـن في أرواد وقضى في سجنه أكثر مـن سنتين. وفي النشيد جوانب وطنية من جهة وجوانب إنسانية، أبرزها ما يخص أباه وأمه من جهة ثانية.

وتـرداد اسـم الباستيـل عنـد الأدباء والشعـراء في بلاد الشام كثـير، لأنهم كانوا يذكـرون الاستعمار الفرنسـي وهو يبطش ويظلـم، ويعتـدي، بالثـورة الفرنسية التي انطلقت عند (الباستيـل) وكانت – عندهم – ثورة على الظلم والطغيان..

وقد جعـل الشاعر القصيـدة في أربعة مقاطع، قال في المقطع الأول:

أنّـــى لـقـلـبـيَ سـلـوى
والـقـلـب مـازال يـهـوى
لا الحـزن يـجـدي نـفـعـاً
ولـيـس في الـصـبر جـدوى
أسـيـر وجـدٍ وسـجـنٍ
مـعـذب يـتـلـوّى
ظـمـآن يـبـغـي المـعـالي
هـيـهـات قـلـبـي يـروى!

فهي إشـارة إلى السجن و معاناته، وإلى صـبره وتطلعـه إلى المعالي؛ ثم قـال يذكر والديه الصبورين؛ على رغم اللوعة والشوق إلى الابن الأسير:

لله طـيـفـانِ بـانـا
أرقّ جـسـمـاً وأضـوى[٨]
أبٌ يـهـيـم و أم
بـلـوعـة الـبـين تـكـوى
ألـهـمـهـمـا مـنـك صـبراً
يـا عـالمـاً كـل نجـوى
وارفـق بـقـلـب كـسـير
عـلـى لـظـى الحـزن يُـشـوى

والاستعارة في البيت الأخير حسنة، وهي مؤثرة أيضاً، ثم قال:

أروادُ يـا دار بـؤس
عـنـهـا المـظـالم تُـروى
لأنـت بـاسـتـيـل هـذي ال
بـلاد يـا شـرّ مَـثْـوى
يـا غـاديـاً في حـمـاهـا
لا ذاق قـلـبـك شـجـوا
ألم تَـر الـلـيـث فـيـهـا
في ظـلـمـة الـسـجـن يُـطـوى؟

شديد بأس همام
فيه من المجد نشوى؟
لا السجنُ أفناه عزماً
ولم تضعضعه بلوى!

وانتقل من السجن وأحواله ومعاناة نفسه، وأهله منه، إلى أهله في الشام وإلى سائر العرب في بلدانهم المختلفة يدعوهم إلى الثورة على المحتل الغاصب الظالم:

يا فتية العُرب هبّوا
يا خير منْ أنا أهوى
حَتّى متى الضعف فيكم
وبث شجوٍ وشكوى؟
هُبّوا لإزهاق هذا الـ
باطل، فالحقّ أقوى
وجرّدوا العزمَ سيفاً
ما المجد أكلة حلوى

والبيت الأخير مستفاد في اللفظ والمعنى من البيت المشهور:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصّبرا!..

ب) - و من لطائف قصائده واحدة عنوانها (نحن والتاريخ)[٩] مع عبارة مأخوذة من القصيدة، هي (إنه بالدار يطمع) والكلام على المستعمر المحتلّ.

والقصيدة قصة شعرية رمزية. فقد زاره رجل أزرق العينين بصفة ضيف، فرحب به وأنزله معه في داره. ولكن هذا الضيف ما لبث أن طلب منه وهو صاحب الدار أن يتخلى عنها. مع ملاحظة مهمة هي أنه وهو صاحب الدار ضعيف، وأن ذلك الضيف (الغاصب) قويّ!!..

قال في بعض أبيات القصيدة:

قصّتي يا قومُ أضحت
قصةً تُتْلى فَتُسْمَعْ
زارني ضيف ثقيلٌ
أزرق العينين أبقعْ
قلت أهلاً بك ضيفاً
حُلّ في أخصب مرتعْ
فطرتي إكرام ضيفي
وهل الفطرةُ تُدفعْ؟

ثم قال إن أمد زيارة الضيف ثلاث ليال؛ وقد نال الضيف ضيافة كبيرة، ولكنه جاء طامعاً مكشراً عن نابه؛ ثم قال:

جاءني يوماً بوجهٍ
لونه باللؤم مُشبعْ
قال لي: الدار داري
فابتعدْ عنها وأقلعْ
فهي تحتاج صلاحاً
وأنا للأمر أنفعْ
وادّعى بالدار ملكاً
وهو لا يملكُ إصبعْ!

وقد مرّ الشاعر على هذا المقصد في

قصيدة (أين الوعود) وقد قال فيها مخاطباً الفرنسيين بعبارة (بنـي السين) وهو النهر الكبير الذي بباريس:

يا بني السين إن في الشرق قوماً
لهم مثلكم نفوسٌ عليَّهْ
يرفضون الحياة بالذلّ يوماً
فهي والموت عندهم بالسويّهْ
أنصفوهم والوعد أوفوا وإلا
آن للقوم أن يسيؤوا النيّهْ
إنهم لا يريدون غير اتحاد
فيه فوزٌ ووحدةٌ عربيّهْ

وظاهر أن مثل هذا الشعر قيل في المراحل الأولى من نشاط الشاعر المجاهد، حين كان أهل سورية يطمعون في ذهاب الانتداب سريعاً، وخاصّة بعد لجنة (كراين) وقرار أهل البلاد بطلب الاستقلال... فلما لم تفعل فرنسة ما كان ينبغي فعله من الجلاء وتسليم البلاد لأهلها اندلعت الثورة السورية التي كانت جاهزةً كامنة تنتظر الانطلاق.

وصاح الشاعر «واظلماه!» واستل سلاحه، ولكن الضيف (العدوّ) كان أقوى منه وغلبه، وطرده!، وأنهى القصيدة بهذين البيتين:

لم يكن عصر سلامٍ
فيه شمس الحقّ تستطعْ
إنّه عصر دماءٍ
عصر رعّادٍ ومدفعْ!

لقد دخل الفرنسيون بلاد الشام بدعوى التمدين وتوصيل الحضارة، ولكنهم كانوا غاصبين مستعمرين مصاصي دماء، سالبي أموال وخيرات..

ج) – وفي ترجمة الشاعر أنه كان يتقن التلحين. ومن تلاحينه ما وضعه على نشيد من تأليفه عنوانه: نشيد الشهداء، يقول فيه:

مشينا للعلا مشي الأسودِ
وسرنا نقتفي أثر الجدودِ
وسيّرنا الخميس على الحدودِ
لطرد عدونا الخصم اللدودِ

ومنه أيضاً:

هي النفس الأبيّة لا تسامُ
بخسْفٍ، لا، ولو سِيْمَ الأنامُ
ونحن على المذلة لا ننام
ومنا (طارقٌ) و (ابن الوليدِ)
لنا الوطن المفدّى بالنفوسِ
نقيه الويلَ في يومِ عبوسِ
بنا يعتزيـ الحرب الضّروسِ
إذا انقضَّ الجنودُ على الجنودِ

د) – وتصدى الشاعر لدعوة أحد شعراء تلك المدة: شبلي الملاط[١٠] الذي هاجم رجال الثورة المحاربين لفرنسة، وسمّى الثوار بـ (المتصلبين) مفضّلاً الاستكانة إلى الفرنسي

المستعمر، ومن قصيدة الملاط معترضاً على جهاد الثوار:

ولو انها حربٌ تجرّ فوائداً
بسط الزمان لها الذراع مرحّبا
لكنها ويلٌ على أبنائها
ويلٌ على وطنٍ يئنّ معذبا
وامتدّ مندلع اللهيب ألا ترى
أطلال راشيا ونكبة كوكبا
ما يبتغي المتصلبون فهل دروا
ماذا جنوه على البلاد تصلبا؟!

وقد ردّ خالد الخطيب بقصيدة عنوانها «تموت الشعوب لتحيا»[11] عاتب فيها شبلي الملاط و لامه، وناقشه؛ وأسف لأن الظلم هذه المرة جاء من (قريب) لا من عدوّ...

ومما قاله:

أفرطتَ شبلي في المقال تمادياً
فذممْتَ مَنْ خير الثناء استوجبا
ودعوت كل أخي وفاء جانياً
وفتى الشهامة والمروءة مذنبا!!
صوّبت سهمك للحشا فصدعته
هيهات مصدوع الحشا أن يرأبا
وأتيت تنشدنا القريض بموقفٍ
خجل الخؤون بمثله أن يخطبا

وتوقع الشاعر أن يكون الملاط يطمح بوظيفة من المندوب السامي الفرنسي دي جوفنيل الذي ألقى شبلي الملاط قصيدته أمامه في مدرسة الحكمة ببيروت؛ وقال:

هل كنت تأمل من دي جوفنيل رتبةً
أو كنت تهوى أن ينيلك منصبا؟

ويذكر خالد الخطيب شبلي الملاط بما جرى على يد الفرنسيين من قتل وأسر وتشريد وسلب..

أوَ ما رأت عيناك طفلاً صارخاً
يبكي بلحظيْ أمه نوراً خبا
والشيخ جلله جلال مشيبه
بدم الشهادة والوفاء مخضّبا
والمستغيثة يسلبون عفافها
بالرّوح تفديه وألاّ يُسلبا

ويلتفت إلى الملاط، ويقول له بعد هذا:

هذا قليلٌ من فظائعهم فهل
ترضى لشعبك أن يُهان وينكبا؟

ويناقشه أيضاً ويضعه أمام الحقائق الوطنية:

ما نحن بالمتصلبين وليس ما
قمنا به يوماً يُعَدّ تصَلبا
لكننا كبرت علينا أن نرى
جور العدو بنا و ألاّ نغضبا!..

(٥)

وإذا كان خالد الخطيب قادراً على احتمال الاغتراب في سبيل الوطن، أو من أعماله الجهادية ضد العدو، وخشية الاستهداف، فإنه -من الناحية الإنسانية والاجتماعية- اشتكى من أعباء الاغتراب عن الأهل والصديق والوطن وله في ذلك أكثر من قصيدة. ومنها واحدة بعنوان (حياتي في المنفى)[١٢] وهي من قصائده الطوال، قال صاحب كتاب (الدكتور خالد الخطيب، مسيرة حياته ونضاله)[١٣] إنها من قصائده التي أنشدها في الحجاز، ومن هذه القصيدة:

نثري وشعري وبستاني وأسفاري
والعود يطربني عزفاً بأوتارِ
وذا يراعي وأوراقي ومنضدتي
تحيطها الكتب المثلى بأسوارِ
وفي الدجا وحدتي والناس قد رقدوا
وراءها تلتقي نفسي وأسراري

وأنشد الشاعر قصيدة طويلة بمناسبة توديعه في القاهرة سنة ١٩٢٩ ذكر فيها الاغتراب أيضاً، وفي هذه القصيدة عاطفة جياشة، وشجنٌ بالغ:

ألا في سبيل الله طول تسهّدي
وفرط حنيني للحمى وتوجّدي
يقولون لي اصبرْ كي تفوز وها أنا
تجلدت حتى ملّ مني تجلدي
فلا الدمع يشفيني ولا الشوق يرعوي
ولا الصبر في همي وغمي بسمعد
هجرت بلادي والرّدى يبعث الردى
إليها فأضحت كالهشيم المبدّدِ
وما كنتُ مختاراً بهجري ربوعها
ومَن ذا الذي يرضى الأسى عن تعمّدِ

ويسترسل الشاعر، ويستحضر صورة فتاة تحاوره في الوطن، وتشكو إليه حاله إلى أن يقول:

فقلت لها والدمع ينثر ساخناً
على خدّها نثر الجمان المنضّدِ
ألا هَوّني فالدهر شهد و علقم
ومهما تمادى اليوم لابدّ من غدِ
ولا بدّ من يومٍ به نقهر العدا
ونوردهم كأس الردى شرّ موردِ
ونرجع للأوطان ماضي انتصارها
بعَوْدٍ إلى عهد التكاتفِ أحْمدِ

(٦)

وهكذا ارتبطت عند الشاعر مجموعة من المقاصد والقضايا يشتبك بعضها مع بعضها الآخر: الوطن والجهاد، وارتباط الوطن الصغير (سورية) بالوطن العربي

الكبير، والاغتراب الذي كان أساسه: المشاركة في الثورة أو الخروج عن الوطن لمساندة الثورة من الخارج أو لحفظ النفس من نقمة المستعمر.. وليس الموضوع الاجتماعي والموضوع الإنساني ببعيدين عن المقاصد السّابقة: فإن الشاعر من النوع الرقيق المشاعر، المرهف الإحساس؛ فإن لهفته على الوالدين خاصة وسائر الأهل والأصحاب كانت تتأجّج: في السّجن من جهة وفي الاغتراب من جهة ثانية...

أ) – لقد توفي والد الشاعر، وهو مغترب في الأزرق بالأردن، فأرسل قصيدة لتلقى في يوم تأبينه عنوانها: الاعتراف بالجميل[١٤]، ومنها:

الله في حزني وفي أشجاني
الله في قلبي الكسير العاني
الله في عين تشتت نومها
ودمٍ جرى في المدْمع الهتانِ

– ومن القصيدة في الكلام على والده:

بل كنتُ صباراً على نكباتها
لكن خطبك يا أبي أرداني
بك كنت جباراً على صدماتها
لم أخش يوماً ثورة الحدثانِ
واليوم خطبي فيك دكّ عزيمتي
فطلبت من كيد الزمان أماني!

ب) وهناك قطعة في رثاء الأمير المجاهد عز الدين الجزائري الذي سقط شهيداً وهو يدافع عن الوطن. وعز الدين هو حفيد الأمير عبد القادر.

– قال الشاعر واصفاً دعوة الفرنسيّين للأمير لإلقاء سلاحه والإبقاء على حياته، وتصميم الأمير على خطة الجهاد:

أنذرتكَ العدا وأنت شهيدٌ
وصدى المرهفات يدوي دويا
ألقِ عنك السلاح نبقك حيّاً
وأطِعْنا نهبك عيشاً رخيا
كان منك الجوابُ ناراً تلظت
حيث آثرْتَ أن تموت أبيا
إنّ منْ كان جدّه مثلَ جدّي
كيف يلقي السلاحَ ما دام حيا؟

(٧)

وسجل الشاعر بعض أحداث زلزال يوكوهاما الذي أصاب تلك المدينة في ٢٩ أيلول ١٩٢٣، وسجل من عواطفه ومواقفه؛ في قصيدة أوّلها:[١٥]

خطب ألم بيوكوهاما
لم يقع أبد الدهورْ

يقول فيها:

لا تـــأمـــن الأيـــــــام فـالـ
أيـــــامُ مـأمـنـة الـغـرورْ
لله كـــم خـــــرّت قـصـو
ـــرٌ تـرتمـي فـوق الـقـصـورْ
لله كـــم بـــــادت نـفـو
سٌ ضـمّـهـا رحـــبُ الـقـبـورْ
لله كـــم صـعـقـت قـدو
دٌ زانـهـا هـيـف الخـصـورْ...

ويقول بعد أبيات:

مـــنْ لـلـيـتـيـم قـضـى أبـو
ـــهُ وكـــان يمـــرَحُ في ســرورْ؟
مـــنْ لـلـفـتـاة تـصـيـح في
غـسـق الـدّجـا هـل مـن مجـيرْ؟
مَـــنْ لـلـشـيـوخ تـئـنّ مـن
ســوء الـعـواقـب والمـصـير؟

ويختتم القصيدة بأبيات فيها شيء من ملامح الحكمة:

مـهـمـا يـكـنْ هـــول الـــردى
فـالـصـبر مـن عـــزم الأمـــورْ
وصـعـوبـة الخـطـب الـكـبـيـ
ـــر تـهـونُ في نـفـس الـكـبـيرْ
وشـبـيـهـكـم مـــنْ يـتـقـي الـ
أهـــوال بـالـقـلـب الـصـبـورْ...

فهـذا ملمحٌ إنسـانيّ، صاغـه الشاعر قصيـدةً تنبض بروح التعاطف مع آثار ذلك الزلزال المدمر، وروح الأسى البالغ..

(٨)

وعلـى كثرة مشاغـل د.خالد الخطيب، وتشتتـه في حله وترحالـه، وبذله نفسه في سبيل الوطـن، واستغراقـه في الدفاع عنه عملاً وقولاً، كان في خاطره شيءٌ آخر يخص الحياة الاجتماعيـة: دعا قومه إلى النهضة العلميـة والعملية، وعـاب عليهم انصراف فريـق منهم إلى اللهو والعبث في حين كل ما حولهم جدٌّ بالغٌ، وهـمّ شاغلٌ، وديار يضيع استقلالها، وعدوّ جاثم على الأراضي وعلى الصدور.

ودعـا - في ذلـك الوقت المبكـر - إلى نهضـة المـرأة، وتعليمهـا، وإعطائها حقها المشـروع في التعلم والتقدم ومشاركة الرجل في صناعة الحياة، وتخريج جيل جديد واع، وفي نقل الحياة العربية إلى معاصرة الزمن، ومسابقة الأحداث.

وأكتفي بشـيء من قصيدة لـه بعنوان «حبّ الفتاة الصالح»[١٦] أولها:

عـزيـزٌ عـلـى الـنـفـس مـا تـطـلـبُ
ومـــا لـــكَ مـــن كـــائـــنٍ مَـهْـربُ

وهي جيدة البناء والسّبك، حسنة العَرْض والمقاصـد، متسلسلـة الأفـكار: بعيدة عن اللهجـة الخطابية التي تكـثر عادة في مثل هذه الموضوعات، ومنها:

أحــبّ الـفـضـيـلـة في شخصها
وأهـــوى حـديـثـاً لـهـا يـنـسـبُ
فحسن الـوجـوه سريـع الـغـروب
وحُـســن الـفـضـائـل لا يـغـربُ
أحــب الـصـبـيـة فــوق المـنـابـ
ـر تسبي الـعـقـول إذا تـخـطـبُ
أحــب الـصـبـيـة لا تـنـثـنـي
عــن الجــد يــومــاً ولا تـتـعـبُ

-إلى أن يقول:

فـتـاة الـبـلاد مـتـى تـصـبـحـينَ
فـتـاةً هـي المـثـلُ الأعـجـبُ؟
مـتـى تـدخـلـين عـراك الحـيـاة
فـيـزداد عـجـبـاً بـك المـنـصـبُ؟...
مـتـى تـسـلـكـين طـريـق الـتـجـدّ
دِ، لـيـس الـتـجـدّد مـا يُـغـضـبُ
مـتـى تـنـهـضـين لِـــدرْك الـعـلا
فـمـا المـجـد وَهْــبٌ لـنـا يـوهـبُ؟!

- وآخر بيت في القصيدة:

وبـالحـزم والـصـبر لا بـالـونـى
يـهـونُ عـلـى الـنـفـس مـا يَـصْـعُـبُ!

(٩)

وفي أثناء ترجمة الشاعر خالد الخطيب في كتاب الأعلام، تطرّق الزركلي، على طريقته الناقدة، الموجزة النافذة إلى شعر الرّجل وشاعريته، وقال باختصار: «له أناشيد حماسية، ونظم حسن».[١٧]

وقال أ. نادر الساطي، وكان من رفاق خالد الخطيب في سجن أرواد في كلمته التأبينية:[١٨] مشيراً إلى نبوغه، وبلاغته، وإتقانه الموسيقى:

«عرفتك أيها الصديق تلميذاً نجيباً وطبيباً حاذقاً، وسجيناً هادئاً ومنفياً شريفاً. عرفتك في أيام السلم طروباً صدّاحاً وموسيقياً تفتن الألباب... كنت عظيماً في مواقفك الخطابية...»

- ورثاه ابن بلدته حماة، شاعرها المشهور: بدر الدين الحامد بقصيدة أوّلها:[١٩]

ذكـراك طـيّ جـوانـحـي وفـؤادي
فـاذهـبْ سقتك مـن الـدمـوع غـوادِ

يقول فيها ذاكراً موهبته الشعرية؛ إضافةً إلى براعته الخطابية وقدراته الموسيقية:

يـا مـنـبر الـوادي خطيبك صامتٌ
مـنْ لـلـخـطـابـة بـعـد قـسّ إيـادِ
الـشـاعـرُ الـعـذب الـقـريـض نظيمه
كـالمـاس أو كـالـدر في الأجـيـادِ
(إسحاق) في الصّوت الرّخيم إذا شدا
(زريـاب) في ضـربٍ عـلـى الأعـوادِ
كـنـا نـفـاخـرُ والـبـيـان مـطـاوعٌ
بـعـلاه كـلّ مـفـوّهٍ بـالـضـادِ

عين الفصاحة والبيان ندية

في كل حفل بعده أو نادِ

- ورثاه شاعر حلب عمر يحيى، وأشار إلى أدبه وفنه في قصيدةٍ قال فيها:[٢٠]

ويا طالما كنا نرجّي إيابه

على خير ما يرجى هناك إيابُ

مليئاً بما يعيى الرجال بلوغه

إلى أدب فيه الجمال مُذابُ

تحلق روح الفن في جنباته

إذا الفنّ فن واللقاء صوابُ

وبالمناسبة أقول إن هذا الرجل: بقصّة حياته، ونضاله، واغترابه وأدبه: شعراً ونثراً يستحق دراسة واسعة تفصيلية في رسالة جامعية جادة.

(١٠)

إن قارئ تراث الدكتور خالد الخطيب ومتابع سيرة حياته بالموجود المسجل منه، وعنه، وقارئ ما قيل فيه في تأبينه من شعر ونثر ينتبه إلى شخصية فذّة، سطعت كالشهاب... ما إن التمع وملأ السماء بإضاءته وإنارته حتى قضى وانطفأ: تاركاً وراءه ذكريات عظيمة في القيم الوطنية والمزايا الشخصية واللمحات الأدبية .

وأختم بعبارة للزركلي، وهو يترجمه، وكان على معرفة به، زميلاً له في جهاد الفرنسيين: «كان شريف النفس، أبيّاً، فيه أريحية كاملة وفتوّة». وما أعظم هذه الصّفات في مزايا الرجال!.

الهوامش

١- الدكتور خالد الخطيب مسيرة حياته ونضاله. محي الدين غنيم- دار الحصاد -دمشق- سورية -ط١- ٢٠٠٩م. ولخالد الخطيب ترجمة في الأعلام للزّركلي٢: ٢٩٨، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.

- وله ذكر في أخبار الثورة السورية مثل: مع ثورة حماة لمحمد سعيد الزعيم (مطبعة الضاد - حلب) وثوار صنعوا الاستقلال لنشأة الخانجي (دار الشرق - حلب) وتاريخ الثورات السورية لأدهم الجندي (مطبعة الاتحاد - دمشق)

- ولادته عند الزركلي ١٩٠٠م.

٢- انظر الطبعة الثانية منه في دار الفكر - دمشق-.

٣- تاريخ الثورة السورية في عهد الانتداب الفرنسي - أدهم الجندي - (مطبعة الاتحاد - شارع رامي - ١٩٦٠): ٢٦٠ - ٢٦٢، وانظر الدكتور خالد الخطيب - سيرة حياته ونضاله - ص١٣.

٤- أقيمت للدكتور خالد الخطيب جنازة في عمَّان: رسمية وشعبية، ونقل الجثمان إلى دمشق (منزل أخيه) وحضر جنازته مندوب عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وأعضاء المجلس النيابي وقناصل الدول العربية، وغيرهم. وشيع تشييعاً رسمياً وشعبياً، ودفن في مقبرة باب الصغير.

وأقيم له في مدينة حماة حفل تأبيني ألقيت فيه كلمات وقصائد كثيرة تليق بمثله من الرجال المجاهدين. (انظر تفصيلاً في كتاب الدكتور خالد الخطيب: ٢٥ – ٣٦).

٥- المرجع السابق ٣٩ – ٤٠.

٦- الدكتور خالد الخطيب: ٤١ – ٤٢.

٧- ضوي: هزُل، وضمر.

٨- المرجع السابق: ٧٥ – ٧٧.

٩- المرجع السابق: ٧٣ – ٧٤.

١٠- شبلي الملاط (١٢٩٣- ١٣٨٠هـ/ ١٨٧٦ – ١٩٦١م) شاعر لبناني. عمل في التدريس والكتابة الإدارية، وعيّن في العهد الفرنسي قائم مقام لقضاة المتن. له ديوان شعر. وروايات قصصية، بعضها مترجم عن الفرنسيّة.

١١- الدكتور خالد الخطيب: ١٠٧ – ١٠٩.

١٢- المرجع السابق: ٧٩ – ٨٢.

١٣- نفسه: ٧٩.

١٤- المرجع السابق: ١١٧.

١٥- الدكتور خالد الخطيب: ٦٩ – ٧١.

١٦- المرجع السابق: ٤٣ – ٤٥.

١٧- الأعلام: ٢- ٢٩٨.

١٨- المرجع السابق: ١٧٤.

١٩- ديوان بدر الدين الحامد ١: ١١٦.

٢٠- خالد الخطيب: ص ١٨٩.

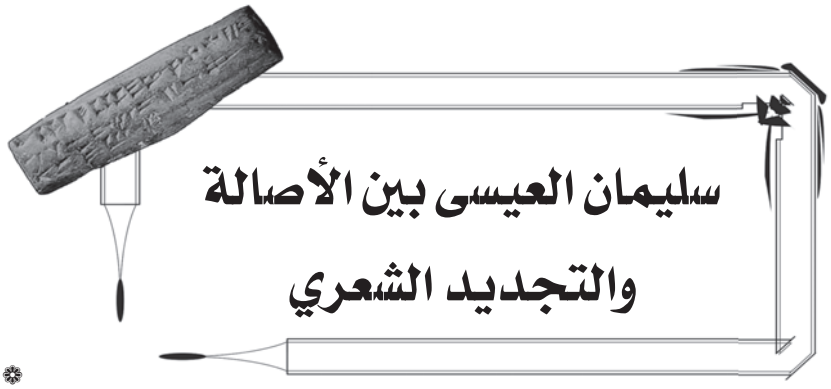

سليمان العيسى بين الأصالة والتجديد الشعري

د. ملكة أبيض

نظرات جديدة

في نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي، صدر لسليمان العيسى دواوين عديدة، اتخذت في البداية عنوان: ثمالات، وهي:

ثمالات(١)١٩٩٧،

ثمالات(٢)١٩٩٨،

ثمالات(٣)١٩٩٩،

وثمالات (٤) ٢٠٠٤،

وثمالات(٥) ٢٠٠٥.

أديبة وباحثة وأستاذة جامعية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

على أنه أعطى للدواوين التالية عناوين أخرى للبعد عن التكرار وخوفاً من الالتباس، فكان هناك «الكتابة بقاء»، و«كتاب الحنين» و«همسات ريشة متعبة» و«كي أبقى مع الكلمة».. و«قطرات».. إضافة إلى الدواوين العديدة التي كتبها للأطفال.

لقد رأى القراء في هذه المؤلفات منعطفاً واضحاً في مسيرة الشاعر، كما تجلى ذلك في التعليقات والدراسات التي كتبت عنها. وأتوقف هنا عند ثلاث دراسات:

«سليمان العيسى في نبرته الهادئة» للدكتورة ملكة أبيض[1]، أي لي، و«سليمان العيسى والقصيدة الشعرية» للدكتور عبد السلام الكبسي[2]، وهو أستاذ جامعي وشاعر من اليمن. و«الفن الشعري والطفل عند سليمان العيسى» للدكتورة كافية رمضان[3]، أستاذة في جامعة الكويت.

في دراستي، رأيت أن هذا المنعطف لدى سليمان يبدأ مع خيبة حزيران ١٩٦٧ تلك الخيبة الكبرى التي هزت الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه، من المحيط إلى الخليج.

في تلك الظروف، صمت سليمان فترة، ثم راح يبحث عن كوى للأمل والحركة، ويبدأ من جديد.. مرة بعد مرة..

ومع كل بداية كانت نبرته تخفت، والتأمل يحل لديه محل الاندفاع.

لقد أشرت في الدراسة إلى توسيعه أفق نتاجه أفقياً وعمودياً.

ففي أدب الأطفال الذي اختار اللجوء إليه، دون إغفال أدب الكبار، تناول موضوعات تتصل باهتمامات الصغار وحاجاتهم، فتحدث عن الطبيعة، والألعاب، والهوايات، والأسرة، والمدرسة، والأحلام، والآمال، والعمل، والوطن.

ونوّع طرق الخطاب، فقال الشعر، وكتب المسرحية والقصة الواقعية والخيالية، وعرّب آثاراً أجنبية لإغناء هذه التجربة، أو شارك في تعريبها.

وفي نتاجه للكبار، رأى الابتعاد عن الأحداث المباشرة بقدر يتيح له الإصغاء إلى العالم الخارجي، وتأمل ما وراء الواقع، وإلى عالمه الداخلي الذي أغفله فيما مضى، أو قُلْ صهره في الهم العام..

ففي «الثمالات» بأجزائها الخمسة، وغيرها من نتاجه خلال الفترة الأخيرة، توزع نتاجه بين الشعر والنثر، وبين عدد كبير من الموضوعات التي أراد فيها أن يقدم نفسه للقارئ بكل ما فيها من انفعالات وأفكار ورؤى وهواجس.

وهكذا فإن اهتمامي تركز في هذه الدراسة على اتساع أفق نتاج الشاعر من حيث الجمهور، والأجناس الأدبية، والموضوعات التي تناولها.

علــى أن الدكتور عبــد السلام الكبسي نظــر إلى التجديــد الشعري عنــد سليمان العيسى من الزاوية الأسلوبية الفنية. فأتبع عنوان دراستــه: سليمان العيسى والقصيدة الشعرية بعنــوان صغير هــو: (ثمالات بين الإيقــاع والعروض). وتحــت عنوان فرعي عــن التنويع علــى مستوى البحــر الشعري قال: «سليمان العيسى من فرسان العمودية في الشعر، ولكنــه وسّع تجربته مؤخراً على مستوى الشكل الخارجي للقصيدة، ونوَّعها بكتابــة الشــكل التفعيلي بنوعيــه «المدوَّر والسطري».

لقد خاض الشاعر الكبير هذه التجربة تجربــة الأشــكال الإيقاعيــة» كواحد من أولئك الأوائل الذيــن أسسوا لإيقاع شعري معاصــر رصين يستمــد سحــره وإشراقه، جماله وأصالته، من دوائر الخليل بن أحمد الفراهيدي دونما تقليــد أو مشابهة. يمتح تفعيلتــه من بحرهــا برشاقــة ومرونة عزّ أن تجد لهــا نظيراً عند بقيــة الشعراء في ممارسته الإيقاعية -لا يلقي، كما يفعل غيره مــن العموديين، العربة أمــام الحصان- بل يترك للعمود احتمــال دورته بامتلاء تناغم تفعيلاته تمامــاً، لينتقل خطوة جديدة غير مقيســة ولا معدودة مازجاً بين بحرين منه، ومن ثم تتوالد تفعيلته دونما نشاز، أو تنافر، فالإيقاع مصاحب للجسد».

ويضرب مثالاً على ذلك قصيدة سليمان المعنونة بـ «التمسني في كل بسمة طفل»[٤].

فالمقطــع الأول منها ينتمي عروضياً إلى البحر الوافر (مفاعلتن مفاعلتن فعولن):

يــطــيرُ إليّ مــن أفـــقٍ بعيــدٍ
ويــنــثرجَــعْــبــةَ الــذكــرى حــوارا

وهــو بيت شعري تام شــكلاً (يتكون من صدر وعجــز) وإنْ كتب على هيئة متوازية، وفي المقطــع الثاني مــن القصيــدة نفسها يعمــل الشاعر على حذف «فعولن». بغرض الانتقال إلى إيقاع تفعيلي أقل. ليكسر بذلك صرامة قانون البيت الشعري التقليدي:

يطير إليّ يذروني
جذاذاتٍ.. جُذاذاتِ
يبعثرني
حكاياتٍ حكاياتِ

وفي الوقــت نفســه يكــون الشاعر قد استغنى عــن التفعيلة الثانية للسطر الثالث مــن المقطع السالف المــوازي للسطر الرابع (يبعــثرني).. ثــم يعــود إلى قانــون البيت الشعري السالف بإضافة (مفاعلتن) الثالثة، وتدعيم مكرورها بالقافية التي تندرج تحت قانــون «لزوم ما لا يلــزم». يلاحظ ذلك في قول الشاعر:

أناتَكَ يا صديقي
لستُ «طَلاَّع الثنايا»

ولا «ابْنَ جلا»

ولا رشحت على سيفي المنايا

وهكذا ينوِّع الشاعر من إيقاع التفعيلة في نطاق بحرها «الوافر» إلى أن ينتقل -في القصيدة نفسها- إلى بحرٍ ثانٍ.. ومختلف.

يُلاحظ ذلك في المقاطع: الخامس والسادس والسابع حتى آخر القصيدة:

إرتشفْ قهوة الصباحِ..

وَأمهلْني قليلاً..،

أوقظْ بقايا الحنينِ.

أنا إلياذةُ البكاء على الرملِ..

ولم تسمعِ الطلولُ أنيني

ألقمتني مفاوزي الغُبر ثدييها

وكانت وهمي..

وكانت يقيني..

بعد هذه الأبيات التي تنتمي شكلاً إلى البحر الخفيف، يأتي البيت الرابع:

لا تُثِرها..

دفاترَ الأمس.. إني..

ويلجأ إلى التفعيلة:

هاربٌ في العبابِ

أعشق تيهي

ثم يعود إلى البحر (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن):

ما أبالي بمرفأ لسفيني

في هذه القصيدة ينوِّع الشاعر الإيقاع على مستوى البحر والقافية، عبر تقنية الحذف والإضافة حيناً ولزوم ما لا يلزم حيناً آخر.

وحين يتحدث الدكتور الكبسي عن الإيقاع «الذي يتجاوز الأوزان والقوافي، الكلمات والجمل، التدوير، التكرار، الترصيع.. يتجاوز كل المظاهر الخارجية للنغم إلى حيث تكون النفس في تمازج مع العالم والأشياء من حولها، في تمازج شبيه بالحلول لدى الصوفي»، يستشهد بقصيدة الشاعر في (ثمالات) نفسها المعنونة بـ (مطر)، والتي تبدأ هكذا:

يدقُّ نوافذي المطرُ

يدقُّ.. يدقُّ.. ينهمرُ

ويسقي العُشبَ.. يسقي

التربَ، يشربُ يشربُ الشجرُ

وتمتلئ الضروعُ به

ويحلم بالغد الثمرُ

ووحدي ظامئاً أحنو

على صمتي.. وأنكسرُ

ألمٌ شتات روحي فهو

في لا شيء منتشرُ

وأقبض راحتيَّ على

على ماذا؟ أأذَّكر؟

نسيتُ، نسيتُ، يا هذا

السرابُ.. سَمِيُّكَ العُمُرُ

نسيتُ.. فليس في خَلَدي

سوى أصداءَ. تنحسرُ...

حيث يستعير الشاعر من تتابع المطر أسلوبه على مستوى الكلمة في التكرار «يدق، يدق، يدق.. يشرب، يشرب، على، على، نسيت، نسيت..» الذي تحدثه خارجياً ويحس أثره داخلياً في عمق النفس، حيث الأسرار المتبادلة بينها وبين الوجود «وحدي ظامئاً أحنو على نفسي وأنكسر». هذا الأثر الذي يصل إلى أوجه باستخدام الشاعر التفعيلة (وهي جزء من بحر الهزج - مفاعيلن)، والقافية الرائية ذات الروي المضموم التي تعبر عن توتر وانقباض، أشبه ما يكون بالجرح.

ويتساءل الناقد: «فهل للمطر علاقة بتطهير جرح الشاعر الكبير، وقد رأى الحلم منكسراً والأمنيات صارت بدداً؟ هل للمطر علاقة بذلك الأنين المتصاعد من شعاب النفس وقد تحوّل كل شيء إلى سراب؟

هكذا ينتقل الشاعر.. مفجراً الجسور القائمة بين العروض والإيقاع وصولاً إلى الحلم أو الجرح، سيان..».

ويتوقف الناقد بعد ذلك عند نص يقف بين الشعر والنثر، مثل العديد من نصوص ثمالات، التي أثبتها الشاعر على أنها نصوص نثرية كأنه يريد أن ينفي العلاقة بينها وبين «القصيدة النثرية». ولكن الناقد يرى «أنه نص نثري تخلى عن العروض ليلتحق بالنثر شعراً، واستعاض بالنبر ليكون شعراً صحيحاً». وهذا النص هو: الوعول:

الوعولُ التي كانت تركضُ في دمكَ

أصبحت تمشي بطيئةً

متثاقلةَ الخُطى

الشعابُ الوَعْرةُ لا تتحدث عن وعورتها

ما تزال في صمتها المطبق تُغري.. تُغري

... والوعولُ لا تستطيع أن تتوقف

لابد أن تمشي

افتَحْ بقايا شرايينكَ لها..

يا عاشقَ الوعول

لابد أن تمشي

لابد أن تمشي

هنا يحاول الناقد تقطيع النص للتأكد من هويته الشعرية، فيتبين له كما قال «أنه يحتوي على إيقاع التفعيلة «فاعلن» بنبرها «فعلن/فاعلن/ فَعْلن/فا/علن» وهي تنتمي إلى بحر الخبب، «المتدارك». أضف إلى ذلك أنه يتجاوب مع سلالته الشعرية في الحذف، والصوغ، في التنافر، والتجاذب، في مشهده البصري على الورقة، في الحدود التي تقيمها الفاصلة، والنقطة، والحركة... الأمر الذي يدعونا إلى حسم مسألة انتسابه إلى شجرة الشعر الوارفة الظلال بكل المقاييس».

وأنــا أثبت فيما يلي تقطيع النص الذي توصل إليه الناقد:

١- الوعــو/ل التي/كا/نــت تر/كض في/دمك.

٢- أصبحت/تمـ/شي/بطيئة.

٣- متثا/قلة الـ/خطى.

٤- الشعا/ب ال/وعرة/لا/تتحد/ث عن/وعورتها.

٥- ما تزا/ل في /صمتها الـ/مطبق.

٦- تغري.

٧- تغري.

٨- والوعو/ل لا/تستطي/ع أن تتوق/ف لا/بد أن/تمشي.

٩- افتح/بقا/ يا شرا/يينك/لها.

١٠- يا/ عاشق الـ/وعول.

١١- لا/بد أن/تمشي.

١٢- لا/بد أن/تمشي.

❁ ❁ ❁

١- فاعلُن/فاعلــن/ فا/فاعلــن/ فاعلن.

٢- فاعلن/فا/فا/ علن فا.

٣- فاعلن/فاعلن/ علن.

٤- فاعلن/فـا/ فاعلن/فا/فاعلـن/ فاعلن علن فافا.

٥- فاعلن/علن/فاعلن/فاعلن.

٦- فاعلن.

٧- فاعلن.

٨- فاعلن/علن/فاعلن/علن/فاعلن/ فاعلن/فاعلن/فاعلن.

٩- فاعلن/علن/فاعلن/فاعلن/علن.

١٠- فا/فاعلن/علن.

١١- فا/فاعلن/فاعلن.

١٢- فا/فاعلن/فاعلن.

ويختم الناقد بقوله:

«وبديهي أن يكون نثر سليمان العيسى كأنه الشعر بعينه، وأن يحاول بعض المدافعين عن القصيدة النثرية تجيير أمثال هذه النصوص الأخاذة لصالح القصيدة النثرية...

إن البحر أو التفعيلة أو النثر -التنويع على مستوى الشكل- لدى الشاعر عبارة عن تنويع على مستوى حلمه ورؤياه. وكل هذه دوالّ تتآزر في إحالة البعض على البعض لتنتج رسالته الشعرية بامتياز».

وننتقل إلى الدراسة الثالثة، «الفن الشعري والطفل عند سليمان العيسى»، من خلال أناشيده للصغار والتي قدمها في ديوانه الأول للأطفال(٥).

تناولت هذه الدراسة رؤيا الشاعر، والبحور التي استخدمها في مخاطبته للصغار، ثم نظام التفعيلة والقافية والرويّ، وموسيقا الحروف والحركات والتركيب الفني للنشيد، وعالم الصور ومصادره، واستخدامه للتشبيه والاستعارة والكناية، ثم اللغة وعالم الألوان. وأخيراً أساليب الشاعر في صياغة الأناشيد.

والهدف من هذه الدراسة معرفة مدى نجاح الشاعر في مخاطبته للصغار من خلال هذا الديوان.

ولنذكِّر بأن سليمان العيسى ينطلق في شعر الأطفال من المبدأ القائل بأن الطفل يستطيع أن يحفظ الشعر ويغنيه قبل أن يدرك ما فيه من معاني وأفكار؛ وأن هذه المعاني والأفكار ستتكشف لديه تدريجياً مع تقدمه في النمو، لذلك لا ضرورة لشرحها له في البداية.

يقول في مقدمة ديوان الأطفال: «احفظ وغنِّ أيها الصغير. للحفظ والغناء كتبت هذه الأناشيد، قبل أن تكتب للقراءة والفهم والتفكير.. كان صديقك صاحب هذا الديوان طفلاً مثلك في السابعة أو الثامنة عندما حفظ القرآن الكريم وهو لا يفهم منه إلا هذه الموسيقا الخفية الساحرة وهذا البيان الرائع المجهول. كان في الثامنة أو التاسعة عندما حفظ قصائد أبي الطيب

المتنبي وهو لا يفهم منها شيئاً إلا موسيقاها الخفية وبيانها المجهول..».

ويضيف في كتابه «باقة نثر»: «ولقد كانت دهشتي، وما تزال، أكبر من كل ما توقعت حين وجدتُ الأطفال في سورية، وفي غيرها من الأقطار العربية، يقبلون على هذه الأناشيد ويغنونها ويتجاوبون معها في حماسة ولذة لم تخطر لي على بال. إنهم يلحنون الأناشيد بأنفسهم، ويبدعون لها الإيقاع الذي يروقهم، قبل أن تصل إليهم ملحنة من قبل الموسيقيين الذين أتعاون معهم منذ البداية، لتلحين كل كلمة شعرية أكتبها للصغار، وتقديمها إليهم في عمل فني تربوي قومي متكامل»[٦].

ولكن لابد من القول، إن الشاعر توقف مليا حين انتقل من الكتابة للكبار إلى كتابة أناشيد الصغار، ووضع لنفسه، ولغيره، مبادئ يُهتدى بها في هذا العمل. ومن أهمها ما بينه في المقالة نفسها..

يقول: «ولقد حرصت ما استطعت على أن تتوافر في النشيد الذي أكتبه للصغار العناصر التالية:

١- اللفظة الرشيقة الموحية، الخفيفة الظل، البعيدة الهدف التي تلقي وراءها ظلالاً وألواناً وتترك أثراً عميقاً في النفس.

٢- الصورة الشعرية الجميلة التي تبقى مع الطفل، مرة ألتقطها من واقع الأطفال وحياتهم، ومرة استمدها من أحلامهم وأمانيهم البعيدة.

٣- الفكرة النبيلة الخيرة التي يحملها الصغير زاداً في طريقه وكنزاً صغيراً يشع ويضيء.

٤- الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق الذي لا يتجاوز ثلاث كلمات أو أربعاً في كل بيت من أبيات النشيد...

إنني أحرص على أن يتشابك في النشيد الذي أكتبه للصغار الوضوح والغموض، الواقع والحلم، المحسوس والمعقول، الحقيقة والخيال.. كل ذلك في كلمات مدروسة بعناية. ويبقى الغناء الهدف الأول من كل نشيد..»[٧].

ماذا تقول الدكتورة كافية رمضان عن هذه الأناشيد؟

فيما يتعلق ببحور الديوان تقول الناقدة: «لقد اختار الشاعر بحوره من ذوات الأوزان الخفيفة المرقِّصة في الغالب. فكان للبحر المتدارك (فعلن فعلن فعلن فعلن) النصيب الأوفى.. يأتي بعده مجزوء البسيط (مستفعلن مستفعلن فعولن)، ثم الكامل (متفاعلن) والرمل (فاعلاتن فاعلاتن)، ثم الوافر (مفاعلتن مفاعلتن مفعولن)، ثم الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن)

والرجز (مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ثم المديد (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن).. وهناك نشيد واحد على وزن المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن)».

ونحن نعلم أن الشاعر يختار البحر الذي ينظم على وزنه بقدر ما يتطلبه الموضوع نفسه. كما أن الحالة النفسية للشاعر تؤثر في اختيار الوزن إلى حد كبير.

ومن الأناشيد التي اختارتها الناقدة للدراسة نشيد عصفور طلال. وها هو نصه:

عصفورُ طلالْ

شلال جمالْ

منقارٌ أحمرُ ما أحلى!

وجناحٌ أخضرُ ما أغلى!

عصفورُ طلالْ

شلاّلُ جمالْ

في الجو يُحلِّقُ عصفوري

ويعلمني دربَ النورِ

ها نحن رفيقان

أهواهُ ويهواني

عصفورُ طلالْ

شِعرٌ وجمالْ

تقول: هذا النشيد -كما هو واضح- من المتدارك في تركيبةٍ جديدة مؤلفة من مقطعين ولازمة تتكرر ثلاث مرات.

وهي تنوه بالموسيقا الملوّنة في النشيد. فهي ممتدة مطلقة يقفلها سكون (طلالْ وجمالْ)، وتارة مطلقة غير مقفلة (أحلى، أغلى، عصفوري، النورِ، رفيقانِ، يهواني). وتشير إلى أن هناك حرفين يسيطران على الموسيقا وهما اللام والنون، وهما من أكثر الحروف الساكنة طواعية للموسيقا، كما يسيطر على النهايات المحدودة الفتح والكسر..

«إن التكوين في التركيب هنا لم يلتزم قاعدة واحدة في المقطعين. فقد كسر القاعدة في المقطع الثاني وأدخل بيتاً جديداً هو:

ها نحنُ رفيقانِ

أهواهُ ويهواني

كما كسر القاعدة بإبدال كلمة «شعر» بكلمة «شلاّل» في البيت الأخير فاختلفت الموسيقا اختلافاً يسيراً على سبيل التلوين..».

التفعيلة:

يقول سليمان العيسى عن شعر التفعيلة: «يخيّل إليّ أن شعر التفعيلة ليس إلا استخداماً جديداً لطاقة البيت العمودي الموسيقية التي يملكها بالقوة - كما يقول الفلاسفة.

نحن نعرف أن الخليل بن أحمد -هذا

العبقري الفذ- قد جعل من التفعيلة وحدة موسيقيــة، وجعل لكل بحر من بحور الشعر العربــي تفعيلات خاصة بــه تضبط وزنه، وتحدد موسيقاه.

وبــذكاء لا تملكــه إلا الموهبــة.. انتبه شعراؤنا منذ أمد قريــب إلى هذه «الوحدة الموسيقيــة» إلى التفعيلة التــي يتألف منها البيــت.. فجعلوها هي الركيــزة، بدلاً من أبيهــا الشطر في شعر العمــود، وبنوا عليها قصيدتهم الجديدة...

طاقة جديــدة حملتها موسيقــا البيت العربــي تتحول إلى ألوان من النغم لا حدود لها، حين تمتد إليها اليد القادرة على الخلق والإبداع..»(٨).

والملاحظ أن جلَّ قصائد ديوان الأطفال هي مــن شعر التفعيلة، وربمــا لأن الشاعر يراهــا ألصــق بالطفولة من بيــت الشعر التقليدي الذي استوفى أركانه.

ومــن الأمثلة التي تسوقهــا الناقدة عن قصائد التفعيلة في ديــوان الأطفال، نشيد المطر، الذي صاغ الشاعر تفعيلته من مجزوء البسيط:

مَطَرْ مَطَرْ مَطَرْ
بالنعمةِ انهمرْ
بالعشبِ والثمرْ
تهلَّلي يا أرضنا السمراءْ
واستقبلي هديةَ السماءْ
مَطَرْ
مَطَرْ
مطَرْ

تقول د.كافيــة رمضان: «وقد يستعيض الشاعر عن التفعيلة بمجزوءات البحور. وقد يمزج بين التفعيلــة تأتي وحدها في السطر ومجــزوءات البحــور، إذ إن هذه المجزوءات ليســت إلا تفعيلــة مكــررة، ولا ترتقي إلى البيــت الكامل. وقد يمزج بين أكثر من بحر في البيت الواحد، كما في «سوار شعلة» حيث يقول من مجزوء البسيط:

سَمراءُ من بغدادْ
صغيرةٌ واسعةُ العينينْ
من شمس بغدادَ على الخدّينْ
عبيرُ قبلتينْ
ومرت الأعوامْ
سوداءَ كالظلامْ
قد نبتتْ من صخرة الشقاءْ
يا حلوتي زنبقةُ الفداءْ
إلى البندقيةْ
تنادى الرجالْ
وفي كلِّ شبرٍ
بدأنا القتالْ»

والمقطع الأخير -كما نرى- من المتقارب (فعولنْ . فعولنْ).

فالشاعر في هذا الديوان يتصرف بالتفعيلة والبحور بالحرية التي يحبها الصغار، وغايته من ذلك التلوين الموسيقي حتى لا يقع في إسار النغمة الواحدة..».

حروف الرويّ:

إن حرف الرويّ -كما هو معروف- ركن من أركان الموسيقا في القصيدة العربية، وهو الذي يعطيها المحط الموسيقي.

وعن حروف الرويّ في ديوان الأطفال، تقول الناقدة د.كافية رمضان: «إنها لا تقع تحت حصر. فهي ساكنة تارة، متحركة تارة أخرى بالحركات الثلاث. وهي تستغرق معظم الحروف الهجائية. ولعل فيما استشهدتُ به في المجالات الأخرى ما يعطي المثل على هذا التنوع، حتى في النشيد الواحد. وهو إن دل على شيء، فإنما يدل على رغبة الشاعر في تلوين النغمات كعازف العود البارع الذي ينتقل من نغمة إلى أخرى، ثم يعود إلى المحط الذي يرتاح إليه السمع».

ولا نستطيع في هذا المقال السريع أن نتابع الناقدة في تحليلها لموسيقا الحروف والحركات، وعالم الصور ومصادرها، وما استخدم فيها من تشبيه وكناية إلخ.. لأن ذلك يستغرق صفحات عدة.. ولكننا لا نستطيع تجاوز رأيها في اللغة والأسلوب فهما أساسيان في أناشيد الأطفال.

فهي تذكِّر -فيما يتعلق باللغة- «بأن سليمان العيسى متمكن من اللغة العربية، يعرف أسرارها وإيحاءاتها؛ وهو يؤلف من هذه اللغة ما يشاء تأليف الخبير ذي اليد السحرية الصَّناع.. إلا أن اللغة العربية بحر من ألفاظ، منها المعروف المألوف للطفل، ومنها الغامض المجهول.. وسليمان العيسى يعني ذلك ويدركه.. لكنه يؤمن إلى جانب ذلك إيمان المعلم بأن على الطفل أن يتزود ببعض الألفاظ التي يجهلها شيئاً فشيئاً، ونشيداً بعد نشيد.. حتى يكون لديه قدر جيد من الثروة اللفظية التي تعيش معه إلى الأبد. لذلك تراه يضمِّن أناشيده بعض هذه الألفاظ ويشرحها للطفل في الهامش على سبيل الإثراء. لكننا نقدّر أن الكلمات التي لا يفهمها الطفل أكثر مما شرح الشاعر في الهامش.. يضاف إلى ذلك صعوبة أخرى هي صعوبة التركيب.. فعلى الرغم من سهولة شرح الكلمات اللغوية في قوله:

يا لَحْناً رشفُوهْ
يا حُلْماً خطفوهْ

يبقى الإدراك عسيراً لتعقيد التركيب، أو قوله:

وتمنّى لو رقصَ النورُ
في أغنيتهْ

فالكلمات هنا تبدو مألوفة للطفل، لكن التركيب صعب، والصورة بعيدة.

أساليب الشاعر في صياغة الأناشيد:

عن هذا الجانب تقول الناقدة: «... يتألف النشيد التقليدي عادة من مطلع ومقاطع ثلاثة على الأغلب يتردد بعد كل منها المطلع ويسمى اللازمة. وليست أناشيد «ديوان الأطفال» تقليدية من هذا الوجه، بل إن لكل نشيد ترتيبه الخاص ومذاقه المتميز».

وتصنف أناشيد الأطفال من حيث الأسلوب إلى أصناف أربعة:

أولاً: النشيد الذي يتميز بالخفة والرشاقة، وعليه سيماء النشيد غالباً، مثل عصفور طلال، أو لعبتي..

ثانياً: النشيد الذي هو أشبه بالقصيدة من حيث التزامه بحراً واحداً وحرف رويّ واحد، أو قد يكون من بحر واحد مع اختلاف الرويّ، مثل الشاعرة الصغيرة.

ثالثاً: النشيد الذي يكون الطفل فيه هو المتكلم مثل رباب، تيم على البحر..

رابعاً: النشيد الذي ينحى منحى الحكاية، مثل النحلة الصديقة، ومنى والعصافير.. وأياً كان أسلوب الصياغة، فإن الشاعر قد بذل جهداً واضحاً في التنويع والتلوين في طرائق التناول..».

وتختم دراستها بأن أداء الشاعر في الأناشيد يختلف بحسب الموقف والموضوع.. ومع ذلك يظل سليمان العيسى أحد أعلام الشعر الحديث وأكثرهم عناية بالتوجه إلى الأطفال، وقد سدّ بإنتاجه الغزير في هذا المجال فراغاً كبيراً في المكتبة العربية.

أما أنا فأختم هذا المقال بقولي: إني سعيدة لاطلاعي على هاتين الدراستين الثمينتين المميزتين، اللتين تشكلان نموذجاً لدراسة انتاج الشاعر وغيره من المبدعين في الوطن العربي.

الهوامش

١- أنظر: سليمان العيسى، همسات ريشة متعبة، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٦، المقدمة ص٣-١١.

٢- أنظر: د.عبد العزيز المقالح (إشراف)، د.إبراهيم الجرادي (تحرير وتقديم)، سليمان العيسى، ثمانون عاماً من الحلم والأمل، دار الرائي، دمشق، ٢٠٠٠، ص ص٣٥٩-٣٦٨.

٣- المصدر نفسه، ص١٠٩- ١٤٢.

٤- قصيدة منشورة في ثمالات(١)، ص١٠.

٥- تحدثت الدراسة عن أول ديوان للأطفال أصدره الشاعر عام ١٩٦٩. وقد صدر ديوان الأطفال في طبعته الكاملة، المزيدة والمنقحة، والتي أربت على ٧٥٠ صفحة من القطع المتوسط، عن دار الفكر بدمشق عام ١٩٩٩.

٦- سليمان العيسى، باقة نثر، دار طلاس، دمشق، مقال: تجربتي الشعرية، ص ٢٣٧-٢٧٩.

٧- المصدر نفسه، المقالة نفسها.

٨- المصدر نفسه، مقال: الموسيقا في الشعر العربي، ص٢٩١-٣٢٤.

الشعر الأرمني المعاصر بين الحب والثورة (*)

(*) نصر الدين البحرة

يخيل إلي أن الشاعر الأرمني الكبير هوانيس شيراز في الرسالة التي بعث بها إلى الأديب الأرمني السوري الكبير نظار نظاريان، يقدم لنا مساعدة جلّى في معرفة وفهم الظروف الصعبة التي عاشها الشعراء الأرمن المعاصرون، وأبدعوا من خلالها قصائدهم الجميلة، وهي في الآن ذاته، تلقي الضوء على المحنة المريرة التي عاشها الشعب الأرمني في أواخر القرن الماضي ومطالع

(*) أديب وقاص وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

هذا القرن.. حين بلـغ العسف والاضطهاد والظلم أقصى درجـة، فكانت تلك المجزرة الرهيبة في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩١٥. يقول شيراز:

«ولـدت في أحلك أيـام الشعب الأرمني سـواداً وظلاماً.ولـدت في ساعـة المجازر التركية للأرمن، في طريق الهرب من المذابح، قامـت أمي بـدور القابلة لنفسهـا. ولدتُ في مدينـة كومرو -حاليـاً مدينة لينيناكان في أرمينيـا- قـرب مدينـة قارص. ولدت في منتصف الطريـق، في سهل شيراك عام ١٩١٥. لقـد احتضنني أبـي خمس سنوات وكان يعمل بستانياً، ثم عمل حارساً ليلياً في الأسواق. وذات ليلـة سوداء من عام ١٩٢٠ هجم الجنود الأتراك في مدينة كومرو على أبي وظلوا يضربونه حتى فارق الحياة تحت ضرباتهـم. وقامت أمي بعد ذلك بدور الأب لي ولشقيقـيَّ: كوهار ومـاري، وكانت أمي تنقل الماء من بيـوت الأغنياء، وتعمل كذلك بأشغال الإبرة اليدويـة. هكذا أوصلتنا إلى ربيـع الحياة. أرسلتنـي إلى المدرسة بعد أن أخرجتني من الميتم حيث كنا نسكن جميعاً. كنـت أؤلف الأشعار عندما كنت بين الثامنة والعاشـرة من عمري. لم أكن أكتبها، بل كنت ألقيها، لأنني لم أكن أعرف الكتابة بعد، فلم أتعلمهـا إلا في الحادية عشـرة من عمري. كانت شقيقتي الكبرى تدون أشعاري.

عملت أجيراً عند الحداد، ثم الحذاء، ثم عند سمكري، اشتغلـت أجيراً عند الخياط والنجـار ولكنـي كنت لا أمكـث طويلاً في أي مهنـة من تلك المهن. بعـت الماء بجرتي هذه الصغيرة ثم عملـت اسكافياً في طرف إحدى الأسواق تحت ظل حائط ما.. دخلت المدرسة بعد ذلك.»

... وبعد لأي وجهـد وعندما رأوا إلقاء شيزار الطفـولي للشعر جعلوه موزع حروف في المطبعة وهنا «سقطت السمكة في البحر» - وهذا عنـوان لإحدى قصائده - ذاك أنه أخذ يؤلف الكتب مثـل بركان ثائر.. ودخل الجامعة أخيراً...

أليست هذه الحكاية اختصاراً لعذابات الشعـب الأرمنـي جميعـاً إبـان المجـزرة وبعيدها، حين قامـوا ينشئون حياة جديدة في المهاجر، ويوم انبعثوا كطائر الفينيق من رماد المحارق والمجامـر... يشقون الطريق الصعب، ويبنون الكيـان الجديد، ويبدؤون القصة من الصفر.

إنها النـار المقدسة نفسهـا التي تعمد بها الشعراء الأرمـن المعاصرون جميعاً. إنه العـذاب المبدع الذي اصطلـت به أرواحهم فصهرها، فمنهم من سار خطوات غير قليلة

في الدرب، ومنهم من سقط.. ومنهم من تابع وعاش ليروي بأشعاره الحكاية كلها.

ههنا في بساتين الشعر الأرمني وحدائقه أسماء جميلة طلعت علينا بها بعض الترجمات النبيلة: بيدروس طوريان، كاريكين بيشكوتوريان، سيامنتو، طانييل واروجان، واهان ديريان، ميساك ميزارنتس، هوانيس شيزار، كيفورك أمين، يغيشه تشارنتس... واهان تكيان.. فلنقف أمامها قليلاً لنرى كيف عاش هؤلاء الفنانون، وماذا لاقى معظمهم من صنوف الضنك والألم والعذاب والمرض، لقد قتل سيامنتو في مذبحة ١٩١٥ وكذلك واروجان، أما واهان ديريان وميساك ميزارنتس، فقد قضى الاثنان مسلولين. وها هو ذا واهان تكيان في إحدى قصائده يناجي عينه الوحيدة المتبقية، ذاك أن الأعداء فقؤوا عينه الأخرى، ولم يعش بيشكوتوريان أكثر من ٢٣ سنة، ولذلك فإنه لم يترك وراءه سوى قصيدة واحدة :«المزمار».

... بعد هذا يبدو طبيعياً للغاية، أن تتشابه الملامح العامة لدى الشعراء الأرمن المعاصرين، فإذا نظرنا إليها من حيث المضمون، كان البعد الإنساني واضحاً لدى هؤلاء الشعراء، وإذا انتبهنا إليها من حيث

الشكل الفني، لا حظنا أن سمات مشتركة تجمع بين أشعارهم، وإنْ يكن لكل شاعر شخصيته الفنية الفذة، وتميزه الشعري المختلف.

البعد الإنساني في الشعر الأرمني المعاصر:

ثمة قواسم مشتركة بين الشعراء الذين قدر لي أن أقرأ منتخبات من أشعارهم، نقلها إلى العربية الترجمان المثقف الأديب الصديق العزيز الراحل نظار نظاريان، في لغة عربية سليمة، وأسلوب فني بليغ... ولا غرابة ما دام الأستاذ نظاريان يملك جيداً ناصية اللغتين بقوة: وهاأنذا أمام هؤلاء الفنانين الكبار: تشارنتس، تكيان، أمين، شيراز.

إن النضال ضد المجتمع الظالم، حيث اللاعدالة سيف مسلط، همٌّ يقطن ضمير الشاعر الأرمني، وفي المقابل فإنه يرفع عالياً راية التبشير بالمجتمع العادل، حيث الأخوة والمساواة والتكافؤ، ويمضي أبعد فأبعد في التنديد بالجشع والطمع.

وعلى الضفة الأخرى، يرتفع النغم القومي الأرمني، شجياً في نبرة حزينة، فرضت نفسها على جميع الألحان، ذاك أنها تجيء من إيقاع المجزرة المخيف.. يعلو النغم الأرمني، في ظلال «آني» و«ارارات» و«اوراردو» و«اراكاتز» و«التله الحمراء»... يعلو أقوى فأسمى دون أن يشوبه النشاز الشوفيني الكريه.

ويلفتنا بقوة ذلك التوق الأكيد للوصول إلى الموضوعية، الموضوعية التي تقف عاصماً يمنع من الوقوع في خطل الرأي وخطأ التعميم السريع.

ومقابل اقتناص الجوانب الجدلية في الحياة والكون، وذلك الإلحاح في البحث عن الوحدة وراء التنوع والتعدد، والتكاملية خلف الأضداد المتصارعة حيناً والمتوحدة حيناً آخر، يروقنا هذا الظمأ الرائع إلى الحب، والتغني بالجمال، ومظاهر الطبيعة، في أناشيدَ من غزل يقترب آناً من المرأة بوصفها ذلك الجسد الفاتن الذي تتجلى فيه لطافات الإنسان، ويدنو آنا آخر.. من الصوفية، باعتبارها تعالياً للذات الإنسانية، وتجلياً لروح الملأ الأعلى، بكل ما ينطوي عليه من حنان كوني.. وشمول رحماني.

في الشكل الفني:

تبدو النزعة الملحمية جلية لدى الشاعر الأرمني المعاصر، وإن يكن شاعر كبير مثل يغيشه تشارنتس، قد استطاع أن يبلورها جميعاً في ملحمته الشهيرة «الجماهير المجنونة». وهنالك ميل قوي نحو الشعر القصصي والشعر الذي يقدم

الأمثال والحكم، ربما بلغ ذروته عند هوانيس شيراز.

أما الطابع العام الذي يغلف معظم القصائد فهو هذه الرومانسية التي تغرق في انسيابها الطبيعي وتوقها إلى الطبيعة كما هو الحال عند تكيان في «النبعة» وعند تشارنتس في مقاطع متعددة من ملحمته المشهورة.

على أن الشعراء جميعاً يقتربون من عالم السوريالية Surrealism بما يتيحه من إمكانات تعبيرية عليا، وقدرة على تفجير اللحظات وكوامن اللاشعور. يقول شيراز:

في حلمي رأيتك حبيبتي...

كنتِ طيراً حط على شجرتي...

ويقول تكيان:

تنتفخ النبعة الآن فجأة بين نفسها

وموجةٌ تركب موجة...

على أنهم ينهلون جميعاً من العالم الواقعي، وإن يكونوا من أجل إيصال أفكارهم وشحن الأبيات بمشاعرهم الذاتية يتوسلون بمختلف الأساليب البلاغية، بما تحمله من صور وتشبيهات واستعارات وطباق وجناس وتوازن كما نقول في اللغة العربية.

واهان تكيان:

يقول الأستاذ نظاريان في تقديمه مجموعة «صلاة أمام عتبة الغد»: ما من شاعر استطاع ملء الفراغ الذي حدث بعد المذابح الأرمنية عام ١٩١٥ والتي حصدت رؤوس عباقرة الشعر الأرمني أمثال طانييل واروجان وسيامانتو وروبين سيفاك وسواهم مثل واهان تكيان الذي استطاع الإفلات من جحيم تلك المذابح، والالتجاء إلى مصر العربية حيث أمضى جل عمره إلى أن توفي هناك ودفن. وفي مصر رأس تحرير بعض الصحف والمجلات الأرمنية أو أنشأها «وأطلق عليه النقاد والشعراء بالإجماع لقب أمير الشعر الأرمني بلا منازع.»

وإذا كان تكيان قد عاش قبل الهجرة في أرمينيا جواً شرقياً خالصاً، فإنه واصل العيش في هذا المناخ في مصر، ونحن نلمح أثر هذا الجو الشرقي حيناً، العربّي حيناً آخر في شعره. إنه يذكرنا بأبي العلاء المعري في قصيدته «تصفية» يقول المعري:

ولو أني حبيت الخلد فرداً

لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت علي ولا بأرضي

سحائب ليس تنتظم البلادا

ويقول تكيان:

تصفية حساب. ماذا بقي لي، من الحياة، ماذا بقي لي؟

ما أعطيته للغير، عجباً... هو ما بقي لي.
حنان خفي. أدعية. تبريكات غامضة.
واستهلاك لقلبي أحياناً، وآخر دمعة صامتة.

إنــه كشاعر المعرة رهين المحبسين يضن أن يحتكر السعادة لنفسه.. وهو مثله شريكه في فاجعــة البصر، وإن يكن المعري قد فقد الباصرتين معاً.

..ويرتفــع تكيان في هــذه القصيدة إلى أرقى درجات العبــادة والتصوف، وهو نغم خاصــ متفرد، يشبــه ترنيمــات الملائكة، ويذكــرك تــارة بسلطــان العاشقــين ابن الفارض، ويدعــو إلى ذاكرتك حيناً الشهيد الإلهي الحلاج، ويبعث في ثنايا الخاطر روح الخيام، والكثير الكثير من وهج محيي الدين بن عربي.

يقول أمير الشعر الأرمني:

ما راح إلى الغير قد عاد أحلى
عاد قوياً ليبقى في روحي خالداً
لم يضيّع الباري ما أخذه الحبُ مني
أعطانيه ثانية، وجعل به حياتي فواحة دوماً

ويقول ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فدير لرهبان ومأوى لغزلان
وترتيل إنجيل وترنيم كعبة
ومصحف توراة وآيات قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجهتْ
ركائبهُ فالحبُّ ديني وإيماني.

وكذلــك الحال في معظم قصائد تكيان، فــإن كل واحدة منها أشبه بقارورة عطر، ما إن تفتحها حتى تفوح في الجو روائح الجنة، وتذكــرك كل نسمة منها بأحلى ربيع شعري عرفته.

يقول في «أيها العصيان المقدس»:

كأنك اشتعلت ذات يوم فجأة
من شرارة سقطت من السموات البعيدة
وسط أكواخنا وخطواتنا ،و بيننا،
أيتها النار الملتهمة كل شيء...
أيها العصيان المقدس.

بلى، هذه النار الإلهيــة التي تشتعل في قلب الإنســان فلا تضــيء للقريب وحده، بــل يتوهج لهيبها في الكون كلــه، إنها النار المنعشــة، المطهرة، عــدوة الظلام والأغبياء واللصوص.

ويقول بدوي الجبل:

آمنت باللهب القدسي مضرمه
أذكى الألوهة فينا حين أذكاه...
تُزَيِّنُ الروح قربانا لفتنته
وقد يضن فتستجدى مناياه
ولو أقام الضحايا من مصارعها
لعاودت موتها فيه ضحاياه

العبقريات وهج من لوافحه
والشمس مجلوة إحدى هداياه
وتائهين بهدي من عقولهم
لو يمّموا اللهب القدسي ماتاهوا

وفيما هو ينشد روح المساواة ويغني لسيادة التكافؤ بين بني البشر، ويتمنى أن تنتشر العقلانية بالدرجة نفسها مع العالمية:

لتجر القوة مع العقل
ومع العقل ليجر الحب أيضاً
بالرابطة الوثقى لترتبط الأمم كلُّها
ولتُنْصَب تلك الخيمة...

فيما هو كذلك، متصوراً غاية الحلُم الإنساني، فإن ليل المأساة لا يغيب من ضميره، باحثاً عن فجر ينتظره:

والآن عندما يبزغ قريباً ذلك الفجر الأدنى
أعرف قوماً مشتتاً في كل أطراف الدنيا
سوف تستيقظ مهوده كلها ولحوده أيضاً
وتتنادى بهجة وحبوراً
من حفرة إلى حفرة، ومن سطح إلى سطح
ينادي الأب ابنه، والابن أباه....
الآن يستطيع هذا أن ينمو... ويرتاح ذاك بأمان.

....ولا يمضي قليل حتى يعود ذلك الصوت الإنساني الصافي إلى الصداح. وليست هي حكمةً يقولها شاعر محنك مجرب خبر الحياة والزمان وعركته الأحداث. بل هي أيضاً قصيدة هجاء للجشع والاستغلال، وضد المتخمين بالثروة، هؤلاء الذين أمسوا من فرط ماأتخموا أشبه بالجياع:

كم ألفَ جراب من القمح يجب أن تأكل
لتنضج وتغدو طعاماً للقب؟!
كم من المعارك الدامية القاسية، يجب أن تخوض
ليريح قلبك العجوز الترابُ... الترابُ فقط
ويصيح تكيان أيضاً صيحته المدوية ضد العواطف السوداء:
وأخيراً أيها الإنسان، حتّام
يجب أن تحرقك الرغبة والحب والحسد
حتى تطفىء لهيبك ديدانٌ لا تُعد ؟

.... وبعد هذا وذاك، فها هي ذي أغنية بني قومه تنبثق من أعماق نفسه، تنساب سَلِسة صافية كجدول ربيعي. إن الأمل يتفجر من قلب اليأس، والنهار يطلع من عتمة الظلام، ويجيء الخصب والنماء من أكوام الدمار والموت والرعب.. ولكن.. مهلاً، فإن نشيد الفرح لا بد أن يكون سيد الموقف:

هوذا نفَس الانبعاث ياأمتي المحطمة
بدأ يهب من الأفق على جسدك
قفْرٌ وصمتٌ، فالأرض ليست مهداً
بل هي لحد... الأرض حيث ضُحّيتْ بالأمس بلا رحمة.

..لكنَّ هذا هو نَفَس الانبعاث، ستشعرين به
حتى من أعماق قلبك المهترئة وعيونك الراقدة..
سوف تستيقظ عيونك الخابية
أمام النور المنبثق جديداً

❁ ❁ ❁

بهدوء... بهدوء، ستمر خطا طيف الربيع من السماء
خشية إثارة شديد الحزن في نفسك.
سيحط الغرنوق بهدوء قرب يدك
والبلابل ستشدو في البعيد شدواً عليلاً....

❁ ❁ ❁

قليلاً قليلاً... تُسوّى الآن خرائبُك
وتنبعث مساكبُ صغيرة من تحت رمادك
محاريثُ تتحرك في كل ناحية، ومجارفُ ومعاول
فالقمح غلالة سهولك النورانية الخضراء هذه...

بلى إنها الجراح تغسل، والدماء تجف، والقلب يصحو، والألم يتبدد، والفرح يتجدد.. والأمة تصحو.. كصبية تتزين أمام مرآة

أسلوب تكيان

السوريالية الذكية، العفوية الجميلة، تعلن عن نفسها بكل بساطة في أبيات تكيان:

أنا أيضاً في زمن ما
عصرت ماء من الحجر. لكني أريد الآن
أن يقف الماء عن الجريان..
ويغدو جماداً، يغدو حجراً

....لكنها -أي السوريالية- تتعانق أيضاً مع الرمزية.

وإنما يتجلى في أسلوبه التشخيص والأنسنة في أجمل الصور، ولا سيما قصيدته «المستنقع»:

عبثاً يتمنى المستنقع التحرك
عبثاً يبغي الوصول إلى شجرة الشاطئ
والانتشارَ بين أقدامها
فلا يكاد الأمل يُشرق حتى يغدو سبباً للحزن
وتغدو الرغبة فيه عذاباً عميقاً وعجزاً.

أليس هذا هو الإسقاط بعينه؟! ولكن مع ذلك.. هيهات أن يصل المستنقع إلى الشجرة..

ويستخدم الشاعر ما يسمى «التورية» ففي المستنقع، في طبقاته الرطبة، ديدان تتحرك، وضفادع لا تزال هناك تغني دوماً.. ولكن ليست هي التي يقصدها الشاعر الأغلب أنها ديدان وضفادع.. من بني الإنسان.

ودون تكلّف أو تصنّع، يعود تكيان بين وقت وآخر إلى نفَسه الرومانسي اللطيف:

تجري النبعة، تحدوها الرغبة في الاختفاء
تحت الطحالب والأزاهير؟
أكثر من رغبة اللمعان للشمس
الشمس الصغيرة التي تسقط أحياناً فيها..
تصبح كنزاً

كنزاً تريد النبعة إخفاءه تحت حصاة
تشعشع...

ثم مــاذا يريد الشاعر مــن دنياه، سوى الابتعاد عن ورم الــروح؟! إنه لا يطلب قوة ولا جمالاً، وهو بمزيد من التواضع لا يريد أكــثر من «هذا القليل..» مــن العقل «الذي أعطاه الرب إياه.. إذن ما الذي يبغيه»؟

إن أعطيتَني ذاك المال الوفير، فاعطني
معه قليلاً من الروح والضمير أكثر مما
عندي...
وكذلك قليلاً، أكثر مما عندي... من العقل...

كيفورك أمين:

كان هذا الشاعر أسعد حظاً من غيره من الشعراء الأرمن، فلقد ولد بعد المذبح البشعة بأربع سنوات، وصحيــح أنه أبصر النور في قرية.. لكنها كانــت تابعة لجمهورية أرمنية سوفييتيــة -سابقــاً- عاصمتهــا يريفان.. وهكذا استطــاع أن يحيا حياة هادئة هانئة آمنة وقدر أن يتابع دراسته الجامعية ويختص بالهندسة، وإن يكن حُبُّه الشعر، جعله يهجر المساطر والأكواس والمناقل والمثلثات، ليلتفت إلى عوالم الكلم المسحورة، يحكي من خلالها حكايــة أمّته، ويكشف القناع عن دنيا القلب وما يمور فيه من مشاعر والروحِ وما يجيش داخلها من أفكار. ولعل هذا هو الذي منحه هــذا الإيمــان اللامتناهي بقــوة الكلمات والحروف.. وكانت عباراته قوية معبرة حتى إن السيــد كورت فالد هايم أمين عام الأمم المتحــدة الأسبق، ورئيســ جمهورية النمسا الأسبــق أيضاً، لم يجد مــا يقوله في مفتتح خطابه الأول، بعد انتخابه أميناً عاماً للأمم المتحدة، سوى أشعار كيفورك:

في هذا العصر المضطرب
احذر يا صاحبي
عند تصرفك بالأغنية
حذرك في استعمال السلاح
فالطلقة النارية والأحرف المطبعية
تسكبان من نفس معدن الرصاص

..لــدى الشعــراء الأرمن عامــة، ولدى كيفورك امين خاصــة يدهشنا هذا التطلع المحرق إلى الموضوعيــة. وهو ليس تجريداً ذهنيــاً، أشبه بأوهام «بيركلــي» التي رثاها ناظم حكمت بسخرية... بل منتزع من واقع الحياة المتحركة... العابقة بالحرارة:

ساعدني على السير في هذه الحياة
في مستقيم الصراط
ساعدني على إيقاظي إن كنت نائماً،
ألاّ أفتح الباب إن كان مفتوحاً
ألاّ أقول: قد نفذت بما التزمت
ألا أقول: بكل إخلاص قد أحببت
ألا أقول: إلى المجد قد وصلتُ...

ألا أقول: كتبتُ الأغنية، وهي مازالت فكرة.

ألا أقول: هيأت الحجارة، وهي في المحجر.

وفي لفته سريعة مباشرة، يعود إلى أمته

وتاريخها القديم المغرق في العراقة:

تكلم يا وطني

أنت من رأى مآسي العصور فقط

وأفراح السنين. ..

قل كلمتك السامية وأطلق نداءك

إلى العالم، إلى جميع الأمم

❁ ❁ ❁

أتسمعون؟! في «التلة الحمراء»[٢] اكتشف

رفاقي،

بالأمس قبضة من القمح، بحبات الذهب

زرعها أجدادي، أسلافي

في «أوراردو»[٣] في مملكتي.

ويتدفق النغم القومي، في غير ما تعصب أو شوفينية... إنه يروم الحق وحده، ولايطلب سوى أن يوضع البذار في أرضه:

لكل فرد من أمتي نابض شُدَّ بقوة

وحفنةُ الشعب هذه، وقبضة البذار

الواصلتان إلينا، تشهدان

أن ما أضاعه الشعب، سوف يناله من جديد.

ورغم النزعة الإنسانية العالمية في شعر كيفورك امين، فإن مكان الصدارة يظل للوطن أبداً عنده:

لي مدن دون حدٍ وعدٍ

تحلم بعودتي

جبل «ماسيس»[٤] لم أصعده بعد

طريق لم أجتزها بعد...

كنوز الماضي: لم أنقب عنها.

على أن شبح المجزرة الأسود، لا يغيب من ذهنه أو خياله، فيظل مثل «مدام لأمارج» في «قصة مدينتين» ينسجه بحروفه الشعرية.. وهو ناقم ساخط لا على الجزارين وحسب بل.. حتى أولئك الذين صمتوا، وكان ينبغي أن يصرخوا بصوت عال ليفضحوا المجزرة ويسلطوا الأضواء على القتلة.. إنه ناقم على المزورين.. و

على هلال ذلك القمر اللطيف

الهلال الذي كان يساعد، منيراً

ساطور الجلادِ الذابح لقومي.

...على ذلك البلبل المغرد على شجرة «اوشفيتس»

عندما كانوا يحرقون الناس أحياء.

...على صحيفة ذلك الورق التي كانت صامته

عندما كانوا يحمّلونها الأكاذيب.

على أن كيفورك أمين لا ينسى من جانب آخر، أنه من أبناء القرن العشرين، فإذا هو، يشابه ناظم حكمت حتى في عنوان قصيدته «القرن العشرون» وإن تكن رؤية كيفورك تأتي من منظور مختلف إلى هذا القرن، وتتميز بأن الشاعر الأرمني نفحها مزيداً

من التفاصيل تفتقر إليها قصيدة ناظم. إن هـذا القرن الذي أوجـد النور وارتفع حتى ناطحات السحاب، هو نفسه بالذرة والتسلط عاد بالإنسان إلى ظلمات الكهوف... وهاهو ذا يجد الفرصة سانحة لإجراء هذا الجناس البديـع بين «نيـون» و«نـيرون» ضوء الحق الساطـع وعتمة التسلط والبغـي والقتل.. إرهاب الغستابو، ومذابح الأرمن الفظيعة.. كل هذا كان في القرن العشرين. وكانت أيضاً مدائحُ لساقيّ «بريجيـت باردو» ولكن فوق نعش إنسان يقتله السرطـان. ومن الناحية الأخرى:

عواءٌ لألحان الجاز الجنونية

ولرقصات التويست

على رطيب قبور الأعزاء....

في الوقـت نفسه، يعلن كيفـورك أمين موقفاً معاديـاً من الصهيونيـة، هذه التي تريد أن تستغل وتسخر حتى المقدسات، من أجل دعوتها الزائفة الباطلة:

سجل للتاريخ

كتبت على هامش «التوراة» الطاهر

عبادة الأرداف وسندات تمليك الرؤوس

إنـه يـرى في القـرن العشريـن ذروة التناقضات: إنه آلة تفكر، وإنسان آلي، ثملٌ بالدماء من دير الزور حتى أوشفيتس، تحرير شعوب مستعبدة، واسترقاق جديد للأحرار، نور إلهي للفكر الإنساني، وحاجبُ نورٍ يصنع من جلد البشر... بلى إنه عصر الصور التي تشوهت على جدران الكهوف.

ويعانق الشعر الفكر والفلسفة والصوفية عند كيفـورك أمـين في سيمفونية الوجود الواحدة:

تقول السماء وهي تختال:

مسكينة أيتها الأرض، أفيك شيء للمديح؟!

لي ألف نجمة وشهاب..

وأكثرَ منها: ضوء القمر.

تسمع الأرض وتقول:

لا يليق التعالي بأصحاب المعالي

على صدري كل زهور الحقول

وأكثر منها: تموجات الأشجار

ومع أن هذه القصيدة «السماء والأرض» هي من شعـر الشباب وقد كتبهـا الشاعر بين عامـي ١٩٤١ - ١٩٤٤ بذلك الأسلوب التصاعدي، حيث تتصاعد الصور وتتشابك وتتراكـب مع النفَس الشعـري، في ما يشبه الرباعيـات.. إلا أن النضج الفني والفكري هو سِمَتُها الأوضح..

خيراً ما فعلت

فأنا وروحي، الإنسان هو سيد الأرض والشمس

أنا أمتدح الأرض والسماء

وأكثر منهما: أمتدح الإنسان.

وعند كيفـورك أمين تطلـع الحياة من

عتمات الموت، والأبيض من الأسود، والطري من الصلد القاسي، في جدلية جميلة مقنعة. وهذا هو جواب السؤال: أين حكمة الحياة؟

أنْ تزهر الشجرة على صدر الصخر الصلد
وتزين الصخرة بأزهارها
أن تمنح ظلَّها لمن يستظل بها
أن تهبَ ثمارها لعابري السبيل..

بلى... إنَّ ههنا في الطبيعة شيئاً يختلف عما في الحياة، ولعل الشاعر يريد للحياة أن تجري هكذا على هذا المنوال، فليس كل شي بثمن. في الطبيعة كل شيء حر... ومجاني.. وهي تمنح نفسها، بتلقائية كونية آسرة:

..حكمة الحياة، بل حكمة الطبيعة:
في أن يذوب الثلج ويغدو ساقية
وتصبح الساقية جدولاً مجنوناً
والجدول نهراً، يروي مروجاً ومصاطب للخضار
..أن يترنم بحكايات في الطاحونة القديمة..
وقبل أن يقذف بنفسه في الهاوية
لِيغْدُ قوس قزح، ليغدُ زبداً ودوياً
ليغد نوعا من الفن والروح
لم يحلم بهما.. أي رسام
يغيشه تشارنتس

على الرغم من أنه ابن القرن العشرين تماماً، إلا أن تأثيرات القرن التاسع عشر كانت واضحة البصمات في شعره ولاسيما الرومانسية الفرنسية، وإنما يتجلى ذلك في شعره الملحمي الذي غنى بطولات الناس من أجل الحرية.. ههنا يتلاقى طموحان قويان: الحرية والغد الأفضل. فإذا أضفنا إلى ذلك ويلات الحرب العالمية الأولى التي ذاقها تشارنتس بنفسه عندما أسرع «إلى التطوع فدائياً في الفرقة السابعة للفدائيين الأرمن المحاربين إلى جانب الجيش الروسي» ضد الألمان والأتراك في جبهة القوقاز فإن الصورة تغدو أوضح ،كما يقول الأستاذ نظاريان فإن الشاعر فعل ذلك «وكله أمل وإيمان بأن ساعة تحرر قومه من ربقة الاستعمار العثماني قد حانت». ويستطرد قائلاً: «دانتي تخيل الجحيم وتشارنتس ذاق مرارته. عاش فيه، وشاهد هذا الجحيم الحقيقي، حيث مدن تدك، وقرى تحترق، وأشلاء الجثث تتطاير مع أشلاء القنابل»

لماذا هذا الحلم المدمر للعالم
معلق فوق رؤوسنا بعشوائية
لماذا ينشر كل هذا الدمار وهذه الآلام.
وهذه الرياح الشريرة متى ستكف عن العصف
ومن يحيك هذه المؤامرات
ويحيل إلى جحيم لعين، هذه الحياة؟!

..ما إن انتهت الحرب الأولى الكونية، حتى انتقل تشارنتس إلى حرب ثانية، هي الحرب الأهلية التي عصفت بروسيا والشرق.. والاتحاد السوفييتي، الدولة الجديدة الناشئة.

.. إن الشاعـــر ما يزال يبحث عن الحلم الصعب. ما يبرح يداري الطموحين الحارين في أعماقه: الحرية، والغد الأفضل، الحرية هي اكتمـــال نيل الوطـــن الأم حريته ولأمه الجراح الناخـــرة في الأجساد والأرواح، منذ ذلك الفجر الحزين ٢٤ نيسان ١٩١٥. والغد الأفضل صار اسمه بناء الاشتراكية. أضحى شيئاً أكثر تحديداً وواقعية.. وهاهو تشارنتس «عام ١٩١٨ يتطوع في صفوف الثوار، ويخوض معمعة الحرب الأهليـــة لإسقاط القيصرية ولهدم الماضي البغيضـــ، في سبيل مستقبل مشرق جديد. وفي خنـــادق الحرب الأهلية، ومـــن صفوف الثوار الذيـــن يدكون حصون الاستعبـــاد، ويزحفـــون نحو فجـــر ملحمي جديد، نحو شمســـ الحرية ببطولات نادرة ولدت قصيدة: «الجماهـــير المجنونة». إنها مجموعة أناشيد ملحمية للثورة.

إن النفســـ الملحمـــي، الـــذي ينفـــخ في جمر البطولة، ويتقـــرى تضحيات الرجال، جماعات وأفـــراداً، يلف القصيدة من ألفها إلى يائها، ولكـــن النفحة الرومانسية تزينه، وتعطيه تلونه القزحي، وتجعله أكثر قرباً من الأفئدة والأرواح:

كان مساء أحمر كالجمر
الشمس اللاهبة تتوارى في المغيب
وضباب أحمر دامي الأرداء
يلف منتشراً أرجاء السهل
كأنه سم زعاف عصر من مهجة لهيب الشمس
والشمس المتأججة كانت تنحدر نحو المغيب
صابغة وجه الفلاة بالدم
كأنها أتون أحمر يشتعل في الأفق
ينشر على السهل لمعان بريق كالدم.

إن تشارنتس في هذه القصيدة الملحمية يضع يـــده على نبض الجماهـــير الهائجة. إنـــه يحاول أن يستكنـــه روح الثورة. أو ليس في الثـــورة شيء من اللاعقـــل، من الغضب المجنون، إذاً، هي الجماهير... هكذا:

في ربوع ذلك السهل القديم
كانت الجماهير المجنونة تقاتل
وشمس الأصيل تغمرهم
ونار المغيب تحرقهم

إنهم سيواصلون المسيرة الثائرة. متجهين نحـــو المدينة الكبيرة، لكـــن.. أي مدينة هي هـــذه التـــي لا يسميها الشاعـــر؟ وهل ثمة مدينـــة حقيقية في الأرض يمكـــن أن تكون عاصمة للظلم والطغيان والاستغلال؟!

أغلب الظـــن أن تشارنتس، يبني مدينته هذه في عـــالم الوهم والخيـــال، ويبلور فيها كل ملامـــح الشـــر والسوء، فـــكأن الثوار إذ يدمرونهـــا، فإنما يدمرون نظامـــاً بعينه.. قائمـــاً في التجريـــدات الاجتماعيـــة - الاقتصادية - السياسية:

سيزحفون قدماً الآن، وسيحتلون المدينة
الكبيرة
وسيصبون عليها المرارة المستقرة في نفوسهم
منذ آلاف السنين
سيهدمونها، سيدمرونها، سينشرون الغبار
على أطلالها
سيهدمون تلك المدينة القائمة
منذ ألف سنة، وسيدمرونها
سيحرقونها وسوف يرقصون
على حرائقها بجنون..

بلى إنهم يريدونه انتصاراً مؤزراً. انتصاراً يديل دولة الظلم والطاغوت إلى غير رجعة. انتصاراً يختم الباب القديم بالشمع الأحمر ويقفله إلى الأبد. ولذلك فإن هؤلاء الثوار:

من جديد سيحرقون بقايا رمادها المتعالية
لئلا تبعث الحياة القديمة
من جديد، من بين الرماد
وسوف يذرون في الرياح ذلك الرماد
لتحمله إلى البعيد...
ولئلا تعود به.. من جديد

وهذا البعد الاجتماعي الثوري يبدو واضحاً في قصيدته «بذار وجميع الحقول». ههنا يتحدث تشارنتس عن هؤلاء الذين:

مع انبثاق الصبح كانوا ينهضون،
عندما كانت الشمس تبدأ في الصعود
وحتى المغيب، وحتى المساء يبذرون
بذارهم بالآهات
ويتجسد العِوز في عيونهم، والطبيعةُ
ومؤامرات الإنسان اللا محدودة
..إنهم أسرى عناصر العداوة،
إنهم أسرى الإنسان المستثمر

وماذا بعد؟ إن الشاعر الفرنسي الكبير أراغون يرى أن تشارنتس هو من مؤشرات الأسماء الساطعة التي تحملها جبهة عصرنا... ويضعه جنباً إلى جنب مع ايلوار وآبولينير من فرنسا، وريلكه من ألمانيا ولوركا من إسبانيا ومايا كوفسكي وييسينين من روسيا. ثم يستطرد قائلاً: وفي كل مرة يخبو نور واحد من هؤلاء المنيرين يخيل إليّ أن الظلام يسود العالم، وهو من جانب آخر «أسس مدرسة شعرية جديدة في الأدب الأرمني خاصة، وفي الأدب السوفييتي عامة، بمضمون ثوري جديد» على حد تعبير نظار نظاريان.

هوانيس شيراز

لاشك عندي أن الأم هي أحد المفاتيح الهامة للوصول إلى عالم شيراز الداخلي، واستبطان أسراره الشخصية المغرقة في ذاتيتها.. وهذه هي أم الشاعر بالذات،

والأم المطلقة في وقت واحد. الأم عنده هي المعادل الموضوعي للوطن والحي والحبيبة والأخلاق والضمير، وكل ما هو حي نير بديع في العالم الإنساني

ومثلما يفعل بعض الرسامين، إذ يحددون ملامح الشخص بخطوط قليلة، فكذلك يفعل هوانيس شيراز. بسطور قليلة يختزل مأساته مع الأم:

يا ذكريات طفولتي الأليمة،
وأنا صبي يتيم في غياهبك
لكني ذات ليلة ليلاء
هربت من الميتم
حاملاً في فؤادي شوقي لأمي
تجولت في أرجاء المدينة
فلم أجد غير حورتنا
وكوخنا الخرب

وفيما يرفعها دفعة واحدة إلى مستوى الرمز الإنساني الأعلى إذ يحس من خلال أمه بكل الأمهات، ويرى أنه بتغنيه بأمه إنما يتغنى بجميع الأمهات، فإنه من جانب آخر يضفي عليها بعداً آخر، فيجعلها مثالاً للوفاء المطلق والحنان المطلق:

آه كم رآينا من أبناء عاقين
أمٌ عاقة؟! لا! أبداً... حتى بين الأفاعي

وفي القصيدة نفسها، يبصر الأم من منظور فني، متذكراً ما قال الشعراء بالأحب الأقرب إلى قلوبهم:

تغزل الشاعر صيات نوفا. بحبيبته..
وتغنى الشاعر ناريك بربه، والخيام بخمره
قلت لنفسي: تغن بأمك أيها الشاعر
حتى تصبح أماً: الحياة والمرأة

ويبدو أن الطفولة الشقية القاسية التي عاشها هذا الشاعر، جعلت صورة الأم أشبه برؤيا القديس المنقذ. حتى في الحلم فإنه لا يرى سواها. وهي هنا ليست أماً فحسب بل ضمير ووجدان أيضاً:

رأيت في ما يرى النائم
أن قرع بابي. قلت: من القادم؟
امرأة عجوز من خلف الباب
قالت: أفديك بالروح والقلب
أحْسن إليّ بكسرة من الخبز..

بلى إنها أم الشاعر المتوفاة، وقد جاءت في الحلم في صورة سائلة، لأنها تريد أن تختبر ابنها :

بصورة سائلة أتيتك
ليعرف الناس أيضاً ضميرك
أباقٍ يا بني، ضميرك أنت
أم إنه بموتي... قد مات؟

ويظهر في الحلم الأب أيضاً، إلا أنه هنا يمثل شيئاً آخر، العنفوان القومي والإباءَ

ونداء الوطن للحرية والتحرير. ولكنه ليس «اراكاتــز»[٥] هذا الجبل الأرمني القريب بل «آرارات»[٦] ذلك الجبلُ المغتصب:

رأيت أبي في حلمي
فظهر لي..
..برغبة ورهبة، ارتميت في أحضانه
فقام من اللحد واحتضنني.
..سكبنا معاً أمرّ الدموع وأحلاها
فرأى جبل اراكاتز وابتسم بحنان
قال: ما زال ابني على قيد الحياة..
لكنه عندما نظر إلى الجبل المغتصب
نظر إليَّ أبي العجوز نظرة الغضب
قال: كيف تدعي بأنك ولدي
بينما نصف دارنا ما زال في الأسر؟!

.. ماعــدا هذه اللفتة تظل رؤيا الأم هي المهيمنة المسيطرة على روح الشاعر وفؤاده، حتــى حين يريد أن يتغزل: إن حياة تساويها قبلة من فتاة، فــلا حياة بلا حب، ولا حياة بــلا امرأة.. إن الإنســان سيجد امرأة على نحو ما.. أما الأم فكيف يجدها؟!

المرأة حب، تجلب الحظ، إن أحببتها
وبلا امرأة، تغدو مثلي، قليل الحظ
الحق أقول: ستجد امرأة، وإن غدتْ
حظاً، صعب المنال..
لكن.. أمّ! لا.. لن تجدها

..إن شــيراز يذهب أبعد مــن هذا، فلو نصب في الفضاء ميزان كوني عظيم، ووضع في إحدى كفتيه حب الأم، وتوالت على الكفة الأخــرى ظواهر الطبيعــة العظمى، جبال هملايا، والبحار ومجــرات النجوم، لشالت واحــدةً بعد أخــرى، وظلت كفــة الأم هي الراجحة.. ولكن مهلاً.. فماذا لو وضع مكان المجــرة وهملايا والبحــار، حفنة من تراب الوطن؟ على رسلك يــا أخي، فالآن تتوازى الكفتان وتتعادلان.. لقد وضع الشاعر قبضة تراب، من تــراب وطنه اللامحدود، فجاءت الكفتان تتعادلان بالقبل.. لا.. لاشيء يعدل حب الأم سوى حب الوطن.. فهل رأيت أقدس أو أسمى من هذا الحب العظيم؟!

.. أمّ الشاعــر أيضــاً مصــدر الحكمة والإيمان. هي التــي تلهمه الصواب وتجنبه الخطأ:

ستؤمن بشيء ما يابني
ولو بالعدم لتشعر بالخوف.

❁ ❁ ❁

ستؤمن بصوت روح ما
ليغدو لك أباً، ولتبقى طفلاً دوماً

❁ ❁ ❁

ستؤمن بمطلق ما
ليروّعك، حتى لا تصبح كاسراً كالوحوش

❁ ❁ ❁

ستؤمن بشيء ما خيّرٍ

ليرد شرك، حتى تبقى خيراً..

ويستخدم هوانيس شيراز التشويق القصصي في معظم قصائده، ذاك أنه يستهل قصيدته، كما لو أنه راو يود أن يحكي حكاية «**زعموا أنهم أحرقوا على المشعل قلب فتى ثائر**» و«**رأيت في ما يرى النائم**» و«**عندما دخلت الدنيا من أرجوحة الفكر**» و«**أمي كانت تقول**». ولا يخفى ما يضفيه هذا الأسلوب من حيوية وحركية على جو القصيدة كله.

..من ناحية ثانية فإنه يغرف من التعبيرات الفولكلورية. ويخيل إلي أن هذا القاع الروحي هو واحد أو متشابه أو متماثل إلى درجة بعيدة في معظم بلدان الشرق.

تسأل الأم ابنها في سورية: كم تحبني. فيقول: قد الجبال. وتعود إلى سؤاله ثانية باحثة عن صورة أخرى، فيقول: قد البحر.. ولماذا نذهب بعيداً، وأمامنا، فيروز؟

«شايف البحر شو بعيد! شايف السما شو بعيدة!» وها ذا هوانيس شيراز، إذ يتحدث عن حب الأم، يستعير الكلمات نفسها: الجبل، البحر، النجوم.

.. وفي سورية أيضاً على سبيل المثال أيضاً، لا الحصر – يتحدثون عن التراب الخفيف، أو خفة التراب على جسد المتوفى المرحوم. وكذلك يقول الشاعر الأرمني الجميل:

من جديد مات أبي من الألم

قال: إن كنت تريد ياولدي

أن يصبح التراب خفيفاً على جسدي

لا تترك في الأسر النصف الآخر من داري..

وكما هو واضح فإنه يعني جبال آرارات..

.. وشيراز، مثل كثير من الشعراء الأرمن المعاصرين، تعبيري Expressionist حيناً وسوريالي Surrealist حيناً آخر:

بهسهة يتراكم الثلج تراكماً

ليغدو بكل بطء رخاماً

هو الخالق الباري

يخلق فوق أمي شاهد قبر.

❁ ❁ ❁

زعموا أنهم أحرقوا على المشعل

قلب فتى ثائر

زعموا أن رماد ذلك القلب

حملوه من على المشعل

إلى أم الفتى الثائر

..بكت الأم، فوق ذلك الرماد

وعندما تساقطت دموعها عليه،

بعث ابنها حياً، عاد إلى الحياة

الهوامش

١- محاضرة ألقيت أول مرة في مركز «أبي العلاء المعري» الأرمني في باب شرقي - بدمشق.
٢- هضبة بنيت عليها يريفان سنة ٧٥٠ ق.م.
٣- اسم لمملكة قديمة في أرمينيا القرن ٨ ق.م.
٤- اسم جبل آرارات.
٥- أحد جبال أرمينيا.
٦- جبال آرارات المعروفة.

المصادر

١- القرن العشرون -كيفورك أمين- ترجمة نظار نظاريان -مطبعة الشرق- حلب-١٩٧٩.
٢- صلاة أمام عتبة الغد -واهيان تكيان- ترجمة ودراسة: نظار نظاريان -الناشر: طوروس طورانيان- حلب ١٩٧٩.
٣- الجماهير المجنونة -يغيشة تشارنتس- ترجمة ودراسة: نظار نظاريان -مطبعة الثبات- حلب ١٩٨٣.
٤- نصب لذكرى أمي -هوانيس شيراز- ترجمة ودراسة: نظار نظاريان -مطبعة الشرق- حلب١٩٨١.

ليلى والمجنون
تراتيل العشق والجنون

عبد الفتاح قلعه جي

لم تحظ قصة عربية بالاهتمام والاستلهام مثلما حظيت قصة مجنون ليلى في الآداب العربية والعالمية، وحديث مجنون ليلى ورد في كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، وهو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري(؟-٦٨هـ/؟-٦٨٧م) وإن كان بعضهم كطه حسين ينفي وجوده ونسبة الشعر إليه، وهو شاعر غزلي نجدي عذري لم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد التي نشأ معها وكانت تكنى أم مالك.

مسرحي وناقد وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان مصطفى صافي.

صغيران نرعى البهم يا ليت أننا
إلى الآن لم نكبر، ولم تكبر البهم

وعندما كبرت ليلى حجبها أبوها عنه ورفض تزويجه إياها حسب التقاليد العربية، وزوَّجها ورداً بن محمد العقيلي، فهام قيس على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش، فيُرى حيناً في الشام وحيناً في نجد وحيناً في الحجاز، جاعلاً من وجه ليلى قبلته، إنه السحر الذي لا رقية له إلا الموت فناء في المحبوب.

هي السحر إلا أن للسحر رُقْيةً
وإني لا ألفي لها الدهر راقيا
خليليّ إن ضنّوا بليلى فقرِّبوا
لي النعش والأكفان واستغفرا ليا

ولم ينفعه أن أخذه أبوه إلى الحج لعله يشفيه من شغفه وجنونه، وظل على هذه الحال إلى أن وُجد ملقى بين الحجارة وهو ميت فحمل إلى أهله.

هذه القصة كتبها الشاعر أحمد شوقي مسرحية شعرية بعنوان «مجنون ليلى» وهو لم يخرج بها عن الاستنساخ في الأحداث وحتى في الأشعار أحياناً كما وردت في الأغاني، يقول محمد مندور: «كان باستطاعة شوقي أن يطلق العنان لخياله في تصوير الشخصيات، وإبراز سماتها النفسية وخصائصها الروحية، كما كان باستطاعته أن يتصرف في الأحداث التي تكوِّن الحركة المسرحية تبعاً للهدف الذي اختاره، كان شوقي يستطيع لو واتته القدرة أن يخلق في الأدب العربي الحديث من قصة المجنون وليلى مسرحية إنسانية عاتية تشبه روميو وجولييت التي خلقها شكسبير في الأدب الإنكليزي، ولكن شوقي الشاعر الغنائي الموهوب كان لسوء الحظ لا يملك شيئاً مما تميز به شكسبير من نفاذ البصيرة وتحليق الخيال، كما أن حصيلته من الثقافة الإنسانية العامة كانت ضحلة».

«ليلى والمجنون» هي أيضاً عنوان المسرحية الشعرية للشاعر صلاح عبد الصبور، صدرت عام ١٩٧٠ وخلاصتها:

في دار إحدى الصحف الثورية قليلة التوزيع التي كانت تصدر في القاهرة قبل ثورة ١٩٥٢م نتعرف على الأبطال: سعيد، وليلى، وزياد، وحنان، وحسان، وسلمى، والأستاذ، ونلمس فيهم جميعاً ذلك القلق الإيجابي الذي يعتمل في داخل نفوسهم، وينطبع على حوارهم وسلوكهم، ونراهم يتحاورون في حدة، ويختلفون في الرأي، ثم نراهم عاجزين عن الحب. ويقرر رئيس التحرير أن يفعل شيئاً من أجل هؤلاء الشبان فيختار لهم مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي، وكان قصده هو التوسط بالحب الذي

يفرضه هذا النص، وفي ثنايا الأحداث نرى علاقة الحب التي تربط بين سعيد الذي سيقوم بدور «قيس» وبين ليلى التي ستقوم بدور محبوبته «ليلى»، ونرى ليلى تذهب إلى سعيد في شقته بحثا عن الحب، لكنها لا تجد عنده إلا التآكل، والخراب النفسي، وتذكارات الطفولة السوداء، أما حسام أحد الصحفيين العاملين في الصحيفة من السجن فنعلم أنه كان على علاقة بليلى قبل سجنه، ومع تطور الأحداث نعرف أنه تم تجنيده لصالح السلطة ليتجسس على زملائه الثوريين في الصحيفة. وهكذا يحاول صلاح عبد الصبور في هذه المسرحية أن يجعل من بطلها سعيد نموذجاً للمناضل الوطني المصري قبل ثورة ١٩٥٢م، ونقرأ هذا الشغف بالجمال والبطولة على لسان ليلي حين تقول:

تلتفُّ حواليْكَ عيوني كالخيْطِ على المغزَلْ
ما أعرفُهُ أني أتخيَّلُكَ كثيراً في وحدتيَ الرطبهْ
أحياناً أتخيَّلُكَ كما أنْتْ
وكأنِّي أرسمُ صورتَكَ بأنْفاسي
جبهتُكَ المشرقةُ الصُّلبهْ
عيْناك الطيبتانِ المتعبَتانِ، وإرخاءُ الهُدْبِ المُثْقَلْ
شاربُك المُهمَلْ
كفَّاكَ المتكلِّمتانِ، وعيناكَ الصامتتانِ تُنيرانِ
وتنطفئانْ
مشيتُكَ المرهقةُ المتماسكةُ الخطواتِ
كمشيةِ جنديٍّ بينَ قتالَيْنِ مريريْنْ

تراتيل أراغونية.. مجنون إيلسا

قد يكون «مجنون إيلسا» للشاعر الفرنسي الكبير لوي أراغون أشهر أعماله الشعرية وأكثرها بقاء، بل إنه في نظر النقاد والباحثين في الغرب أحد أجمل الأعمال الشعرية على مدار القرن العشرين، ليس في فرنسا وحدها، بل في العالم قاطبة. وهذا النص الشعري الخالد يمتح من التراث العربي. فهو يقتبس حكاية مجنون ليلى بخطوطها العامة المعروفة، غير أنه يصور المجنون (قيس) تائها في دروب غرناطة الأندلسية وأزقتها وحاراتها قبل سقوطها بقليل على يد الملكين الإسبانيين فرديناند وإيزابيلا، وهكذا فإن أراغون كان في عمله هذا شاعرا عربي الروح والوجدان فتنته الأندلس، بجمالها وتاريخها ومعارفها وتراثها وشعرها الغنائي، وتشبع بروح العشق المبرح والذي يعتبر المجنون أبرز نماذجها. وإذا كان أدونيس يرى في الثابت والمتحول أن على الشعراء العرب أن يبنوا حداثتهم الشعرية في أفق الشعر الأوروبي. فإنه ومن

المستغـرب حقاً أن نجـد الشعر العربي هو الفضـاء الذي بنى فيه أراغـون بعضا من حداثة شعره وفيض وجدانه.

في الملاحظات التـي يوردها المستعرب الفرنسي جاك بيرك في دراسته عن «الزجل في الأندلس»، يقول أراغون إن أحمد بن بلاّ دعاه عام ١٩٦٢ لزيارة الجزائر. وفي مطار أورلي تراود أراغون فكـرة «مجنون إيلسا»، ترسم مرحلة ما بعـد تحرر المغرب العربي من الاستعمـار. يقول أراغـون: «أردت أن أشيد بهـذا التحرر لذلـك تعمقت بالشعر العربـي كما ترجمه مستشرقـون من أمثال لوي ماسينيون. دخلـت إلى مجاهل الكتابة والصرف والنحـو، وأعجبتني بشكل خاص الصوفيـة المشرقية كمـا تبلورت مع مجنون ليلـى، حيث سطر الشاعـر العذري هيامه بهذه المرأة المستحيلة، هياما يصل إلى درجة العبادة».

ويتأمل المجنون (قيس) في مصير آخر ملك عربي في الأندلس، وهكذا يتكلم أراغون على لسان شاعر ومغن تروبادور يجول في شوارع غرناطة واسمـه قيس بن الأمـير النجدي (يقابل قيس بن الملوح في القصة الأصلية)، يهيـم وجداً بامرأة تدعى إيلسا (تقابل ليلى في القصة الأصلية)، لن تتجلى على الأرض إلا بعد عصور، ويستبطن المجنون المستقبل، وتتلون نبوءاتـه بألوان الفولكلـور الشرقي الإسباني الأندلسي، فتصور تقاليد الأندلس وطقوسهـا وأساطيرها، كأننـا أمام فانوس علاء الدين السحري أو حكايات شهرزاد في ألف ليلة وليلة.

«مجنـون إيلسـا» تمثل ملحمـة الحب الروحـي النقـي الرائع في جهنـم الغرب المعاصر. وهي تزاوج بين التاريخ والأسطورة والشعر والنثر. كما أنها تبلور مفهوم الوطن الضائع والحبيبة الضائعة. ولكن من يعش في الألم يجب أن يؤمن بالزمن الجميل، ومجنون إيلسا تكتب تاريخا جديدا للحرية عبر هوية الوطن والقبض على أسرار المرأة المعشوقة. والمرأة ليست عروس القصيدة فحسب، إنها صوت الغابـة، والخيار المأساوي الوحيد في قدر يفتقر إلى النعمـة يقول أراغون: إيلسا كانت كرامتي أو الوعد بالكرامة، حزام أمان عاطفـي كي أعيش في حالـة من الدهشة، للحـؤول دون ذوبـاني في الغنـاء الخارجي للتاريخ:

أعطيني يديك من أجل القلق
أعطيني يديك اللتين بهما حلمت
اللتين حلمت بهما طويلا في وحدتي
أعطيني يديك ففيهما سلامتي
أعطيني يديك لعل روحي فيهما تنام
فلتنم روحي فيهما إلى الأبد!

بطل أراغون «المجنــون» يؤسس مفهوما جديــدا للحب في عصــر القهر والاستغلال والتكنولوجيا المدمرة، عصر المادة الجهنمي، أما إيلسا (ليلى) التي يتغزل بها فهي السبيل والنور لوعي العالم وتجاوز مآزقه وأزماته

يا حبي أنت عائلتي الوحيدة المعترف بها
من خلال عينيك أرى العالم
أنت تجعلين أمامي الكون محسوسا
وتعطين معنى فيَّ للمشاعر الإنسانية

ليلى والمجنون في منظومة نظامي كنجوي

انتقلت قصــة «مجنون ليلى»، إلى الأدب الفارســي، فــالأدب الأردي والتركي،حيث نجد تجليات لها في قصــة «وامق وعذرا»، رغــم ما يروى، من أن هــذه الأخيرة سابقة في التاريخ. يقول الأستاذ عبد السلام كفافي إن أول ظهور لقصة «وامق وعذرا»، كان في عهد الأسرة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ)، حيث قدمهــا لعبد الله بن طاهــر أمير خراسان من قبــل المأمون شخص علــى أنها حكاية صنفهــا الحكماء لكسرى أنوشــروان، فأمر عبد الله بغسل الكتــاب بالماء. ورغم ادعاء الأصول الفارسيــة كما يقال لهذه الحكاية، فإنهــا تشير إلى «ذلك اللون من الحب الذي يؤدي بصاحبــه إلى الجنون»، ونشهد كذلك هــذا التعاطف بين الإنسان والوحوش، وهو مــن الصور التي ظهــرت في قصة «مجنون ليلى».

انتشرت القصة من الفارسية إلى الأردية، لغة المسلمين الهنــود، والتركية، فنظم فيها الشعراء الترك وسنأتــي على ذكر بعضهم، ولا نجد أدلة على تأثــر «روميو وجولييت» بقصة المجنون، إلا أن قصة العشق المذكورة في «أنشودة رولان»، التي وقعت بين «رولان» وابنــة ملــك إحــدى القبائــل التركية هي قريبــة من قصة المجنــون إذ يصاب رولان بمرض لن يشفى منه إلا بعد تدخل الساحر «أستولفــو»، وهذا يحيل على نوع من التأثر بقصة المجنون.

حظيــت قصة مجنــون ليلــى باهتمام الشعراء الإيرانيين أمثال نظامي المولود عام ٥٣٥هـ/١١٤٠م والمتوفى عام ٥٩٩هـ/١٢٠٣م في «كنجة» وسعدي الشيرازي المتوفى ١٢٩١م، وأمير خســرو الدهلوي المتوفى ١٣٢٥م وهو من أصل تركي من بخارى، والشاعر الصوفي عبد الرحمن الجامي المتوفى ١٤٩٢م، وعبد الله هاتفي المتوفى ١٥٣١هـ وكان اهتمامهم بهــا لما تحمله من إشارات في العشق الباهر والمستحيــل الــذي يبحــث عنــه الصوفي، فأحداثها وشخصية المجنون وشخصية ليلى حقل واســع لاستنبات العديــد من الأسرار

الروحية والدلالات الباطنية والرؤى والكشوفات الإلهية.

نظام الدين الكنجوي المعروف بـ(نظامي) هو أمير الشعر القصصي بلا منازع كان متصوفا لم يطرق أبواب الملوك والأمراء، وقد ترك تراثاً شعرياً عظيماً في الشعر القصصي وصل جميعه، وهو خمس منظومات، اشتهرت باسم الكنوز الخمسة وهي: مخزن الأسرار (مثنوي حكميات وحكايات أخلاقية)، وقصة خسرو وشيرين، ومجنون ليلى، والصور أو القباب السبع وتسمى أيضاً بهرام نامة أي كتاب بهرام، واسكندر نامة أي كتاب الإسكندر.

أما منظومة مجنون ليلى للنظامي فإنها تعتبر منعطفاً في الشعر القصصي ومنها انطلق سائر الشعراء الإسلاميين بنظم هذه المأساة العاطفية. ومنذ ظهرت هذه القصة حققت نجاحاً منقطع النظير مما دفع الكثيرين إلى نسخها، كما ألحق بها النساخ خلال العصور إضافات كثيرة. ونظامي أول من أضفى على القصة طابعاً صوفياً.

في كتاب «الأنساب»، نقل السمعاني عن الجنيد قوله: «مجنون ليلى من أولياء الله تعالى، ستر حاله بجنونه». وفي «الفتوحات المكية»، استعاد ابن عربي حال قيس بن الملوح مجنون بني عامر صاحب ليلى في حديثه عن «قوة سلطان وحرقة لهيب نار الحب التي تحل على قلوب المحبين وتحرق كل شيء تجده ما سوى المحبوب». وهكذا تتحول ليلى في هذا السياق طريقاً للسالك قيس في التوحيد ليصل إلى محبوبه الواحد الأحد. وقد استعاد نظامي الكنجوي قصة

«ليلـــى ومجنون» في منظومـــة طويلة قاربت ٥٠٠٠ بيت.

في هذه المنظومة قيس يتقدّم من الكعبة ويدعوه والـــده للتضرّع إلى الله، علّه يحرّره مـــن آلام العشق. ولكن ما إن يسمع المجنون عبارة «عشـــق» حتى يبدأ بالبكاء، ثم يأخذه الضحك، ويشرع بالقفز والالتفاف كالثعبان، ثم يلمس بيده أستار الكعبة السوداء، وكأنها الحجاب المنسدل علـــى شعر ليلاه. وهكذا بدلا مـــن أن يشفى ازداد عشقه، لأن عشقه ليس أرضيا دنيوياً، وإنمـــا هو عشق وَقودُه نور الحق.

هذه الحادثـــة في القصة أغرت رسامي المنمنمات برسمها فقـــد استعاد الرسامون قصة حج مجنون ليلى إلى البيت الحرام في عشرات المنمنمـــات المرسومة على صفحات منظومـــات نظامي وجامي ومـــن سار على دربهم، مثـــل الشاعر التركمـــاني محمد بن سليمـــان فضـــولي، مؤلـــف «داستـــان ليلى ومجنون» في القرن السادس عشر.

ورغـــم الإبداع المتعدد والمختلف في هذه المنمنمـــات إلا أن الأساس يبقى ثابتا. حيث تحتل الكعبة الفضاء الأوسط للصورة، وقيس يتقـــدّم ليتعلّق بأستارها. أما في نسخة نص نظامي ومصدرهـــا مدينة هرات الأفغانية، فإننا نرى المجنون وهـــو يمسك بحلقة باب الكعبـــة أمام عيني والـــده، وحوله الحجاج يرفعون أيديهـــم نحو الأعلـــى. وفي نسخة أخرى تعـــود إلى منتصف القـــرن الخامس عشر، تحلّـــق الملائكة فـــوق الكعبة وتسكب عليها الذهب من الأطباق التي تحملها، كما في الصور الخاصة بالإسراء.

وفي نسخـــة نص جامـــي وتعود إلى عام ١٥٧١ في قزويـــن، تدخـــل ليلـــى العامرية فضـــاء اللوحة بلباس الحـــج، مشيرة بيدها في اتجاه قيس الـــذي يرفع ذراعيه نحوها، محدّقـــا في وجهها. والشاعر ينشد قصيدته اليائية الخالدة:

أراني إذا صليت يممت نحوها
بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
ومـــا بـــي إشـــراكٌ ولـــكن حبـــها
كعود الشجا أعيا الطبيب المداويا

يمهـــد نظامـــي لرواية الحـــج إلى مكة بمناجاة مؤثرة للمجنون العاشق وهو يخاطب محبوبته ليلى وقد تماهت بالكعبة فأصبحتا كائناً واحداً معاً فيقول:

«**يا كعبة القاصد المشتاق، وقبلة الحسان من كل الآفاق.**
حريم حبك حديقة الحرم، والمقيمون به كزوار الحرم.
جدائل شعرك عقد ذوي التيجان، ونفخ عطرك وَلَه المشتاقين،

وخلخالك الذهبي تاج الرؤوس، وسلسال شفاهك يغار منه الكوثر،

وكل شعرة من غدائرك كالليل البهيم مثار وله ألف مجنون مثلي.

وحين يفترّ ثغرك مبتسما فأيّ سوق لبائع الشهد!

قد عقدت الإحرام لبابك فجراً وأنا رضي الطبع جذلان، فقلت:

إذا تيسّر لي اليوم السجود على تراب ذلك الباب، فعلىَّ لله حجة وطواف.

والآن وقد نلت مقصودي، وتمتعت من وجهك بما أشتهي،

فأذني لي أن أشدّ الرحال إلى البيت الحرام».

وهنا تناجي ليلى العامرية حبيبها وتقول:

«يا من منهجك طريق الصدق، إنما حجك إليّ وحجي إليك.

ولأن يضئ محيانا نورُ التلاق، خير من أن يحترق قلبانا بنار الفراق».

ويصل قيس إلى مكة فيجد الحجاج وهم يطلقون أصواتهم بالتلبية، أما هو فكان يردد اسم ليلى. وعندما أبصر من بعيد سواد الكعبة، امتلأ سواد عينيه نورا، وتذكر جمال ليلى، فأطلق من حرقة الشوق صيحة، ثم أخذ بالطواف حول البيت، طامعاً بوصال قمر الحبيب، ويتعلّق المجنون بأستار الكعبة وهو يدعو:

«يا ربة الخدر، يا مزهوة الحجاب، ويا حلالة عقد حلقات الأسرار

مكانك بين أندية العرب، وبك كسدت سوق كل العجم».

ويتوب قيس إلى ربه، ويقول:

«يا من يولي وجوههم إليك العجم والعرب، وأرواحهم جميعا سكرى من الشوق إليك،

أصرف وجهي عن كل شيء، وأغسل صحائفي من كل كلام، إلا من هوى وجه ليلى، ومن نداءات الشوق إليها.

فليلى ملاذ أمل روحي، وكنز عيشي الخالد.

منها تستمد عيني نورها، ومنها يجد قلبي المضني روحَ القرار.

هي مَلِكة ولاية الجمال، وروح جسم العشق، غاية كل محب.

وما دامت ملكة فأنا عبد، وما دامت هي الروح فأنا بها حي.

وليلى مصباح الحياة، وباكورة يانع الثمار في بستان الأمل. فكل من لم يحي بها فهو ميت، وكل من لم يَعْرُه منه حرارة الشوق فهو بارد القلب.

ولو أن العالم كله على رأي واحد، وخرج عن قاعدة الوفاء لها، فحاشا أن أعيرهم أذناً، وحاشا أن أنساها لحظة».

تبدأ منظومة نظامي أو بعض رواياتها بمقدمة في مناجاة الله ومدح الرسول

(ص) ثم التغني بالخمرة الروحية واستعادة ذكرى من قضوا من الخلان، ثم يأتي على ذكر ملك ينجب ولداً اسمه قيس يرسله إلى الكتَّاب للدراسة عندما يكبر فيلتقي فيه بليلى فيعشقها حتى يصيبه الجنون، وعندما يخطبها له والده يرفض والد ليلى ويقول له: ابنك مجنون فاشغل نفسك بطلب شفائه قبل أن تطلب له قرينة. وهنا يهيم قيس في الصحارى والجبال، فيأخذه أبوه للحج لشفائه لكنه يعود يائساً. وقيس عند نظامي يؤمن بالقدر، وهذا العشق هو قدره، وكان عليه أن يخضع للقدر، وعندما ينصحه والده ووالدته بالصبر يقول:

لو خُيِّر القمرُ لم يَرُم عن أوج كماله.

أما ليلى فقد حرصت على الكتمان وكانت: «**تحترق بنار لا ضوء لها ولا دخان**» وأما قيس فإنه عندما منعه أهل ليلى من الاقتراب من خيام ليلى وتربصوا به الدوائر هام في الصحراء «**وانتقل من حب الذات وقيود النفس وثمل بخمر التجرد عن المادة**».

وعندما شاهد ابن سلام ليلى رآها آية في الحسن والجمال فخطبها من أبيها، وهنا جاء الملك نوفل وطلب الوساطة بين قيس وليلى وهددهم بالحرب فرفض أهلها ووقعت الحرب وانتصر فيها الملك نوفل وجاءه والد ليلى وعرض عليه أن يقتله ولا يلحق به عار هذا الزواج، وهنا تراجع الملك فالزواج لا يمكن أن يكون قسرياً.

تاه المجنون وعندما دعاه أهله للعودة إلى البيت قال:

«**على المرء أن يتحرر من الحاجة لئلا يصير عبداً للإنسان،**

فعش في عالم الزهد يصر سلطان الدهر لك عبداً»

طلبت ليلى أن تلتقي المجنون ذات مرة ولما التقاها وجدته وقد أقبل إليها مع قطيع من وحوش الصحراء وقال:

«**ها أنذا لا أنفك أدق طبول الرحيل**

فلا تودعيني قائلة: طبت مساء

فبدونك لا يطيب مساء»

ولما رأته مسوداً من الشمس قال:

«**إني لمحترق شوقاً إلى جمالك، ولهذا فأنا أسود مثل خالك**»

وقد قال ذات مرة لشاب حاول أن يثنيه عما هو فيه:

«**لا تظن أني ثمل وأني صريع الهوى، بل إنني سيد مملكة العشق،**

تجردت من أسباب المادة وربقة الشهوات،

وتخلصت من أوشاب النفس، وَوَردت سوق الهوى وهي كاسدة».

وفي قصة نظامي نجد قيساً يناجي ليلى في وحدته فيقول:

لا رفيق لي في وحدتي غير ظلي

ولن أسائل ظلي خشية أن يكون الظل عليَّ رقيباً

استعذب قيس العذاب، وإذا كان المجنون في الروايات العربية يخاطب الطير والحيوان والظلال والجماد فإنه في القصة الفارسية يؤنسنها ويشاركها وتشاركه الأحاسيس حتى إنه ليزجر صياداً كي يطلق غزالة وقعت في شباكه.

مات زوج ليلى من القهر فأرسلت ليلى إلى قيس بالخبر فبكى وضحك طرباً، ومرضت ليلى مرض الموت وأوصت أمها أن تجلوها عروساً لقيس لأنها ستسبقه إلى الآخرة، وجاء قيس إلى قبر ليلى ولازمه حتى مات فوقه، ولم يدر به أحد إلا عندما أصبح عظاماً فواروه الثرى بجانب ليلاه.

وتتابع المنظومة الحكاية فتأتي على قصة زيد صاحب قيس وأنه رأى في المنام ملَكاً يطلعه على أهل الجنة وملكين في مجلس طرب هما قيس وليلى يروي كل واحد للآخر قصته، ومعهما كهل يتعهدهما وينثر فوقهما الذهب،، ولما استيقظ زيد من النوم روى للناس هذا الحلم وأخبرهم بأمر قيس ومغزى هذا الحلم ودلالاته:

حتى لا يركن إلى اللذات في هذا العالم من يرنو إلى مكانه في العالم الآخر

فهذا عالم الفناء والهوان، والعالم الآخر هو عالم الصفاء والبقاء

في ختام القصة يقول نظامي:

أسلم نفسك لقدس العشق حتى تتحرر كل التحرر من ذاتك

وانطلق كالسهم حتى لا تسقط بعيداً عن الهدف

وبالمقارنة فإن ثمة فرقاً كبيراً في تناول قصة المجنون بين الأدبين العربي والفارسي، فالعرب اهتموا بالرواية ومصادرها وتقديم مأثوراتها كما سمعوها من الرواة من غير أن يتدخلوا فيها، بمعنى أنهم قدموها كمادة خام، أما الفرس فقد اهتموا بالجانب الفني الإبداعي وبالإثارة وتركوا العنان لخيالهم وأفكارهم مستلهمين خواطرهم في تنظيم الحوار والأفكار وعرض الآراء على ألسنة أبطال القصة، كما أنهم قربوا القصة من بيئتهم وعصرهم فقيس وليلى يجتمعان في أحد الكتاتيب كتلميذين في العاشرة من عمرهما ليتعلما، وقيس يهيم في جبال نجد المكسوة بالثلوج كما جاء في نص هاتفي.

وفي الأدب الفارسي كانت القصة فضاءً رحباً للتأمل وتحرير النفس والتفكير في الله، فلم يكن قيس في الصحراء يائساً وإنما

كان مسافراً نحو المحبوب (الله) عبر القلب والشعور، أما ليلى في الواسطة في هذه الرحلة الروحية، فقيس لم يكن مجنوناً وإنما كان عابداً زاهداً يبحث عن اليقين، ولهذا فهو لا يريد أن يشفى من العشق.

وتناول هاتفي قصة ليلى والمجنون، وهو عبد الله هاتفي بن أخت عبد الرحمن الجامي وكان شاعراً جيداً في نظم المثنوي بعد خاله وله على نمط مؤلفات خاله (هفت منظر) وكان خاله عبد الرحمن صاحب (هفت پيكر) ولكن هاتفي كان متأثراً بنظامي أكثر من تأثره بخاله الجامي، ومن جملة ما جاء به من جديد في نظمه لقصة ليلى والمجنون أنّ قيساً منذ طفولته لم يكن يستريح مع مربيته فهو دائم البكاء وهي لا تعلم سبباً لبكائه، حتى حملته يوماً امرأة حسناء بارعة الجمال، فكفّ عن البكاء، وتعلق بها، ورفض العودة إلى أحضان مربيته فعرف الناس أنه على الرغم من صغره يستريح إلى الوجه الجميل والصوت الدافئ، وتنبأ كل من عرفه أنه سيجن من الحبّ حين يكبر وهكذا كان.

أما الشاعر الآخر الذي تناول القصة فهو الشاعر التركي الأصل الهندي المولد والنشأة أمير خسرو الدهلوي، الذي هرب والده في فترة غزو جنكيز خان المغولي، من بلخ إلى الهند.

ولد أمير خسرو في الهند في فترة حكم الغزنويين للهند حيث انتشرت اللغة الفارسية انتشاراً واسعاً فكانت لغة أدب وكتابة وكان أبرع الشعراء آنذاك هو أمير خسرو الدهلوي وكان يحذو حذو الشعراء الإيرانيين، وكثير الإعجاب بسعدي، وتربطه به صداقة متينة. حتى إنّ سعدي رحل لزيارته من فارس إلى دهلي وكان خسرو يعد نفسه أحد تلاميذ سعدي.

اختصر أمير خسرو كثيراً من الأخبار المروية في الأدب العربي، وأضاف كثيراً من خياله وحرّف كثيراً من الأخبار التاريخية عن حقيقتها، فمثلاً لم يتحدّث الشاعر عن زواج ليلى بورد ولكن جعل قيساً هو الذي يتزوج. وجعل ليلى تموت قبل قيس وهي عذراء حين أبلغت كذباً أن قيساً قد مات، ويموت المجنون على أثرها. وقد اهتم الشاعر بصياغة القصة وبنائها الفني من جديد، وسرد الأحداث، أكثر من اهتمامه بتحميلها بالمعاني الصوفية.

لا شك أن الشاعرين أمير خسرو وهاتفي قد سارا على غرار نظامي ونهجه في ترتيب الأحداث وكان تقليدهما واضحاً فبدوا وكأنهما لم يرجعا إلى الأصل العربي عكس

الشاعر **نور الدين عبد الرحمن الجامي في منظومته «ليلى والمجنون» فقد نحا بالقصة نحواً صوفياً**، وبدا في عمله مبدعاً حين رجع إلى الأصل العربي فتأثر به، كما رجع إلى أعمال من سبقه من شعراء الفرس – ومن بينهم نظامي – فتأثر بها أيضاً، لكن عمله ينطوي على قدر كبير من الأصالة والإبداع، فله أسلوبه المكتنز المتفرِّد،وله شخصيته الإبداعية في العمل، وله أفكاره الخاصة في الفلسفة والتصوف وخاصة وأنه إمام الطريقة النقشبندية وقد بلغت الصبغة الصوفية عند الجامي أقصاها، ولم يكن مجرد راوية يحكي للقارئ أخبار ليلى والمجنون، بل كان مفكراً يحاول أن ينفذ من وراء الحوادث إلى نفسية الأبطال وقد ساق كثيراً من آراء التصوف على لسان المجنون. وفي هذه القصة فصل عنوانه: «قد وجد المجنون طريق الحقيقة» بين فيه أن الحبّ الإنساني هو طريق للحبّ الإلهي، وهذه الفكرة تتردد عنده في منظوماته الأخرى مثل«قصة سلامان وأبسال» و«قصة يوسف وزليخا» فهو يعيد باستمرار تقرير النظرية الصوفية: نظرية الجمال الإلهي والجمال الدنيوي.

ليلى والمجنون في الأدب التركي

حظيت قصة ليلى والمجنون بإعجاب واهتمام الشعراء الأتراك والذين يكتبون بالتركية الأصلية أو الآذرية، إما تقليداً لمن تناولها قبلهم أو للتعبير عن المواجد الروحية والفضاءات الصوفية، ونصادف قصة ليلى والمجنون لأول مرة بشكل حكاية تمثيلية في مصنفات كلشهرى وعاشق باشا وقد اتخذا من أحداثها وشخصياتها وعاء للتعبير عن الحب الإلهي انطلاقاً من معاني الحب الإنساني الذي تحمله القصة العربية، لتصبح مجازاً للوصول إلى مقامات وأحوال المتصوفة، وقد نظم كلشهرى من هذه القصة فصلا زهاء تسعة وسبعين بيتاً أضيف إلى نهاية مصنفه منطق الطير الذي ألفه في سنة ١٣١٣، وأضاف عاشق باشا ثلاثين بيتاً إلى نهاية مصنفه غريب نامه والذي أتم تأليفه في سنة ١٣١٢.

حوالي ٢٩ شاعراً في الأدب التركي نظموا قصة ليلى والمجنون ومنهم:

أدرنلي شاهدي (؟- ١٤٨٢): وهو من محبي المولوية ومريدي النشاطية، ولد في مدينة أدرنه، وكان كاتباً لسلطان جم وتوفي سنة ١٤٨٢. وكتب مصنفه ليلى والمجنون سنة ١٤٧٨ وعدد صفحاته ١٧١ صفحة وعدد أبياته ٦٤٤٦ بيتاً، وهي من أطول

المصنفات في موضوع قصة ليلى والمجنون. وبهشتي أحمد سنان: ولد في الفترة الأخيرة من عهد سلطان محمد الفاتح ومن أهم مصنفاته ليلى والمجنون مخطوطة في مكتبة جامعة استانبول. وحمد الله حمدى (١٤٤٩- ١٥٠٣): ومصنفه ليلى والمجنون كتبه في سنة (١٤٩٩- ١٥٠٠) تحت تأثير جامي وعلى منواله، وعلي شير نوائي (١٤٤١- ١٥٠١): وهو من كبار شعراء الأدب التركي الجغتائي، ولد في مدينة هرات

ومنهم أيضاً صالح جلال زادة (؟- ١٥٥٦) وخليفة ديار بكري (؟-١٥٧٢) وقد نظمه على منوال هاتفي وعندليب: نور محمد غريب (١٧١٢-١٧٨٠): وهو شاعر توركماني ولد سنة ١٧١٢ وتوفي حوالي سنة ١٧٨٠، له (ليلى والمجنون) و(يوسف وزليخا). وقد استند في كتابة مواضيع هذين الأثرين الأدبيين إلى التراث الشعبي وإلى الأدب الكلاسيكي، وغيرهم.

على أن أشهر من نظم هذه القصة هو الشاعر فضولي (؟- ١٥٥٦) ويعد فضولي قمة عالية في الأدب التركي، واسمه محمد بن سليمان، أما فضولي فاسمه الشعري، ولد فضولي في العراق، وقضى حياته في مدينة بغداد، وكانت بلاغته في العربية والفارسية لا تقل عن بلاغته في التركية. وقد طار صيته إلى الأتراك الغربيين في القسطنطينية، وبلغ أمره مسامع «السلطان سليمان» فأكرمه ورتب له معاشاً منتظماً. ويستخدم فضولي في أشعاره التركية الآذرية. نظم فضولى قصته على وزن الهزج كما فعل نظامي، ولغته التركية متأثرة إلى حد بعيد بالفارسية، وتعد منظومة فضولي جواباً لمنظومة نظامي. والجواب كلمة اصطلاحية تقابل النقائض في الشعر العربي، ولكنها شاعت بين الترك والفرس، ويقصد بها أن ينظم الشاعر المتأخر في الموضوع نفسه الذي نظم فيه الشاعر المتقدم وعلى الوزن نفسه، ولا يضيف فضولي جديداً من عنده على منظومة نظامي، لكن نظرته إلى ليلى مختلفة فهي كأي فتاة تتقلب في أحوال نفسية مختلفة كالفرح، والحزن، والحب، مما جعل صورتها أكثر حيوية وواقعية. كما اختلفت أيضاً شخصية المجنون لديه فهو لا يصوره يائساً متشائما وإنما يرفعه إلى درجة عالية في التصوف فيقدمه لنا إنساناً كاملاً.

ويصوّر الحب البشري بين قيس وليلى رمزاً للحب الإلهي، فقصة هذا الحب عنده تنتقل من معناها الإنساني لتصبح موضوعاً مجازياً للوصول به إلى فكرة أخرى تصوفية أرفع وأسمى.

وقد تأثر بنظامي بعدم الالتزام بوصف

البيئة العربية الصحراوية التي تجري فيها أحداث القصة، فنراه يصف السحابة في الربيع بأنها ترمي البراعم في الحديقة بأحجار من برد، ويتحدث عن رياح الشتاء العنيفة التي تضرب الحديقة بالنبال، والرياح ببرودتها القاسية تحول الماء إلى ثلوج.

ويصف فضولي في منظومته المجنون وقد رأى غزالاً يقع في شبكة الصياد، فمس هذا المنظر أوتار قلبه لأن عينيه ذكرتاه بعيني ليلى، وكان يراقب الغزال وهو أسير في شبكة الصياد فلا يطيق الوقوف ساكناً، فيتقدم من الصياد ليرحم هذا الحيوان البائس، ويأخذ في ملاطفته والتوسل إليه ولكن التوسل والتلطف لا يجدي مع الصياد شيئاً فيأخذ في التهديد والتوعد إذا ارتكب جريمة وأقدم على ذبح الغزال، ولكن الصياد يرفض التهديد كما رفض الرجاء. ويقدم المجنون إلى الصياد ما يعوضه عنه حتى يقبل أخيراً إطلاق سراحه فيقفز الغزال منطلقاً من الشبكة في غاية السعادة لا يصدق بالنجاة، فيناديه قيس، ويتحدث بجماله، ويدعوه أن يحل معه في مأواه، وأن يشركه مقامه، ويكون له أنيساً ورفيقاً. فلما أحس الغزال الأمان قبل دعوته. وكان يقيم معه إذا أقام ويخرج معه إلى الصحراء إذا خرج.

تراتيل سعدي الشيرازي

خصّص سعدي لموضوع ليلى والمجنون قطعتين في كتابيه، بستان وكلستان أي روضة الورد، أما القطعة الأولى فترجمتها:

قال رجل للمجنون، أيها المجنون الطيب الأثر، ماذا حدث لك حتى لم تعد تحضر إلى الحيّ، هل برحت سورة العشق رأسك وزايلك خيالها، فلا يبقى في قلبها لك من حبّ. وقد ترجمها إلى العربية الدكتور عباس العباسي الطائي أستاذ الأدب المقارن في جامعة طهران:

سأل المجنونَ بعضُ السائلين
لم لا تحْضُر في الحي لحين
هل نسيت الحبّ أم أن الخيال
زاغ عن ليلاك يا هذا وزال
فبكى المجنون من هذا الكلام
كفّ عني قال: يا هذا الملام
إن قلبي موجع مضني جريح
لا تزد للجرح ملحاً يا مليح
ليس هذا البعد سلوانَ الحبيب
علّ في الهجر دواءً كالطبيب
قال لا تَذْكرني عند الرفيق
إن ذكري لحبيبي لا يليق

في القطعة الثانية التي جاء بها سعدي في كتابه (كلستان) أن أحد الملوك سمع حديث ليلى والمجنون وكيف اضطربت حاله وأفلت من يده زمام اختياره وهجر الناس وسكن الفيافي على الرغم مما هو عليه من كمال في الفضل والبلاغة. فأمر الملك بإحضار المجنون، وأخذ الملك يلومه قائلاً: ماذا رأيت من خلل في شرف الإنسان حتى تطبعت بخلُق الحيوان وفضلت ترك عيش الآدميين؟ فصاح المجنون منتحباً:

وربّ صديق لامني في ودادها
ألم يرها يوماً فيوضح لي عذري

و البيت من شعر سعدي بالعربية، وإذا قارنا هذا البيت بالبيتين التاليين في ديوان المجنون نجد التشابه واضحاً:

فقالوا ولم هذا؟ فقلت من الهوى
فقالوا لحاك الله، قلت اسمعوا عذري
ألم تعرفوا وجهاً لليلى شعاعه
إذا برزت يغني عن الشمس والبدر

وأراد الملك أن يرى ليلى عن قربٍ فأمر بها، فأحضروها، ولما مثلت أمامه رآها امرأة شديدة السمرة نحيلة وأدرك المجنون بفراسته ما مرّ بخاطر الملك فقال له: يا أيها الملك يجب أن تنظر إلى ليلى من محاجر عين المجنون.

وهكذا فإن سعدي الشيرازي كان ينظر إلى قصة مجنون ليلى بنظر الصوفي الغارق في أسرار الحب والجمال والمعرفة، أما ليلى فهي قدسية الجمال، كأنّ جمال الخالق قد تجلى فيها.

أخيراً..

ما الذي جعل من قصة ليلى والمجنون موضوعاً خالداً، وغديراً لا ينضب معينه للمبدعين؟

لقد أصبح المجنون رمزاً في العشق والتصوف وعذوبة العذاب. وأصبحت ليلى درباً للسالك الصوفي، وأنموذجاً للحب المستحيل، وصورة للجمال الكلي. وشكَّلا معاً، في الشوق واللقاء والتنائي، إيقاعَ الحياة، الممتدة ما بين الحلم والواقع، في يوتوبيا منشودة مستحيلة.

المصادر

- أحمد شوقي، مسرحية مجنون ليلى.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني م٢، المكتبة العلمية.
- أراغون، مجنون إيلسا.

- جوبان أولخان، ليلى والمجنون في الأدب التركي.
- سعدي الشيرازي، ت: محمد الفراتي روضة الورد (كلستان).
- صلاح عبد الصبور، مسرحية ليلى والمجنون.
- طه ندا، الأدب المقارن.
- عبد الواحد وافي، مباحث في الأدب المقارن.
- عباس العباسي الطائي، دراسات مقارنة بين الأدبين العربي والفارسي. Iran Arabic radio
- محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية.
- محمد رضا شفيعي، الأدب الفارسي منذ عصر الجامي وحتى يومنا هذا، ت:بسام ربابعة.
- المنظومات الفارسية للشعراء الإيرانيين وترجماتها العربية.

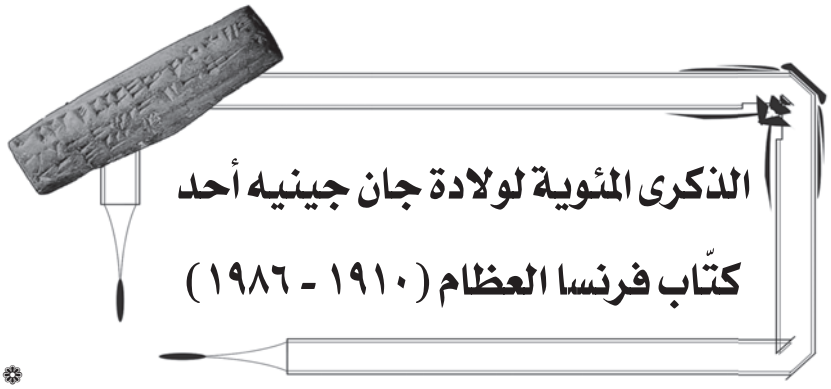

الذكرى المئوية لولادة جان جينيه أحد كتّاب فرنسا العظام (١٩١٠ - ١٩٨٦)

❁ إبراهيم سلوم

مــع نهاية العام الفائت ٢٠١٠م احتفلت الأوساط الثقافية العالمية بمرور مئة عام على ولادة الكاتب الفرنسي «جان جينيه» الذي يُعد أغرب شخصية في الأدب الفرنســي إذا لم يكن في العالم أجمع حتى يومنا هذا. فهو الإنسان الثائر والمنبوذ الذي شق طريقه في عالم الأدب عبر محطات حياته المتناقضة والمتضادة. وقد تمتــع وتميز بمواقف مصيرية قلما نجدها عند أديب آخر. فهنــاك جانبان في حياته لا يمكن إغفالهمــا: الأول يتجلى بالمفاهيم العبثية

❁ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

التي آمن بها. والثاني، بالأفكار والقيم التي انحاز إليها ودافع عنها طوال حياته، وهي أفكار متعلقة بقضايا الإنسان وحقه في الحياة. إنه شخصية واسعة الثراء درامياً بعد أن انعكست كل الظروف التي عاشها كلص عنيد متشرد وشاذ جنسياً، والتي كانت تعبيراً عن انتزاع حقه من مجتمع لم يوفر له الحياة الرغيدة والعيش الكريم- على مسيرة حياته وإبداعه الأدبي.

وخلال الستينات والسبعينات من القرن الماضي انشغل جان جينيه بالدفاع عن العديد من القضايا السياسية. فساند ثورة الطلبة التي اندلعت في ربيع عام ١٩٦٨، وعاضد حركة «بادر ماينهوف» اليسارية الألمانية، وحركة «الفهود السود» في الولايات المتحدة الأمريكية.. كما أنه شارك في العديد من التظاهرات المناهضة للعنصرية. وقد تعاطف جان جينيه مع القضية الفلسطينية التي سنخصها بمقطع كامل في إطار بحثنا هذا، وهذا ما دفعه للعيش في المخيمات الفلسطينية بالأردن ولبنان وقضاء أشهر طويلة مع الفدائيين. ومن وحي ذلك كتب «الأسير العاشق» الذي صدر عقب وفاته بأشهر قليلة. وعندما غزت إسرائيل لبنان في صيف عام ١٩٨٢، انطلق جان جينيه إلى بيروت ليكتب نصاً بديعاً عن مجزرة صبرا وشاتيلا. وقبل وفاته، أوصى جان جينيه بأن يدفن في المغرب، البلد الذي أحبه أكثر من كل البلدان الأخرى التي زارها، وأقام فيها. وهو يرقد الآن في المقبرة المسيحية بمدينة «العرايش» الواقعة على بعد ستين كيلو متراً جنوب طنجة. هكذا كانت حياة ذلك الذي قال ذات يوم: «**حياتي المرئية لم تكن سوى تنكرات محجوبة جيداً عن الرؤية**».

وضمن هذا السياق يعتبر جينيه الكاتب الوحيد الذي أثار بحق جدلاً كبيراً في أوساط المثقفين الفرنسيين حول المواصفات التي يمكن أن تُنسب إليه. بعضهم من وصفه بأنه لصّ، ورعديد، وشاذ جنسياً، لكنه لا يخلو من مواهب أدبية وفلسفية. والبعض الآخر نظر إليه نظرة «القديس» مثل الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر الذي نعته بعبارة «القديس جينيه».

وحقيقة الأمر أن جينيه كان يجمع في شخصه كل هذه المواصفات التي كان يتقبل سماعها بكل رحابة صدر. ومع ذلك يبقى كاتباً مميزاً ومسرحياً مجدداً وشاعراً وروائياً مشاكساً، وحامل راية الصراع بشتى أشكاله وحيداً كما جاء إلى هذه الدنيا الفانية.

ففي مذكراتها كتبت الأديبة الفرنسية الشهيرة سيمون دوبوفوار (١٩١٨-١٩٨٦)

تلميـذة جان بـول سارتـر ورفيقـة دربه، والمدافعـة عن حقـوق المرأة أنّـى وجدت، تقـول: «لقد سمعنا ونحن في منتصف العام ١٩٤٤ الحديث عـن شاعر مجهول من قبل الـرأي العام يُدعى جـان جينيه بعد أن تم اكتشافه مـن قبل الشاعـر الفرنسي جان كوكتو (١٨٨٩-١٩٦٣) الذي قرأ له قصيدته بعنـوان: «الرجل المحكوم عليـه بالإعدام» وأُعجب بها كثيراً».

في الواقع إن جـان جينيه عاش ظروفاً حياتية صعبة للغايـة انعكست بالتمام على مسـيرة حياته الشخصية والأدبية معاً حيث عاش طفولة مضطربة وقاسية جعلته يتنقل بين عدد من الأسر التي تولت رعايته.

سيرة حياة مليئة بالمصاعب والمغامرات المثيرة

منذ البداية وحتـى النهاية، كانت حياة جان جينيـه سلسلة من المغامـرات المثيرة، ومـن المصاعب والمتاعب المضنية. فقد ولد في يـوم الاثنـين ١٩كانـون الأول ١٩١٠ في أحد مستشفيات باريس. وبعد ولادته بسبعة أشهـر، وتحديداً يوم ٢٨تموز ١٩١١ أودعته أمـه التي كانت قد أعلنـت عن أنها عزباء، وأنها تدعى «كامي جينيـه» ملجأ للأطفال واختفت من دون أن تخلّف أي أثر. وعندما توفيت عام ١٩١٩ اكتشف أنها أنجبت طفلاً آخـر من أب مجهول تماماً مثلما كان الحال بالنسبة لطفلها الأول. وبما أنه مجهول الأب فقد نسب إلى أمه فأضحى اسمه جان جينيه. كان جان جينيه لا يـزال في طور الرضاعة لمـا احتضنته عائلة صغـيرة كانت تعيش في إحدى القرى. كان ربّ العائلة ويدعى «شارل رينيـه» يعمل نجاراً. أمـا زوجته «اوجيني» فكانت تدير محـلاً لبيع التبغ. وفي المدرسة التي دخلها عـام ١٩١٦ أظهر الطفل الذي حُرم منذ أن فتح عينيه على العالم من حنان الوالدين نبوغـاً في الدراسة لفت إليه نظر معلميـه والبعض من زملائـه في الدراسة. وهؤلاء جميعاً سوف يتحولون في ما بعد إلى أبطال في رواياتـه ومسرحياته تحت أسماء مستعارة.

وكان جان جينيه قد بلغ سنّ العاشرة لما شرع يسرق كل ما تقـع عليه يداه من أقلام ومـن محابر ومن قطـع نقدية صغيرة كانت العائلة التي احتضنته تضعها على الطاولة عنـد مدخل البيت. وبتلـك القطع النقدية كان يشتري حلويات يوزعها على زملائه في المدرسة، وقد كتب فيما بعد يقول:

«في سـن العاشرة كنت أسـرق، من دون تبكيـت ضمير أناسـاً كنـت أحبهم وكنت أعلم أنهم فقراء. وقد انتبه الناس إلى ذلك ووصفوني باللص. وأنا أعتقد أن كلمة لص جرحتني وأوجعتني كثيراً».

وثمة حادث عاشه آنذاك سوف يرسخ في الذاكرة لأمد طويل وهو يرويه على النحو التالي: «لقد أدركت وأنا طفل صغير أنني لست فرنسياً، وأنني أنتمي إلى قرية. وقد أدركت ذلك بطريقة ساذجة وغبية. ففي أحد الأيام طلب منا المعلم في المدرسة أن يكتب كل واحد منا موضوعاً إنشائياً يصف فيه بيته. وحدث أن كان موضوعي هو الأفضل والأجمل بين كل المواضيع التي كُتبت عن الموضوع المذكور. وقد قرأه المعلم بصوت عالٍ إلاّ أن جميع التلاميذ سخروا مني قائلين: «لكن هذا البيت الذي يصفه ليس بيته. إنه طفل لقيط». وعلى أثر ذلك حدث فراغ رهيب لدى الطالب الموهوب جينيه. وفي تلك اللحظة بالذات كره فرنسا. وفيما بعد سوف يقول إنه تقيأها!

وعندما بلغ سن الثالثة عشرة، عُمّد جان جينيه في كنيسة القرية على أمل أن يكون كاثوليكياً مثالياً. وبعد أن حصل على الشهادة الابتدائية في العام نفسه بتفوق انقطع نهائياً عن الدراسة، ليبدأ مرحلة جديدة في حياته الشقية.

أمام مصاعب الحياة كان على جان جينيه أن يمارس مهناً مختلفة غير أنه كان سرعان ما يفرّ منها هارباً ومعلناً لأصدقائه أنه يودّ السفر بعيداً للعيش في مصر أو في أمريكا. كان سلوكه يثير حفيظة الكثيرين. أما هو فلم يكن يعبأ بكل ذلك. كان يجد متعةً كبيرة في قراءة الروايات البوليسية أو تلك التي تتحدث عن مغامرات عجيبة في أعماق البحار والمحيطات، أو في الأصقاع المكسوة بالثلوج، أو في صحاري الشرق حيث يكتوي الناس بلهب الشمس. ومراتٍ عديدة عثرت الشرطة على الفتى الطائش في المحطات وفي القطارات وهو لا يدري ماذا يفعل هناك وإلى أين هو ذاهب. وفي عام ١٩٢٥ أقام عند موسيقي أعمى وبمساعدته تعلم فنّ العزف على الأدوات الموسيقية. غير أن إقامته عنده لم تدم طويلاً بسبب سرقته لمبلغ مالي أهدره في حفل سوقي. بعدها وبسبب السرقات التي كان يقدم على ارتكابها دخل السجن أكثر من مرة. وفي السجن المخصص للفتيان الذين هم دون الثامنة عشرة أمضى عامين في إصلاحية للأحداث. حيث عاش تجارب مهمة سوف تصبح في ما بعد مادةً لكتاباته الروائية والشعرية. وفي هذه الأثناء أظهر جينيه استمتاعاً بقراءة قصائد الشاعر الفرنسي (رونسار) مشدداً على تعلقه باللغة الفرنسية الكلاسيكية، هذه اللغة النقية والثمينة التي كان يتعامل معها بكل عبقرية وموهبة وكأنها السيف الذي يجب حمله في وجه هذا المجتمع القبيح الشكل. وبعد

خروجه من الإصلاحية أُستدعى إلى خدمة العلم في عام ١٩٢٩ حيث انضم إلى الفيلق الأجنبي في الجيش الفرنسي. ومع بداية عام ١٩٣٠ أُرسل إلى بيروت ومن هناك إلى دمشق التي مكث فيها عاماً وشهراً اعتبرها في مذكراته إحدى أسعد فترات حياته. وسرعان ما حركت في نفسه مظاهر القمع والاضطهاد التي كان يلقاها السوريون على يد المستعمر الفرنسي - أوجاعَ الاضطهاد التي كان يلقاها في سجن الأحداث بباريس، فتحركت نفسه تجاه الضعفاء تلقائياً. ولأنه كان يتعلم العربية فقد كان مسموحاً له بالخروج ليلاً. وكما صرح في مقابلة صحفية كان شباب دمشق يجدون متعة في صحبته في هذه الليالي وهم يجولون معه في الخرائب التي أحدثتها مدافع المستعمر الفرنسي في أحيائهم السكنية. ونظراً لتعاطفه مع المناضلين السوريين تم ترحيله إلى فرنسا في العام ١٩٣١ ليمضي مدة شهر نقاهة، كما عبر عن ذلك في روايته «العاشق الأسير»، لكنه لم يعد بعد ذلك إلى سورية بل إلى المغرب العربي. ففي هذه الرواية عبّر جينيه عن كيفية اكتشافه للعرب السوريين المضطهدين ونظرة الاستعمار الفرنسي الذي كان ينظر من خلالها إلى المُستَعمرين وكأنهم كائنات قاصرة عقلياً لا يليق بها سوى القهر والإذلال، بينما لم يكن يملك جينيه سوى التعاطف معهم في حين كان ينمو في أعماق قلبه حقد أسود على وجه بلاده الاستعماري.

و على هذا النحو جاء تعلقه بالعالم العربي، وبثقافته، وحبه لأهله، وانتصاره لقضاياهم السياسية مرتبط بالخصوص بتلك الفترة التي أمضاها في بلاد الشام، والتي كانت من أسعد الفترات التي عاشها منذ ولادته وحتى مماته. والجدير بالذكر أنه بعد الفترة التي قضاها في سورية صدر أمر بنقله إلى المغرب العربي حتى تاريخ صرفه من الخدمة العسكرية في عام ١٩٣٣ لأسباب انضباطية. وعندما عاد إلى فرنسا في العام نفسه التقى جان جينيه بالكاتب الكبير «أندريه جيد» الذي كان قد فتن بمؤلفاته في سن مبكرة. بيد أن جينيه لم يمكث غير بضعة أشهر في باريس. بعد أن قرر أن يسافر هذه المرة إلى ليبيا. غير أن مشروع رحلته مُني بفشلٍ ذريع. فعند وصوله إلى إسبانيا عرف الجوع، وأمضى أياماً عصيبة أُجبر خلالها على النوم في العراء. وكان عليه عندئذ أن يعود إلى الحياة العسكرية من جديد كمتطوع في الجيش الفرنسي ليجد فيها ما يمكن أن يبعد عنه شبح الجوع والتشرد. وفي هذه الفترة، انكبّ على قراءة

كبار الكتّاب الفرنسيين والعالميين. وكان الكاتب الروسي دستويفسكي الأقرب إلى نفسه. وقد وجد في رائعته «الإخوة كارامازوف» ما عمّق مفهومه للحياة والإنسان والوجود. لم يتأقلم جينيه زمناً طويلاً مع الحياة العسكرية فآثر الفرار من الجندية ليعيش حياة المتسكعين والصعاليك.

وعلى أثر فراره من الخدمة العسكرية وكان ذلك عام ١٩٣٦ قرر جان جينيه أن يسافر راجلاً عبر أوروبة متحاشياً نقاط التفتيش والجمارك. وقد استغرقت رحلته العجيبة هذه سنةً كاملة. وخلالها قطع مسافة تقدر بـ ٨٥٠٠ كيلو متر. وكانت مدينة «نيس» الفرنسية نقطة انطلاقه. فبعد أن اجتاز إيطاليا قطع البحر الأدرياتيكي إلى ألبانيا، غير أن شرطة الحدود قادته إلى اليونان. ومن هناك سافر إلى يوغسلافيا حيث أوقفته الشرطة في العاصمة بلغراد لتودعه السجن لمدة شهر. بعدها قادته إلى الحدود الإيطالية. ومنذ ذلك الحين ظلّ جان جينيه يتنقل من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة إلى أن حطّ رحاله في براغ حيث أمضى خمسة أشهر

أعطى خلالها دروساً في اللغة الفرنسية لسيدة جميلة تدعى «آن بلوخ». وكانت تلك السيدة الحب الأنثوي الوحيد في حياته. غير أنه كان «حباً أبيض» كما كان يقول.

وفي بولونيا التي وصلها في ربيع عام ١٩٣٧، اعتُقل وأمضى أسبوعين في السجن. بعدها اجتاز ألمانيا التي كانت تعيش سنوات الهيجان النازي، وعنها سوف يكتب في «مذكرات لص» قائلاً: «إنه شعب من اللصوص»، ويقصد به الشعب الألماني.

وعندما عاد جان جينيه إلى باريس عام

١٩٣٧ تم إحالتــه إلى القضــاء العسكــري بتهمة الفرار من الجندية، الذي أصدر قراراً بصرفــه من الخدمة العسكرية بشكل نهائي تحــت حجة أنه غير متــوازن عقلياً. فكتب رسالة إلى «آن بلوخ» يقول لها فيها: «سأنزل، وأسفــاه، إلى الجزائــر، والنيجر، والكونغو، وبعدها سأنطلق إلى أمريكا».

خــلال السنــوات الممتــدة بــين ١٩٣٧ و١٩٤٢، عاد جــان جينيه يسرق من جديد. وبسبــب ذلك تكررت إقامته في السجن أكثر من مــرة. حيث كان السجــن الوسط الذي تبلورت فيه موهبة جينيه الأدبية.

وكانت السنة ١٩٤٣، سنة المجد والشهرة بالنسبــة لجــان جينيــه الــذي كان الناس يتعاملــون معه حتى ذلك الوقــت، كـ «لص محترف». فقــد اطلع جان كوكتــو، الكاتب الفرنســي البارز على بعضــ الأعمال التي كتبها جان جينيــه في السجن، وكان انبهاره بهــا كبيراً حتــى إنه لم يــتردد في أن ينطلق متجولاً في مقاهي باريس وصالوناتها معلناً عن ميــلاد كاتب فريد من نوعــه، كاتبٌ لم يسبق له مثيل منذ عهد الشاعرين: فرانسوا فيلــون(*) في القرن الخامســ عشر، وأرتور رامبو(**) في القرن التاسع عشر.

جينيه وعالم السجن

لم يدخل جينيه السجن أكثر من مرة بسبب صراحتــه وإباحيتــه وعلاقاتــه اللاذعة أو بسبب جرأته وشجاعته في قول رأيه بصراحة عبر مسرحياته وقصائــده وسيرته الذاتية. ولم يسجــن بسبب دفاعه عــن المضطهدين والهامشيين والثوريين والفدائيين في العالم، أو بسبب حرية المعتقد الديني أو السياسي أو الفكري، بل سُجن لأنه سرق كراسات وأقلام رصاص وبعض الحلوى وهو في نحو العاشرة من عمره. تنوعت سرقاته كما تنوعت عوالمه إلاّ أن مواقفــه تجاه ما يحــدث كانت ثابتة حتى وفاتــه، وقد تفاوتــت سرقاته ما بين سرقة اثنــي عشر منديلاً مــن أحد متاجر باريس وأربــع زجاجات خمر فاتحة للشهية من أحــد البارات، وسرقــة قميص وقطعة مــن الحرير وبعضــ الأقمشــة. وتصادف أثنــاء إقامته في أحد فنــادق بباريس وجود مكتبــة أمام الفندق فسرق منها كتباً للتاريخ وللفلسفــة. وطــارده خيــاط كان قد سرق منه حزامــاً مصنوعاً مــن القماش. وقرب كاتدرائية نوتردام ألقى عليه القبض صاحب مكتبة كان قد سرق منه جينيه أحد مؤلفات مارسيل بروســت. وعلى ضفاف نهر السين التحق للعمــل في كشك لبيع الكتب، ولم يمر شهر حتى ألقي القبض عليه لسرقته بعض

الكتب، ويدخل على أثر ذلك السجن ويكتب قصيدته: «الرجل المحكوم عليه بالإعدام» التي وصفها جان كوكتو بأنها أروع ما ظهر في تلك الفترة. وذهب كوكتو إلى أن هذه القصيدة من فرط بذاءتها غير قابلة للنشر، وأن المرء لا يستطيع مطالعتها إلا إذا كان يحتمي في مخبأ بعيداً عن أنظار الناس. ثم أعاد قراءتها للمرة الثانية وعندئذ اقتنع بها وأوصى أحد الناشرين الباريسيين بطباعتها قائلاً: «إن جينيه طفل ومجنون في آن معاً. جينيه قنبلة موقوتة في عالم الأدب بالنسبة لي فإن كتاب جينيه يمثل أكبر حدث أدبي في عصرنا».

وعندما وقف جان جينيه أمام القاضي في العام ١٩٤٤ بسبب سرقته لطبعة نادرة لديوان الشاعر الفرنسي فرلين: «حفلات ظريفة» Fetesgalants قال المحامي الذي كلفه جان كوكتو بالدفاع عنه: «أيها القضاة! أنتم تحاكمون واحداً من أعظم الكتّاب الفرنسيين في العصر الحديث!». وهكذا تراجعت المحكمة عن الحكم على جان جينيه بالسجن زمناً طويلاً.

لم يقل جان كوكتو إن جينيه كاتب فريد من نوعه يمثل أكبر حدث أدبي في عصرنا من فراغ وادعاء. لقد كان اللقاء بينهما في عام ١٩٤٣ حيث أبدى كوكتو إعجابه بهذه القصيدة. ولعل هذا اللقاء يُعد من المنعطفات الأدبية الواضحة في حياة جينيه، إذ ساهم كثيراً في تخفيف حدة القرف الذي شعر به جينيه جراء ما كتب عنه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر قبل ذلك بوقت قصير. ففي كتابه «القديس جينيه»، كتب سارتر يقول: «إذا كان جينيه قد حدد عالمين متعارضين ومتعادلين هما عالم الشر وعالم الخير، فإن كلا العالمين قد دفعاه نحو الخلف! وهذا ما ضاعف لديه الإحساس بالإثم. طرقه وأساليبه برجوازية النكهة التي لم يفقدها بعد تماماً ولدت لديه إحساساً بالإذلال في أن يكون عارياً يرتدي فقط مقدرات عقلية لا توصف. وحين اختار ميدان الشر راحةً له وإغاظة للآخرين كان عليه أن يعترف بحقيقة واحدة وهي أن هذا الميدان هو أكثر شروراً منه».

وعندما كتب سارتر ما كتبه عن جينيه فإنه طرح قضيته عقلاً ووعياً وباطناً. لقد تضايق جينيه من سارتر في دراسته التي أعدها عنه بقوله: «شعرت بنوع من القرف لأنني رأيت نفسي عارياً، بل شعرت أن شخصاً آخر قد عرّاني بيديه. أنا أعري نفسي في سائر كتبي وفي الوقت نفسه أتنكر بالكلمات، بالأوضاع، بالسحر والفتنة وبالمشهد الأخاذ، أرتب أموري لكي لا أُعطب

كثيراً، ولكن سارتر قام بتعريتي بلا مراعاة. إن كل ما فعله سارتر هو أنه لم يراع الإنسان في جينيه». بيد أن علاقة جينيه بسارتر قد تذبذبت في السنين الأخيرة وذلك لمواقف سارتر المعادية للقضية الفلسطينية وللعرب عموماً.

ومن الملاحظ أن جينيه لم يختر عالم الشر بمحض إرادته بل دُفع إليه بعنف وقوة من الخارج. أما السجن الذي نعثر عليه في جلّ أعماله الروائية والشعرية والمسرحية، والذي يبدو سجناً واقعياً حيناً ومجازياً حيناً آخر. إنه المكان الآمن والملاذ الطبيعي لإنسان منبوذ من عائلته ومن مجتمعه، ذلك المجتمع الذي تعامل معه مثل كلب سائب وسارق صغير. وما جملته الشهيرة: «سوف أكون لصاً» إلاّ ردة فعل ضخم وخطير لخيار وجودي اختاره جينيه بنفسه طوعاً وبملء إرادته.

وبسبب تكرراه السرقات كانت تهدده عقوبة السجن المؤبد. لكن كوكتو تدخل لصالحه واصفاً إياه في قاعة المحكمة بأكبر كاتب في العصر الحديث، وانتهت القضية بحبسه لمدة ثلاثة أشهر في سجن «لاروكيت» حيث كتب خلالها «سيدة الأزهار». وبعد خروجه من السجن أعيد القبض عليه ثانيةً لسرقته طبعة نادرة من إحدى المكتبات لأحد مؤلفات الكاتب مارسيل بروست. وحين سأل القاضي عن سعر الكتاب الذي سرقه أجاب جينيه: إنني أقدر قيمته ولا أقدر سعره. وهناك سرقات أخرى وأفعال تنكرية وتزوير لتذاكر سفر. ويبدو أنه في اختياره كان واعياً لكل ما قام به، إذ لا غضاضة في سرقة الأغنياء، بحسب رأيه.

في الحقيقة، لم يكن جينيه ليفلت من عقوبة السجن المؤبد إلاّ بعد عريضة استرحام قدمها في العام ١٩٤٩ ثلاثة كتاب فرنسيين مشهوريين هم: جان بول سارتر، وجان كوكتو، وأندريه جيد إلى الرئيس الفرنسي فانسان اوريول طالبين منه أن يتراأف بحال جينيه ويطلق سراحه، ومؤكدين له بأنه بعد أن يطلق سراحه عاجلاً أم آجلاً سيعترف العالم بأجمعه بأن جان جينيه كان «أخلاقياً» ومبدعاً أدبياً، وهكذا يمكننا القول بأن ثمة علاقة بين شذوذه وإبداعه الأدبي، وهي حقيقة لا يمكن نكرانها.

جينيه كاتب متعدد المواهب في نتاجه الأدبي

في الواقع إن الكتابة هي التي أنقذت جينيه من الجنون والانتحار. فلولاها لما استطاع أن يتخلص من كل الأشياء التي تضغط عليه ومن كل التجارب المريرة التي عاشها. وعلى ضوء ذلك جاءت كتاباته

معتمدةً على الوقائع اليومية، واستطاع بفضل مقدرته على التقاط المدهش والمثير في تفاصيلها العادية أن يشيد منها عالماً شديد الثراء سواء على مستوى المخيلة أو على مستوى علاقته بذاته والعالم.

ولم يكتفِ بكتابة الروايات والمسرحيات فحسب بل أراد أن يجرب السينما فأخرج في عام ١٩٥٠ فيلمه الوحيد «أنشودة الحب». وبعد ذلك بعام تم نشر سلسلة الأعمال الأدبية الكاملة له في عدة أجزاء. وقد قدم الجزء الأول منها الفيلسوف جان بول سارتر بمقدمة طويلة تحت عنوان: «القديس جينيه الممثل والشهيد». وقد شملت هذه السلسلة الروايات والقصائد والمسرحيات.

فعلى صعيد الرواية ألف جينيه ست روايات هي عذراء الزهور ١٩٤٢، معجزة الوردة ١٩٤٦، طقوس الدفن ١٩٤٧، الجرح السري ١٩٤٧، يوميات لص ١٩٤٩، الأسير العاشق ١٩٨٦. كما وأصدر ست مجموعات شعرية هي: الرجل المحكوم ١٩٤٢، موكب الجنازة ١٩٤٥، السفينة ١٩٤٥، أغنية للحب ١٩٤٦، صياد سوكيت ١٩٤٨، الاستعراض ١٩٤٨. والجدير بالذكر أن جينيه شقّ طريقه نحو الشهرة والمجد عند توزيع روايته «عذراء الزهور» فقد أراد من منطلق النتوءات التي نمت في أعماقه بسبب الجنوح والشذوذ أن يبصق على وجه المجتمع الفرنسي البرجوازي المنافق، وأن يفضح بصدق كل مظاهر الزيف والادعاء من حوله فلم يجد وسيلة إلى ذلك إلاّ بالإمعان في الفحش والبذاءة والكتابة عنهما.

أما رائعته «معجزة الوردة» التي كتبها وهو في السجن، فهي رواية تزخر بالرموز المستمدة من حياة القرون الوسطى، وتقع أحداثها في دير تابع لعائلة (البوربون) المالكة قبل أن تندلع الثورة الفرنسية وتحوله إلى سجن. والمعجزة التي تناولتها الرواية تتلخص في أن الأغلال التي يرسف فيها السجين تتحول إلى أكاليل غار وورود. والرواية تصور حياة السجين على أنها شيء مقدس، فهي أقرب ما تكون إلى حياة النساك والرهبان والقديسين، وهي تخلو تماماً من متاع الدنيا.

أما في رواية «أسير عاشق» فقد حاول جينيه تتبع قدر شعبين أحدهما السود الأمريكان الذين مُنعت عنهم الكرامة الإنسانية. والآخر الشعب الفلسطيني الذي هُجّر وتعرض للاستعمار والإهانة ونُزعت عنه كل هوية سياسية. لقد كان معجباً برمز الفدائي الفلسطيني ذاك البطل الذي يغامر بحياته من أجل قضيته، فيذهب تحت جنح الظلام لإلقاء قنبلة أو زراعة ألغام في

إسرائيل. رحلةٌ قد يعود منها ويكون كمن عاود الصعود من الجحيم، أو قد لا يعود منها.

وفي روايته «طقوس الدفن» يصف جينيه أجواء باريس في الثلاثينيات والأربعينيات. فقبيل هروب القوات النازية منها خرج الناس إلى الشوارع يرددون: باريس ما زالت حيّةً. ولكن وراء فرحة الحرية هذه كانت هناك حكايات وأسرار حب وحرب يجدلها جينيه في هذه الرواية بفكر حرّ، وأسلوب خاص.

أما في روايته «الجرح السري»، فهذا الكتاب عبارة عن حوارية مطولة حول مفاهيم الفن والأدب والجمال، والخيال. وهو نتاج لفترة قضاها جينيه في مرسم صديقه النحات البرتو جياكوميتي. وتتسم هذه الحوارية بلغة سردية عارية من أي تكلف أو زخرف فني. وفي سياق شديد الكثافة والإيجاز يرى جان جينيه أن لكل واحد جمالاً خاصاً به، وأصل هذا الجمال هو الجرح المنفرد، وأن هذا الجرح سريّ ومكنون داخل كل إنسان. وهو يرى أن فن جياكوميتي هو اكتشاف هذا الجرح السري عند الكائنات وحتى في كل الأشياء لكي يضيئها. ففي لوحاته تتبدى أول ميزة وهي الكشف عن الجوهر الفريد وإبرازه في ثنايا الشخوص سواء أكانت هذه الشخوص جميلة أو مشوهة. وبحسب تعبير جينيه: «أمام تماثيله ينتابني أيضاً شعور آخر بأنها جميعها شخوص جميلة، ومع ذلك يظهر لي أن حزنها وعزلتها يشبهان حزن وعزلة رجل مشوه التكتل، أحس نفسه فجأة عارياً وقد انبسط تشوهه أمام ناظريه، ويريد في الوقت نفسه أن يقدم هذا التشوه إلى العالم ليعلن عزلته ومجده. إنها تماثيل لا يطولها التلف».

كذلك ازدادت شهرة جينيه اتساعاً بعد أن دخل عالم المسرح من بابه العريض منجزاً مسرحيات حققت نجاحات جماهيرية باهرة منها سبع مسرحيات هي: رغبة الموت ١٩٤٤، الخادمات ١٩٤٦، الروعة ١٩٤٨، الشرفة ١٩٥٥، السود ١٩٥٥، الشاشات ١٩٥٦. لقد كانت مسرحياته صورة حقيقية عن حياته، وعارضةً لما كان يحدث في الأقبية والسجون والزنازين الرطبة والأماكن التي خصبت بفضاءات الشرور والجريمة. كما وأنها نوع من الثأر والتمرد، مثلما هو الحال في مسرحية «الخادمات»، فهي مغامرة مسرحية محتشدة حيث تتداخل الصور فيها بحيث ينعدم التمييز لدى الخادمتين بين الحقيقة والخيال، ويكون الشر محور الحوار حيث تعذب الخادمتان بعضهما بعضاً من خلال مزجهما بين التمثيل والواقع، وبين

الحس والخيال. والخادمتان هما «كلير» وشقيقتها «سولانج» تستحوذ عليهما فكرة قتل سيدتهما لما تعانيانه من ظلم، فتلجأ الخادمتان إلى لعب دور السيدة الغائبة بالتناوب بينهما، فتخرج كل واحدة منهما المشاعر السلبية المكبوتة في داخلها في الأخرى. يجري الحدث الدرامي في غرفة السيدة حيث تستخدم الخادمتان غرفتها الأنيقة وأشياءها الخاصة الثمينة مثل: المجوهرات والزهور اليانعة والمخمل الأحمر والثوب الأبيض والفراء الثمين.

المسرحية متحركة بحركة شخوصها حيث يصور خيبة الواقع الإنساني ضمن منظومة عالمنا المعاصر وبروز دور الآلة والعلم وتقنياته الحديثة.

أما في مسرحية «الشرفة» فإن النص يدور حول كشف الأقنعة عن زيف سلطات الحكم في أي مكان. اتخذ جينيه مكاناً غريباً وصادماً لمكان مسرحيته وهو بيت دعارة تصر صاحبته أن تسميه «الشرفة». في هذا البيت يصير العاجز جنسياً فتياً عفياً، ويصير شخص تافه مديراً للأمن، ويصير عامل بسيط جنرالاً، والآخر يصير قاضياً، وخامساً جلاداً، ويصير عامل في محل بيتزا أسقفاً. يوفر له البيت لا ملابس الأسقف وهيئته فحسب بل أيضاً جلسات الاعتراف وشخصيات المعترفات. وتصير اللعبة أكثر تعقيداً عندما نعرف أن شخصيات حقيقية تمارس هذه الأدوار أو بعضها على علاقة بهذا البيت وصاحبته، وأن أمور الحكم تدار من هناك، فيصبح الزيف حقيقة، والحقيقة زيف، ويكون نتيجتها أن تتولى الشخصيات المزيفة مناصبها التي كانت تلعبها تمثيلاً. وتصل قمة السخرية عندما تنصّب «إيرما» مديرة «الشرفة» ملكة، ليكشف لنا العرض مدى قباحة هذه «الشرفة» التي لا يرى فيها الناس إلا الواجهة البراقة التي تخفي بشاعة البيت وسكانه في الداخل. باختصار إنها مسرحية تطرح لنا بطلان المعتقدات الدينية والسياسية حتى يصل المرء إلى مرحلة اليأس والقنوط أي إلى مرحلة الشقاء حيث لا تغيب الديمقراطية والعدالة الاجتماعية فحسب بل ويغيب حتى الإنسان نفسه.

جينيه والقضية الفلسطينية

في الستينيات من القرن العشرين تحول جينيه إلى العمل والنشاط السياسي حيث ناصر القضية الفلسطينية. بدأت قصة دعم جان جينيه للقضية الفلسطينية في أحد أيام الحركة الطلابية الفرنسية سنة ١٩٦٨ حيث التقى الكاتب بطلاب عرب يوزعون منشورات حول فلسطين في ساحة

جامعة السوربـون بباريس. وسرعان ما نشأ الرابط العاطفي الوجودي بينه وبين القضية الفلسطينيـة التـي كانت مغيبـة ومهمشة ومضطهدة من قبل الإعلام الغربي الخاضع للنفوذ الصهيوني. ولم يكتفِ جينيه بما قرأه من كتب وسمعه من آراء حول الفلسطينيين والعمل الفدائي وأحداث أيلول الأسود عام ١٩٧٠، بـل قام بزيـارة إلى المنطقة في عام ١٩٧٢، وظل طوال ستة أشهر يزور مخيمات اللاجئـين في سوريـة والأردن وفلسطـين وقواعـد الفدائيين داخـل الأرض المحتلة، وقد ألف في تلك الفترة كتابه «الفلسطينيون» وروايته «الأسير العاشق». وعلى أثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ وارتكاب قوات الاحتلال مجازر مروعـة ضد الفلسطينيين في مخيمي صـبرا وشاتيلا، كان جان جينيه أول مثقف فرنسي يدخل إلى موقع المجزرة يصور ويكتب عن هذه الجريمة الإسرائيلية البشعة في كتابه «أربع ساعات في شاتيلا».

عـاد إلى الأردن في عـام ١٩٨٤ ليكون ضيفاً علـى الفلسطينيين وليكـون منعزلاً تماماً عن أوروبـة التي وصفها أثناء وجوده بـين أولئـك المقاتلين بما يلـي: «إن أوروبة بكاملهـا صارت لا تزن لدي أكثر من خنصر أصغـر فدائي»، ثم دأب علـى كتابة «أسير عاشـق» في المغـرب، وكان الكتاب الأخير الذي وضعه قبل رحيلـه، حيث لخص فيه تجربته مع القضيـة الفلسطينية وما يميز هذا الكتـاب هو أسلوبه الـذي يجعل منه، ككل نتاجاته، تحفةً أدبية.

كان يـراه البعضـ «موجـوداً كحيوان أسطـوري» خصوصـاً في سنواتـه الأخيرة حيـث بدأ يحب العيش بعيـداً عن الأضواء ووسائل الإعلام وفضول الصحفيين. وكانت الأسئلة الصحفية الفارغة التي تنهال عليه تثير قرفه بشكل لا يوصف. لقد كان يرفض رفضاً قاطعـاً إجراء المقابـلات التلفازية، إلاّ أن شركة فنيـة فرنسية استطاعت كسر هذا العناد قبل وفاته وأقنعته أخيراً بالجلوس لمدة تسعين دقيقة أمام كاميرا فيديو، تحدث خلالها عـن ذكرياته وحياته الخاصة، ونال هذا اللقاء النادر داخل فرنسا رواجاً منقطع النظير.

وفي ١٥ نيسان مـن عام ١٩٨٦ توفي في غرفة صغـيرة بفندق باريسي، عن ٧٦ عاماً متأثراً بمرض السرطان الذي أصاب حنجرته التي طالمـا نـادت بالعدالـة الاجتماعية، وأطلقت العنـان لصوتهـا في المظاهرات. رحل في اليوم ذاته الذي توفي فيه جان بول سارتـر قبل ستة أعـوام، سارتر الذي أسبغ

عليه لقب «القداسة» في كتابه الشهير عام ١٩٥٢، بعد أن كان موسوماً بالخروج على التقاليد وعلى العرف الاجتماعي. ودُفن في بلدة العرايش المغربية مقابل البحر في البلد الذي أحبه وعاشر أهله.

في الحقيقة إن تعاطف جينيه مع الفلسطينيين أو مع العرب عامة إنما هو نقمة جينيه على الغرب التي يبحث لها عن شكل، شكل لغضبه على المجتمع الذي شرده ولم يمنحه أباً وأماً مثل الأبناء الاعتياديين، إن دعم جينيه للعرب يدخل ضمن شعوره بأنه غير اعتيادي. وغير مقبول مثل العرب تماماً، من قبل دول الغرب.

ولهذا السبب غامر جان جينيه بنفسه ودافع عن كل هذه القضايا «الخاسرة». دافع عنها ضد جبروت الغرب المهيمن. لم يحرص أبداً على أن يكون إلى جانب الأقوياء. بل على العكس اختار عن سابق قصد وتصميم جانب الضعفاء، فهو الذي عانى كثيراً في شبابه الأول. وما كان بإمكانه أن يقف في صف السادة أو الجلادين وإنما في صف الضحية والمغدورين. هذه هي أخلاقية جان جينيه وقد سببت له مشاكل كثيرة في الغرب. ومن أجل هذا السبب كان يحتقر مجتمعه ويفضل أن يعيش في المجتمعات الأخرى وبالأخص في المغرب، بل وطالب بأن يدفن هناك على الرغم من أنه مات في باريس. ولا يزال قبره هناك في «الأعراش» مقابل المحيط الأطلسي وغير بعيد عن جبل طارق. لقد أراد جان جينيه أن يُقبر هناك لأنه أحب المغرب وأهله ولأن عواطفه كانت دائماً مع بلدان الجنوب المعذبة لا بلدان الشمال المترفة.

لقد مات جان جينيه في ١٤ نيسان من عام ١٩٨٦ أي في اليوم نفسه الذي ماتت فيه سيمون دو بوفوار. ومن المعلوم أنها كانت قد قالت عنه بأنه: «أذكى شخص تعرفت عليه أو من أذكاهم».

وقبل مماته بحين، صدرت أعمال جان جينيه النثرية والشعرية في طبعات أنيقة عن دار «غاليمار» للنشر المرموقة في فرنسا، وأيضاً عن دور نشر أخرى. ولم تلبث تلك الأعمال أن شهدت رواجاً هائلاً لا في فرنسا وحدها وإنما في العالم بأسره ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية بفضل علاقته الطيبة مع ناشره برنارد فرشيمان. كذلك سارعت بريطانيا إلى ترجمة كتبه إلى اللغة الانكليزية، وفعلت اليابان الشيء نفسه حين ترجمت كل مؤلفاته من دون استثناء إلى اللغة اليابانية.

الهوامش

(❁) فيليــوم Villon: شاعر غنائي فرنسي، وُلد في باريســ ١٤٣١-١٤٦٥. له ثلاث مجموعات من القصائد هي: «المرباة» (الشجيرة الباقية عند قطع الغابة)، و«الوصية» و«شاهدة قبر فيلون»، التي تجعل منه شاعراً أهم بكثير من رونسار (١٥٢٤-١٥٨٥). إنه الشاعر المتهتك والمتشرد في القرن الخامس عشر. لا أحد يعرف مــاذا كان عليه مصيره. أيــن توفي وهل أعدم أم لا؟ إنه يلعب على التناقضــات بين النور والظلمة ويبدي وقاحة وسخرية وعدم احترام نتيجة طباعه كناقد ساخر للغير.

(❁❁) رامبو Rimbaud: شاعر فرنسي (١٨٥٤-١٨٩١) صديق الشاعر فيرلين. كتب مجمل مؤلفاته الشعرية وهــو بين السادســة عشر والعشرين من العمر. ثــم كرّس حياته للسفر والعمــل في التجارة بالحبشة. من مؤلفاتــه: «الزورق المخمــور»، فَصْل في الجحيم»، الاستضاءة العقلية»، حــرر الشعر الفرنسي من أشكاله التقليدية فلعب دوراً حاسماً في بروز المذهب الرمزي بالأدب الفرنسي.

المراجع

١- جريــدة «لومونــد» الفرنسية بتاريخ ٢٠٠٦/٤/١٥، مقــال بعنوان: «جينيه كاتب الغضــب» للكاتب إيفان يابلونكا.
٢- جريدة «لوموند» تاريخ ٢٠٠٦/٦/٢٢، مقال بعنوان «جينيه غير اللائق» بقلم كاترينا بيداريدا.
٣- موسوعة «لاروس» الكبرى.
٤- موقع «منتديات المسرح» على الإنترنت.
٥- موقع «سيرتش» على الإنترنت، مقال بعنوان «جان جينيه، الإنسان الثائر، المنبوذ والكاتب الأكثر جذريةً بين الجميع».
٦- مقال بعنوان: جان جينيه، صحيفة «المغرب» الأسبوعية على الإنترنت.
٧- مقال بعنوان: جان جينيه، صحيفة «المنارة» على الإنترنت.
٨- مقال بعنوان: جان جينيه، أبرز كتاب فرنسا في القرن العشرين، جريدة «البعث»، تاريخ ٢٠٠٦/٥/٢.
٩- كتاب: جان جينيه، للكاتب الأمريكي ستيفن باريز أستاذ مادة الاتصالات في جامعة كيغنستون.

افتراءات معاصرة على علم الفلك

مايكل إي. باكيش

ترجمة: حازم محمود فرج
عن مجلة Astronomy

يردد الناس كثيرا من المغالطات والأفكار الخاطئة عن علم الفلك هاكم الحقيقة بشأن بعض منها

كثيرة هي الأسئلة التي تأتي إلى مجلتنا من القراء، وزوار موقعنا الإلكتروني، وسوى ذلك، لدرجة أننا بتنا نجيب عن بعض هذه الأسئلة مراراً وتكراراً. ومن أجل مساعدة القارئ في معرفة هذه الأسئلة والإجابة عنها بعمق وسرعة، فقد كرسنا هذا الفصل كي نأتي بالحقائق البينة والمباشرة التي تجلي هذه

* مترجم وكاتب.

التصورات الخاطئة والإشاعات والأقاويل التي تتردد هنا وهناك- وبالذات ما يتعلق منها بعلم الفلك.

وحيث أن مثل هذه الإشاعات والأقاويل لن تتوقف أو تنتهي قريباً، بل ستبقى في قيد التداول، وترددها الألسن، موجة بعد موجة، وفي أكثر من مجال. لذا فإن مثل هذا المقال التوضيحي هو عمل مستمر طالما بقيت مثل هذه المغالطات تروّج هنا وهناك. وسنقوم هنا بتقديم التفسير العلمي الصحيح لكل إشاعة وأكذوبة تبدو «علمية» في ظاهرها، وكلما انطلقت واحدة أخرى جديدة لتنتشر على ألسن عامة الناس.

ندرج فيما يلي بعضاً من هذه الافتراءات التي ذاعت في الآونة الأخيرة وتناولت أفكاراً تتعلق بعلم الفلك، ونقدم الإجابة العلمية الصحيحة لها:

١- كوكب المريخ سيبدو كبيراً مثل قمر مكتمل (البدر).

٢- العالم سينتهي يوم ٢١ كانون الأول/ ديسمبر، ٢٠١٢.

٣- يمكن رؤية جدار الصين العظيم من على سطح القمر.

٤- للقمر وجه دائم الظلمة.

٥- سكان المريخ نحتوا وجهاً كبيراً على كوكبهم.

٦- لا وجود للجاذبية (قوة الثقالة) في الفضاء.

٧- تتناوب فصول السنة بين صيف وشتاء بسبب تبدل مسافة الأرض عن الشمس.

٨- عندما يكتمل القمر.تكثر الجرائم.

١- كوكب المريخ سيبدو للعين المجردة كبيراً بحجم قمر مكتمل..!!

(تخرج لنا هذه الأكذوبة في كل مرة يصل فيها كوكبا الأرض والمريخ إلى نقطة اقترابهما الأدنى من بعضهما في مداريهما حول الشمس).

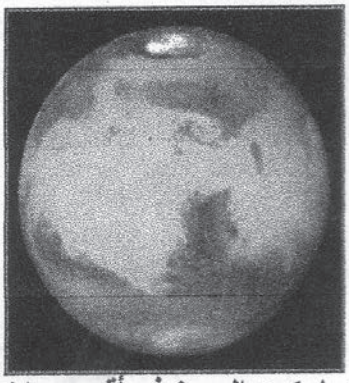

عندما يكون المريخ في أقرب مواضعه إلى الأرض، فإنه يقدم مشهداً رائعاً من خلال منظار فلكي. لكنه لن يبدو مطلقاً للعين المجردة كبيراً مثل قمر مكتمل.

تأبى هذه المقولة الاقتصار على مجانبة الصواب فقط، بل ويمكن تشبيهها أيضاً بدمية بطارية إنيرجايزرEnergizer bunny (عادة ما تكون أرنباً في الدعاية المعروفة) التي تستمر في الدوران.

بدأت جذور هذه الأكذوبة برسالة إلكترونية (e-mail) ظهرت قبل شهر آب/أغسطس من عام ٢٠٠٣، وهو تاريخ الاقتراب الكبير الشهير للمريخ من الأرض. في يوم ٢٧ آب/أغسطس من ذلك العام، وصل كوكب المريخ في مداره حول الشمس إلى نقطة تدعى فلكياً بالتقابل opposition، وهي تعني أن الكوكب يظهر على الجانب المعاكس لاتجاه الشمس في السماء كما نراه نحن من على الأرض.

عند نقطة التقابل هذه يشرق المريخ في وقت غروب الشمس، ويكون في أعلى نقطة له في السماء في منتصف الليل، ويغرب مع شروق الشمس. وعندما يكون المريخ في نقطة تقابله فهذا يعني أنه يوجد على أقرب مسافة له من الأرض، ويبدو لذلك أكبر (ظاهرياً) وأسطع من أي وقت آخر على مدار العام.

ولكن ليست جميع مرات التقابل متماثلة. فبتاريخ ٢٧ آب/ أغسطس من عام ٢٠٠٣، بدا الكوكب الأحمر أكبر حجماً وأكثر سطوعاً مما يمكن لأي إنسان حي رؤيته ثانية- حسناً إلا إذا عاش هذا الشخص إلى العام ٢٢٨٧ م.

وماذا بعد؟ يعتقد علماء الفلك أن أفضل حساباتهم في هذا الشأن تتنبأ بأن يبلغ المريخ حجمه الأكبر (ظاهرياً) مرة ثانية بعد نحو ٦٠ ألف سنة. لكن ليس على أحد أن يقلق لهذا. فالمريخ سيظهر تقريباً بالصورة التي ظهر بها عام ٢٠٠٣ من حيث الحجم والسطوع مرات كثيرة قبل ذلك الحين. وبعبارة أخرى: لم تكن حادثة تقابل عام ٢٠٠٣ بذلك الحدث الفريد. وحيث أن علماء الفلك يعرفون أن كوكب المريخ يصل إلى نقطة تقابله مرة كل ٢٦ شهراً، فقد سمعت هيئاتهم ومؤسساتهم العلمية بتاريخ ٧ تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠٠٥، وبتاريخ ٢٤ كانون الأول/ديسمبر، ٢٠٠٧، وكانون الثاني/يناير، ٢٠١٠، المعزوفة القديمة ذاتها: «سيدنو كوكب المريخ كثيراً من الأرض، وسيظهر للعين المجردة بحجم قمر مكتمل».

بموجز القول: هذه المقولة خاطئة.

ولتوضيح الأمر أكثر: من أجل أن يظهر المريخ كبيراً بحجم القمر في السماء، فسيكون عليه أن يقفز من مداره بطريقة

مـــا، وأن ينتقل مسافـــة ٣٤ مليون ميل (٥٥ مليون كيلومتر) نحو الشمس.

وعلى خلاف معظم الافتراءات الأخرى في هـــذا المقال، يمكنني تقـــديم وشرح هذه الأكذوبـــة من حيث بَـــدَأَتْ: لنستعد ونتأمل معـــاً المقولـــة بشكلها الأصـــل: «عند رصد كوكـــب المريخ من خلال منظـــار (تلسكوب) لـــه قدرة تكبير ٧٥ مرة (٧٥X)، فهو سيبدو للعـــين كبيراً مثلما يبـــدو القمر المكتمل (في طور البدر) للعين المجردة». في هذه العبارة تعني قوة التقريب ٧٥X درجة تكبير قدرها ٧٥ مـــرة. هكذا، إذا نظـــرت إلى المريخ يوم ٢٧ آب/ أغسطس من عام ٢٠٠٣، من خلال عينية منظـــار له قوة تكبير قدرها ٧٥ مرة، فسيبدو المريـــخ كبيراً بحجـــم القمر البدر أمام العين المجردة (بعبارة أخرى، سيحافظ المريخ على حجمه الزاوي ذاته، ومن دون أي زيادة حقيقية في حجم الكوكب).

وهاكم كيف تظهـــر حسابات الأمر: في شهـــر آب/ أغسطس من عام ٢٠٠٣، اكتمل القمر في الثاني عشـــر منه، حسب التوقيت الشرقي للولايات المتحدة. وفي سائر المناطق الأخـــرى من الولايات المتحـــدة كان التاريخ مازال هـــو ١١ آب/أغسطس. وعندما يكون القمر مكتمـــلاً (أي في طور البدر) فسيبدو قطره الظاهـــري بقدر ٣١,٤ دقيقة قوسية (الدقيقة القوسية هي ١/٦٠ من الدرجة°). ومـــن أجـــل مقارنة هـــذا الرقم مـــع مثيله المريخـــي سيكون علينـــا أن نحوله إلى ثوان قوسية (الثانيـــة القوسية تساوي ١/٦٠ من الدقيقـــة القوسية). هكذا يكون قطر القمر المكتمـــل هـــو ٣١,٤ X ٦٠= ١٨٨٤ ثانيـــة قوسيـــة. ولكن بتاريـــخ ٢٧ آب/ أغسطس، ٢٠٠٣، بلغ قطر المريخ قـــدر ٢٥,١١ ثانية قوسيـــة فقـــط. ولمعرفة وجـــه المقارنة بين هذيـــن الحجمين الظاهريـــين، نقسم قطر القمر الظاهري على قطر المريخ الظاهري: ١٨٨٤÷٢٥,١١=٧٥.

وإذن، فقد بدا القمر المكتمل بتاريخ ٢٧ آب/أغسطس، ٢٠٠٣، أكبر بقدر ٧٥ مرة من كوكب المريخ. ولذلك فإذا قمت بتكبير صورة المريخ يومها من خلال منظار قوة تكبيره ٧٥ مـــرة، لبدا لك كبـــيراً بحجم قمر بدر للعين المجردة.

كان تاريخ الاقتراب الأدنى التالي للمريخ من الأرض هـــو ٢٧ كانون الثاني /يناير من عام ٢٠١٠ (وقد تكررت الإشاعة- الأكذوبة حينهـــا أيضاً). في ذلك الوقـــت كان المريخ يبعد عن الأرض مسافة ٦١,٧٢ مليون ميل (٩٩,٣٣ مليون كـــم). ويمكننا مقارنة هذه المسافة مع مسافة اقتراب المريخ عام ٢٠٠٣ التـــي بلغـــت ٣٤,٦٥ مليون ميـــل (٥٥,٧٦

مليون كم) فقط من الأرض.

حسناً، أنا لا أستطيع مقاومة الأمر، وسأضطر لقول التالي: لو نظرنا إلى المريخ في ذلك التاريخ (٢٧ كانون الثاني/ يناير، ٢٠١٠) من خلال منظار قوة تكبيره ١٣٢X، لبدا المريخ كبيراً بحجم قمر مكتمل أمام العين المجردة.

هل ترون معي كيف تقدم لنا الأرقام متعة كبيرة إذا عرفت الحقائق بشكلها الصحيح؟

❁ ❁ ❁

٢- ... وسينتهي العالم يوم ٢١ كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠١٢..!!!

(مجرد أكذوبة، ولا أثر لها سوى إخافة الأطفال وإطلاق خيال السينما).

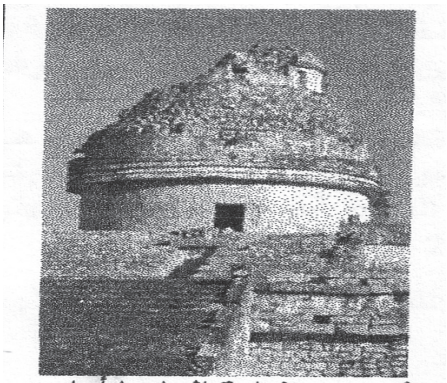

بنت حضارة المايا أوابد عمرانية مذهلة، كما راقبوا الكواكب بدقة. لكنهم لم يتنبؤوا أبداً بنهاية العالم في عام 2012.

بدأت الأكذوبة القائلة أن العالم سينتهي في شهر كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠١٢ بادعاءات مفادها أن نيبيرو -وهو كوكب مفترض اكتشفه السومريون- يتجه صوب الأرض. لقد ذكر زكاريا سيتشين، الذي يكتب قصصاً خيالية عن حضارة سومر القديمة في بلاد ما بين النهرين- في عدة كتب له (على سبيل المثال: الكوكب الثاني عشر؛ السلم إلى الجنة؛ ونهاية الأيام) أنه قد وجد وترجم مخطوطات سومرية قديمة تتحدث عن كوكب وتحدده -هو نيبيرو- يدور حول الشمس مرة كل ٣،٦٠٠ سنة. اشتملت خرافات سيتشين السومرية على قصص عن ملاحي فضاء زاروا الأرض قادمين من حضارة كونية غريبة تدعى بـ آنوناكي.

بعد ظهور هذه الكتب الروائية، كتبت نانسي ليدر، التي تقدم نفسها كخبيرة نفسية، على موقعها الإلكتروني ZetaTalk، إن سكان كوكب خيالي يدور حول نجم Zeta Reticuli المجاور قد حذروها من خطورة كوكب نيبيرو على الأرض. قالت تلك النبوءة المنذرة إن الاصطدام بين نيبيرو والأرض سيقع في شهر أيار/ مايو من عام ٢٠٠٣.

وعندما لم يحدث شيء في ذلك التاريخ أزاح أصحاب هذه الإدعاءات تاريخ النهاية إلى شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام

٢٠١٢. وإلى وقت قريب فقط، لم يقم أحد من الناس بربط هاتين الخرافتين بالتأريخ القديم لحضارة المايا الذي يذكر نهاية للعالم توافق يوم الانقلاب الشتوي في عام ٢٠١٢- ومن هنا تحديد تاريخ يوم النهاية: ٢١ كانون الأول/ ديسمبر، ٢٠١٢.

لقد ورد اسم نيبيرو في مخطوطات علم التنجيم في بابل القديمة، وارتبط أحياناً بالإله مردوخ؛ لكن باحثي الحضارات القديمة في بلاد مابين النهرين يدحضون ادعاءات سيتشين أن نيبيرو هو كوكب وأن السومريين قد عرفوه. لقد كانت سومر حضارة عظيمة، لكنهم لم يتركوا بعدهم سوى القليل من السجلات والمخطوطات الفلكية، ولم يكن لديهم علم بحقيقة دوران الكواكب حول الشمس. لقد نشأت هذه الفكرة وتطورت في اليونان القديمة بعد نهاية سومر بألفي عام.

وقد زعم بعض الأفراد أن وكالة الفضاء الأمريكية ناسا قد اكتشفت نيبيرو عام ١٩٨٣ باستخدام مسبار IRAS الذي نفذ عمليات رصد ومسح سماوية بالأشعة تحت الحمراء استمرت عشرة أشهر. قام IRAS بفهرسة وإحصاء ٣٥٠ ألف مصدر للأشعة تحت الحمراء. وبشكل أولي، كان هناك عدد كبير من هذه المصادر مجهولاً. وقد قام علماء الفلك بمتابعة أرصاد IRAS بوساطة معدات أكثر قوة وتطوراً على الأرض وفي الفضاء.

وفي العام ١٩٨٤، ظهرت إشاعة الكوكب العاشر بعد أن نشرت دورية Astrophysical Journal Letters بحثاً علمياً بعنوان «مصادر نقطية غامضة في عمليات مسح وجيزة للمسبار IRAS». وفي عام ١٩٨٧، أعلن العلماء تحديد وتعريف هذه الأجسام الغامضة على أنها مجرات بعيدة، من دون أن يظهر مطلقاً أي من مصادر IRAS بصورة كوكب. وبالنسبة لعالم فلك، فإن المزاعم التي تتحدث عن وجود كوكب قريب ولكن خفي هي مجرد سخافات.

كما أن الإدعاءات القائلة أن «الكوكب X» هو إيريس Eris هي سخافة مماثلة. فإيريس هو واحد من عدة كواكب قزمة اكتشفها علماء الفلك في القسم الخارجي من النظام الشمسي، وجميع هذه الأجسام يوجد في مدارات عادية بعيداً عن الأرض. إن إيريس هو أصغر من قمر الأرض، ومداره لا يأتي به مطلقاً إلى مسافة تقل عن ٤ بلايين ميل.

يذكر المؤمنون بأسطورة اصطدام نيبيرو صوراً ويصفون أفلام فيديو على شبكة

الإنترنت يبدو فيهـا الكوكب. تظهر غالبية هذه الصور والأفلام بعض المعالم والأشكال في مناطـق الجوار الشمسي. و يعتقد بعض المؤيديـن للإشاعة أن نيبيرو كان يختبأ وراء الشمس طوال السنين السابقة. وهذه الصور هي صـور ثانوية للشمس سببتها انعكاسات ضوئيـة داخـل عدسـة الكامـيرا. يعرف المصـورون هذا الأثر الضوئي باسم وميض العدسة lens flare. يظهر مثل هذه الآثار عندما يكون التصويـر باتجاه الشمس كما لو أنـه ينعكس عبر مركز الصـورة. ويبدو وميض العدسة واضحاً بنحو خاص في صور الفيديو والتلفاز بسبب حركة الكاميرا التي تؤدي إلى تراقص الصورة الزائفة في حركة هنا وهناك في اتجـاه معاكس دائماً تقريباً للصورة الحقيقية.

وعندما تختبـئ الحقيقة، يدعي بعض مؤيدي رأي الاصطدام أن حكومة الولايات المتحدة تخفي دقائق الأمر وتفاصيله وتبقي عليها سرية. هـا هـا... ماأريـد قوله هنا، أن نيبيرو لو كان شيئـاً حقيقياً، لكان آلاف علمـاء الفلك حول العالم يتعقبونه في مساره في هذه اللحظة.

ومع كل هذا القدر الذي نعرفه عن هذه الأكذوبة، فلـم ثارت إذاً كل هـذه الضجة والإثارة بشأنهـا؟ ومن الذي يروج مثل هذه الأكاذيـب والمزاعـم؟ في أبسـط الإجابات الممكنة تبرز شركة Columbia Pictures السينمائية. فبينما كنت أكتب هذه السطور، كانت إعلانات فيلـم الشركة الجديد الذي حمل اسم ٢٠١٢، والذي بدأ عرضه في شهر تشرين الثاني/ نوفمـبر من عام ٢٠٠٩، قد بلغت أوجها وانتشـرت في كل مكان آنذاك. تظهر اللقطـات الفيلمية المنتقاة موجة مد عاتية تكتسـح جبال الهيميلايا مع الكلمات التاليـة: «كيف ستهيئ حكومـات كوكبنا ٦ بلايين إنسان لنهاية العالم؟ (توقف طويل)... لـن يستطيعوا.. (توقف طويـل)... اكتشف الحقيقة. ابحث في غوغل عن ٢٠١٢».

وفي خطوة داعمـة لفكرة الفيلم، قامت شركـة كولومبيـا بإطلاق موقـع إلكتروني علمي كاذب (هو www.instituteofhu mancontinuity.org). يتبع هذا الموقع إلى منظمـة قصصية تخيلية تدعى بـ معهد بقاء البشر (IHC). ووفقاً لهذا الموقع، فإن هدف مؤسسـة IHC هو نجـاة البشرية. يمضي الموقع أبعد من ذلك عندما يقول إن علماء معهد IHC قد أكدوا بثقة تبلغ ٩٤٪ أن العالم سيدمـر وينتهي في العام ٢٠١٢... هكذا!!

حسنـاً، فلأقل أنني محـب، بل وعاشق لسينما الخيال العلمـي، ولنتفق على شراء

تذكرة للفيلم. ولكن لا تشتروا الأكذوبة التي تقول إن العالم سينتهي في العام ٢٠١٢.

❁ ❁ ❁

٣- أما جدار الصين العظيم، فرؤيته المباشرة ممكنة من على سطح القمر!!

لا يمكن رؤية جدار الصين العظيم من الفضاء، وذلك لأن عرضه أقل كثيراً من أن يسمح لرواد الفضاء برؤيته.

(ستبقى هذه المقولة مغالطة كبيرة حتى لو استخدم رائد فضاء على القمر منظاراً قوياً).

إن هذه الأكذوبة ليست حتى بقريبة من الحقيقة. وهاكم حقيقة نتفق عليها ونبدأ منها القصة: إن العرض الظاهري للجدار العظيم عند النظر إليه من القمر سيكون هو ذاته لشعرة بشرية عندما نراها من مسافة ٢ ميل (٣,٢ كيلومتر).

عندما نفكر في إمكانية مشاهدة هذا المشهد حقاً، ينظر معظم الناس إلى نقطة معينة هي الطول العظيم لهذا الجدار العظيم -الذي يقرب من ٩٠٠٠ كم- ولكن دون الانتباه إلى نقطة عرضه الذي يبلغ ٣٠ قدماً فقط (٩,١ متر) في أقصى اتساع له. ومن مسافة تماثل بعد القمر عن الأرض - نحو ٢٣٨ ألف ميل (٣٨٣ ألف كيلومتر- فإن معلماً مشابهاً على كوكبنا يجب أن يكون بعرض ٧٠ ميلاً تقريباً (١١٣ كم) على الأقل كي تستطيع عين مجردة على القمر أن تميزه.

حسناً، ماذا عن السؤال المشابه التالي: هل يستطيع رائد فضاء أن يرى جدار الصين العظيم من مدار أرضي؟

مرة أخرى: الإجابة هي لا. فرغم أن بعض العلماء قد دافع بقوة عن الإمكانية النظرية لهذه المشاهدة إذا توافرت أفضل الظروف -من قبيل صفاء الجو وزاوية ضوء الشمس- إلا أن إمكانية هذه المشاهدة تتطلب عيناً لها قدرة ميز (حدة إبصار) أكثر من التي تحظى بها العين البشرية بـ٥ مرات على الأقل.

باختصار: لا يمكن رؤية جدار الصين العظيم من على سطح القمر أو من المدار، لأن عرضه أقل كثيراً من أن يسمح بذلك.

❁ ❁ ❁

٤- .. ويتـوارى أحـد وجهـي القمـر في ظلمة دائمة!!

(ربما لـن يدهشنـا أن نعـرف أن ٤٥ مليون نسخة من أحد ألبومات الأغاني...قد أطلقت أكذوبة في علم الفلك).

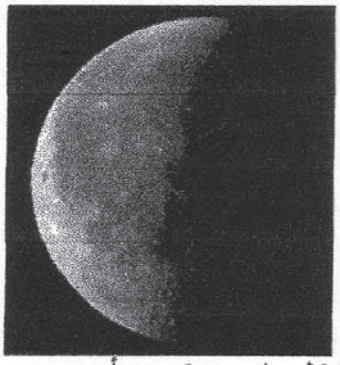

بشكل دائم، يكون أحد وجهي القمر ـ وهو البعيد عن الشمس ـ في ظلمة. لكن دوران القمر حول محوره يجعل هذا الوجه يتبادل العتمة مع الوجه الآخر.

في العام ١٩٧٣، أطلقت الفرقة الموسيقية البريطانيـة المعروفـة Pink Floyd أحد أكـثر الألبومات شعبيـة وانتشـاراً ومبيعاً على الإطـلاق. كان اسـم الألبوم «الجانب المعتـم للقمـر The Dark Side of the Moon». وهنا كانت المشكلة. فقد ظن كثير من الناس منذ ذلـك الحين أن أحد وجهي القمـر -الجانب الـذي لا يقابـل الأرض، ويدعى أحياناً بـ«الطرف البعيد للقمر»- هو في عتمة دائمة. وهذا أمر غير صحيح.

إن ما هـو صحيح هـو أن أحد نصفي القمـر يكون في ظلمـة في أي وقـت، وأن الجانب المظلم يكون هو دوماً الجانب البعيد عـن الشمس. وهذه الحـال صحيحة أيضاً بالنسبـة للأرض. فأحد وجهـي (نصفي) كوكبنا يواجه الشمس في الوقت الذي يكون فيه نصفه الآخر يواجه عتمة الفضاء (وقت الليل).

وحيث أن الأرضـ والقمر يدوران حول محوريهما، فـإن بعض مناطـق سطحيهما تتجه صوب النور في الوقت الذي تتجه فيه مناطق أخرى نحو العتمة. تدور الأرض حول محورها مرة في اليوم. أما القمر فيدور دورة حول محـوره في مدة قدرهـا ٢٧,٣ يوماً. ولـذا فعليك أن تذكر، أن أحد وجهي القمر يكـون دوماً في ظلمة. لكن هذا الوجه يتغير باستمرار.

❁ ❁ ❁

٥- .. وقـد نحت أهـل المريخ وجهاً كبيراً عليه..!!

(لقد قدمت التقانات الحديثة اكتشافات عديدة وعظيمة حقاً عبر نظامنا الشمسي.

لكـن موضـوع أكذوبتنا هذه ليس واحداً منها).

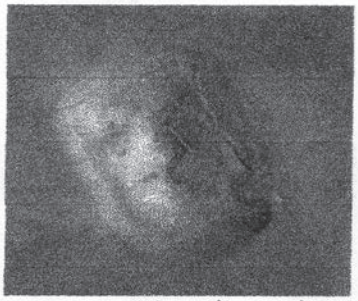

إن الوجه المريخي هو مجرد هضبة ذات جوانب شديدة الانحدار، وتشبه كثيراً الهضاب المجاورة لها في منطقة سيدونيا. وهو بذلك مجرد أثر طبيعي ...ولم تنحته كائنات غريبة.

يمكنني توضيح هذه الأسطورة- الأكذوبة بمقارنة هذا الأثر، أو المعلم، بما يراه الناس عندما يشاهدون صور حيوانات أو أشياء أخرى تظهرها تشكيلات الغيوم في السماء. لكن، بدلاً من ذلك، سآخذ في تفسيري هنا جانب العلم.

في العام ١٩٧٦، كانت مركبة وكالة الفضاء الأمريكية ناسا المسماة فايكنغ١ تدور حول كوكب المريخ وتلتقط صوراً لأماكن هبوط ممكنة لتوأمتها المركبة فايكنغ٢. أظهرت إحدى هذه الصور شكل ظلال تشبه وجهاً بشرياً هائل الحجم بأبعاد تصل إلى ٢ ميل (٣,٢ كم) تقريباً.

وفي منطقة اسمها سيدونيا على سطح المريخ، فقد بدا هذا الوجه يحدق فعلاً في فايكنغ١ وهي في مدارها حول الكوكب.

قام العلماء بإدراج هذا المعلم وفهرسته بصفة نوع من الهضاب (ميسة mesa)، وهو نوع شائع من التضاريس في تلك المنطقة المريخية. وبعد عدة أيام، كشفت وكالة ناسا الصورة لعامة الناس. وكان نص الصورة يقول: «تشكيل صخري هائل... يشبه رأساً بشرياً.. شكلته ظلال تعطي خيالاً له هيئة عينين، وأنف، وفم».

ومنذ ذلك الحين صار «الوجه المريخي» أيقونة ثقافية. فظهر في الكتب والمجلات وبرامج إذاعية وأفلام. اعتقد بعض الناس أن الوجه هو دليل على وجود حياة على المريخ- وهو دليل ستبقيه ناسا في طي الكتمان، بحسب قول أصحاب نظرية المؤامرة.

ومن أجل استخدام العلم لدحض نظرية المعلم الذي بنته كائنات فضائية غريبة، فقد غدا تصوير منطقة سيدونيا أولوية عند ناسا عندما وصلت بعثة مركبة MGS إلى المريخ في شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٩٧. وعندما حلقت MGS بتاريخ ٥ نيسان/

إبريل، ١٩٩٨، فوق منطقة سيدونيا أول مرة، قام فريق التصوير بالكاميرا الخاصة على المركبة بالتقاط صورة هي أدق بعشر مرات من صور فايكنغ الأصلية. وعندما عرضت الصورة أول مرة على موقع مختبر الدفع النفاث، فقد كشفت أن الوجه هو عبارة عن تشكيل سطحي طبيعي. وانتهت القصة هنا إذن. صحيح؟

لم يقنع هذا جميع الأطراف: فالوجه المريخي موجود عند خط العرض الشمالي رقم ٤١°. وفي شهر نيسان/إبريل من عام ١٩٩٨، كان الوقت هو فصل الشتاء على المريخ، مع ما يعني ذلك من وجود للسحب. وكان هذا يعني أن كاميرا المركبة كانت تحدق من خلال سحب رقيقة كي ترى الوجه. لذا يقول المتشككون أن هذا الضباب الرقيق ربما أخفى بعض المعالم الغريبة للوجه.

وعندما رأى أخصائيو البعثة أن الجدل المحتدم بشأن الوجه لم ينته أو يتراجع، قاموا بإعداد عملية تحليق ثانية تستهدف تلك المنطقة من جديد. وحيث أن تصميم المركبة MGS جعلها تنظر إلى المناطق الواقعة أسفلها بشكل مباشر، لذا فقد كانت تمسح الكوكب في قطاعات عرضها ١,٥ ميل (٢,٥ كم) تقريباً، ولم تكن تحلق فوق الوجه كثيراً.

ومع ذلك، فقد أرسلت المركبة MGS بتاريخ ٨ نيسان/ إبريل من عام ٢٠٠١ – وفي يوم صيفي تخلو سماؤه من السحب في منطقة سيدونيا– كي تأخذ نظرة ثانية إلى تلك المنطقة. والتقطت كاميرا المركبة المدارية صورة رائعة بأعلى دقة تستطيعها. مثل كل بيكسل في صورة العام ٢٠٠١ منطقة من سطح الكوكب أبعادها ٥,١ قدم (١,٥٦م) مقارنة بصور فايكنغ١ السابقة في العام ١٩٧٦ التي كانت دقتها ١٤١ قدم (٤٣ متر) لكل بيكسل.

ما أظهرته الصورة هو نسخة مريخية من هضبة شديدة الانحدار، أو ميسة، وهي تشكيلات سطحية على الأرض شائعة في مناطق الغرب الأمريكي، وأن منطقة سيدونيا قد احتوت مناطق ميسات كثيرة مشابهة لمنطقة الوجه، لكن المناطق الأخرى لم تشابه رؤوساً بشرية، ولذا فلم تجذب كثيراً من اهتمام الناس. وقد قام فريق مركبة MGS بدراسة هذه المعالم بعناية فائقة باستخدام مقياس ارتفاع ليزري (هو MOLA) على متن المركبة MGS.

استطاعت الأداة MOLA قياس ارتفاع معالم سطحية بدقة تبلغ ٢٠ إلى ٣٠ سم،

ونفـذت مئات عمليات قياس الارتفاعات لمعالم شبيهة بالميسات حول وفي منطقة سيدونيا بما في ذلك الوجه المزعوم. شابه الوجه، في ارتفاعه وحجمه ونسب أبعاده - بل وجميع أبعاده في واقع الأمر- الهضاب الأخرى، ولم يكن من غرابة فيه بأي شكل.

إن هضاب منطقة سيدونيا هي ذات أهمية كبيرة بالنسبة لعلماء جيولوجيا الكواكب لأنها تقع في منطقة وسطى بين مناطق المرتفعات المليئة بالفوهات في جنوب الكوكب ومناطق السهول المنخفضة الأكثر سلاسة وانبساطاً في الشمال. يعتقد بعض العلماء أن مناطق سهول الشمال هي كل ما تبقى من محيط مريخي قديم. إن كان الأمر كذلك، فإن منطقة سيدونيا ربما كانت موجودة قريباً من حافة جسم مائي كبير (محيط). وبالنسبة للعلماء فإن هذا يعني لهم شيئاً أكثر أهمية وأكثر إثارة بكثير من مجرد هضبة تشابه في هيئتها وجهاً بشرياً.

❁ ❁ ❁

٦- لا وجود للجاذبية (قوة الثقالة) في الفضاء!!

(لو كانت هذه الأكذوبة أمراً حقيقياً، لكان الكون مكاناً شديد الاختلاف عما هو عليه في الواقع).

نفذ الرائد إد وايت عملية سير فضائية أثناء بعثة جيميني 4، بتاريخ 3 حزيران/يونيو، 1965. ومع أنه يبدو سابحاً في الفضاء في حالة انعدام للجاذبية، إلا أن قوة ثقالة (جاذبية) الأرض، والقمر، والشمس، وغيرهم، تفرض تأثيرها عليه وهو في الفضاء.

رغم خلو هذه المقولة من أي صحة، إلا أنه ليس من الصعب إدراك ومعرفة بدايتها: لقد أظهرت صور وأفلام روّاد الفضاء في مركباتهم حول الأرض، أو في طريقهم إلى القمر، أنهم يسبحون أو يطيرون في تلك المركبات الفضائية. وبالمثل، أظهرت صور لرواد مكوك الفضاء الذين أجروا عمليات سير فضائية لإصلاح منظار هبل الفضائي وهم يسبحون في الفضاء ويقيدهم حبل إلى الجزء الرئيس من المركبة أو المنظار. كما حدث في مرات مبكرة من برنامج الفضاء

المأهول أن أشـار الطيارون وبعض العلماء، وبنحو خاطئ، إلى الفضاء كما لو أنه مكان عديم الجاذبية zero gravity.

إن الثقالـة (الجاذبية) هي قوة يحدثها أي جسم لـه كتلة. ونحن ننظـر عادة إلى الشمس، والقمر، والكواكب (وخاصة الأرض منها) على أنهـا أجسام تحظى بهذه القوة. ولكـن الحقيقة هي أنني أنـا، وأنت أيضاً، وبسبـب امتلاك جسدينا لكتلة ما -نحظى أيضـاً بشيء من قوة الثقالة- رغم أنه فعلاً قدر ضئيل.

ودونمـا حاجـة إلى الاستعانـة ببعض المعادلات الرياضية الصعبة هنا، يمكننا أن نذكـر أن عالم الرياضيات البريطاني إسحاق نيوتـن (١٦٤٣-١٧٢٧) كان قد أثبت أن قوة الثقالة تتناقص مـع ازدياد المسافة بين أي جسمين، لكنها لا تزول مطلقاً. وفي الحقيقة، فإن قوة ثقالـة الأرض على ارتفاع ١٠٠ كم فوق سطحها، تكـون بنسبة ٩٧٪ منها عند سطح البحر.

مـن ذلك نرى، على سبيل المثال، أن قوة جذب الشمس لكوكب عطارد (أقرب كواكبها إليها) هي أقوى من جذبها لكوكب الزهرة، والأرض، أو أي كوكب آخر (ولذا يجب على عطارد أن يتحـرك في مداره حول الشمس بأسرع مما تفعـل الكواكب الأخرى؛ فلو أنه دار حـول الشمس بسرعـة دوران الأرض، لجذبته الشمـس إليها بسرعـة وابتلعته). وبالمثل، تبقـي قوة ثقالة الأرض على القمر يـدور حولها مـرة كل ٢٧,٣ يوماً، وتمسك قوة ثقالة كوكب المشتري بأكثر من ٦٠ قمراً يدورون حوله.

إذا كان شـأن قـوة الثقالـة في الفضاء هكذا، فلماذا يبدو إذاً ملاحو الفضاء أنهم يسبحون فيه بحرية؟ الإجابة العلمية هي أن الأجسام في الفضـاء تكون في حالة سقوط حر مستمر. تصف هذه العبارة حالة حركة لا تسارع فيهـا سوى تلك التي تفرضها قوة الثقالـة. يمكن أن يحدث أمر مشابه لراكب مصعد علـى الأرض يمسك حقيبة في يده، حيـث سيكون لكلا هذيـن الجسمين حالة «انعـدام وزن» متماثلـة إذا سقط المصعد بسرعة كافية.

ولنتأمـل حقيقـة أخرى أخـيرة: فلو لم يكـن هناك من ثقالة في الفضاء فلن تتمكن الأقمار الاصطناعية الخاصة بأرصاد الجو والاتصـالات من الدوران حول الأرض، ولن تدور الأرض حول الشمس، ولن تدور الشمس حول مركز المجـرة. ولكان الأمر بالفعل هو تحـرك كل شـيء في الفضـاء في خطوط مستقيمة، وهو ما سيجعـل الفوضى سيدة الكون.

...ولكن هنـــاك ثقالـــة في الفضاء. بل ويوجد الكثير منها.

❁ ❁ ❁

٧- أمـا اختلاف فصول العام فمرده إلى تغير بعد الأرض عن الشمس.!!

(في ظاهـــر الأمـــر، تبدو هـــذه المقولة صحيحة. لكن العلم لديه قول آخر).

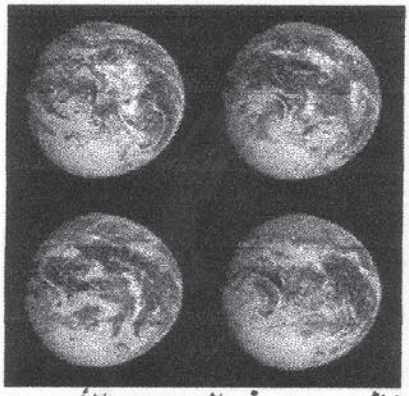

تظهـر هـذه الـصور الأربـع لـلأرض كيـف يمكـن لمـيلان محورها أن يؤثر في هيئتها عند بداية كل فصل.

تشهـــد الأرض تبدلاً من فصل لآخر لأن كوكبنـــا يميل بزاوية قدرهـــا ٢٣,٥° درجة علـــى مستوى مداره حول الشمس. ما تعنيه هـــذه العبارة هو أن فصـــل الصيف يحدث في نصف الأرض الشمالي بسبب ميل قطب الأرض الشمالي نحو الشمس في ذلك الوقت من العام. ولكن القطب الجنوبي، في الوقت ذاته أيضاً، يميل مبتعداً عن الشمس بالقدر ذاتـــه. وهذا يعني حلـــول فصل الشتاء عند سكان نصف الكرة الجنوبي- في الآن ذاته.

أمـــا مـــا يتعلـــق بالمسافة بـــين الأرض والشمس، فالأرضـــ تكون أقرب مسافة إلى الشمســـ بقدر ٥ ملايـــين كيلومتر في أوائل شهـــر كانون الثـــاني /يناير منهـــا في أوائل شهر تمـــوز/ يوليو. إن هـــذا يعني تأرجحاً في المسافـــة يزيد قـــدره قليلاً فقط عن ٣٪ بـــين أقرب نقطة للأرض من الشمس وأبعد نقطة لها عنها. ورغم ضآلة هذه النسبة، إلا أن ٣٪ ليســـت بأمر غير ذي شأن: فاختلاف المسافة هذا يعني أن نصف الأرض الجنوبي يتلقى طاقة شمسية في فصل صيفه أكثر مما يتلقاه نصف الأرض الشمالي في صيفه.

يبدأ فصلا الصيف والشتاء في مواعيد تسمـــى بأوقات الانقلاب، وهـــي تلك التي تحدد أعلى وأخفض نقطة تصل إيلها الشمس في السماء (ظاهرياً). في النصف الشمالي، تأخـــذ الشمس بتاريـــخ ٢١ حزيران/ يونيو موقعاً لها يعلو بزاوية أكثر بـ٤٧° درجة (أي ضعف زاوية ميل محور الأرض) عن موقعها يوم ٢١ كانون الأول/ديسمبر. ولذا يبدأ فصل الصيف شمال خط الاستواء في وقت قريب

من هذا التاريخ (٢١ حزيران/ يونيو)، بينما يبدأ فصل الشتاء في جنوبه. ولهذا السبب يبدو قولنا عن يوم ٢١ حزيران/ يونيو أنه يوم «الانقلاب الصيفي» بعيداً عن الدقة: فالصيف يبدأ في ذلك اليوم في النصف الشمالي فقط من الأرض. ونستخدم نحن هنا في المجلة تسمية انقلاب حزيران/ يونيو وانقلاب كانون الأول/ ديسمبر للإشارة إلى هذه الأحداث.

❁ ❁ ❁

٨- .. ومع اكتمال القمر..تكثر الجرائم!!!

(تنسب هذه الأكذوبة نفوذاً وتأثيراً للقمر أكثر مما يحظى به في واقع الأمر).

إن نسبة حدوث الجرائم في وقت اكتمال القمر هي ذاتها في جميع أوقات أطواره الأخرى.

لقد سمع كثير من الناس بهذه الأكذوبة، وكثير منهم يعتقد للأسف بصحتها، وذلك رغم عدم وجود أدنى دليل يؤيدها. تزعم هذه الأسطورة أن مسؤولي الشرطة والطوارئ يلحظون زيادة في نسبة الجرائم في أوقات اكتمال القمر.

وعلى أي حال، تظهر الدراسات العلمية عدم وجود ما يربط بين القضيتين. وبعبارة أخرى، إن أطوار القمر لا تأثير لها على عدد الجرائم المرتكبة، أو عدد الأشخاص طالبي اللجوء، أو عدد حوادث الحمل والولادة، أو أي أثر مشابه آخر.

وإذن، لِمَ تستمّر مثل هذه المقولة؟

ربما كان الأمر هو ما يبدو من أن الناس يلحظون مثل هذه الأحداث في وقت اكتمال القمر أكثر مما يلحظونه في أوقات أطواره الأخرى.

ويخمن علماء الاجتماع أن الناس هم أكثر ميلاً لملاحظة و تذكر القمر في طور البدر منهم في أوقات أطواره الأخرى.

وإذن، إذا ارتكب أحدهم جريمة ما عندما يكون القمر في طور هلال، فإن الأشخاص الذين يقومون بتغطية الجريمة قد لا يتذكرون أو يلحظون طور القمر في تلك الليلة- (ربما غرب القمر قبل وصول الشرطة إلى مسرح الجريمة). وعلى أي

حـــال، إذا كان القمـــر بـــدراً، فربما يكون ضابط الشرطة أكثر قـــدرة على تذكر طور القمر في تلك الليلة لأن القمر الساطع، بكل بساطـــة، أكثر وضوحاً من قمر طور الهلال، وملاحظته أكثر سهولة.

وهاكم حقيقـــة نؤكد عليها: يعكس قمر مكتمـــل ضـــوءاً أكثر بعشر مـــرات من ضوء قمـــر في طور التربيع حتى لو كان قمر طور التربيـــع الأول، أو الأخير، يعكس ضوء قمر هو نصف مكتمل.

وباختصـــار: فالجرائـــم، والـــولادات، والأحداث الغريبة، إنما تحدث طوال الشهر كلـــه. لكن ما يحدث منهـــا في وقت اكتمال القمر هو مـــا يذكره الناســـ أكثر من غيره للحديث عنه.. وربطه بقمر مكتمل.

إضاءات على نشوء الطب وتطوره

د. محمد يحيى خراط

إنَّ إنســانَ اليوم الذي يحمــلُ اسم هومو سابينســ- سابينس الذي هو ارتقــاءٌ من الإنسانِ الأولِ، الذي يبلغُ من العمرِ من دون شك أربعينَ ألفاً إلى خمســين ألفَ سنةٍ، من المحتمل أن يكونَ مجمــلُ النشاط الفسيولوجي لهذا الإنســان، أي وظائــفُ أعضائِه، قد تغيرَ قليلاً على مــدار هذه الآلافِ من السنــين، وتغيرَ شكلهُ الخارجيُ، وربما تغيرَ أيضاً التركيبُ الكيميائيُ الحيوي لأنسجته تحتَ تأثيرِ المناخِ وأنواع الغذاءِ والنشاط الذي يمارسه والملبس الذي يرتديه والأمراضِ التي أصابته على مرِّ الأيامِ.

باحث في التراث العربي ووزير سابق.

العمل الفني: الفنان محمد حمدان.

وتشيرُ العظام المتحجرةُ المحفوظةُ إلى اليومِ في المقابر الجماعية إلى أنَّ الـ(هوموسابينس) كان صغيرَ الحجمِ. إذْ إن النوعَ الإنسانيَ لم يَكْبُرْ هكذا إلا حديثاً بفضلِ تغذيةٍ أكثر توازناً وغنىً بالفيتامينات، وبفضلِ تحسن وسائلِ النظافة والرعايةِ الصحية. وإننا لنجدُ تشوهات العظامِ نفسها التي تصادفنا حالياً، مثلَ اعوجاجِ مفصل الحوضِ، وعدمِ التماثل في طولِ بعض العظامِ، أو إصبعٍ زائدةٍ بالقدم أو باليد. لقد كانَتْ حياتهُ قصيرةً، فهي في المتوسط ثلاثين عاماً، ولا نكتشفُ إلا فيما ندرَ جماجم لأشخاصٍ عجائز. فالأسرةُ كانت تتألفُ من أُناسٍ صغار السنِ حيث كانتِ الإناثُ يصلْنَ إلى سنِ الإنجابِ أبكر عما نراهُ اليومَ، ولا يتبقى أمامَ الزوجينِ سوى فترةٍ قصيرةٍ من أجلِ التناسلِ.

لا يقدمُ الباليونتولوجي، في غيبةِ النصوصِ، أيَّ وثائقَ تسمحُ لنا بمعرفةِ كيف كانَ الإنسانُ يطبِبُ نفسه في العصرِ النيوليثي (من ١٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد). هل كانَ يستخدمُ الأدويةَ مثلاً؟ لا نستطيعُ الإجابةَ عَنْ ذلك، لكننا نستطيعُ أن نؤكدَ من خلالِ الهياكلِ العظمية المكتشفةِ أنه كان يعرفُ كيفَ يردُ كسورَ العظامِ، بتثبيتِ العظامِ المكسورةِ والمحافظةِ على استقامتِها، لكنْ في حالِ الكسورِ المضاعَفةِ يمكنُ القولُ أنه لم يكنْ يعرفُ طريقة الجذْبِ من الطرفَيْنِ المكسورَيْنِ التي تعيدُ الاستقامةَ للعظامِ. ونترددُ أكثرَ في الحديثِ عن ثقوب الجُمْجمةِ والتي التأمَتْ جزئياً على مدارِ حياةِ الشخصِ. هل هي إصابةٌ عارضةٌ أم جروحٌ متعمدةٌ؟ وبخصوص هذه الأخيرة، يخيمُ الشكُ على الأبحاثِ، فهل كان لهذه الثقوبِ معنى دينيٌ، أم كانَتْ غرضاً علاجياً ميكانيكياً يستهدفُ تقويةَ العظامِ، أم علاجاً لمرضٍ عصبيٍّ كالصَرعِ والشللِ مثلاً؟ وفي مثلِ هذه الحالاتِ يمكنُنا افتراضُ أنَّ الإنسانَ القديمَ كان يُرجِعُ الإصابةَ بالشللِ إلى المخِ. وهل كانَ يقصدُ بتلكَ الفتْحاتِ إصلاحَ الاضطراباتِ العقليةِ؟ إن هذا الافتراضَ يسمحُ لنا باستنتاجِ أنه كانَ يعتبرُ الجمجمةَ موطناً للأمراضِ التي تؤثرُ على صحةِ الإنسانِ! وإن هذهِ الأسئلةَ ربما تظلُ من دونِ إجابةٍ.

ومع بداياتِ الطبِّ العقلانيِّ المؤسَسِ على

مبادئَ ومناهجَ وتقنياتٍ انتهَتْ بأن أصبحتْ هي ذاتُها الطبَّ الحقيقيَّ في القرنِ العشرينَ أو قبلَ ذلكَ التاريخِ، مع ما يُعرفُ بالطبِّ التقليديِّ، ليس لدينا سوى معلوماتٍ قليلةٍ عن المتخصصينَ الأوائلِ الذين حملوا على عاتقهم مهمة تسكينِ آلامِ الناسِ الذينَ عانوا الألم والحُمّى والجراحِ.

لقد استعارَ الطبُّ الأولُّ الكثير من السحرِ والغيبياتِ في كلِّ أنحاءِ العالمِ قبل أن يصبحَ كهنوتياً ثم يصبحُ بعد ذلك علمياً. فإذا انتقلنا إلى مصر وبابلَ والصين والهندَ وفارسَ نجدْ أنَّ لكلِ شعبٍ معتقداتِه وطرقَه الخاصةَ في معالجةِ المرضى.

إنَّ منْ أهمِّ المصادرِ العربيةِ التي بحثَتْ في كيفيةِ نشوءِ الطب، «كتابُ عيونِ الأنباءِ في طبقاتِ الأطباء» لابن أبي أُصيبعة المتوفى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٢م والذي ألَّفَه لأمينِ الدولةِ وزيرِ الملكِ الصالحِ، وهو أفضلُ كتاب في التراجمِ لا يضاهيه في أهميتِه إلا كتابُ «أخبار الحكماءِ» للقفطي، لكنَّه يمتازُ عليه بأنَّهُ أوسعُ علماً وأوفرُ مادةً. وقد خُصِّصَ البابُ الأولُ منْ هذا الكتابِ للبحثِ عَنْ كيفيةِ وجودِ صناعةِ الطبِّ وأولِ حدوثِها.

يقولُ ابنُ أبي أُصيبعَة: إنَّ الكلامَ في تحقيقِ هذا المعنى يَعْسُرُ لوجوهٍ:

أحدُها بعدَ العهدِ بِهِ، فإنَّ كلَّ ما بعدَ عهدِهِ وخصوصاً ما كانَ منْ هذا القبيلِ، فإن النظرَ فيهِ عَسِرٌ جداً.

الثاني: أننا لَمْ نجدْ للقدماءِ والمتميزينَ وذوي الآراءِ الصادقةِ قولاً واحداً ساداً في هذا متفقاً عليه فَنتبعَهُ.

الثالث: إنَّ المتكلمينَ في هذا لما كانوا فِرقاً وكانوا كثيري الاختلافِ جداً بِحسبِ ما وقعَ لكلِ واحدٍ منهم، أَشْكَلَ التوجيهُ في أيِّ أقوالِهم هو الحقُ.

ويستطردُ ابنُ أبي أُصيبعة فيقولُ: إنَّ القولَ في وُجودِ صناعةِ الطبِّ ينقسمُ إلى قسمَيْنِ: فقوم يقولونَ بِقِدَمِهِ، وَقومٌ يقولون بِحدوثِهِ.

فالذين يعتقدونَ حدوثَ الأجسامِ يقولونَ أن صناعةَ الطبِّ مُحدثةٌ، لأن الأجسامَ التي يُستعمَلُ فيها الطبُ مُحدثةً.

والذينَ يعتقدونَ القِدَمَ يعتقدونَ في الطبِّ قِدَمَهُ. ويقولونَ إنَّ صناعةَ الطبِّ قديمةٌ لم تزلْ مُذْ كانَتْ، كأحدِ الأشياءِ القديمة، لم تَزَلْ، مثلَ خَلْقِ الإنسانِ.

وأما أصحابُ الحدوثِ فينقسمُ قولُهم إلى قسمَيْنِ أيضاً، فبعضُهمْ يقولُ إنَّ الطبَّ خُلِقَ مع خَلْقِ الإنسانِ، إذْ كانَ مِنْ أحدِ الأشياءِ التي بها صلاحُ الإنسانِ. وبعضُهمْ يقولُ وهُمُ الجمهورُ إنَّ الطبَّ اسْتُخْرِجَ فيما بَعْدُ. وهؤلاءِ ينقسمونَ قسمَيْنِ أيضاً: فمنهمْ من يقولُ إن اللّه تعالى ألهمَها الناسَ، وأصحابُ هذا الرأي يوافقونَ على ما يقولُهُ جالينوسُ وأبقراطُ وجميعُ أصحابِ القياسِ وشعراءُ اليونانِ.

ومنهمْ من يقولُ إن الناسَ استخرجوها. وهؤلاءَ قومٌ من أصحاب التجربةِ وأصحابِ الحِيَلِ، وهم أيضاً مختلفونَ في الوضعِ الذي به اسْتُخرِجت وبمَ استخرجَتْ.

وقد ذكرَ كثيرٌ من القدماءِ أن الطبَّ ظهر في ثلاثِ جزائرَ في وسط الإقليم الرابع إحداها تُسمى رودس والثانيةُ قنيدس والثالثةُ تُسمى قوس، ومن هذه كانَ أبقراط.

والذين قالوا إن الطبَّ من اللّه تعالى، قالوا: هوَ إلهامٌ بالرؤيا واحتجّوا بأن جماعةً رأوا في الأحلام أدويةً استعملُوها في اليقظة فشفتهمْ من أمراضٍ صعْبَةٍ وشفت كلَّ من استعملَها.

والذين يعتقدونَ بأنه معرفةٌ جاءَتْ عن طريق المصادفةِ يوردونَ عن أندروماخوس قوله أنه ذهبَ في أحدِ الأيام يتفقدُ عمالاً يعملونَ في حقلهِ وقد حمل لهم زاداً وشراباً، فلما أرادَ أحدُ العمالِ أن يغرف من الشرابِ وجدَ فيه أفعى قدْ تهرأتْ، فأمسك ورفاقهُ عن الشرابِ، وقال له رفاقُهُ إنَّ في القريةِ رجلاً مجذوماً يتمنى الموتَ مِنْ شدةِ ما به، فلنسقهِ من هذا الشرابِ ليموتَ، فمضوا إليه وأسقوه ذلكَ الشراب، فلمّا كان الليلُ انتفخَ جسمهُ نفخاً عظيماً وبقيَ إلى الغداةِ، ثم سقطَ عنه الجِلد الخارج وظهرَ الجلدُ الداخليُ أحمرَ اللونِ، ولم يَزَلْ حتى صَلُبَ جلدُهُ وبَرا.

لقد تطورَ مفهومُ المرضِ عبر العصورِ حتى أصبح في بعضِ الحضارات كما في بلادِ الرافدين لعنةً أو عقاباً مِنَ الآلهة لشخصٍ أتى بِجُرْمٍ أو أذية، ولذلكَ فالشفاءُ لا بُدَّ أن يكونَ عن طريقِ استرضاءِ الآلهةِ. وكانَ «ينجي شزيدا» أحدُ آلهةِ الشفاءِ يجسدُ على شكلِ تمثالٍ لشخصٍ يحملُ أفعى ذاتَ رأسينِ. وهذا يدلُّ على أنَّ الأفعى اعْتُبِرَت رمزاً للطبِّ في بلادِ الرافدين قبل ظهورِ

أسكـولاب اليونـاني بما لا يقـلُ عن عشرةِ قرونٍ.

وكانَ الأطباءُ في بلاد الرافدينِ يُقسَمون إلى ثلاثِ زمرٍ: الطبيبُ الأولُ يدعى بالعَرّاف ووظيفتـهُ الإنـذارُ والتشخيصُ، والثاني يُدعى بالراقي ووظيفتُه طردُ الشياطينِ من الشخصِ المريضِ ومن المنـزلِ الذي يعيشُ فيـه. والثالثُ يُدعى بالآسـيِّ وهو الطبيبُ الحقيقيُّ الذي كانَ يداوي المرضى بالأدوية كما كانَ يقومُ بالعملياتِ الجراحيةِ إلى جانبِ العرّافةِ والسِّحرِ.

ومـن اللافـتِ أن سكانَ مملكـةِ ماري الواقعـةِ علـى ضفافِ الفـرات قد عرفوا الأمراضَ المُعْدِيَـةَ وقالوا بعـزلِ المرضى المصابينَ بأحد تلـكَ الأمراضِ. فقد أرسلَ الملك «زمـري ليم» ملكُ مـاري إلى زوجته «شيبتو» رسالةً يقولُ فيها «إلى شيبتو، هكذا يقـولُ سيدكِ: لقد بلغَني أن السيدةَ «نائوم» قد أصيبتْ بالمرضِ، وأن لها اتصالاتٍ كثيرةٍ مـع رجالِ القصرِ، كما أنها تقابل في مقرِّها الخاصِّ العديدَ من النساء. والآن عليك أنْ تُعطـي أوامرَ مشددةً تقضـي بأن لا يشربَ إنسـانٌ مـن الكأسِ الذي تشـربُ منه، وألاَّ يجلسَ إنسـانٌ على الكرسـيِّ الذي تجلسُ عليه، وأن لا ينـام إنسانٌ على السريرِ حيث تنـامُ، وأن لا تقابلَ أبـداً النساءَ في مقرِّها الخاصِّ. إن هذا المرضَ مُعْدٍ». أوليسَ هذا النصُ دليلاً قاطعـاً على أنَّ سـكانَ بلاد الرافديـنِ وبلاد الشامِ قـد عرفوا العدوى قبـلَ أطباء عصرِ النهضةِ الأوروبيينِ بآلافِ السنينَ؟؟

وبالإضافـةِ لمفهـومِ المرضـى والعلاجِ والعـدوى فقَدْ سـنَّ حمورابـي في قانونهِ المشهـورِ تسعَ فقراتٍ تتعلـقُ بأجورِ الأطباءِ وبالعقوبـاتِ التـي تُفرضُ عليهـم في حالِ وقوعهم في الخطأ، منها:

١- إذا عالـجَ الطبيبُ رجـلاً مصاباً بجرحٍ خطيرٍ، بوساطةِ مشرطٍ معدنيٍّ، وشُفيَ ذلك الرجل، أو شقَّ الطبيبُ خرَّاجاً في عينِ مريضٍ وشفـاه، فإنه يتقاضى عَشْرة شواقلَ من الفضةِ.

٢- إذا عالـجَ الطبيـبُ رجـلاً حراً مصاباً بجرحٍ خطيرٍ، بوساطة مشرطٍ معدني وأدى ذلك لوفاةِ الرجل، أو إذا شقَّ الطبيبُ خرّاجاً في عينِ مريضٍ، ونتج عن ذلك ضياعُ عينه، تُقْطَعُ يدُ الطبيبِ.

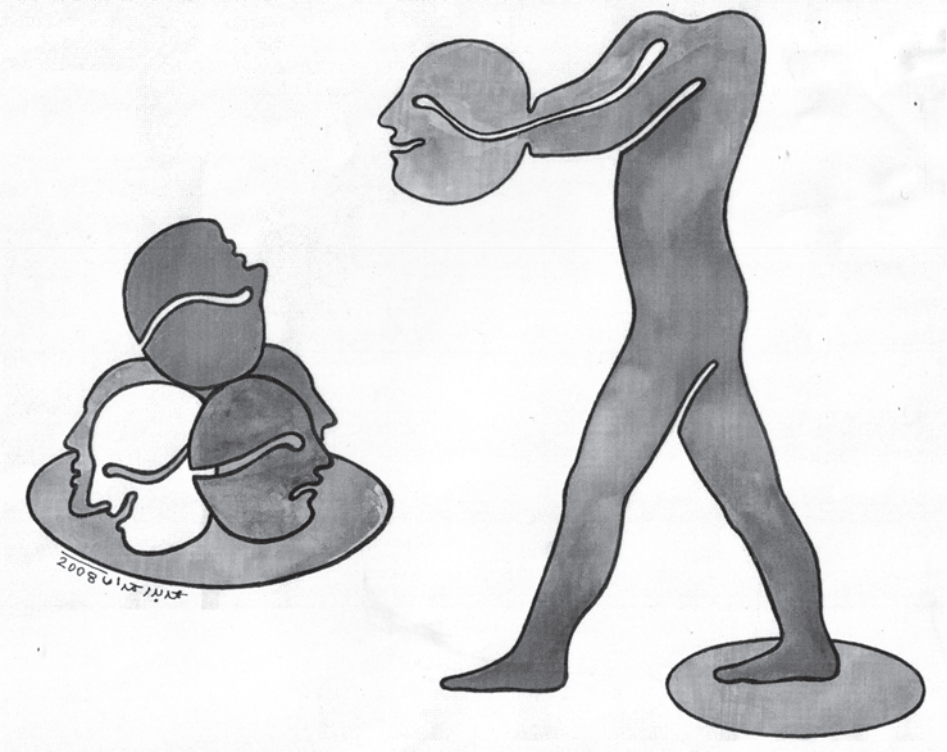

٣- إذا شَفى الطبيبُ مريضاً من عامة الشعب، مُصاباً بكسرٍ أو قَرْحةٍ، يتقاضى خمسةَ شواقلَ من الفضةِ. أما إذا كانَ المريضُ ولداً فيتقاضى الطبيبُ ثلاثة شواقل فقط، وحينما يكونُ المريضُ عبداً يتقاضى شاقَلينِ فقط من صاحبهِ.

٤- إذا عالجَ الطبيبُ ثوراً أو حماراً من جرحٍ خطيرٍ يتقاضى سُدُسُ شاقلٍ من الفضةِ.

وفي هذه العقوباتِ نلاحظ أن الطبيبَ الجراحَ يعالجُ آفةً واضحةً أمام عينيْه فهو صاحبُ صنعةٍ، أما الطبيبُ الداخليُّ فيعالجُ مرضاً مجهول السببِ أو يعزى غالباً إلى قوى غيبيةٍ، لذلك لا ذنبَ له إذا لم يشْفَ المريضُ، فهو مجردُ وسيطٍ بين المريضِ والآلهةِ.

وكما في بلادِ الرافدينِ كذلك كانَ الأمرُ في مصرَ القديمةِ فالآلهةُ هي التي تُمرض وتُشفي. وتعدُّ «إيزيس» أشهرَ هذه الآلهةِ وهي تمثل الأرضَ والأمَ المرضعَ وإليها يُعزى الشفاءُ، وأخوها «شيثُ» إلهُ الأمراضِ

والعــدوى و«توت» هو إلــهُ الطبِّ والمعرفة. ومــن آلهــةِ الشفــاءِ أيضاً «هاتــورُ» وهي سيدُة السمــاءِ والراعيةُ للنســاء الحواملِ، و«أمحوتبُ» الــذي كان كاهناً وطبيباً وفلكياً في عهدِ الملك «زوسر» (نحو ٢٩٠٠ ق.م) وهو الذي أشرفَ على بناء هــرم سفارةِ المدرج. وقــد رفعهُ المصريــونَ إلى درجــةِ إلهٍ وحلَّ محلَ «توت» منذ القرنِ السادس قبلَ الميلادِ، وتحتوي البُرديات المصريةِ وهي أقدم نصوص طبية مصرية على نصوص كثيرة لتشخيصِ الأمراضــ ووصف الأدويةِ المناسبة لها التي غالبــاً ما تكونُ من أصــلٍ نباتي، ومن هذه البُردياتِ برديةُ كاهون التي تعودُ إلى القرن التاسع عشرَ قبل الميلادِ وبُردية أدوين سميث وبُرديةُ جورج إيبرس وبرديةُ هيرست وبرديةُ برلين اللواتي تعــودُ إلى القرنِ السابعِ عشرَ قبــلَ الميــلاد. وبرديةُ لندن التــي تعودُ إلى الرابعَ عشــر قبل الميلادِ وبرديةُ شستر بيتي المحفوظةُ في ايرلنــدا والتي تعودُ إلى نهاية القرنِ الثالث عشر قبلَ الميلادِ.

وقد وردَ في برديةِ إيبرس الوصفةُ التاليةُ لعلاجِ الثعلبة: «أنتَ المضيءُ والذي لا تتحركُ من مكانكَ، الذي يحــاربُ الخطيئةَ، آتون. نجِّني ممــا أصابَ قمة الرأســ. تتلى هذه الأقوالُ على الصلصــالِ الأصفرِ والحنظلِ والهيصــم وحبوبِ عين السمــاء والعسلِ ثم تُسْحقُ معاً ويُدهن بها على الرأسِ».

وفي بلاد اليونانِ اشتهرَ «صقلاب» الذي كان طبيباً وإلهــاً، والإلهةَ «ديانا» في مدينةِ أفســس التي تشفي أمراضَ العيونِ، والإلهة «فينوس» التي كانت تشفــي بعضَ الأورامِ. وكذلك كان للإلهِ «باخوس» والإله «عطارد» وأخوه «صقــلاب» وأولادهُ اختصاصاتٌ في شفاء بعضِ الأمراضــ. إلا أن أشهرَ أطباء اليونانِ بلا منازع هوَ أبقراط (٤٦٠ – ٢٧٧ ق.م) الذي مارسَ الطــبَّ والتأليفَ الطبيِّ. وكتبَ اثني عشرَ كتاباً طبياً هي:

١- الجنين.
٢- طبيعة الإنسان.
٣- تقدمة المعرفة.
٤- الفصول.
٥- الاخلاط.
٦- الغذاء.
٧- الأمراض الحادة.
٨- الأمراض الوبائية.
٩- أمراض النساء.

١٠- الأهوية والمياه والأماكن.

١١- عيادة الطبيب.

١٢- الكسور والتجبير.

لقد استعملَ أبقــراطُ في وصفاتهِ ٢٣٠ عقاراً وكانت وصفاتــهِ تستعملُ خارجاً كما تستعمــلُ داخلاً. وإلى أبقــراطَ يُنسبُ قَسَمُ الأطباءِ المشهور، وله قــولٌ مأثورٌ في الطبِّ يعبر عن طريقةِ ممارستهِ للطبِّ هوَ «الطبُّ تجربةٌ وقياسٌ».

ومن أشهرِ أطباءِ اليونانِ الذين أتوا بعد أبقــراطَ «ديوقليســ الكاريستي» (ت: ٣٥٠ ق.م) الــذي وضعَ كتاباً في الأعشابِ الطبيةِ دعاه Rhizotomikon ولعله أقدمُ كتابٍ معروفٍ من نوعهِ باللغةِ اليونانية.

في عصرِ الامبراطوريةِ الرومانية اشتهرَ «ديسقوريدسَ» الذي عاشَ في القرنِ الأول قبلَ الميلادِ وهو طبيبٌ يونانيُ الأصلِ وُلِدَ في مدينةِ عــين زربِ الواقعةِ في شمال سورية، عملَ جراحــاً في الجيشِ الرومــانيِّ أيامَ الإمبراطورِ «نيرون» وألَّــف كتاباً في الأدويةِ المفردةِ دعــاهُ «بالمادةِ الطبيــة Materia Medica» ضمنــه نحــو ٩٥٨ عقاراً منها ٥٠٠ نباتٍ طبيٍّ.

أما الطبيبُ الأخر أو الصيدلانيُّ الآخر فهو «جالينوس» الذي وُلِدَ في مدينةِ برغاما الواقعة شمالَ مدينة أزمير سنةَ ١٣١م. حيث درسَ الطب والفلسفةَ والرياضياتَ وأُعْجِبَ بآراءِ أبقراط.

قامَ جالينوسُ بتشريــحِ الجثثِ البشريةِ والحيوانيةِ وحضَّر بعضَــ الأدهانِ ووصفَ طُرُقَ تحضيرِ عددٍ كبيرٍ من الأدويةِ.

في الشرقِ البعيدِ، في الصينِ، ظهرَ طبٌّ يقومُ على المعالجةِ بالأعشاب وطبٌّ آخر يقولُ بوجــود خطوطٍ منتظمــةٍ في جسمِ الإنسانِ على شكل مساراتٍ يسير بموجبها عنصرانِ همــا: «يانغُ» وهو العنصرُ المذكرُ و«ين» وهو العنصرُ المؤنــثُ. ومن تقاطُعِ خطوطِ اليانغِ وخطوطِ الــين تنشأُ نقاطٌ يمكــنُ بوخزها بوساطةِ إبرٍ خاصــةٍ شفاءَ بعضِ الأمراض. وقــد جاءَ بنظريةِ اليانــغ والين الإمبراطور «فورهــي» سنــةَ ٢٧٠٠ ق.م، في حــين ألَّفَ إمبراطــورانِ آخرانِ كتابــينِ طبيينِ، حيث ألفَ الإمبراطورُ الأحمــرُ «شن-نونغ ٢٨٠٠ ق.م» أولَ مؤلفٍ في علم المادةِ الطبيةِ بعنوانِ «كتابُ الأعشابِ» وألفَّ الإمبراطورُ الأصفرُ «يورهيونــغ ٢٦٠٠ ق.م» عدةَ مؤلفاتٍ طبيةٍ من أهمها كتابُ «قانونُ الطبِ».

وفي الهندِ كان قدماءَ الهنودِ يعتقدونَ كما في بلادِ الرافدينِ وبلاد أخرى بأن المرضَ هو عقابٌ إلهيٌّ ناتجٌ عن خطيئةٍ ارتكبها المريضُ، ويُطلق على المعلوماتِ الطبيةِ القديمةِ المتوارثةِ في الهندِ اسم أيورفيداس Ayurvedas، أي علمُ الحياة.

وتقول الأساطيرُ الهنديةُ إن الإلهَ «شيفا Shifa» إلهٌ قويٌّ شرسٌ ولهُ زوجةٌ تدعى «كالي»Kali وهما يُمثلانِ الحظ. أمَّا الإله فيشنو فهو الذي يحفظُ الكونَ وزوجتهُ لاكشمي هي إلهةُ الحياةِ والجمالِ والحظِّ. إلا أنَّ إلهَ الطِّبِ الحقيقيِّ هو «دان فانتري»Dhanvontri وهو من أحدثِ الآلهةِ التي ظهرتْ في الهندِ.

امتازَ الطبُّ الهنديُّ القديمُ عن طبِّ بقيةِ الشعوبِ بوجودِ جانبٍ روحيٍّ فلسفيٍّ يعتمدُ فيه على القولِ إنَّه بإمكانِ البشرِ التغلبَ على الألمِ والمرضِ والشهواتِ بالإيمانِ العميقِ والرياضةِ النفسيةِ والجسديةِ وهو ما يُعْرَفُ باليوغا YOGA.

في الجزيرةِ العربيةِ وقبلَ الإسلامِ كان الطبُّ نوعاً من التمائمِ والحجبِ والكيِّ. وفي صدرِ الإسلامِ بينَّ النبيُّ محمد (ص) أنَّ الطبَّ علمٌ قائمٌ بذاتهِ عندما قالَ «العلمُ علمانِ: علمُ الأبدانِ وعلمُ الأديانِ». وقد أُلِّفَتْ بعضُ الكتبِ التي ذكرَتْ ما وردَ عن النبيِّ محمدٍ (ص) من أحاديثَ وأقوالَ تتعلقُ بالصحةِ والمرضِ دُعِيَتْ بالطبِّ النبويِّ.

إلا أنَ عصرَ الطبِّ الحقيقيِّ ابتداً في القرنِ التاسعِ مع بزوغِ فجرِ الطبِّ العربيِّ. لقد اشتهرَ عددٌ كبيرٌ من الأطباءِ العربِ والمسلمينِ ممن مارسوا الطبَّ وألفوا فيه. مِنْ هؤلاءِ:

- علي بن سهل بن الطبري (٧٧٥ -٨٦٩ م) الذي ألفَ كتاباً في الطبِّ دعاه «فردوسُ الحِكْمَةِ».

- أبو بكر الرازي (٨٦٥ - ٩٣٢ م) الذي وضعَ أكثرَ من مئتي مؤلفٍ في الطبِّ والعلومِ والفلسفة، ومن أشهرِ مؤلفاتهِ في الطبِّ: الحاوي- المنصوري- الحصبةُ والجدري- الجامعُ لصناعةِ الطب- الطب الملوكي- الفاخرُ في الطبِّ- سم الساعة- التقسيمُ والتشجيرُ الذي قام بتحقيقهِ وشرحهِ الدكتور صبحي حمامي.

• وقد تُرجِمَ كتابُ الحاوي إلى اللغةِ اللاتينيةِ من قبلِ المترجمِ فرجْ بن سالم وظلَّ

أحـدَ المراجعِ الرئيسيـةِ لدراسةِ الطبِّ في كليةِ الطبِّ في جامعةِ باريس.

- علي بن عباس (ت: ٩٩٤ م) وضعَ كتابَ «كامل الصناعة» الـذي ترجَمَهُ قسطنطين الأفريقـي في مدينةِ سالرنـو الايطاليةِ إلى اللغةِ اللاتينيةِ تحت اسم «الكتابُ الملكيُ».

- ابـنُ سينا (٩٨٠- ١٠٢٧ م): يُعتبرُ ابن سينا من الشخصيـاتِ الفذةِ. ألَّف ما يزيدُ عن مئةِ مؤلفٍ في مختلـفِ العلومِ والفنونِ. ويعتبرُ كتابُ «القانـونُ في الطبِّ» من أشهرِ مؤلفاتـهِ في الطـبِّ. وقد عـرَّف ابن سينا الطبَّ في بيتِ شعرٍ واحدٍ من أرجوزةٍ يتجاوزُ عددُ أبياتِها الألفَ يقولُ فيه:

الطبُّ حفظُ صحةٍ برءُ مرضٍ
منْ سببٍ في بَدنٍ منهُ عَرَضْ

ومـنَ النظرياتِ الهامـةِ التي وردتْ في كتـابِ القانونِ قوله: «إن المرضِـ ينتجُ عن حيواناتٍ دقيقةٍ لا تُـرى بالعينِ هي المسببةُ للمرضِ». وفي هذا القول أولُ إشارةٍ لوجودِ الجراثيمِ والطفيلياتِ الممرضةِ.

- ابـن الجـزار (٩٢٠- ١٠٠٥ م): عاشَـ في مدينةِ القـيروانِ، ألَّف كتباً مهمةً في الطِّـبِّ. من أشهرِهـا زادُ المسافر وقوتُ الحاضر، طـبُّ الفقراءِ والمساكينَ، الاعتمادُ في الأدوية المفردة، البغيةُ في الأدويةِ المركبةِ. وقد أعدَّ ابنُ الجزارِ مكاناً خاصاً أقعدَ فيه مساعداً له يُدعـى رشيقاً، ووضعَ بين يديهِ عدداً من الأدويةِ والأشربةِ والمعاجينِ، وكان يُرسلُ مرضاهُ إلى رشيقَ حاملينَ له الوصفةَ ليحضّرَ لهم الدواءَ.

- أبو القاسم الزهـراوي (٩٣٦-١٠١٢ م): عاشَـ في مدينة الزهـراءِ في الأندلسِ. كتـبَ كتاباً ضخمـاً في الطـب والصيدلةِ والجراحةِ عَنْوَنَهُ بـ«كتابِ التصريفِ لمن عجزَ عن التأليفِ». ويُعتبرُ قسمُ الجراحةِ في هذا الكتابِ أولَ مؤلفٍ متكاملٍ في علمِ الجراحةِ، وقد نُقلَ هذا الكتابُ إلى اللغةِ اللاتينية عدةَ مراتٍ.

- ابنُ النفيس (١٢١٠-١٢٨٨ م): طبيبٌ دمشقـيٌ اكتشفَ الـدورة الدمويةَ الصغرى التي يَدَّعي اكتشافها «هارفي» الإنكليزي.

لقد ظهرَ عددٌ كبيرٌ من الأطباءِ في الدولة العربيةِ الإسلاميةِ الممتدة بين الأندلسِ غرباً حتـى مشـارفَ الصينِ شرقـاً أغنوا الطبَّ بخبراتهـمِ الطبية ومؤلفاتهـمِ العلميةِ ومن هـؤلاءِ: يوحنا بنُ ماسويـه (٧٧٧-٨٥٧ م)،

وحنين بنُ اسحق (٨٠٩-٨٧٧ م)، وسابورُ بنُ سهل الكوسج (ت ٨٦٩ م)، يعقوب بنُ اسحق الكندي (٨٠٠-٨٧١ م)، ثابتُ بنُ قره (٨٥٢-٩٠١ م)، موفقُ الدينِ بنُ المطرانِ (ت ١١٩١ م) وهو طبيبُ صلاحِ الدينِ الأيوبي.

بدايةُ عصرِ النهضةِ الأوروبيِّ:

مع نهايةِ القرن الخامسَ عشرَ وطوالَ القرنِ السادسِ عشر ومع انطفاءِ سراجِ الحضارةِ العربيةِ الإسلاميةِ، تغيرَتْ طريقة تفكير العالم نتيجةَ عددٍ من الاكتشافات التي أدتْ إلى وضعِ الأفكارِ الكبرى المرتبطةِ بالمفاهيمِ الفلسفيةِ والفكريةِ لإنسانِ العصرِ الوسيطِ موضعَ التساؤلِ.

لقد ولدَتِ النهضةُ الأوروبيةُ تياراً عظيماً فتح آفاقاً جديدةً على كلِّ العلومِ في أوروبة في القرنِ السادسَ عشرَ، ولم يَفلتِ الطبُّ من تيارِها المبدعِ. ولعلَّ تشريحَ جسمِ الإنسانِ كانَ المدخلَ إلى العلومِ الطبية. ولأنَّ دروسَ التشريحِ كانَتْ قليلةً، فلم يكنْ هناك سوى الرسومِ التوضيحيةِ المستوحاةِ من جالنوس. وسمحَتِ المطبعةُ التي بدأَ استخدامها في القرنِ الخامسَ عشرَ، بطباعةِ رسومِ جسمِ الإنسانِ مع تعليقاتٍ عليها. ويُعدُّ الايطاليُّ برنجاريو داكابري Berngario da capri (١٤٧٠ -١٥٣٠) الأستاذُ بجامعةِ بولونيا النموذجَ الأمثلَ في طباعةِ مؤلفاتٍ مصورةٍ في علمِ التشريحِ. ومن السبّاقينَ في تشريحِ جسمِ الإنسان ليوناردو دافنشي (١٥١٩-١٤٥٣) لقد اهتمَ دافنشي بعلمِ التشريحِ بشكلٍ خاصٍّ حيثُ كانَ يمارسُهُ بنفسِهِ، ويُقالُ إنَّهُ شَرَّحَ بأصابعِهِ أكثر من ثلاثين جُثَّةً. وقامَ بعمل رسومٍ توضيحيةٍ للجسمِ البشريِّ تشكلُ كلَّ مراحلِ نموِ الإنسانِ من الرحمِ إلى اللحدِ، وهو في الوقتِ نفسهِ مبتكرُ طريقةِ حقنِ الأعضاءِ المجوفةِ، كالمعدةِ والمثانةِ بالشمعِ السائلِ لكي تظلَّ محتفظةً بشكلها الخارجيِّ مما يسهلُ وصفُها تشريحياً ومن ثم رسمُها. وقد تركَ كتاباً في فنِّ التشريحِ يحتوي على المئاتِ من الرسومِ التوضيحيةِ مزودةً بشروحٍ مستفيضةٍ باللغةِ اللاتينيةِ، لكنَّ هذا الكتابَ لم يُنشرْ للأسفِ إلا بَعْدَ موتهِ بقرنيْنِ من الزمنِ. ولهذا يعتبرُهُ مؤرخو الطبِّ واحداً منْ كبارِ المؤسسينَ لعلمِ التشريحِ.

ومن علماءِ التشريحِ المشاهيرِ فاسليوس (Andreas Vasalus ١٥١٤-١٥٦٤)

البلجيكي وساليفيوس وميشيل سرفيه وتشارلز إيشتيين ولوران جوبير وفرنل. وقد أصدرَ فاسيليوس كتاباً مهماً في علْمِ التشريحِ بعنوان «تركيبُ الجسمِ البشريِّ» في سبعة أجزاءَ. وقد ظهرَ للمرةِ الأولى في مدينةِ بازل سنةَ ١٥٣٤.

وقد أدى تطورُ علمِ التشريحِ إلى ظهورِ علْمِ الجراحَةِ. ومن الجرَّاحينَ الذين اشتهروا في عصرِ النهضةِ الفرنسيُّ أمبرواز تاريه الذي أكدَ على قول الطبيبِ العربيِّ أبي القاسمِ الزهراويِّ بأن على الجراحينَ أنْ يلموا بالتشريحِ إلماماً دقيقاً، وكان يقول «أنا أضمدُ والربُّ يشفي».

وبالإضافةِ إلى تطورِ علم التشريحِ تطوراً هاماً في بدايةِ عصرِ النهضةِ الأوروبيِّ فقد برز إلى جانبهِ المزاوجةُ بين النباتِ والمركباتِ الكيميائية في معالجةِ الأمراضِ، وكان من أبرز من حملَ لواءَ المعالجةِ الكيميائيةِ الألماني- السويسري المولد باراسيلس (١٤٩٢-١٥٤١). لقد أحرقَ هذا العالمُ كتبَ جالنوس وكتبَ الأطباءِ القدماءِ ورفضَ أرسطو وثار على كلِّ الموروث الطبيِّ القديمِ، وأدخلَ إلى الطبِّ استعمالَ المركباتِ المعدنيةِ ولاسيما أملاحُ الأنتموان، وشجعَ على التشريحِ والتجريبِ على الحيواناتِ.

ومن المنجزاتِ الهامة في القرن السادسَ عشرَ والسابعَ عشرَ صناعةُ المُجْهر وتطويرُهُ. لقد تمكنَ جاليلو من فَحْصِ أعضاءِ الحشراتِ عن قربٍ بوساطةِ منظارهِ. ولكنّ أنطوان فون لوفنهوك (١٦٣٢-١٧٢٣) وبعدَ محاولاتٍ عديدةٍ قام بها أسلافُهُ استطاعَ من صناعةِ المُجْهرِ الحديثِ، هذه الآلةُ التي أحدثَتْ تطوراً في مجالِ الأبحاثِ الطبيةِ الدقيقةِ وفي مجالاتٍ آخرى من مجالاتِ الحياةِ.

درسَ لوفنهوك بمجهرهِ دمَهُ فاكتشفَ الكرياتِ الحمراءِ، واستطاعَ مارشيليو مالبيجي (١٦٢٨-١٦٩٤) من دراسةِ مركباتِ الخليةِ الحيةِ مفتتحاً بذلك علْمَ التشريحِ الدقيقِ للكلى والكَبد والجِلْدِ..

وفي مجالِ الفيزيولوجيا يبرزُ اسمُ ريتشارد لور (١٦٢١-١٦٩١) كعالمٍ كبيرٍ تخصصَ في دراسةِ وظائفِ الأعضاءِ. لقد أكمل لور أبحاثَ هاري في المتعلقةِ بدوران الدمِ وأوضحَ أنَّ الدمَ الوريدي يتحولُ إلى اللونِ الأحمرِ نتيجةً لامتزاجهِ بالهواءِ الذي

تتنفسُه الرئتانِ، كما كشفَ عنْ وجودِ اتصالٍ بينَ الجهازَيْنِ الشريانيَّيْنِ للقلبِ، ودللَ على إمكانِ حدوثِ هبوطٍ حادٍّ بوظائفِ البطينِ الأيمنِ للقلبِ نتيجةَ النزيفِ، ولاحظَ لور العلاقةَ بينَ اضطراباتِ التنفسِ واضطراباتِ القلبِ، إضافةً إلى تأكيدِهِ على إمكان إعادةِ الحيويةِ للأنسجة مرةً أُخرى باستخدام شريانٍ بديلٍ في حالةِ انسدادِ الشرايينِ الكبرى للأطرافِ.

- إذن، يظلُ اسمُ لور مرتبطاً منْ دونِ جدالٍ بتاريخِ أمراضِ القلبِ والدورة الدمويةِ، واليومَ يعدُّ علمُ أمراضِ القلبِ هذا التخصصَ الطبيَّ المهمَّ، أقدمَ التخصصاتِ الطبيةِ المعروفةِ والذي ربما يكونُ قدِ استمدَّ جذورَهُ من القرنِ السابعَ عشرَ.

ولم يكنْ لورُ العالمَ الوحيد في عصرِهِ، فخلالَ عقودٍ قليلةٍ أسهمَتْ شخصياتٌ مثل ألبرتيني ثم لانشيزي وباجليفي في إيطاليا، وفيوزين في مونبيلييه (١٦٤١-١٧٥١)، وويفر في سويسرا، إسهاماتٍ فعالةً في تطويرِ الطبِّ. لقد أسستْ هذه الشخصياتُ للعلاقةِ بين الظواهرِ المرضيةِ والمشاهداتِ المستمدَةِ من تشريحِ الجثثِ بعد الوفاةِ كالعلاقَةِ المتبادلةِ بين القُصورِ في وظائفِ الرئتَيْنِ والقصورِ في وظائفِ القلبِ، واضطرابِ ضرباتِ القلبِ بالإسراعِ أو الإبطاءِ، والخللِ في صماماتِ القلبِ، والفارقِ بين انتفاخِ الشريانِ واتساعِ القلبِ، والنزيفِ الذي يحدثُ في المخ مؤدياً إلى الشللِ والموتِ المفاجئ.

أما عِلْمُ الولادةِ الذي ظلَّ مُهملاً لفترةٍ طويلةٍ فقدْ تطورَ تدريجياً وتزايدَ الطلبُ على الجراحينَ والأطباءَ لمباشرةِ حالات الولادةِ المتعسرةِ، أو حالات الوضعِ عموماً لدى نساءِ الطبقةِ الراقيةِ. ففي فرنسا، افتتحَتْ لويز بورجوا (١٥٦٤-١٦٤٤) الدروسَ المنهجيةَ الأولى للـ «القابلاتِ» وتبعها في ذلك فرانسوا موريسو (١٦٣٧-١٧٠٤) الذي قامَ بتعليمِ عددٍ من الطلابِ أصولَ الولادةِ بينما تميزَتْ أسرةُ شامبرلين في انجلترا باستخدامِ «الجفت» الذي يحيطُ برأسِ المولودِ لسحبِهِ إلى خارجِ الرَّحْمِ في حالاتِ الولادةِ المتعسرةِ. وسرعانَ ما حظيَتْ هذه الآلةُ بشعبيةٍ كبيرةٍ، وفي الوقتِ نفسهِ سعى كلُّ «مولِّدٍ» إلى تطويرِها مما أدى إلى تحسنٍ ملحوظٍ في تقنياتِ الولادةِ.

وإذا كانَتِ الدورةُ الدمويةُ تشكلُ الاكتشافَ

الأكثرَ أهميةً في مجالِ وظائفِ الأعضاءِ، فإنَّ استخدامَ لحاءِ نبات الكنكينا هو الاكتشافُ الأهــمُ في مجالِ العــلاجِ. لقــد وصلَ هذا العــلاجُ الذي أطلَقَ عليهِ هنــودُ البيرو اسم «كينكينــا» واستخدموه في علاجِ الحمى إلى أوروبة عــن طريقِ طائفةِ «الجزويت» الذينَ امتلكــوا حقَّ احتكارِهِ. إلا أن طبيباً إنكليزياً هو «روبرت تايلور» استخدمَهُ في علاجِ الملكِ ثم استعملَ في بلاطِ فرنسا الذي قامَ بشراءِ الدواءِ والإعلاءِ مــنْ شأنِهِ، ولم يتوانَ الغربُ عــن استهلاكِ كميةٍ كبيرةٍ مــن هذا النباتِ الذي صنعَ منــهُ الصيادلةُ محلولاً وخلاصةً ومسحوقاً، وبعد ذلك بما يقارب القرَنَيْنِ تم استخــراجُ مادةِ الكينين ومِــنْ ثم تصنيعُها. وعلى الرغــم مِنْ نجــاحِ ايكنكينا والكينين بالقضاءِ على عددٍ كبــيرٍ منَ الحمِّياتِ، إلا أنَّهما ليس لهمــا فعاليةٌ ضد حمياتِ بعضِ الأمراضِــ الوبائيــة كالجــدري والطاعونِ والحَصبةِ.

وفي القــرنِ السابعَ عشــرَ أيضاً نشاهدُ استخدامَ بعضِ المعادنِ وأملاحِها في المعالجةِ كالزئبــقِ الذي استُخْــدمَ في علاجِ الزُّهري والحديدِ لعلاجِ فقرِ الدمِ، وسلفاتِ النحاسِ أو التوتياءِ لعلاجِ الأمراضِ الجلديةِ.

أما الكيمياءُ الطبيةُ فقــد برزَتْ بشكلٍ خاصٍّــ في الشمالِ الأوروبــيِّ على يدِ جان باتيست فون هولمونت (١٥٧٧-١٦٤٤). لقد اكتشفَ هذا الكيميائيُ العديدَ من الأجسامِ الدقيقةِ وابتكرَ كلمةَ غاز (Gas)، واعتبرَ أنَّ التحولاتِ التي تحدثُ داخلَ الجسمِ البشريِّ ما هي إلا تفاعلاتٌ كيميائيةٌ.

وفي القرنِ الثامنَ عشرَ أصبحَ الطبُّ أكثرَ علمانيــةً، وخضعَ مفكرو ذلكَ العَصْرِ لنفوذِ نظريةِ الجاذبيةِ العامةِ التي اكتشفَها نيوتن واقتفوا آثارَ كبلر وجاليلو.

وإذا كان الإنكليــزي فلوير Floyer قد بَــيَّنَ سنةَ ١٧٠٧ أهميةَ قياسِــ النبضِ عندَ المعصــمِ، وإذا كانَ البعضُ قــد تمكنَ سنةَ ١٧٢٣ من قياسِ ضغطِ دمِ الكلابِ بوساطةِ جهازِ ضغطٍ مائيٍّ فإن سبلانزاني هوَ أولُ مَنْ أكَّد علــى أهميةِ انقباضِ القلبِ الذي يدفعُ بالدمِ إلى الشرايينِ، كما حاولَ قياسَ سرعةِ الدورةِ الدمويةِ باستخدامِ المِجْهرِ، ونجحَ في تتبــعِ كرياتِ الدمِ الحمراءِ من الشرايينَ إلى الأوردةِ عبرَ الشعيراتِ الدمويةِ.

أما تفسيرُ الآلياتِ الداخليةِ للتنفسِ فقدْ قامَ بها عالمٌ فرنسيٌّ هو لوور Lower. فقد

توقــعَ أنْ يكونَ لونُ الــدمِ الشريانيِّ الأحمر ناتجــاً عَنِ امتزاجِــهِ بالهــواءِ في الرئَتيْنِ. وافترضَــ عَالِمٌ آخرُ أنَّ اتحادَ الدمِ معَ الهواءِ يتمُ وفقَ شكلٍ من أشــكالِ الاحتراقِ. إلا أنَّ لافوازييــه (١٧٤٣-١٧٩٤) بَــيَّنَ أنَّ الهواءَ يتكونُ منْ عنصرَيْــن أساسيين هما الآزوتُ والأكسجــينُ، وأنَّ الأكسجينَ فقط هو الذي يتحِدُ معَ عناصرِ الدمِ.

أما تفسيرُ آليةِ الهضمِ فقدْ تطورَ بسرعةٍ أقلَّ نسبياً نظراً لقلةِ المعلوماتِ عنِ الكيمياءِ العضويةِ الحيويةِ. لقــد زعمَ فيليب هيكيه Philipe Hecquet (١٦٦١-١٧٢٧) أنَّ المَعِدةَ ليستْ سوى وسيلــةٍ لسَحْقِ الأطعمةِ، لكنَّ الباريسيَ جان أستروك Jean Astruc (١٦٨٤-١٧٦٦) أضــافَ أنَّ العصــاراتِ الأخــرى التــي يفرزُهــا الجســمُ كاللعابِ والصفــراءِ وإفــرازاتِ البنكرياسِ والكبدِ تلعــبُ دوراً هاماً في التغييرِ الذي يطرأُ على الطعامِ أثناءَ عمليةِ الهضمِ.

وتمكنَ رينيه رومير (١٦٨٣-١٧٥٧) عنْ طريقِ إدخالِ أنبوبٍ مثقــوبٍ إلى معدةِ نوعٍ مــنَ الصقورِ، منْ إثبــاتِ أنَّ عمليةَ الهضمِ تعتمدُ علــى تفاعلاتٍ كيميائيةٍ وليسَ فقط على العجنِ الآليِّ. ومنْ جهتِهِ قامَ سبلانزاني بوضــعِ قطعةٍ منَ الإسفنــجِ مربوطةٍ بخيطٍ رفيــعٍ في معــدةِ أنــواعٍ أُخرى مــنَ الطيورِ الداجنةِ، ثُمَ تُسحَبُ هذهِ القطعةُ منَ الإسفنجِ من أجلِ دراسةِ السوائلِ التي جُمِعَتْ.

ربما يكونُ الانقــلابُ الذي حدثَ فيما يُعرَفُ بـ«فيسيولوجيا التناسلِ» وبصورةٍ أدق «فيسيولوجيا الإخصــابِ» منْ أكثرِ أحداثِ العصــرِ أهميةً. ما الدورُ الذي يلعبُهُ كلٌّ منَ الذكرِ والأنثى؟ منْ أيــنِ يأتي الجنينُ؟ تلكَ كانــتِ الأسئلةُ الكبرى التــي تُطرَحُ في ذلكَ الوقتِ.

في هذا المجالِ أيضاً دللَ سبلانزاني على براعتِهِ، إذْ قامَ بدراسةِ التكاثرِ في الضفادعِ حيــثُ تقومُ الذكورُ والإنــاثُ بوضعِ بذورِها في الماءِ حيــثُ يتمُ الإخصابُ. وأكدَّ على أنَّ السائلَ المنويَّ يحتفظُ بقوتِهِ على الإخصابِ إذا ما بُرِدَ، بينما تقتلُــهُ الحرارةُ. وكانَ هو أولَ مَنْ قامَ بعمليــاتِ التلقيحِ الاصطناعيِّ عــنْ طريقِ حقــنِ السائلِ المنــويِّ في مِهْبَلِ «كلبةٍ».

كانتِ الكهرباءُ قد عُرِفَتْ بالفعلِ مُنْذُ قَرْنٍ مضى حيثُ قامَ الإيطاليان لويجي جالفاني

(١٧٣٧-١٧٩٨) وأليساندرو فولتا (١٧٤٥-١٨٢٧) باستحداثِ الفسيولوجيا-الكهربيةِ التي وُلدَ مِنْها بَعْدَ ذلك عِلْمُ الفسيولوجيا العصبيةِ Neurophysiologie. وتمتعَتْ تجاربُهما على الجهازِ العصبيِّ المركزيِّ والطرفيِّ في الضفادعِ بالكثيرِ من المعلوماتِ التي تخصُّ الجهازَ العصبيَّ العضليَّ وظلتْ مثالاً يُحتذى في مدارسِنا.

واشتهرَ ليبولد أوينبرجر (١٧٢٧-١٨٠٩) الذي تَعَلَّمَ في مدرسةِ «فونسفيتن» عندَ نشرِهِ دراسةً صغيرةً باللغةِ اللاتينيةِ عن فَحْصِ الصَّدرِ بالنَّقْرِ «Percussion» أوضحَ فيها أنهُ بالإمكانِ الاستدلالُ على الأمراضِ الرئويةِ وأمراضِ غشاءِ الجَنْبِ «pleural» والقلبِ اعتماداً على الأصواتِ الناتجةِ من النَّقْرِ على الصَّدرِ بالأصابعِ، وقد تحققَ ذلك عن طريقِ تشريحِ الجُثَثِ، وبذلك تمكنَ الأطباءُ الذين كانوا حتى ذلك الحينِ لا يستخدمونَ سوى النظرِ والشمِّ وأحياناً التذوقِ ويجدونَ مشقةً في اللمسِ، من استغلالِ حاسةِ السَّمَعِ. ولكنْ للأسفِ مرَّ هذا البحثُ منْ دونِ أنْ يفطنَ إليهِ أحدٌ حتى قامَ الفرنسيُّ كوفيزار بترجمتِهِ إلى الفرنسيةِ عام ١٨٠٨.

ومنَ الأسماءِ المهمةِ في عَالمِ الطبِّ برناردينو رامازيني (١٦٣٣-١٧١٤)، الذي أسهمَ بملاحظاتهِ الجيدةِ والجادةِ، فيما نسميهِ اليومَ طبّ العملِ (Ergonomie). حيثُ اكتشفَ العلاقةَ بينَ الأمراضِ ونوعِ النشاطِ المهنيِّ للمرضى كالمغصِ الذي يسببُهُ الرصاصُ عندَ الرسامينَ الذينَ يستخدمونَ الأسبيداجَ والاضطراباتِ التي تصيبُ المزخرفينَ الذين يستخدمونَ الأنتيموان، وتغيراتِ الجلدِ والأسنانِ التي تصيبُ الأطباءَ الذين يستخدمونَ دهاناتِ الزئبقِ بكثرةٍ في علاجِ مرضِ الزهريِّ.

ولا بدَّ منْ أنْ نشيرَ إلى بيير فوشار (١٦٧٨-١٧٣١) الذي أدخلَ أمراضَ الفمِ والأسنانِ إلى مجالِ الطبِّ بَعْدَ أنْ كانَ خَلْعَ الأسنانِ والأضراسِ منذُ آلافِ السنينَ حكراً على المشعوذينَ.

وشَهِدَ القرنُ الثامنَ عشرَ موجاتٍ عديدةٍ قاتلةٍ من الجُدري فتكَتْ بآلافِ الأشخاصِ ومنْ بينهمْ لويسُ الخامسَ عشرَ، لكنَّ الليدي مونتاجو جلبَتْ معَها من القسطنطينيةِ طريقةَ التطعيمِ ضدَّ الجدري وذلك بإدخالِ صديدٍ يؤخَذُ مِنْ أحدِ المرضى خلالَ فترةِ

نقاهتِــهِ إلى جســمِ الشخصِــ السليم، مما يُــؤدي إلى حدوثِ إصابةٍ خفيفةٍ، ولكنَّ هذهِ الطريقةَ لم تكنْ مأمونةَ العواقبِ تماماً.

وإلى جانبِ الأمراضِ المُعْديةِ، كانَ لمرضِ العــوز (Carences) ضحايــاه. فخــلالَ الرحــلاتِ البحريــةِ الطويلــةِ، كانَ مرضُ الأسقربوط يتفشى بينَ البحارةِ نتيجةَ نقصِ تناولِ الخضــراواتِ والفواكهِ الطازَجَةِ، إلى أنْ جــاءَ لِنْــدْ (١٧١٦-١٧٩٤) الــذي عالجَ الأسقربــوطَ بعصيرِ الليمــونِ الذي يحتوي على فيتامين ث.

وفي المرحلــةِ نفسهــا اكْتُشِــفَ نوعٌ آخر مــن الأمراضِ الناتجةِ عــن الفقرِ الغذائيِّ وهــو البلاجــرا الــذي ينتــجُ عــن نقصِ الفيتامين ب.

الطبُّ في القرنِ التاسعَ عشرَ:

اكتســبَ الطبُّ مظهراً علمياً حقيقياً في القرنِ التاسعَ عشرَ، بفضلِ الجهودِ التي بُذِلتْ خلالَ القرونِ السابقةِ وأصبحَتِ الكتبُ التي تحمــلُ عناوينَ طبيةً شيئــاً مألوفاً. ولكنْ لمْ يكنْ باستطاعةِ البشَرِ الذينَ ولدوا في القرنِ التاســعَ عشرَ أن يتحرروا فجأةً منْ الأنظمةِ والنظرياتِ التي تربــوا عليها لِحسابِ طبٍّ مؤسسٍ على الملاحظاتِ السريريةِ للمرضى وتشريحِ الجُثَثِ.

مِنَ التطوراتِ الهامةِ التي برزَتْ في القرنِ التاسعَ عشرَ الأعمالُ الأولى للطبيبِ الفرنسي فرانســوا ماجنــدي (١٧٨٣-١٨٥٥). الذي كانَ يعتقدُ بــأنَّ أيَّ تقدمٍ في الطبِّ لن يأتي إلاّ منْ عِلْمِ وظائفِ الأعضاءِ (الفيزيولوجيا) وأنَّ هذا العلمَ لا يمكنُ أن يكونَ إلا تجريبياً. أجرى ماجنــدي تجاربَــهُ الأولى على مادةِ الستركيــنن المستخرجــةِ من نبــاتِ الجوزِ المقيء وبينَ تأثيراتها على الجسمِ. ثم واصلَ تجاربــه على مادةِ الإيميتين المستخرجةِ من نباتِ الإيبيكا، وابتكرَ بتقنياتِه ما أُطلقَ عليه اسمَ الصيدلَةِ التجريبيةِ، ثم اهتمَ ماجندي بعــد ذلك بدراسةِ كيفيةِ تَكَــوُّنِ الصورةِ في شبكيةِ العينِ، ثم الحركةِ اللولبيةِ للأمعاءِ.

ومن الأسمــاءِ اللامعة في القرنِ التاسعَ عشرَ والتي ساهمَــتْ في تطويرِ الطبِّ يبرزُ اسمُ كلود برنار (١٨٧٨-١٨١٢) الذي أسسَ مفهــومَ «الوظيفةُ» أي الدورُ الذي يؤديهِ كلُّ نسيجٍ وكلُّ عضوٍ في الفيزيولوجيا الإنسانيةِ مــنْ أجلِ استمــرارِ الحيــاةِ. كذلك وصفَ كلودبرنــار: «الوســطَ الداخلــيَّ» أي هذا

المجمـلُ الفيزيو-كيميائي الـذي يغمرُ كل أنسجةِ الجسـمِ، منْ داخلِ الأوعيةِ الدمويةِ ومن خارجِهـا، بحيـثُ أنَّ أيَّ تغيرٍ في هذا الوسطِ منْ مكانٍ محددٍ منَ الممكنِ أنْ يؤديَ إلى مضاعفـاتٍ في عضوٍ بعيدٍ. فَمِنْ ناحيةٍ تعتمـدُ الحياةُ علـى تركيبِ هـذا الوسطِ الداخلـيِّ، ومـنْ جهةٍ أُخرى تمتـازُ الحياة بآلياتٍ متنوعـةٍ مِنْ أجلِ الحفاظِ على هذا التركيبِ.

ومـنَ الأعمـالِ الهامـةِ لـ كلودبرنار دراساتُـهُ حولَ إفـرازِ البنكرياسِ وهي أكثرُ أعمالِه شهـرةً، كما درسَ الأعصابَ التي تؤثرُ في الأوعيةِ الدمويةِ، وتحولَ السُكّرِ إلى غليكوجين في الكبـدِ، والغددِ الصمِ والغددِ ذاتِ الإفـرازِ الخارجـيِّ مثل غُـدَدِ العَرَقِ والغددِ المعويةِ...

وفي أواخرِ القـرنِ التاسعَ عشرَ استطاعَ «جينر» سنـةَ ١٧٩٩ إجـراءَ التطعيمِ الأولِ لمرضـِ الجدريِّ بإدخالِ الصديدِ الناتجِ عن جدريِّ البقرِ إلى جسمِ الإنسانِ، بَعْدَ أنْ تأكدَ مِنْ أنَّ جـدريَ البقرِ لا يُؤذي الإنسانَ ولكنْ يقيهِ من مرضٍ أشدَّ خطورةً.

لقـد فتحَتِ العقودُ الأخـيرةُ منَ القرنِ التاسعَ عشـرَ آفاقاً هامـةً في تطورِ الطبِّ كانَ منْ أبرزِ صانعيها باستورُ وكوخُ وفرشاو (١٨٢٢-١٨٩٥).

عمـلَ باستورُ في بدايـةِ حياتِه كيميائياً فاكتشـفَ لا تماثلية البلـوراتِ التي يمكنُها أنْ تحرفَ الضـوءَ بطرقٍ مختلفةٍ، ثمَ تَوصَّلَ بفضلِ مُجْهِر لوفنهوك من اكتشافِ فطرياتٍ مجهريـةٍ وحيدةِ الخليةِ تملـكُ القدرةَ على تحويلِ المـوادِ العضويةِ، ومنْ دونِها لا يمكنُ حدوثُ عمليةِ التخميرِ، وبالتالي وعلى سبيلِ المثالِ إنتـاجُ الخمورِ واللـبنِ الرائبِ... ثم اكتشافُ الميكروبِ الدقيقِ الذي يصيبُ دودةَ القزِّ ويؤدي إلى تلفِ ما تنتجُهُ مِنْ حريرٍ، ثم اكتشفَ الميكروبَ المسبـبَ لـ كوليرا الدجاج وأكدَ على دورِ العَصَويـاتِ المسببةِ للجمرةِ الخبيثـةِ عنـدَ الأغنامِ واستحـدثَ طريقةً للوقايةِ منْ هذا المرضِ.

إلاّ أنَّ الحـدثَ المدهشَ في حياةِ باستور هو نجاحُهُ عندما قـامَ سنةَ ١٨٨٥ بتطعيمِ راعي أغنـامٍ شابٍّ عقرَهُ كلبٌ مسعورٌ، حيثُ قامَ باستورُ بحقـنِ ذلكَ الشابِّ بمستخلصٍ منَ النخاعِ الشوكيِّ لأحـدِ الكلابِ المصابةِ بالمرضِ. ولم يكـنْ باستورُ نفسُـهُ يعرفُ ما

إذا كانَ سينجحُ في وقايةِ الشابِّ أمْ لا. لكنَّ الطريقة نجحَتْ ومازالَتْ تُستخدمُ إلى الآن في تطعيمِ الماشيةِ

لقد استطاعَ باستورُ أن يفتحَ مساحاتٍ واسعةٍ منَ الطبيعةِ المجهولةِ حتى ذلكَ الوقتِ ألا وهيَ عالمُ الكائناتِ الدقيقةِ اللامتناهي. ويُعَدُ باستورُ مصدراً لأحدِ المفاهيمِ الهامةِ في تاريخِ الطبِّ وهو تكريسُهُ لوجودِ العدوى بالنسبةِ لبعضِ الأمراضِ، واكتشفَ كليةَ الحياةِ الجرثوميةِ حيثُ أوصى الجراحينَ بعدمِ إجراءِ عملياتِهم الجراحيةِ إلا بوساطةِ آلاتٍ وأدواتٍ معقمةٍ وألاّ يستخدموا إلاّ ضماداتٍ معقمةً.

أمّا في ألمانيا فَقَدْ لَمَعَ اسمُ روبرت كوخ (١٨٤٣-١٩١٠) الذي يُعتبرُ العقل الأكثر ابتكاراً في ذلكَ العصرِ. لقد أكَّدَ كوخُ على وجودِ أنواعٍ كثيرةٍ منَ البكتريا وحيدةِ الخليةِ، وأنَّ لكلِ نوعٍ منَ البكتريا صفاتُهُ الخاصةُ وسمومُه الخاصةُ التي تُنتِجُ أمراضاً خاصةً بكلِّ نوعٍ منْ أنواعِ البكتريا، وأنَّ كلَّ مرضٍ يَنتُجُ عَنْ ميكروبٍ محددٍ لا يمكنُهُ أن يسببَ غيرَهُ. اكتشفَ كوخُ وهو في الثلاثينَ من عمرهِ البكتريا العصويةَ المسببةَ لمرضِ السلِّ وبَيَّنَ كيفيةَ انتقالِها، وتمكنَ مِنْ عَزْلِ البكتريا المقوسةِ المسببةِ لمرضِ الكوليرا. وفي أفريقيا عَكَفَ على دراسةِ الطاعونِ ومرضِ النَّومِ.

ومن القِمَمِ الطبيةِ التي برزت في القرنِ التاسعَ عشرَ برزَ اسمُ رودلف فرشاو (١٨٢١-١٩٠٢) وهو طبيبٌ بروسي درسَ الطبَّ والتاريخَ والشعرَ العربيَّ واهتمَ بِعلْمِ الآثارِ وعمِلَ مساعداً لـ شليمان الذي اكتشفَ طروادة، وأنكرَ وجودَ الجنسِ البشريِّ النقيِّ.

تعودُ شهرةُ فرشاو إلى كتابِهِ «علمُ أمراضِ الخليةِ» الذي صدرَ سنةَ ١٨٥٨ وفيه عَزا فرشاو المرضَ إلى خَلَلٍ موضعيٍّ مُحددٍ داخلَ العُضوِ المصابِ، وبَيَّنَ أنَّ كلَّ نسيجٍ يتميزُ بنوعٍ خاصٍّ منَ الخلايا، وأنَّ هذهِ الخلايا لها حياتُها الخاصةُ، تتغذى عن طريقِ الدمِ وتلفظُ النفاياتِ فيه، وأنَّ كلَّ خليةٍ تولَدُ من خليةٍ أُخرى مشابهةٍ، محتفظةٍ بالصفاتِ نفسِها خلالَ نموِ الكائنِ الحيِّ أو خلالَ عمليةِ التجديدِ الدائمِ الذي يتعرضُ له الجسمُ البشريُّ.

وخلالَ حياتِه تَمكَّنَ فرشاو من تحديدِ الكثيرِ من الأمراضِ وتوصيفِ آثارِها

المجهرية مثلَ بعضِ أنواعِ اللوكيميا والأورام. وعلى الرغم من أنَّهُ لم يَستَخدمْ مصطلحُ السرطانِ، إلاّ أنَّهُ شَرَحَ كيفيةَ حدوثِ الأورامِ الثانويةِ عن طريقِ انتقالِ الخلايا السرطانيةِ بوساطةِ الدمِ أو اللمفِ.

لقد كانَ القرنُ التاسعَ عشرَ مليئاً بالمكتشفاتِ والإنجازاتِ الطبيةِ الهامةِ والتي أُنجزَتْ على يدِ علماء أوروبيينَ بشكلٍ خاصٍّ. فكانَ شارلُ برافا (١٧٩١-١٨٥٢) أولَ مَنِ استخدمَ المِحْقنَ الطبيَّ لإدخالِ الدواءِ إلى داخلِ الجسمِ عن طريقِ العضلاتِ أو تحتَ الجلدِ. وقامَ فون ليبيج (١٨٠٣-١٨٧٢) بدراسةِ تأثيرِ الأدويةِ على جسمِ الإنسانِ وعَدَدٍ من ظواهرِ التمثيلِ الغذائيِّ، وإليه يعودُ الفضلُ في تمييز ثلاثةِ أصنافٍ من الأغذيةِ الضروريةِ للإنسانِ وهيَ الموادُ الدهنيةُ والبروتيناتُ والسكاكرُ. واستطاعَ فردريك فوهلر (١٨٠٠-١٨٨٢) تركيبَ مادةِ اليوريا، هذهِ المادةِ التي يفرزُها الجسمُ معَ البولِ، وكانَتْ أولَ مادةٍ تُصنَعُ في المخبرِ وهيَ مِنْ إنتاجِ الجسمِ البشريِّ. وفي ١٦ أكتوبر ١٨٤٦ قامَ وليم مورتون في بوسطن بتخديرِ شابٍّ صغيرٍ باستخدام الإيتر قَبْلَ أنْ يُخْضِعَهُ لعمليةٍ جراحيةٍ في الرقبةِ. وفي سنةِ ١٨٥٢ تَمَّ تخديرُ الملكةِ فيكتوريا ملكةِ انكلترا بوساطةِ الكلوروفورم أثناءَ وضعِها لطفلِها ليوبولد على يدِ جيمس سيمبسون (١٨١١-١٨٧٠). وفي خريفِ ١٨٩٥ اكتشفَ رونتجن في ألمانيا أشعةَ X أو أشعةً أطلقَ عليها فيما بَعْدُ اسمَ رونتجن بالذاتِ ساهَمتْ هذه الأشعة في تصويرِ ما بِداخلِ الجسمِ البشريِّ. ولَعِبَ الأطباءُ الأميركيونَ دوراً أساسياً في شَرْحِ آليةِ عَمَلِ الفيتامينات والهرموناتِ في جسمِ الإنسانِ.

وفي مجالِ العقاقيرِ والنباتاتِ الطبيةِ تَمَّ استخلاصُ المورفين منَ الأفيونِ سنةَ ١٨٠٦ وتلا ذلك مادةُ الكودئين ثمَ الهيرويين. وتطولُ قائمةُ الموادِ الكيميائيةِ الدوائيةِ التي تَمَّ استخلاصُها في القرنِ التاسعَ عشرَ منَ النباتاتِ كالتيوبرومين والتيوفيللين، والإرغوتين الذي تَمَّ استخلاصُه منْ مهمازِالشيلم، كما تَمَّ استخلاصُ مادةِ الديجيتالين مِنْ أوراقِ نباتِ الديجتال. وفَسَّرَ هوملُ سنةَ ١٨٦٤ ونا تيفيل سنةَ ١٨٦٩ عملَ هذهِ المادةِ وتأثيرَها في معالجةِ أمراضِ القلبِ، ثم قامَ هذانِ العالِمانِ أيضاً

بتفسيرِ آليةِ عملِ كُلٍّ مِنْ مادةِ الـ سبارتيئين ومادةِ الـ ستروفانتين. ولكنَّ الاكتشافَ الأهمّ هو عزلُ مادةِ الـ ساليسيلاتِ منْ لِحاءِ نباتِ الصفصافِ، تلكَ المادةِ التي تدخلُ في تركيبِ الأسبرينِ ولا تزالُ تُستعمَلُ حتى اليومِ، وكانَ ذلك سنةَ ١٨٣٠.

لقد مَهَّدَ القرنُ التاسعَ عشرَ للانفجارِ العلميِّ الذي تَمَّ في القرنِ العشرينَ، حيث تُوالَتِ الاكتشافاتُ في كلِّ الأصعدةِ والمجالاتِ الطبيةِ والصيدليةِ والفلكيةِ والهندسيةِ، فَتَمَّ تصنيعُ الحاسباتِ وانطلقَ الإنسانُ نحوَ الفضاءِ الخارجيِّ ومشى على سطحِ القمرِ. وفي مُنتصَفِ القرنِ العشرينَ وَجَدَتْ كُلُّ العلومِ نفسَها في حالةٍ انقلابيةٍ، فاختفَتِ الحدودُ بينَ الكيمياءِ والفيزياءِ وبين الكيمياءِ والطبِّ. لذلك أصبحَ الطبُّ في العقودِ الخمسةِ الأخيرةِ منَ القرنِ العشرينَ يَتَّسِمُ بالكثافةِ والتشابكِ. لقد استخدِمَتِ النظائرُ المشعةُ في التشخيصِ، وتَمَّ نقلُ الأعضاءِ مِنْ جسمٍ بَشَرِيٍّ إلى جِسْمٍ آخرَ، وتَمَّ إجراءُ عملياتِ القلبِ المفتوحِ بَعْدَ أنْ تَمَّ التعرفُ على دقائقِ تركيبِ الدمِ ووظائفِ مكوناتِهِ وأُجريَتْ أبحاثٌ في غايةِ الأهميةِ على أمراضِ المناعةِ والإيدز تحديداً، ودُرِسَتْ كهرباءُ القلبِ والدماغِ بشكلٍ تفصيليٍّ. وتَمَّ اكتشافُ العديدِ منَ الأدويةِ الحديثةِ كأدويةِ الضغطِ والسُّكَرِ والأدويةِ النفسيةِ. وتميزَ القرنُ العشرون أيضاً بزراعةِ أطفالِ الأنابيبِ وباستنساخِ كائنٍ حَيٍّ مِنْ كائنٍ آخرَ مما أثارَ زوابعَ منَ الجَدَلِ العِلْميِّ والدينيِّ والأخلاقيِّ.

وختاماً.. رغْمَ كلِّ هذهِ الإنجازاتِ في تاريخِ الطبِّ هَلِ استطاعَتِ العلومُ الطبيةُ والصيدليةُ وما تَفَرَّعَ عَنْها حَلٌّ مشاكلِ الإنسانِ الصحيةِ؟؟ بالتأكيد لا.

فلا يزالُ السرطانُ وأمراضُ نقصِ المناعةِ والأمراضِ الفيروسيةِ والملاريا والسلُّ تنهشُ في جسمِ الإنسانِ.

لم ينجحْ أيُّ اكتشافٍ من الاكتشافاتِ الطبيةِ المبهرةِ مِنْ أنْ يحررنا من القَلَقِ، فلنلجأْ إلى تهدئةِ أنفسِنا بممارسةِ الرياضةِ وتناولِ الأدويةِ المهدئةِ والمنشطةِ التي تم تصنيعها في المخابرِ، ومعَ ذلك فإنَّ قلقَنا يزدادُ.

لم يَتغيرِ الإنسانُ كثيراً في أحلامِهِ وآمالِهِ عن أجدادِهِ ساكني الكهوفِ مِنْ أنْ يُعَمِّرَ

طويلاً بِلا مرضٍ، وما زالَ في جعبةِ الطبِّ الكثيرُ أيضاً الذي يستطيعُ أن يقدمَهُ مِنْ أجلِ مساعدتِنا على البقاءِ أحياءَ بصحةٍ جيدةٍ.

أهم المراجع:

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- ابن سينا، القانون في الطب، دار صادر، بيروت، لبنان.
- البابا د. محمد زهير، تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة، ط٥، منشورات جامعة دمشق ١٩٩٨.
- بدوي عبد الرحمن، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، دار القلم، بيروت، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٩.
- الجاسر د.محمد طه، التخدير، مقالات عن تاريخه في الطب العربي الإسلامي وحاضر العالم العربي، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٨.
- الحاج قاسم د.محمود، الطب عند العرب والمسلمين، تاريخ ومساهمات، الدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٧.
- حسين محمد كامل، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، طبع على نفقة الحكومة الليبية، ١٩٦٥.
- الدفاع علي عبد الله، إسهامات العرب والمسلمين في الصيدلة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥.
- خليل د.ياسين، العلوم الطبيعية عند العرب- جامعة بغداد ١٩٨٠.
- دراسات في الطب العربي- جامعة بغداد ١٩٩١.
- سارتون جورج، تاريخ العلم، مؤسسة فرانكلين القاهرة- مصر، ١٩٥٧.
- الشطي د.أحمد شوكت، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق- سورية ١٩٨٢.
- غليونجي بول، الطب عند قدماء المصريين، دار المعارف، القاهرة، مصر ١٩٥٨.
- فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧.
- قنواتي الدكتور الأب ج شحاته، تاريخ الصيدلة والعقاقير، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.
- كعدان د.عبد الناصر، الجراحة عند الزهراوي- دار القلم العربي حلب ١٩٩٩.
- Castiglioni Arturo, A History of Medicine, translated from the Italian by E.B.Krumbhaar, 2nd Edition 1947, London.
- Tortora/Funke/Case,Microbiology an introduction, Pearson International Edition, 9th edition.

على دروب الصبر

عبد الباقي يوسف ❁

يستعين الإنسان بطاقة الصبر من أجل مواجهة وقائع وأحداث الحياة التي تواجهه كي يتقبلها وينسجم معها من أجل أن يبعد عن نفسه اليأس، ويستمر في الحياة.

كلما استعان الإنسان بالصبر، ازداد نضجاً، وحكمة.

ليس بوسع الإنسان أن يتخلى عن الصبر بأي حال، لأنه بحاجة إليه في كل لحظة، في كل موضع.

❁ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان إبراهيم دندل.

من هنا يمكن اعتبار أن الصبر من النعم الكبرى التي عرفها الإنسان، لأن الصبر بمقدوره أن يواسيه، ويجعله في حالة انضباط من دون أن يفقد اتزانه.

الصبر رفيق الإنسان القديم، رفيقه الوفي في مراحل حياته المتقلبة، دوماً يأتي نداء الصبر إلى الإنسان: يا أيها الإنسان الزم حدودك. ويستعين الإنسان الصبور بصبره على الحياة فهو عندما يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الوعي، فإنه يبلغ مرحلة متقدمة من مراحل الصبر.

معرفة الصبر

على الإنسان أن يتعرف على الصبر كي يتمكن من ممارسته، والإنسان يتدرج في معرفة الصبر حتى يبلغ مراحل متقدمة منه، ويبلغ مرحلة يعقد فيه علاقة وثيقة مع الصبر. الإنسان الصبور هو محاور جيد مع ذاته بالدرجة الأولى، ويعيش حالة من التصالح والتسالم مع نفسه.

العلاقة المترسخة مع الصبر والتحاور والتصالح مع الذات تؤهل صاحبها كي يقف وسط الأمور، ويكون مسيطراً على انفعالاته، وأهوائه، وردود الأفعال التي يواجهها.

إنه يعيش حالة من السكينة والاستقرار والتأمل متعظاً مما يقع معه، أو حوله، إنه قارئ ومتأمل جيد لكل ما يرى ويسمع.

هنا تتراود الأسئلة عن طبيعة الصبر.

عن تعريفه، عن مصدره وهل كل إنسان يمكن له أن يكون صبوراً أم أن الصبر نعمة تخص فئة دون فئة من الناس.

ما هو الصبر في حقيقته، هل له رائحة أو شكل أو لون؟

هل يولد مع الإنسان في أثناء ولادته، أم أنه مكتسَب من الحياة والخبرات والتجارب؟

كلمة تتردد كثيراً في الأحداث اليومية، الجدية منها والهزلية، وهي مسألة بالغة الخطورة والأهمية وتحتاج لدراسات وتأملات عميقة تضيء جوانبها.

الحديث عن الصبر يكون غالباً بشكل أوتوماتيكي عابر، ولكن الصبر في ذاته يحتاج إلى معرفة وإلمام به، فالصبر هو عالم مستقل من عوالم المعرفة البشرية، والصبر ليس كلمة تقال لشخص: /اصبر/. فيمتثل لها ويصبر.

إنه حالة متقدمة من حالات الوعي والمعرفة، فالإنسان الصبور يعيش في رحابة الصبر ويمتع بها عكس الإنسان غير الصبور الذي يعيش حالة اللاصبر ويحترق في جحيم التوتر والعجالة والاضطراب، والخلاف شاسع بين أفعال إنسان صبور وأفعال إنسان غير صبور.

إذن، الصبر ليس كلمة تُعاز إلى إنسان فيمتثل لها،إنه شكل متقدم من الأشكال الراقية لمعرفة النفس، واكتساب الحكمة من كل ما يقع سواء سلباً، أو إيجاباً، عندما ترتقي المعرفة بالإنسان فإنها توصله مرحلة الصبر، والصبر عندها يكون في درجات متفاوتة، وكلما ازداد الإنسان معرفة، ازداد نضجاً وهذا النضج يكسبه الصبر الذي يُكسبه الامتلاء بالعالم على نهج مرحلة متطورة من مراحل الكمال الإنساني.

علاقة الصبر مباشرة مع الأعصاب، والعصبيون يعانون بالدرجة الأولى من نفاذ الصبر لديهم وتأتي مرحلة العقاقير المهدئة لترغم الجملة العصبية على الصبر والحقيقة فإن المهدئات هي شكل من أشكال الصبر القسري على الإنسان لتحمّل الألم والأزمات النفسية، وأفضل علاج لهذه الأزمات هو الصبر الطبيعي الذي يعكس نتائج طبيعية في العلاج.

وقد تحدث بعض الشعراء عن مفهومهم للصبر في الكثير من القصائد، ومن ذلك قول محمد بن بشر الخارجي:

إن الأمور إذا استدّت مسالكها
فالصبر يفتح منها كل مارتجا
لاتيئس وإن طالت مطالبه
إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

ويقول زهير بن أبي سلمى:

ثلاث يعز الصبر عند حلولها
ويذهل عنها عقل كل لبيب
خروج اضطرار من بلاد يحبها
وفرقة إخوان وفقد حبيب

ويقول ابن نباتة:

صبراً على نوب الزمان
وإن أبى القلب الجريح

ويقول محمود الوراق:

إني رأيت الصبر خير معول
في النائبات لمن أراد معولا
بذور الصبر

لا تركض خلف الحياة بل امش فيها
ما يعلّمك إياه المشي لا يعلمك إياه الركض
أنت تكونت بهدوء، تعلمت اللغة بهدوء
تعرفت على الأقرباء بهدوء، تعلمت المشي بهدوء، رشدت بهدوء.
الآن رُفعت اليد التي كانت خلف ذاك الهدوء
الآن أنت تقود نفسك.. قدها بهدوء.
عش يومك في يومك
أعط يومك في يومك
خذ يومك من يومك
لا تعط يومين في يوم
لا تأخذ يومين من يوم

كن رحيما بنفسك من نفسك
إن الله لا يكلفها إلا وسعها
لا تكلفها فوق وسعها

الإنسان يولد ولديه بذور الصبر، لديه طاقة لاكتساب الصبر، ولكن الجهل يمكن له أن يقتل هذه البذور، كما أن المعرفة ترويها وتحميها، فهي بذور تحتاج إلى سنوات من الفصول والتقلبات والأمطار والعواصف، وأن يشقى ويعرق لتحصيلها. وإذا كان الشكل الأدنى من أشكال الجهل، اللاصبر، فإن الشكل الأرقى من أشكال المعرفة هو الصبر. وإن عظمة الإنسان تظهر عند تحمله للمصائب الكبرى والتعامل معها بمفاتيح الصبر التي تكون في جيوب عقله. الإنسان لا يولد صبوراً.. ولكنه يكتسب الصبر ويطوّر طاقة الصبر لديه فالطفل قد لا يصبر على ألم وجوع وخوف وبرد ولكن هذا الطفل عندما يكبر يمكن له أن يصطبر ويحتمل.

الإنسان كائن مشتت، تائه في ظلمات ذاته وظلمات الحياة من حوله، يجهل كل شيء حوله يراه أو لايراه،

الإنسان كائن مظلم ولا يجد سبيلا لتبديد ظلمته وما زال يدرك جيداً بأنه أحد الألغاز المربكة في ظاهرة الحياة، ففي البدء ظن هذا الإنسان بأنه كائن كأي كائن حيواني حوله ويحيا الحياة بدافع بيولوجي، ولذلك فقد عاش في كهوف وغابات كما تعيش الحيوانات من حوله، وكان يحقق كل غرائزه متأثراً بهذا الحيوان، وبالتالي فهو يقلد الحيوانات في أسلوب المعيشة سواء في علاقاته مع غيره من بني جنسه أو مع الحيوان الذي يعامله ذات المعاملة، بل حتى في العلاقات بين الذكور والإناث فكان أقرب إلى /القطيع/ الحيواني منه إلى /المجتمع/ الإنساني، فكانت الهداية دوماً تأتي إلى الإنسان من السماء سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة حتى تم تتويج هذا الاهتمام الإلهي بالإنسان وهذا الحرص الإلهي وهذه العناية والرعاية الإلهية بآخر رسالات الخالق إلى عباده في الأرض وبعث آخر الأنبياء والرسل وهي رسالات على الأغلب تخبر الإنسان بأنه ليس حيوانا ولايجوز له أن ينتهج منهج الحيوان في نمط حياته.

كثيرون يخفقون في محاولة الانسجام مع واقعهم بأشكال وألوان متعددة ويسعون للانسلاخ من هذا الواقع ويميلون للعيش في واقع مختلف عن تركيبتهم ولذلك تراهم يعيشون أزمات سيكولوجية وحالات حادة من الشيزوفرينيا إذ إن الجسد لا يقبل عضوا تمَّ إقحامه عليه وذاك العضو لا ينسجم مع هذا الجسد فيعيش في غربة عن

بقية الأعضاء لأنه عضو دخيل.

من هنا يمكن اعتبار أن الصبر هو ثقافة تجعل الإنسان متماسكاً في جميع الأحوال.

الصبر يقترن بالمعرفة والمعرفة مكتسبة، ومن هنا فإن المشاكل تتفاقم في المجتمعات التي تسود فيها الأمية في حين أنها تتضاءل في المجتمعات المتعلمة وكلما تقدم التعليم تلاشت المشاكل وتوجه المتعلمون إلى التربية والإنتاج والعطاء. حيثما يكون الصبر تنفتح أبواب الحياة.. الأم لا تنجب الأطفال لولا صبرها تسعة أشهر.. الطالب لا يكسب العلم لولا صبره في القراءة والدرس سنوات طويلة.. الطبيعة لا تنجب الزهور والربيع لولا صبرها على قر الشتاء وحر الصيف.. المريض لايشفى لولا صبره على المرض والآباء لايربون الأطفال لولا صبرهم على سنوات الطفولة. الإنسان لا يستطيع أن يقوم بكل الأعمال دفعة واحدة.. عليه دوماً أن يؤجل البعض للغد.. عليه دوماً أن يترك شيئاً لغيره.. ألم يترك غيره شيئاً له.الإنسان لا يستطيع أن يعطي كل شيء.. لا يستطيع أن يأخذ كل شيء.. إنه يعطي أشياء ويأخذ أشياء.. ودوماً هناك عمل ينتظر إنساناً جديداً هناك فكرةً تنتظر إنساناً جديداً، هناك خطوة تنتظر إنساناً جديداً. تبقى الحياة مشرقة بالإنسان ويبقى الإنسان مشرقا بالحياة.. وإذا انطفأ أحدهما انطفأ الآخر.

إذا جاءك ألم،اصبر، إذا شاتمك شاتم، اصبر، إذا ظلمك ظالم، اصبر.. إذا فقدت عزيزاً، اصبر.. إذا احترق بيتك،اصبر. واعلم أنه لولا الصبر لما أنجز الكاتب كتابا لما بنى البنّاء بناء..لما صاغ الصائغ إسوارة لما حصد الفلاح سنبلة

وحيثما كنت يمكنك أن تنعم بدفء الصبر.. حيثما كنت يمكن أن يكون الصبر لك معينا.

لا تعجل في قول كلمتك، لا تعجل في شرائك، لا تعجل في طعامك، لا تعجل في شرابك في مسيرك، لا تعجل في زواجك، لا تعجل في ولدك.

دوما ثمة متسع من وقت كاف لكل ماينبغي أن نقوم به، ثمة وقت يكفي لممارسة طقوس القراءة،

وقت لممارسة الحب،

وقت لعلاقات اجتماعية،

وقت لنزهات وسفر،

وقت لتأمل وعمل،

وقت لنوم وسماع موسيقى.

ورغم كل ذلك يتبقى متسع من وقت للفراغ لانجد ما نفعل فيه.

يكمن دورنا في مدى مقدرتنا على النجاح

كي نجعل أعمارنا غنية بهذا الوقت، ونجعل هذا الوقت غنيا بأعمارنا.

ثمــة أمور في الحياة يحتاج تحقيقها إلى تــأن وانتظــار أكثر مما يحتــاج إلى سرعة وعُجالــة، فأنت لاتحتــاج إلى عجالة حتى تنمو مدركاتــك وتكتمل قــدر حاجتك إلى التمهّل، ولاتحتاج إلى عجالة حتى ترتقي في أجناس المعرفة قدر حاجتك إلى التأني.

الإنسان لم يكن يحتــاج إلى عجالة حتى يبلغ ثورة التقنيــات الكبرى قدر حاجته إلى الوقت، وأن كل تلك الأحقاب البشرية الغابرة لم تكن خالية مــن عباقرة وأذكياء وعظماء، وأن حفدة الحفدة ليسوا أكثر عبقرية وذكاء وعظمة من الأجداد أولئك.

كن دائم الانتظار لتحقيق آمالك الكبرى، إنها لاتحتاج منك غير الإخلاص في السعي إليهــا والانتظار حتى تأخــذ وقتها المناسب لتبلغــك مكتملــة في سطوعهــا ورسوخها وقوتها.

أحيانــا نصر على البحــث عن أمر غير موجود على الإطلاق في الإنسان، لأن وجود هذا الأمر يُحدث خللاً في كوننا أحياء نعيش في قلب الحياة، فنريد عمــلاً كاملاً، وولداً كاملاً، وصديقاً كامــلاً، وننسى أن الإنسان

الكامل لم يخلقه الله حتى لنفسه ليعبده بصورة كاملة، لأن خلق مثل هذا الإنسان لايلزم الحياة ولايلزم الله.

كما أن الإنسان ذاته ليس بحاجة لكمال كهذا.

تشرق الحياة وتمارس ذروة حيويتها كلما تعلّم إنسانها شيئاً جديداً لم يكن يعلمه، كلما يفتح عينيه ليرى شيئاً لم يكن رآه. فيتدرج الإنسان في درجات الكمال ودرجات الشروق على الحياة على سلم درجات قربه من المعرفة ومن نفسه ومن الآخرين ومن ظاهرة الحياة برمتها، وهو ذاته بالمقابل يمنح للحياة معنى وقيمة لتنفتح وتشرق وتحقق ديمومتها وشروقها من خلاله.

حكم وأمثال عن الصبر

نظراً لأهمية الصبر، ونتائجه الطيبة، حض الناس على التحلي بالصبر، وتداولت الحكم والأمثال التي تثني على الإنسان الصبور، ومن ذلك:

- إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
- إذا كان الصبر مُرًّا فعاقبته حلوة
- اصبر لكل مُصِيبةٍ وتجلَّدِ واعلم بأن الدهر غير مُخَلَّدِ
- التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان
- الجزع عند المصيبة مصيبة
- الرمد أهون من العمى
- الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر على ما تحب
- الصبر عند الصدمة الأولى
- الصبر مفتاح الفرج
- إن السماء تُرْجَى حين تحتجب
- إن الله يمهل ولا يهمل
- إن غدا لناظره قريب
- إن مع اليوم غدا يا مسعدة
- أنا الغريق فما خوفي من البلل
- بالتأني تُدْرَكُ الفُرَصُ
- دواء الدهر الصبر عليه
- شدة وتزول
- صبري على نفسي ولا صبر الناس عليّ
- طول البال يهدم الجبال
- عش رجبا ترى عجبا
- في التأني السلامة وفي العجلة الندامة
- كل آت قريب
- كل هم إلى فرج
- من تأنى أدرك ما تمنى
- من صبر ظفر
- من لم يصبر على كلمة سمع كلمات
- وأفضل أخلاق الرجال التَّصَبُّرُ

- وعاقبة الصبر الجميل جميلة
- يمشي رويدا ويكون أولا
- الصبر مرهم لكل الجراح

ومن أمثال الشعوب في الصبر:

الضربات الصغيرة المتتالية تقطع السندانية الكبيرة. انجلترا

قطرة وراء قطرة تمتلئ الساقية. أفريقيا

الصبر زهرة لا تنمو في جميع الحدائق. انجلترا

الصبر بلسم الجروح. انجلترا

الإنسان دون صبر، سراج دون زيت. فرنسا

الصبر شجرة جذورها مرة وثمارها حلوة. إيران

السير على مهل يوصل إلى البعيد. المجر

اصبر للحظة ترتح لعشر سنوات. اليونان

لا تقع الشجرة من أول ضربة فأس. الدانمارك

مع الوقت والصبر تصبح ورقة التوت حريرا. الصين

بين الصبر والتربية

العلاقة بين الصبر والتربية هي علاقة وثيقة، فالإنسان الذي يدرب نفسه على اكتساب طاقة الصبر، هو بالوقت ذاته يقوم بتربية نفسه، والإنسان بصورة عامة ليس بوسعه أن يتلقى التربية بكافة أشكالها وألوانها ومراحلها من دون أن يستعين بالصبر.

ليس بوسع المعلم أن يستمر في إلقاء الدروس على طلبته من دون أن يستعين بالصبر، وليس بوسع الطالب أن يتلقى الدروس حتى يتخرج من دون أن يستعين بالصبر.

الإنسان كائن قابل للتربية في شقيها الإيجابي والسلبي وهو كائن يتربى لايوجد إنسان غير قابل لاكتساب التربية،

الحديث عن التربية حديث غير مستقر حيث أن التربية بذاتها تتفرع إلى فروع شتى. التربية ليست مذهباً فكرياً ولاعقيدة وليست تياراً من التيارات.

الإنسان هو ابن الحياة والحياة هي بنت التربية، الحياة هي التي تقدم البراهين للإنسان عبر ما في الطبيعة، والإنسان يتربى من تجاربه ومن مشاهدة ما في الطبيعة والحياة.

يتلقى الإنسان أشكالاً من التربية في مسيرة حياته فهو عندما يكون طفلاً يربيه أبواه غذائياً وعندما يكبر يربيه معلمه معرفياً ومن ثم ينفتح على أشكال أخرى

للتربية، فثمة تربية مهنية يتلقاها من المهني، وثمة تربية اقتصادية يكتسبها من خلال تعامله بالمال، وثمة تربية صحية يتلقاها من خلال إرشادات الأطباء، وثمة تربية ثقافية يكتسبها عن طريق الاطلاع والاحتكاك، وثمة تربية جنسية تعلمه أصول التعامل مع الجنس الآخر إضافة إلى ألوان وأشكال تربوية أخرى متفرعة ولكنها في النهاية تنصب في حروف كلمة /التربية/.

كل تصرفات الإنسان تكون من خلفية تربوية معينة سواء كانت سلبية أو كانت إيجابية، ذلك أن الإنسان هو تلميذ للتربية ولكن ما هي التربية؟

التربية تنقسم إلى شكلين، شكلها الأول نظري، وشكلها الثاني عملي فيمكن للإنسان أن يكتسب التربية بفروعها وأقسامها من خلال تجاربه الشخصية كما يمكن له أن يكتسبها من خلال تجارب الآخرين وهنا تطرح التربية الدينية نفسها بقوة على ضمير الإنسان فتقدم إليه الخبرة الكافية عبر تجارب الإنسان نفسه وبالتالي تقدم إليه الخلاصة والاتجاه الصحيح،

إن أشكال وألوان التربية الحديثة تقف على أرضية الأخلاق فالإنسان كائناً مَنْ كان يعجز أن يبدع شكلاً تربوياً ولكنه يستطيع أن يقدم هذا الشكل التربوي إذا استند على قواعد إنسانية. ويمكن معرفة أن التربية هي عملية انفتاح لانهائي على العالم، فكل مرحلة من مراحل الإنسان لها مرحلة تربوية، الشيخ الطاعن في السن أيضاً يحتاج إلى تربية تنسجم مع عمره، فيبقى الإنسان يتربى حتى لحظات الاحتضار الأخيرة، ليس من أحد يستغني عن التربية بالغاً ما بلغ وما دام الإنسان يتعلم في كل يوم جديداً فإنه يتلقى في هذا اليوم درساً جديداً من دروس التربية.

ولعل الصواب لايجانب الذين يظنون أن مهمة الآباء تكون عند توفير الطعام واللبس لأولادهم، فهذا الأب يمكن له أن يكتفي بهذا مع ما يربيه من حيوان أليف في بيته ولكن الطفل يحتاج إلى أغذية أخرى، يحتاج أن ينفتح على العالم ويده بيد ولي خبير، يحتاج من يرسم له خطوات المستقبل، يحتاج إلى مرشد يرشده وإلا تاه في ظلمة من جهل حتى لو كان آكلاً ولابساً.

مهما كان موقع الإنسان، فإنه يحتاج إلى ممارسة الصبر. لقد صبر الأنبياء حتى قال الله عن بعضهم: أولو العزم.

صبر نوح عليه السلام على أذى قومه حتى رأى له الله تبارك وتعالى مخرجاً فهاجر هجرته مع الطوفان تاركاً وطنه الذي

كان يقيم فيه إلى حيث استوت به سفينته على الجودي فبات آدم الثاني.

وهاجر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من أرض العراق إلى الشام، ومنها إلى مصر، ثم إلى فلسطين، ثم إلى مكة مصطحباً معه وليده إسماعيل وأمه هاجر في وادٍ غير ذي زرع إلى أنه قال: «إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم».

وهاجر موسى عليه السلام وهو يفلق البحر لتيبس الأرض كي يكمل مسيره، ورعى الأغنام ثمانية أعوام من أجل أن يتزوج.

وهاجرت مريم عليها السلام بوليدها عيسى عليه السلام حين رأت الخوف من بني إسرائيل يقول الله تعالى: «وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين».

صبر إسحاق عليه السلام على الذبح، ويعقوب عليه السلام على فقد الولد وذهاب البصر.

أما يوسف عليه السلام فصبر على البئر والسجن، وأيوب عليه السلام على المرض.

يقول الله تعالى لخاتم الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم: «**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**».

قال ابن عباس إن أولي العزم من الرسل هم ذووا الحزم والصبر. قال مجاهد: هم خمسة:

نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، وهم أصحاب الشرائع.

وقد ورد ذكر الصبر في القرآن الكريم في الكثير من السور، ومن ذلك:

«**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۞ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**» من سورة البقرة، الآية ٤٥.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۞ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**» من سورة البقرة، الآية ١٥٣.

«**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**» من سورة آل عمران، الآية٢٠٠.

«**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۞ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**» من سورة البقرة الآية ١٥٥- ١٥٦.

«**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۞ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۞ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۞ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**» من سورة الزمر، الآية ١٠.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: النصر في الصبر.

وقال: الأناة من الله تعالى، والعجلة من الشيطان. إن الإنسان الذي يسلك الطريق إلى معرفة نفسه يكون قد سلك طريقاً لمعرفة العالم من حوله، ومن خلال هذه المعرفة يستقبل التربية التي تجعله يمارس الصبر.

الصبر يميز الإنسان، فهو يعيش حالة صبر حتى لو كان الطعام بجانبه. الحيوان يأتي الطعام فيلتهمه التهاماً من دون أن ينظر فيه حتى لو كان في ظلمة، ولكن معدة الإنسان قد لا تقبل طعاماً إلاّ إذا كان في ضوء ومعرفة نوعية هذا الطعام، وتذوّقه أولاً، وقد ترفض هذا الطعام جملة بمجرد شم رائحة منه، أو إلقاء نظرة إليه. والإنسان لا يلتهم أي طعام يلقاه، بل إن المطاعم تقدّم بياناً بأنواع المأكولات، فينتقي الإنسان الأنواع المحببة إليه ويمضغ اللقمة على مهل، ويستمتع بالنكهة والطعم واللون، ولايدفع اللقمة إلى معدته إلا بعد مضغها بشكل جيد والتمتع بنكهتها وطيبها ورائحتها. وهو يكون في فراشه الآمن مع زوجته متأدباً، حتى وهو في حجرة مغلقة آمنة، فإنه يطفئ الضوء، وحتى وهو يطفئ الضوء فإنه يتغطى، وإن أراد حديثاً فإنه يتحدث همساً، وإن أراد ملاطفة، فإنه يلاطف بلطف. وهذا هو ذروة السلوك الإنساني الذي يحفظ له إنسانيته،

لاحرج عليك أن تسعى بذاتك نحو الأفضل، أن تكرّم ذاتك أن تبدو في مظهر حسن وأنت في بيتك وفي الناس، أن تكافح الفقر بالعمل، أن تحسن وضعك المعيشي والمالي،واعلم أنك لاتقدر على نظافة ما حولك إن لم تنظف ذاتك فلا يقدّم نظافة للآخرين مَنْ به روائح نتنه، ولا يستطيع أن يُطعم جائعاً مَنْ به جوع. تمتع دوماً بدقة اللمسات الأخيرة لأي عمل مكّنك الله منه، وهبك الله جسداً، وهبك حياةً، كن سيداً على جسدك وسيداً في الحياة، أكرم جسدك، تكرمك الحياة. احفظ جسدك حتى يحقق لك الصفاء الذهني والسكينة الروحية. إن جسدك يحتاج إليك حتى يكون في حالة سلم معك، عليك أن تغذيه، تنظفه، تعالجه، تحميه من برد الشتاء، حرارة الصيف، أذى الأماكن الموبوءة، تحفظ كرامته، تستره، تكسيه، إنه يحتاج إلى حركة، يحتاج إلى رياضة، يحتاج إلى استرخاء، يحتاج إلى استحمام، يحتاج إلى تنزّه، يحتاج سفر. إن جسدك كوردة إن حافظت عليها لبثت متفتحة، وإن أهملتها ذبلتْ واحتضرت، وكما أن للوردة تربة طيبة صالحة تمنحها النضارة والإشراق، فإن تربة الأجساد هي الأخلاق الحميدة الصالحة.

عليك دوماً أن تصلح من تربة جسدك حتى يبقى نضراً ومشرقاً.

الصبر باب مــن أبواب السلام، باب من أبواب الانفتــاح على جماليات الحيات بكل غناها وتناقضاتها، وأحداثها.

عندمــا تكون في الناســ لاينفعك غير الصبر.. عندما تكون في عزله لاينفعك غير الصبر، وعنــد ذروة الآلام الكبرى التي تقع بغتة كالصواعــق لا يبقى معك إلا الصبر.. إنك صامد بمقدار ما لديك من صبر..إنك قوي بقــوة الصبر الكامنــة لديك، وعندما يعجز الآخرون عن تقديم شيء يخفف عنك، يأتي الصبر ليقدم كل شيء إليك.. عليك أن تكون دائم السعي لاكتساب الصبر..أكبر قدر من الصبر أن تطور طاقة الصبر لديك، أن تعزز مكانة الصبر في نفسك.

لارفيق لك كالصبر لاصاحب لك كالصبر لاقريب لك كالصبر، دوماً يأتي الصبر لينير أمــام خطوات روحــك الــدروب الداجية. الصــبر غرســة مباركــة في حديقة روحك تُــروى بنور المعرفة. تعلم كيف تدرب نفسك على احتمال المصائب الكبرى بالصبر، تعلم كيــف تدرب نفسك علــى استقبال المسرات الكبرى بالصبر.

المراجـــع

١- كتاب عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري- تحقيق د.محمد الاسكندراني- دار الكتاب العربي- بيروت.
٢- معجم البلدان- ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله- منشورات دار الفكر- بيروت.
٣- كيــف تعلمــون أولادكم تعلــم المسؤولية- ليندا وريتشــارد آير- ترجمة: أحمد رمــو- دار علاء الدين- دمشق.
٤- مــن المستطرف في كل فن مستظرف- شهــاب الدين أبي الفتح- محمد بن أحمد الأبشيهي- منشورات وزارة الثقافة- دمشق ٢٠٠٤.
٥- زاد المســير في علم التفسير- عبد الرحمن بن علي بن محمــد الجوزي- المكتب الإسلامي- بيروت الطبعة الثالثة- بيروت ١٤٠٤.
٦- المزهر في علوم اللغة- جلال الدين السيوطي- المكتبة العصرية، ط٢.
٧- أسامة بن المنقذ- كتاب الاعتبار- تحقيق سامر السامرائي- دار الأصالة- الرياض ١٤٠٧هـ.

الدراسات والبحوث

اقتصاد المعرفة

نهج جديد في مسار التنمية البشرية والاقتصادية

د. محمد سعيد الحلبي

مقدمة

ثمة اقتصاد جديد يتطـوَّر ويترسَّخ هو اقتصاد المعرفة (knowledge economy)، أو الاقتصاد المبني على المعرفة. وهذا الاقتصاد يتطوَّر بوتيرة متسارعة وعلى نطاق واسع، كما تتجلَّى وتتجذَّر خصائصه ومبادئه في مواجهة الاقتصاد الصناعي التقليدي، الأمر الذي يفرض على علم الاقتصاد مهمات جديـدة تتمثَّل في دراسة هذا التحوُّل العظيـم وتحليله، ومقاربة التحديات والتغيُّرات الناجمة عنه بنظرة علمية تجديدية وموضوعية.

مستشار وباحث في التخطيط الاقتصادي والاجتماعي.

- مفهوم اقتصاد المعرفة (knowledge economy)

إذا كان الاقتصاد بمفهومه التقليدي هو علم الندرة، أي ندرة الموارد في مقابل التطوُّر اللامحدود لحاجات الناس ومتطلباتهم، فإن اقتصاد المعرفة، في أبرز خصائصه التي سنحاول الإضاءة عليها لاحقاً، وخصوصاً في ظل التكنولوجيا الرقمية، هو اقتصاد الوفرة. فمع تطوُّر المعرفة، من حيث هي لا تستهلك (بمعنى أنها لا تستنفد) بل تتوالد ذاتياً بالاستهلاك، أي عند تقاسمها وتشاركها من خلال نقلها إلى الآخر أو الآخرين، وبفضل التكنولوجيا الرقمية، فإن التكلفة الحدية لأي نسخة لاحقة على النسخة الأولية (التي تكون مكلفة جداً غالباً) تتضاءل تدريجاً إلى أن تصبح أقرب إلى الصفر. وهذا ما يخلق الوفرة في الإنتاج بحيث يصبح مبدأ الوفرة هو السمة الأبرز لاقتصاد المعرفة.

ولو أردنا تقديم تعريف مختصر لاقتصاد المعرفة لأمكننا القول بأنه الاقتصاد الذي يشكل فيه إنتاج المعرفة وتوزيعها واستخدامها، هي المحرِّك الرئيس لعملية النمو المستدام ولخلق الثروة وفرص التوظيف في كل المجالات. إنه يقوم على أساس إنتاج المعرفة (أي خلقها) واستخدام ثمارها وإنجازاتها، بحيث تشكل هذه المعرفة (سواء ما يعرف بالمعرفة الصريحة التي تشتمل على قواعد البيانات والمعلومات والبرمجيات وغيرها، أو المعرفة الضمنية التي يمثلها الإفراد بخبراتهم ومعارفهم وعلاقاتهم وتفاعلاتهم) مصدراً رئيساً لثروة المجتمع المتطوِّر ورفاهيته.

٢- تحولات معرفية عظيمة في التنمية البشرية:

لقد كان مسار تطوُّر المجتمع البشري دائماً مرتبطاً بتطوُّر معارف الإنسان. فالمعرفة رافقت الإنسان منذ أن تفتَّح وعيه، وارتقت معه من مستوياتها البدائية، مرافقة اتساع مداركه وتعمُّقها، إلى أن وصلت إلى ذراها الحالية. وعلى مدى تاريخ البشرية كله نجد أن كل مجتمع من المجتمعات قد تمتَّع بمستوى معين من العلم والمعرفة، بحيث يمكننا القول إن مراحل تطور هذه المجتمعات كانت تشكِّل انعكاساً لتطور المعرفة بمعناها الشمولي، والمرتبطة بجوانب الحياة الروحية والمادية والاجتماعية والبيولوجية.. إلخ. ويمكن الجزم بأن تلك المعرفة اضطلعت بدور محوري ومتواصل في تطوير المجتمع البشري وفي دعم إنجازاته المادية، فضلاً عن إنجازاته المؤسساتية والثقافية.

وهكذا، فإن مفهوم «المعرفة» ليس بالأمر الجديد، بل الجديد هو حجم تأثيرها الراهن على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعلى نمط حياة الإنسان المعاصر عموماً. فقد شهد العالم ابتداءً من الربع الأخير من القرن العشرين أعظم تغيير في تاريخ البشرية، هو عبارة عن التحول الثالث، بعد ظهور الزراعة والصناعة. وتمثَّل هذا التحوُّل بثورة العلوم والتكنولوجيا الفائقة التطور، والتي تشكل ثورة المعلوماتية وتكنولوجيا الاتصالات ذروتها اليوم. لذا نرى أن مقاربة اقتصاد المعرفة لا بد من أن تبدأ بإلقاء نظرة سريعة على التحوُّلات الكبرى في حياة المجتمع البشري، والتي كانت انعكاساً لمدى التطوُّر الذي بلغته المعرفة في كل مرحلة من تلك المراحل.

تمثّل التحوُّل الأوَّل، العظيم والبالغ الأهمية في حياة البشر، في قيام الزراعة المستقرة التي نشأت في أحواض الأنهار الكبرى، كالنيل ودجلة والفرات. ولقد عرفت البيئات الخصبة تلك، التي شهدت في العصور القديمة وما تلاها أعنف صراعات دموية للسيطرة عليها، الأشكال الأولى للدولة والسلطة والحكم والشرائع والقوانين. وأدَّى قيام تجمعات سكانية كبيرة نسبيًا إلى بروز تنظيم إداري وسياسي ملائم لمستوى تطور المجتمع البشري في تلك المرحلة.

وعلى مدى بضعة آلاف من السنين تكرَّست الزراعة، بحكم ارتباط أشكال النشاط الاقتصادي الأخرى بها، بوصفها العالم الرئيس المحدَّد للنشاط البشري وللحضارة الإنسانية، باعتبارها مصدراً رئيساً للإنتاج والثروة في حياة المجتمعات. لقد قامت حضارات تلك الحقبة الطويلة على ما سمِّي «المعرفة الزراعية»، واتسمت بتركُّز تطوُّر المعرفة في مناطق محدَّدة، وبما سمِّي المعرفة واحتكارها. فعندما كانت جماعة ما تتوصل إلى ابتكار أو اكتشاف معين، فإنها كانت تحتكره وتحتفظ به لنفسها وتحجم عن تقاسم المعرفة الجديدة مع غيرها، الأمر الذي أدَّى إلى تباطؤ تطور المعرفة، وإلى ضياع الكثير من أسرارها وإنجازاتها مع زوال حَمَلتها (ومن أبرز الأمثلة على ذلك، ضياع الكثير من إنجازات الحضارة الفرعونية أو الحضارات القديمة في أميركا الجنوبية). لقد عُرف ذلك المجتمع بالمجتمع ما قبل الصناعي.

أما التحوُّل الثاني العظيم فتمثَّل بقيام الثورة الصناعية ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر في انكلترا، ومن ثم انتشارها على امتداد القرن التاسع عشر

في أوروبـــة الشمالية والغربية وشمال القارة الأميركيـــة واليابان، وروسيا لاحقـــاً. وتُعدُّ الثـــورة الصناعيـــة بداية تقـــدُّم عظيم في البلدان التي تحقَّقت فيها، وبالتالي في العالم أجمع. وقد شمل هذا التقدم فروع النشاط الاقتصادي كافة (الصناعة والزراعة والنقل والمواصلات والتجارة والمصارف...)، وشكَّل درجة أرقى وأعظم في اتساع مدارك الإنسان ومعارفه. وكان من سمـــات المعرفة في تلك المرحلـــة أنها كانـــت تستنـــد إلى التطبيق، أي أن التطبيـــق كان يسبـــق النظرية، حيث صيغت نظريات كثيرة على أساس ابتكارات وتطبيقـــات كان يتوصَّـــل إليهـــا المبتكرون والمخترعون في الممارسة العملية أولاً.

وقـــد أدت تلـــك الثورة ومـــا تلاها من تطوُّر إلى حدوث زيادة هائلة في الثروة، كما أحدثت تحـــولاً كبيراً في المجالات السياسية والعلمية والثقافيـــة، وكذلك الاجتماعية، لم يشهد العالم لها مثيلاً من قبل، كما أدت إلى انقسام العـــالم إلى عالمين: أحدهما صناعي متطوِّر، وآخر غير صناعي يلهث بعضه للحاق بالعـــالم الصناعي المتطوِّر من غير جدوى في غالب الأحيان، فيما البعض الآخر يعيش في تخلُّف وفقر مدقع من دون أمل في النهوض. وبذلـــك تعتبر الثورة الصناعية بداية لتأريخ جديد بين عصرين: العصر ما قبل الصناعي والعصر الصناعي.

أمـــا التحول الثالـــث الكبير، الذي حمل أعظم تغيـــير في تاريخ البشرية بأكمله، فقد بـــدأ في الربع الأخير من القـــرن العشرين، وتمثَّل بثـــورة العلـــوم والتكنولوجيا الفائقة التطوُّر وما نجم عنها من ثورة في المعلوماتية والاتصالات، حيث باتت المعلومات والمعرفة مـــورداً أساسياً من المـــوارد الاقتصادية، لا بـــل المورد الاستراتيجـــي الجديد في الحياة الاقتصادية المكمِّل للموارد الطبيعية ونشوء ما اتفق على تسميتـــه «اقتصاد المعرفة» أو «الاقتصـــاد المبنى على المعرفـــة». وهكذا، بعدمـــا كانت الأرض والعمل همـــا المورد الرئيس للثروة في العصر ما قبل الصناعي، ثم حلَّ مكانهما رأس المال والطاقة (العمل) باعتبارهمـــا المولِّد الرئيس للـــثروة، أصبح العلم والمعرفـــة هما العنصـــر الرئيس بين عناصـــر (عوامـــل) الإنتـــاج في المجتمع في العصـــر الراهن الـــذي صار يعـــرف باسم العصر ما بعـــد الصناعي، حيث صار إنتاج المعرفـــة واستثمارهـــا واستهلاكها (بمعنى استخدامها) وتداولها (أو كما يقال تقاسمها أو تشاركهـــا) المصدر الرئيس للنمو. وغدت المعرفـــة عبارة عن نوع جديد من رأس المال يقوم علـــى الأفكار والخـــبرات والممارسات الأفضـــل. إنها تعبّر عن رأســـ المال المعرفي

الذي يُعتبر في الاقتصاد الجديد أكثر أهمية بما لا يقاس من رأس المال المادي. وأدَّى التطور العلمي والتكنولوجي إلى التحوُّل من العمل الجسدي إلى العمل القائم على المعرفة. فأصبحت التكنولوجيا والمعرفة هما العاملان الرئيسان للنمو والتنمية المستدامة إذ إن الثروة الحقيقية للأمم تكمن اليوم في العقول بالدرجة الأولى، ثم تأتي بعدها الثروات المادية الكامنة في باطن الأرض أو على سطحها.

إن السمة الرئيسة لهذه المرحلة هي في أن التطبيقات العملية صارت تأتي استناداً إلى النظرية. فعلى عكس المرحلة السابقة، صارت النظرية تسبق التطبيق. وتسارعت بصورة هائلة عملية وضع الاكتشافات النظرية موضع التنفيذ. فقصرت المسافة الزمنية بين الاكتشاف النظري ووضعه في موضع التطبيق. فعلى سبيل المثال، كانت الفترة الفاصلة بين اكتشاف الطاقة البخارية واستخدامها في الحياة العملية لا تقل عن ألفي سنة. أما بالنسبة إلى الكهرباء فكانت هذه الفترة مئة سنة، وإلى التصوير الفوتوغرافي مئة سنة أيضاً، والبلاستيك ٥٥سنة، والهاتف ٥٠سنة، والراديو ٣٥سنة، والمضادات الحيويَّة ١٢سنة، والاتصال اللاسلكي ١٠سنوات، والألياف الصناعية ٩سنوات، والترانزيستور ٥سنوات...إلخ. أما اليوم فإن الاكتشافات والاختراعات في الميادين العلمية الجديدة فتتوالى باستمرار، ولا يستغرق وضعها موضع التطبيق سوى أشهر أو أسابيع قليلة. وصارت المؤسسات والشركات تنفق أموالاً طائلة على البحث العلمي وتخصِّص جزءًا كبيرًا من رساميلها لهذا الغرض. فالأبحاث العلمية أصبحت اليوم أشبه بمناجم الذهب، ولكنها غير قابلة للنضوب، وغدت ربحيتها وجدوى الاستثمار فيها مسألة لا شك فيها.

لقد كان للتطور العلمي الكبير في الميادين الإلكترونية والنووية والفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والفضائية، التأثير الأكبر في إحداث تغييرات حادة وجذرية في حياة الناس والمجتمعات، وجاءت ثورة المعلوماتية والاتصالات لتقلب هذه الحياة تفاوتاً في مستويات التطوُّر بين البلدان الصناعية نفسها، حيث نجح بعضها في ولوج مرحلة ما بعد الصناعية بينما يسعى بعضها الآخر جاهداً لتحقيق ذلك. أما الغالبية الساحقة من بلدان ما كان يسمَّى العالم الثالث فإنها ما تزال تتخبَّط في محاولات التخلُّص من قيود التخلُّف وضعف التطوُّر. وتعمَّقت أكثر الفجوة المعرفية بين البلدان والمجتمعات.

وتمارس ثورة المعلوماتية تأثيراً استثنائياً

على مجمل منظومة العلاقات الاقتصادية الدولية اليوم. فتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الفائقة التطوُّر تتيح إقامة «مدى معلوماتي عالمي موحد». وقد بدأ العالم منذ اليوم يجني ثمار هذا بوتيرة متسارعة. فمع نهاية القرن المنصرم وبداية القرن الجديد أخذ يتكوَّن نظام العلاقات الدولية الذي يتحقَّق عبر شبكة الإنترنت تلك. إن الأهمية العظيمة والمستقلَّة لهذا النظام الجديد سوف تتجلَّى بالكامل في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

إن ثورة المعلوماتية واتساع «المدى المعلوماتي الموحَّد» لا يؤثِّر تأثيراً جذرياً في الاقتصاد فحسب، بل وفي حياة المجتمع وطبيعة العلاقات بين البشر والمواطن والسلطة، ويؤدي إلى تعاظم نفوذ وسائل الإعلام وتأثيرها، الأمر الذي يمكِّنها من السيطرة على سلوك الفرد وخصوصاً في مجال الاستهلاك وتكوين الوعي، ومقاربة الكثير من القضايا والمشكلات التي يواجهها وفهمها.

٣- خصائص اقتصاد المعرفة:

استناداً إلى التعريف أعلاه يمكن القول بأن أهم الخصائص التي يتسم بها اقتصاد المعرفة يتمثَّل في التوسع المستمر والمتزايد في توظيف العلم والتكنولوجيا في جميع ميادين الاقتصاد، وفي الدور الفاعل والجوهري الذي تضطلع به المعرفة كعامل حاسم في عملية الإنتاج، وتأثيرها الكبير على الخبرات، والقدرة على التعلم والتنظيم والابتكار في المنظومة الاقتصادية. فقد حلَّت المعرفة المستقاة من المصادر العلمية والتقنية في المكان الأول محل رأس المال وغدت المصدر الرئيس للنمو، وباتت تستثمر كعنصر أساسي لتعزيز الميزة التنافسية للشركات. وبرز توسُّع كبير في صناعة الخدمات وفي حجم دورها ضمن المنظومة الاقتصادية.

وإذا أردنا مقاربة أبرز خصائص اقتصاد المعرفة بشيء من التفصيل، فيمكننا التوقف عند الخصائص التالية :

أولاً: مفهوم القيمة في ظل اقتصاد المعرفة:

يعتبر مفهوم القيمة أهم ركائز المنظومة الاقتصادية. وقد قام الاقتصاد الصناعي على أساس ثنائية القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية للسلعة. وجاء اقتصاد المعرفة ليضيف إليها قيمتين جديدتين، هما:

١) قيمة المعلومات والمعرفة، وذلك بعدما صار بالإمكان قياس كمية المعلومات وتقدير عائدها، وبعدما صارت المعرفة مكوناً أساسياً من مكونات الإنتاج، وليس

مجرد عامل إضافي لرفع كفاءته كما كانت في ظل الاقتصاد التقليدي.

٢) والقيمة الرمزية، مثل قيمة العلم وقيم الحضارة والهوية القومية وما شابه.

وعلى عكس قيمة الأصول المادية (من أراض وعقارات ومنقولات وما شابه) التي تتسم بالثبات النسبي، لا بل تحتفظ بجزء أساسي من قيمتها حتى في حال عدم استخدامها (الأرض ترتفع قيمتها عادة مع مرور الزمن)، فإن الأصول المعرفية تفقد قيمتها إن لم تستخدم، كما أنها قابلة لأن تفقد قيمتها بسرعة حالماً تظهر معرفة أو تكنولوجيا أكثر جدة وتطوراً تقوم بإزاحتها.

إن تسارع إنتاج المعرفة، وتقادمها وتلاشي قيمتها، تتطلَّب قيام مؤسسات وأساليب تنظيم وعمل تتسم بالسرعة والدينامية والقدرة على إقتناص الفرص من أجل سرعة تحويل هذه المعرفة المتجدِّدة إلى منتج معرفي قبل أن يصيبها التقادم. وهذا الأمر يدفع المستثمر إلى السعي لتحقيق أقصى عائد في أقصر وقت ممكن خشية ظهور منتج منافس قائم على معرفة أكثر تقدماً تبخس من قيمة سلعته. وهذا ما يدفع منتجي السلع المعرفية إلى المبالغة في تحديد أسعارها عند ظهورها للمرة الأولى على نحو لا يتناسب مع كلفة إنتاجها (فلنتذكر، مثلاً، كيف كانت مرتفعة أسعار أجهزة الكمبيوتر الفردية عند ظهورها أو أجهزة الهاتف النقال أو الكاميرات الرقمية وغيرها من السلع ذات الكثافة المعرفية قبل أن تنخفض لاحقاً).

ثانياً: مفهوم الملكية في ظل اقتصاد المعرفة

تتسم الملكية المعرفية بميزة خاصة لا بد من الإشارة إليها. ففي ظل الاقتصاد التقليدي عندما يبيع المرء شيئاً فإنه لا يعود يمتلكه، أي تحصل عملية انفصال بين المالك السابق وما كان ملكاً له قبل بيعه. وذلك لأن الأشياء تتسم بالملكية الحصرية. أما في ظل اقتصاد المعرفة فإن المرء عندما يبيع المنتج المعرفي، فإنه يظل عمليًا يمتلك المعرفة الكامنة فيه. كما أن الذي يشتري المنتج المعرفي فإنه يمتلك عملياً المعرفة الكامنة فيه (بمعنى قدرته على استخدام نتاج هذه المعرفة والاستفادة منه حتى لو كان غير قادر أو غير مؤهل لتجسيد هذه المعرفة في منتج جديد). لذا فإن المعرفة تتسم بالملكية التعددية غير المحدودة وغير الحصرية. وهذا ما يحول اقتصاد المعرفة إلى اقتصاد الوفرة، نتيجة لتقاسم المعرفة وتشاركها.

لقد كانت الملكية المادية، من أراض

وعقارات وأصول مادية مختلفة وما تزال هي السائدة في الاقتصاد التقليدي. أما اليوم فقد صارت الملكية الفردية هي محور الاقتصاد القائم على المعرفة. على عكس الملكية المادية، ثمة، في ما يخص الملكية الفكرية، صعوبات كثيرة في تحديدها وتوثيقها ومن ثم حمايتها. وتعود الصعوبة الأساسية بالنسبة إلى منتجات صناعة المعلومات، التي تعتبر من أهم فروع اقتصاد المعرفة، إلى كون تكنولوجيا المعلومات قد وفَّرت إمكانات هائلة للنسخ والإرسال والتحويل والتحوير، خصوصاً عبر شبكة الإنترنت.

وتمثل حقوق النشر وبراءات الاختراع أهم أساليب حماية الملكية الفكرية. ويجري اليوم البحث عن أساليب مستحدثة لتلائم الطبيعة الخاصة بالمنتج المعرفي. وليس من قبيل الصدف أن تكون مسألة حماية الملكية الفكرية واحدة من أهم المهمات التي تسعى منظمة التجارة العالمية إلى تحقيقها وتعميمها. ويتمتَّع بحماية الملكية الفكرية اليوم نطاق واسع من الإنتاج الإبداعي والبرمجيات وقواعد البيانات والعلامات التجارية وما شابه. وقد أقرت منظمة التجارة العالمية اتفاقية «الجوانب التجارية الخاصة بالملكية الفكرية TRIPS»، وألحقتها باتفاقية تحدِّد أساليب فض المنازعات، وقد انطلقت هذه الاتفاقية من ميثاق «بيرن» الخاص بالملكية الفكرية. ولكن هذا لم يعد كافياً نتيجة التحديَّات التي تطرحها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وبصورة خاصة شبكة الإنترنت، اليوم، علماً أن الملكية الفكرية وسعي الدول المتقدمة لتكريس احتكارها للمعرفة ونتاجاتها، يمكن أن تساهم في اتساع الهوة الرقمية والمعرفية بين العالم المتقدِّم وما يسمَّى العالم النامي.

ثالثاً: علاقة الطلب والعرض في اقتصاد المعرفة:

من المعروف أن الطلب هو الذي يحدِّد، عموماً، العرض في الاقتصاد التقليدي، حيث إن حاجات المجتمع كانت أكبر من قدراته الإنتاجية على إشباعها. أما في ظل الاقتصاد المبني على المعرفة فإن العرض صار، إلى حدٍّ كبير، هو الذي ينشئ الطلب. وهذا يعني أن قدرات المجتمع الإنتاجية صارت أكبر من حاجاته. علماً أن العرض صار أكبر من حيث الكم وأفضل من حيث الجودة وأثرى من حيث التنوُّع، وذلك بفضل التكنولوجيا الفائقة التطوُّر (خصوصاً الرقمية والشبكية)، أي تم الانتقال من مرحلة الكم إلى مرحلة الجودة. ويتسم اقتصاد المعرفة بالعرض المعرفي الفائق، سواء من

حيث المفاهيم أم من حيث التطبيقات، بما يفوق قدرة الأفراد والشركات وقطاعات الأعمال على الطلب. وبذلك يمكن القول بأن الاقتصاد لم يعد يهتم بمعالجة مسألة الندرة، بل صار يرتبط بمسألة الوفرة، إذ إن المعرفة بوصفها عنصراً جديداً من عناصر الإنتاج، وخلافاً لكل عناصر الإنتاج التقليدية، لا تواجه مشكلة النضوب لأنها تتسم بالنمو المستمر. فبينما تنضب الموارد الاقتصادية مع استهلاكها، فإن الموارد المعرفية تنمو كلما زاد معدل استهلاكها.

رابعاً: مفهوم الكلفة في اقتصاد المعرفة:

في اقتصاد المعرفة تكون التكلفة الثابتة لإنتاج النسخة الأولى من المنتج المعرفي عالية، ولكن التكلفة الحدية لإعادة إنتاج النسخ الإضافية تكون عادة منخفضة جداً أو أقرب إلى الصفر. وهذه السمة الجديدة تقلِّل من أهمية، إن لم تكن تلغي، مفهوم «الحجم الأمثل» للإنتاج. إذ إنه صار بالإمكان إنتاج أي حجم لاحق على النسخة الأولى من السلعة ذات الكثافة المعرفية مهما كان كبيراً، ونظرياً إلى ما لا نهاية بسبب تضاؤل كلفة الإنتاج إلى الحدود الدنيا. هذه الظاهرة، أي التكلفة الثابتة العالية المقترنة بتكلفة حدية متدنية جداً، تحفز الميل إلى الاحتكار في الأسواق، وتدفع الشركات إلى تعزيز رأسمالها المعرفي لكي تتميَّز في السوق. وهذا ما يفسِّر تفرُّد عدد محدود من الشركات في ميدان المنتجات ذات الكثافة المعرفية، وحالات الاندماج والابتلاع المتزايدة. فضلاً عن ذلك، تدفع هذه الظاهرة الشركات إلى الاكتفاء ببيع النسخة الأولى من السلعة، ثم تعمد بعد ذلك إلى توزيع النسخ الإضافية مجاناً في حال اقترن ذلك مع خدمة يطلبها المستهلك. والمثال على ذلك لجوء عدد كبير من شركات الهاتف النقَّال في العالم إلى تقديم جهاز الهاتف مجاناً لمن يشتري خطاً.

وهكذا، فإن الأصول المعرفية لا تشبه الأصول المادية، لأنها لا تُستهلك عند استخدامها،وهي قابلة للاستنساخ بتكلفة حدية متضائلة تقترب من الصفر. فالاقتصاد ينقسم إلى قطاعات مختلفة، بعضها ينتج سلعاً مادية، كالأغذية والسيارات والملبوسات.. إلخ، وهذه السلع تخضع لسلوك قانون تناقص العوائد المعروف، حيث إن العوائد تأخذ بالزيادة إلى مستوى معيَّن، يبدأ بعده تناقص العوائد. وثمة قطاعات أخرى تنتج سلعاً وخدمات ذات كثافة معلوماتية ومعرفية عالية. في هذه القطاعات تكون التكلفة الأولية (الاستثمارية والثابتة) لتطوير المعرفة

الرقمية أو البرمجية عالية جداً، ولكن كلفة إنتاج النسخ الإضافية تكون منخفضة جداً. وهذا يؤدي إلى زيادة العوائد، حيث الربحية ترتفع بسرعة وبصورة مطَّردة مع زيادة الإنتاج. وبإمكاننا الحديث هنا عن قانون تزايد العوائد.

خامساً: اقتصاد المعرفة هو اقتصاد اللاملموسات:

يشهد الاقتصاد المادي انكماشاً وتقلصاً. وإذا كان العصر الصناعي قد اتسم بتجميع الملكيات ورأس المال المادي، فإن اقتصاد المعرفة هو اقتصاد اللاوزن واللاحجم، بل تتمثَّل أصوله الأساسية في الأصول المعرفية. لذا، يمكن القول إنه اقتصاد اللاملموسات القائم على رأس المال المعرفي بالدرجة الأولى. وتساهم كل من مواد البناء الخفيفة وبدائل المعادن والتوجُّه نحو التصغير والاستعاضة عن المحتوى المادي بالمعلومات والدور المتزايد للخدمات، تساهم كلها في عملية تقليص الطبيعة المادية للمخرجات الاقتصادية. وقد بدأ التغيُّر في القيمة من الأصول الملموسة (المادية) إلى الأصول غير الملموسة (المجرَّدة) يظهر جليًّا في مختلف جوانب الاقتصاد العالمي. وتشير المعطيات إلى أن حوالى ٩٠٪ من القيمة السوقية لرساميل بعض الشركات ذات الكثافة المعرفية العالية مثل مايكروسوفت وأميركا أون لاين وساب تتمثَّل في الموجودات المعنوية.

وتمثِّل شركة «مايكروسوفت» مثالاً نموذجياً على المنطق الجديد السائد في اقتصاد المعرفة، والذي يسعى إلى تخفيف وزن المؤسسة المادي وتعزيز قيمتها السوقية في المقابل. فهي تصرف معظم طاقتها على خلق أصول وموجودات غير ملموسة (معرفية). والقيمة السوقية لرأس مال شركة «مايكروسوفت» وميزانيتها تتباين مع مثيلاتها من الشركات الأكثر عراقة، كشركة IBM مثلاً. فقد كانت القيمة السوقية لرأس مال IBM في أواخر تسعينيات القرن المنصرم تقدر بحوالى ٧٩مليار دولار، في حين بلغت في شركة مايكروسوفت ٨٥,٥مليار دولار. ولكن في المقابل كانت شركة IBM تمتلك ما قيمته ١٦,٦مليار دولار كأصول مادية على هيئة مصانع ومعدات وأجهزة وأملاك، في حين أن الموجودات الثابتة في شركة مايكروسوفت لم تتجاوز ٩٣٠مليون دولار! ومع ذلك كان المستثمرون مستعدين لدفع قيمة أكبر مقابل سهم مايكروسوفت. ومن الواضح أن ما يجذب المستثمرين هو الموجودات والأصول غير الملموسة على شكل أفكار وتطبيقات معرفية وبرامج ومواهب وخبرات العاملين المعرفيين فيها. فالإبداع

المعرفي هو عملياً الموجودات والأصول الوحيدة في هذه الشركة. إن المستقبل في ظل اقتصاد المعرفة هو للشركات «الرشيقة»، حيث تقاس القيمة بالأفكار بدلاً من الموجودات والأصول المادية

سادساً: اقتصاد المعرفة هو اقتصاد السرعة:

لقد كان الاقتصاد التقليدي في العصر الصناعي هو اقتصاد الحركة البطيئة نسبياً، حيث كان يعتمد على القطار والسيارة والطائرة والبريد التقليدي. أما الاقتصاد المبني على المعرفة فهو اقتصاد الحركة الفائقة السرعة، ويعتمد على الأقمار الصناعية والبريد الإلكتروني وشبكة الإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال والمواصلات الحديثة. وتساعد هذه السرعة الفائقة على كسر حاجزي الزمان والمكان، وذلك نتيجة لتوظيف تقنيات الواقع الافتراضي والتعامل في الفضاء المعلوماتي. لقد أصبح من الممكن إنشاء شركات رشيقة وافتراضية، وكذلك أسواق افتراضية تستثمر خلالها معايير السرعة وتذلّل العقبات التقليدية، حيث تقوم التجارة والأعمال على مدار الساعة وفي كل أنحاء العالم. وتعتبر التجارة الإلكترونية واحدة من أبرز تجليّات ظاهرة كسر حاجزي الزمان والمكان في الاقتصاد الجديد.

كانت تلك بعضًا من الخصائص والسمات التي يتسم بها الاقتصاد الجديد، اقتصاد المعرفة، والتي لا يتسع هذا البحث لتناولها كلها بالبحث والتحليل. وتنعكس هذه السمات على شكل تحوُّلات وتغيُّرات تطال جميع جوانب الحياة الاقتصادية (وغير الاقتصادية) سواء على المستوى المحلي أم على مستوى الاقتصاد العالمي والعلاقات الاقتصادية الدولية.

٤- تحولات جوهرية في آلية عمل الاقتصاد الجديد

٤-١ تحولات الملكية والأسواق

يشهد الاقتصاد الجديد تغيُّرات جذرية في الدور الذي تضطلع به الملكية، وكذلك في وجه السوق وآلية عملها، إذ من المعروف أن مفردتي «الملكية» و«السوق» أصبحتا مترادفتين في عصر الراسمالية. فقد تأسَّس النظام الرأسمالي على فكرة مقايضة الملكيات في الأسواق. ومع تطور هذا النظام غدت السوق القوة السائدة في حياة المجتمع الذي يتأثَّر سلباً أو إيجاباً بحالتها وتقلباتها، كما أنها (أي السوق) صارت معياراً لوضع المجتمع ولإمكانات تطوره. ولذا عُرف الاقتصاد الرأسمالي بأنه «اقتصاد السوق»،

الذي تحكم «يد خفية» آلية عمله، على حد قول أبي الفكر الرأسمالي الكلاسيكي آدم سميث في حينه.

ولكن مع ظهور اقتصاد المعرفة وترسخه في البلدان الأكثر تطوراً بداية، أخذت تتكوَّن مجموعة من الوقائع الاقتصادية الجديدة التي لا من بد من أخذها في الحسبان عند دراسة خصائص هذا الاقتصاد الجديد وطبيعة عمله. فقد بدأت الأسواق في العصر الجديد تتراجع لصالح «الشبكات»، وأخذ ما يسمَّى النفاذ Access (أي إمكان الوصول إلى شيء ما) يحلُّ بصورة متزايدة مكان الملكية بمفهومها التقليدي المعروف. وصار المستهلكون وكذلك الشركات يتخلَّون عن الحقيقة الجوهرية للحياة الاقتصادية التي اتسم بها عصر الرأسمالية الصناعية، أي سوق مقايضة الملكيات بين المشترين والبائعين. ونحن، إذ نشير إلى هذا التحوُّل، فإننا لا نريد بذلك القول بأن الملكية بحد ذاتها ستختفي في عصر النفاذ، أي عصر اقتصاد المعرفة، بل على العكس ستبقى هذه الملكية موجودة، ولكنها لن تكون متاحة على نطاق واسع للمقايضة في الأسواق كما كانت في السابق. وبدلاً من ذلك، يحتفظ المزوِّدون (وهذا هو المصطلح الذي يعبر عن المالكين) في الاقتصاد الجديد بالملكية، ويعمدون إلى منح الآخرين حق استخدامها أو استئجارها، أو يفرضون رسوماً على الدخول إليها أو الاشتراك فيها أو العضوية فيها مقابل استخدامها لفترة معينة، قد تقصر أو تطول، ولكنها تكون قصيرة في الغالب.

إن مقايضة الملكية بين البائعين والمشترين، وهي السمة الأساسية للعصر الصناعي، تفسح اليوم في المجال لعلاقة تبادل قصيرة الأجل في الغالب بين المزود أو الخادم (أي من يقدم السلعة أو الخدمة بصفته مالكها) والعميل (أو المستخدم)، اللذين تربطهما علاقة «شبكية»، أي عبر الشبكات. وفي الوقت نفسه ستبقى الأسواق بمعناها التقليدي المعروف قائمة، ولكن الدور الذي تضطلع به في حياة المجتمع سيتضاءل باستمرار، فاسحاً الطريق أمام التسويق الإلكتروني والتجارة الإلكترونية التي تزول فيها الحدود تدريجًا بين التجارة الداخلية والخارجية.

ومن المرجَّح أن يتم في الاقتصاد الجديد، الذي يسميه البعض «اقتصاد الشبكات»، النفاذ (أي الوصول) إلى الملكية، المادية والفكرية على حد سواء، بوساطة الأعمال التجارية فضلاً عن المقايضة. غير أن ملكية رأس المال المادي، التي كانت محور نمط الاقتصاد الصناعي، تصبح أكثر

فأكثر هامشية في النشاط الاقتصادي. وثمة ميل متزايد لدى الشركات للاستعاضة عن امتلاك رأس المال المادي باستئجاره. ومن جهة أخرى يعتبر رأس المال المعرفي (الفكري) القوة الرئيسة المحرِّكة للاقتصاد الجديد. وتعتبر الأفكار الجديدة والابتكارات وليس السلع المادية هي التي تعكس القيمة والقوة الحقيقية للشركة. فالثروة لم تعد تتجسَّد بما تملكه الشركة، بل وحتى الدولة، من سلع وخدمات، بقدر ما تتجسَّد بما تملكه من رأسمال معرفي. ويجدر بالإشارة هنا إلى أن رأس المال المعرفي هذا نادراً ما تتم مقايضته أو بيعه. بل إن من يملكه يتمسك به بقوة، مكتفياً بمنح الآخرين (أي العملاء أو الزبائن أو طالبي الخدمة) حق استخدامه أو الترخيص بالاستفادة منه لفترة معينة يتم الاتفاق عليها.

وتسير الأعمال التجارية اليوم بخطى حثيثة باتجاه التحول من الملكية إلى النفاذ، فتقوم الشركات بتصفية ممتلكاتها وتقليص مستودعاتها وتأجير معداتها، وتتعاقد مع الآخرين لتشغيل أعمالها، ساعية للتخلص من أنواع الملكيات المادية شتى التي ترى أنها تعيق حركتها وتجمد رؤوس أموال كبيرة. فلم تعد هناك حاجة كبيرة بالنسبة إلى الشركات اليوم لامتلاك الكثير من الملكيات المادية. فهذا يشكل عائقاً كبيراً أمام التطلع لمواكبة متطلبات اقتصاد العصر الجديد الذي يتسم بسرعة التقدم والتحولات بوتيرة لا مثيل لها.

وبدلاً من مصطلحي «البائعين» و«المشترين»، صار الحديث يجري بصورة متزايدة اليوم عن «المزودين» و«المستخدمين». ففي اقتصاد المعرفة، بدأت صفقات السوق تتنحَّى لصالح التحالفات الاستراتيجية والمصادر المشتركة واتفاقيات تقاسم الأرباح. وثمة شركات عديدة اليوم لم تعد تبيع الأشياء بعضها لبعض، بل إنها تتجمَّع وتتقاسم مواردها الجماعية، الأمر الذي ينجم عنه شبكات مزودين ومستخدمين كبيرة الأحجام تتشارك في إدارة أعمالها (تتجسَّد هذه الظاهرة في حالات الاندماج والابتلاع التي تشهدها قطاعات عديدة). كل ذلك يؤدي إلى تركيز للقوة الاقتصادية في أيدي عدد محدود من الشركات العالمية الكبرى، التي يشمل نطاق عمل الواحدة منها مجالات النشاط الاقتصادي شتى. وفي اقتصاد المعرفة يمارس الكبار الذين يراكمون رأس المال المعرفي، السيطرة المتزايدة على الظروف والشروط التي يستطيع المستخدمون عن طريقها النفاذ (أي الوصول) إلى المعرفة المتجسِّدة في الابتكارات الحديثة والخبرات المهمة.

وتشكِّل شركة «مايكروسوفت» أبرز مثال على هذا النوع من الشركات العملاقة المهيمنة على عالم البرمجيات وكل ما له علاقة بها.

ولا يعتمد النجاح التجاري في اقتصاد المعرفة على مقايضة السلع في الأسواق الفردية، بل يعتمد أكثر وبصورة متزايدة على إقامة علاقات تجارية طويلة الأمد. ومن الأمثلة على ذلك، العلاقة المتغيِّرة بين السلع والخدمات التي ترافقها. فبينما كان التركيز في معظم فترات العصر الصناعي يتم على بيع السلع وما يرافقها من ضمانات الخدمة المجانية للمنتج بوصفها حافزاً للمشتري، فإن العلاقة اليوم بين السلع والخدمات المرافقة لها أصبحت معكوسة. فثمة عدد متزايد اليوم من الشركات التي تتيح منتجاتها مجاناً على أمل الدخول في علاقات الخدمة الطويلة الأمد مع العملاء، أي إن هذه الشركات تقدم منتجاتها بالمجان بهدف جذب العملاء، ثم تفرض عليهم رسوماً مقابل إدارتها لاستخدام هذه المنتجات وتطويرها وتقديم أي خدمات أخرى. فعندما طرحت شركة «موتورولا» هاتفها النقال «مايكرو تاك» العام ١٩٨٩ في الأسواق حدَّدت سعر التجزئة للجهاز الواحد بنحو ٢٥٠٠دولار. وبعد خمس سنوات انخفض سعر الجهاز نفسه إلى ١٠٠دولار فقط. واليوم غالباً ما تقدم شركات الهواتف النقالة الجهاز مجاناً للمشتركين الجدد كإغراء لاستخدام خدمات اتصالاتها.

والملاحظ أن هذه الظاهرة، أي تقديم المنتجات بالمجان، تنتشر بصورة خاصة وتكتسب زخماً قوياً في صناعة المعلومات، أي القطاع الأكثر التصاقاً باقتصاد المعرفة، حيث تقوم شركات البرمجيات من أمثال «مايكروسوفت» و«نتسكيب» وغيرها بتقديم برامجها لاستعراض الشبكة بالمجان. وهي تستفيد من خاصية الاقتصاد الجديد حيث تكون كلفة إنتاج أي برنامج إضافي وتوزيعه تقترب من الصفر. وفي الوقت نفسه إذا نجحت الشركة في إقناع ما يكفي من المستخدمين النهائيين بالانتقال إلى استخدام برامجها، فإنها تستطيع بيع تحديثاتها وتطويراتها وخدماتها للعملاء مقابل هامش من الربح.

ويعد تقديم البرامج المجانية استراتيجية فعَّالة لشركات تقنية المعلومات. وذلك لأنه كلما زاد عدد الناس الموصولين معاً عبر شبكة برنامج الشركة، كلما زادت الفوائد لكل واحد من المشتركين وأصبحت خدمات الشركة أكثر أهمية وأكبر قيمة. وتعرف هذه الظاهرة في صناعة تقنية المعلومات باسم «تأثير الشبكة». فكلما كبرت الشبكة زادت

الوصـــلات وأصبحت الشبكـــة أكثر أهمية وقيمة لأولئك الذي هم جزء منها.

٤-٢ الملكية وتضاؤل دورة حياة المنتج:

من أبرز ميزات اقتصاد المعرفة أنه يحث علـــى التسارع الكبير في الابتكارات التقنية. ونظـــراً إلى أن العمليات الإنتاجية والأجهزة والسلـــع والخدمات تتقادم بسرعة في البيئة ذات الوسط الإلكتروني، فإن الملكية الطويلة الأمد تصبـــح أقل قبولاً، فيما يصبح النفاذ القصير الأمد (أي الحصول على السلعة أو الخدمة لفترة قصيرة) خياراً أكثر تفصيلاً.

إن دورة حياة المنتَـــج (السلعة) تتضاءل باستمـــرار في كل الصناعات. فقد احتاجت شركـــة «كرايزلـــر» في أواخـــر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي إلى ٥٤ شهـــراً و ٣١٠٠ عامل لتطوير سيارة جديدة وصناعتهـــا. وبعـــد سنوات قليلـــة، طوَّرت الشركة نموذجاً جديداً في غضون ٣٣ شهراً وبجهـــود ٧٠٠عامل فقط. والعام ٢٠٠٠كان بوســـع قســـم البحث والتطويـــر في الشركة أن ينتـــج سيارة جديـــدة في أقل من عامين. ويتوقَّـــع صانعو السيارات أنه خلال أقل من عقد من الزمـــن سوف يكونون قادرين على تصميم سيـــارة بحسب الطلـــب خالية من العيوب في غضون أيام قليلة.

وبالنسبة إلى المنتجات الإلكتروميكانيكية، كالطابعـــات والمفاتيح الكهربائيـــة وأجهزة القيـــادة الفرعية الآلية، فقـــد جرت العادة أن تبقى في السوق طـــوال عقد من الزمن. أمـــا الأجيال الحديثة منهـــا فمتوسط فترة حياتهـــا الآن يُراوح بين ٣ و٥سنوات قبل أن يتم طرح طرازات ونمـــاذج جديدة منها في الأسواق. أما محطات العمل التي كانت تظل في الأســـواق عقداً أو أكثر، فإن فترة حياتها الآن تقل عن سنتين.

ويبلـــغ متوســـط دورة حيـــاة المنتجات الاستهلاكية لشركات الإلكترونيات اليابانية اليوم نحو ثلاثة أشهـــر. والبقاء في صدارة المنافسة غالباً مـــا يعني أن تتنافس الشركة مـــع نفسها! فعلى سبيـــل المثال، تعمل شركة «إنتل» على تطوير ثلاثة أجيال من الرقاقات الحاسوبيـــة في آن واحد. ففي الوقت الذي مـــا تزال فيه إحدى الرقاقـــات قيد الإنتاج والبيع في السوق، يتـــم تجهيز الجيل الثاني منها لإدخاله مرحلة الإنتاج، في حين يعكف قسم البحـــث والتطوير على تصميم الجيل الثالث من الرقاقـــة نفسها. وتحذو شركات أخرى حذو شركة «إنتل»، فتعمل على تخفيض فترات تطوير منتجاتها وإنتاج أجيال جديدة منها وبوتـــيرة سريعة. فصار المـــرء لا يكاد يشـــتري، مثـــلاً، جهاز كمبيوتـــر من أحدث طـــراز حتى يصبح قديماً بالمقارنة مع جهاز

أكثر حداثة بعد بضعة أشهر. والأمر نفسه ينطبق على أجهزة الهاتف النقَّال وعلى الكثير من السلع الإلكترونية.

وهكذا، صار بالإمكان القول «إن اقتصادات السرعة تحل مكان اقتصادات الحجم» في سوق المنافسة الجديدة. فنجاح الشركة في دخول السوق قبل غيرها يمكِّنها من تحديد الأسعار العالية والحصول على هوامش الربح، بل إن البقاء في صدارة المنافسة لأشهر قليلة فقط يعني الكثير جداً بالنسبة إلى الشركة، إنه بمنزلة الفارق بين النجاح والفشل. فكلما زادت سرعة طرح السلعة في السوق، طال عمر هذه السلعة. وعن طريق خفض فترة البحث والتطوير، تطيل الشركة فترة بقاء السلعة في السوق، الأمر الذي يسمح للشركة بأن تسترد استثمارها بسرعة وأن تحقق الربح الكافي قبل أن تصبح السلعة قديمة.

ولا شك في أن تضاؤل دورة حياة المنتج يقابله تناقص الاهتمام به من جهة المستهلك. فمع وجود الآلاف من المنتجات الجديدة المتدفِّقة إلى السوق بوتيرة متسارعة، من الطبيعي أن نتوقع تضاؤل اهتمام المستهلك أيضاً. إن الفترة بين الرغبة والرضى تتضاءل بسرعة مع تزايد توقعات المستهلك بقرب طرح مجموعة أكبر من المنتجات والخدمات. واليوم، لا يكاد يجد المستهلكون الوقت الكافي لتجربة تقنيات أو منتجات أو خدمات جديدة، قبل أن تصبح الأجيال الأكثر تطوراً منها متوافرة في السوق. وفي بيئة إنتاجية وتجارية فائقة السرعة مثل هذه، تبدو فكرة الملكية الصرفة بالمفهوم التقليدي في غير محلها. فما الحكمة من امتلاك سلعة ستصبح قديمة حتى قبل أن يتم دفع ثمنها بالكامل؟!! في مثل هذه الظروف يصبح النفاذ القصير الأمد إلى السلع والخدمات على شكل استئجار وعقود استخدام بديلاً أكثر جاذبية من الشراء والامتلاك.

إن هذه الظاهرة، أي قصر وقت العملية الإنتاجية ودورة حياة السلعة فضلاً عن تزايد تكاليف البحث والتطوير والمتعلقة بالمنتجات التقنية الفائقة التطور والتعقيد وكذلك تكاليف التسويق الإضافية، تدفع بدورها إلى ما أشرنا إليه سابقاً، أي إلى تقارب الشركات واندماج بعضها أحياناً، بهدف المشاركة في المعلومات الإستراتيجية وتجميع الموارد والمشاركة في التكاليف بوصفها طريقة للبقاء متصدرة في السوق ولضمان مواجهة الخسائر المحتملة في الاقتصاد الجديد المتقلب والمتسارع الوتيرة. كل ذلك من أجل ضمان البقاء في حلبة المنافسة المحتدمة.

٤-٣ من الملكية إلى الاستئجار:

مـن كل ما تقدم يمكن القول إنه في ظل اقتصاد المعرفة، من المرجَّح أن تصبح فكرة الملكيـة الخالصة خلال فترة ليست ببعيدة، بحكـم خصوصيتها وطبيعتهـا المحافظة، فكرة قديمة بطيئة التكيُّف مع ثقافة السرعة الفائقة التي يتسم بهـا الاقتصاد الجديد. فسرعة الابتكار والتقدم المذهل في النشاط الاقتصادي، ودورات حيـاة المنتج المتزايدة القصر، يؤدي إلى تضـاؤل معنى الامتلاك والحيازة والمراكمـة. ولذا، ثمة ميل متزايد اليـوم للانتقال من نظـام الامتلاك القائم على فكرة الملكيـة بمفهومها التقليدي، إلى نظام النفـاذ Access القائـم على فكرة الاستخدام.

فثمة عدد كبير من الشركات التي تسعى اليـوم لتجنـب مراكمة رأس المـال المادي. وذلـك انطلاقاً من فكـرة أن الملكية المادية الكبيرة الحجم تعيق حركة الشركة وقدرتها على التكيُّف مـع متطلبات السوق العصرية وتقلباتها، وإمكان الانتقال بسلاسة من خط إنتاجـي إلى آخر. وهي تتبـع هذه السياسة تحت شعار: «استخدمه من دون أن تملكه».

وهكذا، فإن العديد من هذه الشركات لم يعد يهتم بشراء معدات وتجهيزات رأسمالية. بل يعمد بدلاً من ذلك إلى اقتراض رأس المال الذي يحتاجه على شكل عقد إيجار، ويجري تسجيل بدل الإيجار على أنه نفقات قصيرة الأجل، أي تكلفة القيام بالأعمال التجارية. ويـؤدي ذلـك إلى تخفيض بنـد التكاليف الاستثمارية في المؤسسة. وعلى سبيل المثال، فإن ثلث مجمل الآلات والتجهيزات وأساطيل النقل والمواصلات، هي اليوم مؤجَّرة بدلاً من أن تكون مملوكة. وهـذا يعني أنه من أصل ما قيمتـه ٥٨٢,١مليار دولار من الاستثمار في الأجهزة والمعدات في أواخر التسعينيات، كان مـا يقارب ١٨٠مليـار دولار على شكل عقود تأجير محـدودة الأجل. ومن البدهي أن تكـون هذه الظاهرة قـد ازدادت خلال السنوات الأخيرة.

ولا يـكاد يخلو أي نوع مـن أنواع رأس المـال التجاري مـن التأجير، بمـا في ذلك المعدات الصناعية والمكتبية، ومعدات النقل والمواصـلات، والعقـارات، وأدوات الآلات، والمنتجـات الإلكترونيـة ومعـدات الرقابة والسيطـرة، ومعـدات الإنشـاء، والمصانع، والمساحـات المكتبيـة، ومحـلات البيـع بالتجزئـة، وسيـارات الشحـن والطائرات والناقلات والسيـارات، وخطوط الأنابيب، وأجهزة الحاسوب والطابعات.. وحتى أبقار الحليب! وغالبـاً ما يكون المؤجـر مسؤولاً عن الصيانـة، وفي بعض الأحيـان يتحمَّل

مسؤوليـــة إدارة الأجهـــزة والمعدات وكذلك المرافـــق. وعلـــى هذا النحـــو، تصبح شركة التأجير بمنزلة شركة لإدارة الأصول الثابتة، فضلاً عن كونها شركة تمويل.

المراجـــــع

١- د.سعد مرزوق العتيبي: إدارة المعرفة ٢٠٠٨م.
٢- محمد دياب: اقتصاد المعرفة أين نحن منه، مجلة العربي عدد أيار ٢٠٠٤م.
٣- د.حسن مظفر الرزو: اقتصاد المعلومات وإدارة المعرفة - أحوال المعرفة مارس ٢٠٠٤م.
٤- د.نبيـــل علي ود.نادية حجازي، «الفجوة الرقميـــة، رؤية عربية لمجتمع المعرفة»، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣١٨، الكويت ٢٠٠٥.
٥- د.نجـــم عبود نجم، «إدارة المعرفة، المفاهيم والاستراتيجيات والعمليـــات»، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٥م.
٦- د.محمد دياب: اقتصاد المعرفة حقبة جديدة نوعياً في مسار التطور الاقتصادي - معهد الميثاق ٢٠٠٩م.
٧- د.محمـــد سعيد الحلبي: نحو تطبيق إدارة المعرفة في التنمية البشرية، المؤتمر الثاني لجمعية مكتبات بلاد الشام - دمشق ٢٠٠٨م.
٨- تقريـــر التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٣، «نحو إقامة مجتمع المعرفة»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، عمان ٢٠٠٣م.

الولايات المتحدة والاختراق المجتمعي

غسان حيدر

وسائل وآليات المواجهة في الداخل وعلى الساحة الأمريكية

تعمل الولايات المتحدة على إعادة ترتيب المجتمعات في الكثير من الدول وخاصة في الجنوب والتفاعلات داخلها، هذا من منظور سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي تحت حجج مختلفة من أبرزها دعم مطالب الديمقراطية وحقوق الإنسان والإصلاحات.

الهدف هنا واضح محدد وهو فرض فهم وأنماط سلوك أمريكية خصوصا وغربية عموما، وإنجاز عملية اختراق وتذويب وإعادة ترتيب

باحث ودبلوماسي سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

المنظومات والعقائد والانتماءات (الهوية) وتشويه الخيارات المستقلة، أمّا الوسائل والآليات فكثيرة من أبرزها دعم مؤسسات المجتمع المدني والترويج للديمقراطية ولحقوق الإنسان.

ولكي يتحقق ذلك لا بدّ من إفساح الطريق واسعا أمام منظمات المجتمع المدني للتأثير على التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى البشرية، هذا على حساب مصادرة صلاحيات الحكومات لصالح هذه المنظمات والقطاع الخاص الذي ينبغي أن يتحرك وفق أسس ومواصفات تحددها الولايات المتحدة.

الاختراق وتهميش الانتماء للهوية سبيل للاحتواء

هكذا تأتي الدعوة إلى ما يسمّى بالاعتماد المتبادل بين الديمقراطية والتنمية تحقيقا للحكم الرشيد، ذلك لأنّ الديمقراطية بكل تجلياتها الأمريكية وسيلة للاختراق والهيمنة على المجتمعات وانتزاع مبادرة الفعل في الأقطار المستهدفة وتفكيك نظمها الوطنية كي تكون تابعة بوجودها وما تؤديه من وظائف لصالح الولايات المتحدة الطامحة إلى فرض سيطرتها على العالم والجنوب على درجة الخصوص. (العمّار، ٢٠٠٣: ٢٦)

لنتمعن على مكث في مقولة الرئيس الأمريكي (جورج بوش) في ظهوره اليومي أمام التلفزة للإعراب عن تصميمه على مواصلة الحملة حتى يتحقق النصر الحاسم حسب زعمه: «نحن لن نتراجع عن مسؤوليتنا لإعادة تشكيل العالم ورسم التفاعلات فيه حتى لا نكون تحت رحمة الآخرين» (شنيو، ٢٠٠٣: ١٤١-١٤٥)

هذا الإصرار الأمريكي على التدخل في شؤون الدول بدعوى إعادة هيكلة أوضاعها تحقيقا وتجسيدا لمقولة الحكم الرشيد تنكر على المجتمعات خصوصيتها وتخضعها لنزعة هادفة لغرض الهيمنة عبر الآتي:

❁ فرض ما يسمى بالليبرالية السياسية وما يتبعها من انفتاح يسمح للجماعات ولقوى اجتماعية واقتصادية من اختراق للمنظومة السياسية والهيمنة عليها من خلال توليد حركات وأحزاب وجماعات تنضوي تحت راية الولاء للولايات المتحدة.

❁ فرض نماذج قيمية تصلح كإطار يسهّل عملية الاختراق بما يسمح من الإمساك بأساليب الأداء الداخلي سياسيا من خلال ترسيخ النموذج الليبرالي، واقتصاديا حيث الترويج لليبرالية الاقتصادية اقتصاد السوق والخصخصة وإعطاء شأن أكبر بل أوحد لصالح القطاع الخاص.

ماذا يعني قول (كوندليزا رايس) في محاضرة ألقتها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة أثناء جولتها الأخيرة للمنطقة: «إنّ عقيدة النظام السياسي للدول وأدواته وأساليبه لم تعد شأنا داخليا بل أصبح تداولها من صميم السلطان الدولي أو المسؤولية الأمريكية»؟ (صحيفة الأسبوع العربي،٢٠٠٧)

❁ الاختزال المقصود للهوية الوطنية، هذا الاختزال بدا سببا في تعرض هذه الدول للتفكك خاصة في ظلّ ازدحامها بالتنوعات السياسية والاجتماعية والثقافية إضافة إلى العرقية والطائفية.

فزرع الاختلالات عن طريق توليد منظمات وحركات سياسية أو اجتماعية أو ثقافية مدعومة أمريكيا يجعل أي مجتمع يوجه إليه سلاح الليبرالية الأمريكية متخم بالأزمات والصراعات.

❁ التعمد للنيل من قدرات وإمكانيات الدولة ومن مناعتها الأمنية عن طريق توظيف أنشطة وفعاليات هذه المنظمات والحركات والقوى المتولدة عن زرع أمريكي.

❁ إحداث الإرباك والاضطراب الداخلي عن طريق فرض تعددية الولاء للخارج سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ممّا يسهّل عملية تفكيك الدول كمؤسسة وما يتبع ذلك من آثار صعود النخب الليبرالية وسيطرتها على المسرح السياسي.

ولنا في الساحة اللبنانية وما تشهده من

اضطراب وتفكك خير شاهد على خطورة الاختراقات عبر الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني وجمعيات رجال الأعمال.

هكذا تبدو الليبرالية نسقا من الأفعال والإجراءات الهادفة لاحتكار التأثير في الغير وتطويع أفعاله ومطامحه لصالح الولايات المتحدة ومطامح الهيمنة حتى ولو استدعى تعريب الغير، وهنا لا يخطئ من يظنّ أنّ الليبرالية الأمريكية تسعى بالنتيجة إلى استلاب كينونة الدول والمجتمعات وتدمير الحدود المجتمعية الفاصلة بينها بحجة تكثيف الاعتماد المتبادل لصالح إجبارها على تبني نموذج محدد من نمط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

تطبيقات على الساحة المصرية

نعود ونؤكد أنّ المطالب الإصلاحية التي تعمل الولايات المتحدة على فرضها أو التكيّف الإذعاني والاضطراري معها ليس بهدف إشاعة الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية الرأي بل خلق مقدّمات لتفكيك الدول المستهدفة عن طريق الترويج للنموذج الليبرالي الفكري والسياسي والاقتصادي.

وعلى أساس ذلك عملت أيضا على إنضاج وتوليد جماعات ومنظمات في «مطبخ الاختراق الأمريكي للمجتمعات» سياسية واجتماعية وثقافية وحتى اقتصادية لتشكّل نخبا معولمة أو مأمركة. (صحيفة العربي الناصرية، ٢٠٠٤)

- منظمات حقوق الإنسان التي انتشرت في الساحة المصرية ليس لغرض حماية حقوق الإنسان، الولايات المتحدة ليست أمينة على حقوق الإنسان بل إنّ مقتضيات حماية الإنسان تستدعي تشكيل منظمات لحماية وجود الإنسان الذي يباد في العراق وفي أفغانستان وفي فلسطين وفي بقاع أخرى من العالم.

في هذا السياق يشير أستاذ القانون الدولي ذيب عكاوي الذي عاش ردحا من الزمن في الولايات المتحدة إلى أنّ الإنسان في الولايات المتحدة لا يجد الحماية ولحقوقه فهي تنتهك بشكل تعسفي جائر لا مثيل له في أي بلد من العالم وحتى في الدول الدكتاتورية.

ويمضي قائلا: (عكاوي،٢٠٠٥: ٧٠-٧٤) «إنّ الولايات المتحدة تقيم وتشكل منظمات وجمعيات حقوق الإنسان في الدول التي يراد اختراقها من أجل توظيفها لأداء أدوار لصالحها بدليل أنّها تغدق الأموال والدعم السياسي والمعنوي».

وانتهى إلى لفت النظر إلى أنّ منظمات

حقوق الإنسان في إسرائيل تعدّ أكبر نصير وظهير لسياسة الإبادة والتطهير العرقي ضدّ الفلسطينيين (صحيفة الراية،٢٠٠٧).

ومن المهم أن نشير إلى أنّ أكثر من[١٠] منظمات وجمعيات لحماية حقوق الإنسان يديرها أشخاص مشكوك في ولائهم الوطني بل كرّسوا أنفسهم لخدمة السياسة الأمريكية مقابل أجر، وقد تورّط من كانوا يحسبون على التيار اليساري في تشكيل وتفعيل هذه المنظمات.

مهام ووظائف هذه المنظمات لا تتأسس على قيم أخلاقية وإنّما لخدمة سياسة الولايات المتحدة والدليل أنّ هذه المنظمات مثل المنظمة المصرية لحقوق الإنسان والمنظمة العربية لحقوق الإنسان لا تتدخل إذا ما تعرّض مواطن مصري لقمع أو اضطهاد وكان خارج دائرة التبعية للولايات المتحدة ومجنّدا لخدمة مصالحها.

يذكر الأستاذ عبد الله السناوي رئيس تحرير صحيفة العربي في لقاء تلفزيوني أنّ السفير الأمريكي في القاهرة أقدم على تقديم مبالغ ضخمة وشيكات قيمة كل واحد مليون دولار لكبار العاملين في منظمات حقوق الإنسان وقيادات من حركة كفاية وشخصيات إعلامية.(مقابلة تلفزيونية،٢٠٠٧)

- هناك أيضا جهود لتأسيس منتديات ومنظمات ممّن تندرج في إطار منظمات المجتمع المدني:

❁ منتدى رجال الإعلام (المستقلين) صحفيين وكتّاب وعاملين في وسائل الإعلام يجري إعدادهم في دورات داخل الولايات المتحدة وفي مصر من أجل تسويق الولايات المتحدة للرأي العام المصري.

ويعترف المدعو حسن السراج أحد الذين جرى تأهيلهم في الولايات المتحدة ويعمل في مجلة أكتوبر أنّ هؤلاء الصحفيين دعوا إلى تشكيل إطار إعلامي منافس لنقابة الصحفيين المصريين يسهر على «تجميل وجه الولايات المتحدة والإساءة للرموز الوطنية».

❁ **منتديات فكرية:** مراكز بحوث ورشات على غرار مركز بن خلدون الذي يترأسه الدكتور سعد الدين إبراهيم للترويج للثقافة الأمريكية والهدف من هذه المنتديات التي تشكّل في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي العمل على صناعة منهجية لغسل الأدمغة وتسويغ الأفكار الأمريكية وتسييد الثقافة الأمريكية على الثقافة الوطنية.

والغرض من دعم المنتديات الإعلامية والثقافية عبر الترويج للبرامج وللأفكار والقيم الأمريكية وتسويقها للمجتمع المصري

هــو التلاعب بالعقول ثــمّ الاختراق المنظّم للبناء المعنــوي والمادي المصــري، أدّى هذا بالتالي خلق مناخات تؤدي إلى التوترات وزرع العنف وتغذية التناقضات في المصالح التي تتجهــا مرتكزات الوجود الأمريكي المتمثلة فيما يسمّى بمنظمات المجتمع المدني.

❁ منتديات أو جماعات اقتصادية:

في نطــاق الترويــج للديمقراطيــة حســب المواصفات الأمريكية نلاحظ تداولها مجرد فعل شكلي مرتبط بجانبه السياسي والمدني إفراغ الديمقراطية من محتواها الاقتصادي، فالحــدود التي يضعهــا الليبراليــون على تدخل الدولة لتضييق الهوامش والفروقات الاقتصاديــة بــين الأفراد تفــرغ مضامين الديمقراطية من هدفها الحقيقي.

هنا وعلى الساحة المصرية تمّ فرض نظام اقتصاد السوق وآلياتــه التنظيمية وخاصة عبر القطاع الخاص لينتج حالة من الاختلال أكــثر من٩٠٪ يعيشون إمّــا على الكفاف أو تحت خطّ الفقــر وحوالي٨٪ يستأثرون بكلّ المقومــات الاقتصادية.(صحيفــة العربــي الناصرية، ٢٠٠٤)

وقد عملت الولايات المتحدة على تنظيم رجال الأعمــال في منتــدى اقتصادي عبر إقامة المجلــس المصــري الأمريكي لرجال الأعمــال ليكون مدخلا لإحــكام السيطرة على آليات التفاعل الاقتصادي والاجتماعي وحتــى السياسي بعــد أن حرصت الولايات المتحــدة على تشجيع هــؤلاء للانخراط في العمليــة السياسية للعــب دور أكثر فاعلية لصالحها على الساحة المصرية هذا في إطار رسم خارطــة التفاعل في هذه الساحة وفق المسعــى لإعادة هيكلة الأوضــاع الداخلية، فالتهميش الاقتصــادي للسواد الأعظم من المصريــين أدّى إلى تعاظم شأن طبقة رجال الأعمال لصالح التحكم بالهيكل الاقتصادي والاجتماعــي، والمتتبــع المختصــ في هذا المجــال لا يسعه إلا أن يلاحظ تجليات هذا التهميش تزايد معــدلات البطالة وتضخم المشاكل الداخلية الاجتماعية والنفسية.

ونظــرا لشــدّة التأثــير والنفــوذ الذي يلعبــه رجال الأعمال وخاصة ممّن تداخلت مصالحهــم وترابطــت مع مصالــح الغرب عمومــا وأمريكا خصوصــا فقد تبوأ هؤلاء مواقع الصدارة بفضل الدعم المالي والمعنوي الأمريكي: (عيسى،٢٠٠٦)

❁ زيــادة حجمهم داخل مجلس الشعب وعلى الأخص في صفــوف الحزب الوطني الديمقراطي.

❁ احتواء القوى الوطنية وتهميشها بل وإقصاؤها كما حدث في الانتخابات الأخيرة لــكلّ من الحزب الناصــري وحزب التجمع

وأحزاب أخرى.

❁ تطبيق سياسة الاحتواء الاقتصادي والاجتماعي من خلال تمكين رجال الأعمال من التحكم بمجريات الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ولو وضعنا النتيجة أعلاه محلّ تقييم لوجدنا أنّ الولايات المتحدة نجحت عبر تدخلاتها في التحكم في مفاصل الحياة موظفة ومستخدمة الأطر والمنظمات والمنتديات والمجالس التي أقامتها لتشكل بالتالي ركيزة الاختراق.

طرائق ووسائل المواجهة تداعيات الاختراق

لا محيص عن التحرك للاحتواء أو التقليل من تأثيرات وتداعيات الجهود الأمريكية لاختراق المجتمعات وتهديد استقرارها ونسيجها الاجتماعي وقطع الطريق أمام أي انكشاف أمني أو اجتماعي أو ثقافي، لو أجرينا جردة متواضعة لأهداف الاختراق المجتمعي بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية لتبيّنا الآتي: (الفالح، ٢٠٠٦)

• زعزعة البناء السياسي في الدول العربية.

• إصرار الولايات المتحدة على فرض قيمها وأنماطها على الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية.

• إفساح المجال أمام سيطرة ثقافات وقيم غربية والذي يسوّغ تأثيره بإحياء المجتمع المدني أو تبني نموذج ديمقراطي وفقا لمحدداته الأمريكية ممّا يفقد القدرة على الضبط السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

وهنا تأتي الحاجة إلى تبني منظومة من الردود لتشكّل بالتالي نوعا من المناعة والحصانة ضد الفيروس الأمريكي الذي يراد زرعه داخل المجتمعات لإحداث الاضطراب.

- توليد بنيان سياسي واقتصادي داخلي متعدد الجوانب والعناصر يسهم في تعزيز الاعتداد بالهوية والانتماء للوطن عن طريق زيادة فسحة المشاركة في العمل السياسي والثقافي والاجتماعي، توسيع المشاركة هنا لا يعني بأي حال من الأحوال تبني القيم الأمريكية بشأن التعددية السياسية والمشاركة المحكومة من قبل تدخلات خارجية ووفقا لمحددات الإصلاحات الأمريكية.

- العمل على ترصين الوحدة الوطنية على قاعدة من الاحترام والفهم والتكامل التي تفرضها المصلحة العامة لتطويق أية محاولة للاختراق.

- توظيف القدرات المالية المتأتية من زيادة عائدات النفط لصالح بناء نموذج تنموي خاص يحقق الرفاهية للمجتمع بعيدا عن المؤثرات الخارجية، هذا يعني أن تنطلق عملية التنمية من الاحتياطيات الداخلية بدلا من إخضاع التنمية الداخلية لما يعرضه النظام الأمريكي والغربي عموما في أنماط الهيمنة.

- تحقيق نوع من المقاربة المتخصصة بين الدولة والمؤسسات الدولية السياسية (المجتمع الدولي) والتكتلات الاقتصادية للتوصل إلى حالة من التفاهم والاتفاق ولو بالحدّ الأدنى.

لا بدّ من إثارة الانتباه إلى الضرر الكامن وراء الاختراق الإعلامي للمجتمعات إمّا بشكل مباشر عبر خلق واجهات إعلامية تعمل لصالح الولايات المتحدة كما هو الحال في مصر والأردن ولبنان والعراق، وهنا تقتضي دواعي المواجهة تفعيل المنظومات الإعلامية عن طريق رفدها بالكفاءات الوطنية المشهود لها بالنزاهة والتجرد والصدق، وهذا أيضا ينسحب على مضمون الخطاب الإعلامي الذي يحتاج إلى إعادة صياغة حتى يرتقي إلى مصاف القدرة على التصدي والمواجهة باعتماد المنطق والمنهجية والعقلانية.

- نقض شروط التبعية السياسية للولايات المتحدة: لا بدّ من تضييق التناقضات الداخلية عن طريق مزيد من الانفتاح على الداخل والعمل على فك الارتباط بين القوى والشخصيات والتيارات التي تعيش في المنفى والقوى الدولية خاصة الولايات المتحدة وتبدو مسوغات هذا المطلب ضرورية وواجبة التأمل والتفكير لقطع الطريق على أية محاولات لاستخدام هذه القوى في إحداث الاضطراب الداخلي وتسميم العلاقات مع الخارج.

لا بد من التركيز على خطورة التوظيف الخارجي لبعض القوى التي تعيش في المنفى وخاصة الحالة العراقية وما جرّه ذلك من كوارث وصراعات وحرب أهلية طاحنة تأتي على الأخضر واليابس، وقد يتطلب ذلك إجراء مصالحة مع القوى والشخصيات التي تنحاز للوطن وللهوية والانتماء.

احتواء زخم التدافع الأمريكي على الساحة الأمريكية،

الوسائل المقترحة

لمواجهة الجهود والسياسات الأمريكية لاختراق المجتمعات العربية لا ينبغي أن تقتصر وسائل وآليات هذه المواجهة على الداخل بل من الهام نقلها إلى داخل الساحة الأمريكية باعتماد طرائق ووسائل تعتمد منهج الحوار والمنطق والتأثير لإحداث

التفاعل المطلوب، هذا عبر العديد من الوسائل والآليات التي يمكن تصورها على النحو التالي:

١- تشكيل لوبي (سياسي اقتصادي إعلامي) داخل الولايات المتحدة لكشف التناقض الحاد بين ما تروّج له الولايات المتحدة من شعارات عن الحرية والتعددية والإصلاحات وحقوق الإنسان وبين الممارسات على الأرض مثل انتهاك حقوق الإنسان في الكثير من الدول، وتعزيز هذا اللوبي بتوفير الوثائق والبراهين العملية عن هذه الممارسات في العراق وفي فلسطين وفي دول أخرى.

مثل هذا اللوبي يجب دعمه بكلّ الوسائل ليشكّل مرجعية تسهّل عملية التفاعل على الساحة الأمريكية وخاصة الرأي العام ومنظمات المجتمع المدني.

ومن المهم أن ينطلق عمل مثل هذه الجماعة من ضرورة التأكيد على أنّ الدول العربية أو الدول الداعمة لهذه الجماعة تنشد الحوار والتسامح والانفتاح والشراكة الندّية وليس شراكة الأنا وإقصاء الأنا الآخر.

ويمكن لهذه الجماعة أن تضمّ شخصيات سياسية داخل الكونغرس ومفكرين ممن تستأ مرهم النزعة الإنسانية والمناهضين للسياسة الأمريكية التسلطية مثل البروفيسور (جيفري كامب) وآخرين ينتشرون في وسائل الإعلام والجماعات ومنظمات المجتمع المدني ومناهضة الحرب.

ولعلّ تدني رصيد اليمين المحافظ الحاكم في البيت الأبيض إلى درجة مخيفة (٣٠٪) كما أظهرت الاستطلاعات الأخيرة يوفر مناخا صالحا للعمل في صفوف الأوساط السياسية أو الثقافية أو الإعلامية المناهضة لمبدأ استخدام القوة.

وليس بخاف أنّ هناك مؤسسات داخل الولايات المتحدة جاهزة للتعاطي مع هذا الخيار لأنّها أكثر قدرة من غيرها على قراءة الواقع الأمريكي بصورة متعمقة، هذا من خلال اعتماد خطة بعيدة الأمد تتحدد فيها آليات الفعل والمقاربة مع القوى الفاعلة سياسيا وثقافيا وإعلاميا واقتصاديا.

٢- بناء الثقة المتبادلة مع الجماعات والطبقات الاجتماعية الأمريكية وخاصة السود والجاليات الآسيوية والأفريقية المهمشة أصلا من خلال تشكيل جماعات إمّا تحت عناوين حقوق الإنسان أو جمعيات لمناهضة التمييز والتفرقة، ويمكن القول إنّ هناك تربة صالحة لعمل ونشاط هذه الجمعيات وقابلة للتأثير ثمّ التفاعل مع أي تحرك باتجاه تبني قضايا هذه الجاليات.

وقد تكون هناك حاجة ملحة إلى تخليق مؤسسات للإعانات والإغاثة الاجتماعية لصالح هذه الجاليات.

لا بدّ من خلق مشروع يقوم على أساس معادلة تقوم على التكافل والتضامن مع هذه المجموعات والجاليات المهمشة، وتتوافر الكثير من شروط النجاح والفعالية لمثل هذه الجهود على ضوء التراكمات من السخط والإحساس بالظلم والغبن والتهميش لدى سكان نيو أورليانز بعد أن ضربهم إعصار كاترينا في عقر دارهم وزاد من فداحة وفظاظة المأساة التي لحقت بهم إهمالهم من جانب الإدارة الأمريكية.

هذا المستودع من النقمة والاستياء والإحباط يشكّل مخزونا ضخما للاستثمار شريطة أن يكون التعاطي معه بلغة الفعل وليس لغة اللغط أي تقديم المساعدات الفنية والمادية وإظهار شعار التضامن مع مصابهم الذي أبرز عمق التهميش الذي يعانون منه.

٣- إفساح المجال أمام تأمين ركيزة إعلامية داخل الولايات المتحدة إمّا عبر استئجار مساحات من وسائل الإعلام الصحافة ومحطات التلفزة وحتى وسائل ترويج الثقافة أو توليد مثل هذه الوسائل من خلال مواطنين أمريكيين موثوق بهم.

فهذه الآلية قادرة على إبراز ثقافات الآخرين وطرح آرائهم ورؤاهم ومقارباتهم السياسية والاقتصادية والحضارية، ويمكننا الجزم بأنّ مثل هذه الآلية تختزن في أطوائها الفاعلية بل الحركية السياسية والاجتماعية والثقافية.

٤- مناصرة ودعم الجاليات العربية والإسلامية داخل الولايات المتحدة وتركز الجهد من أجل توحيد صفوفها ورصّ طاقاتها حتى تتمكن من أداء مهام ووظائف لصالح العالم العربي حتى تتحول إلى عمق استراتيجي داخل الولايات المتحدة مثلما نجحت المنظمات اليهودية في تحويل الساحة الأمريكية إلى عمق استراتيجي واقتصادي وسياسي وتكنولوجي ودعائي لإسرائيل.

منظمات للمجتمع المدني غير موظفة من قبل قوى دولية مهيمنة

للإنصاف يجب عدم تعميم اتهام العديد من قوى المجتمع المدني بالاستخدام من قبل قوى دولية وعلى الأخص من قبل الولايات المتحدة، إمّا في نطاق إنجاز عمليات اختراق مفصلية للمجتمعات المراد تجنيدها أو لخدمة أهداف سياسية وثقافية بهدف تهميش الهوية الوطنية، كما شاهدنا في الحالة المصرية، هناك منظمات المجتمع المدني تعمل خارج الاحتواء ولكن دورها غير

فاعل وغير مؤثر، وقد تبدى هذا الضعف والعجز في عدم قدرة هذه المنظمات في الولايات المتحدة وأوروبة على ردع الشهوة العدوانية للولايات المتحدة وكبح جماحها واندفاعها لاجتياح العراق.

ويقول الدكتور سعيد اللاوندي (اللاوندي،٢٠٠٦: ٢٣٥-٢٣٩): «إنّ منظمات المجتمع المدني حتى في أوروبة أو في الولايات المتحدة أو الدول التي تعرف بدول الديمقراطيات مازالت عاجزة عن إحداث تأثيرات أو تفاعلات على القرارات في بلادها أو على الرأي العام العالمي»، وأرجع ذلك إلى:

- دائرة تحركها ضيقة بحكم افتقادها إلى مكونات التأثير الشعبية ووسائل الإعلام المهيمن عليها من قبل جماعات الضغط أو الأنظمة.

- محدودية قابليتها على التحرك في الخارج.

وضرب أكثر من مثال على ذلك.

الأول: حركة مناهضي العولمة التي يقودها الفرنسي (جوزيه بوفيه)، هذه الحركة يتعرّض أعضاؤها للقمع كلما حاولت تنظيم مظاهرات احتجاج أثناء انعقاد مؤتمرات القمة للدول الصناعية الثمانية في ألمانيا وفي روسيا وفي الولايات المتحدة.

الثاني: بعض منظمات المجتمع المدني الأوروبية المحتجة والمناهضة لسياسة القمع الإسرائيلية والاستيطان والممارسات اللاإنسانية ضدّ الفلسطينيين، أفراد هذه المنظمات يتعرضون للاعتقال والإبعاد والمنع كلما حاولوا تنظيم مسيرة احتجاج ضد هذه الممارسات.

وقارن بين منظمات المجتمع المدني الموظفة من قبل الولايات المتحدة وتأثيرها على قرارات المجتمع الدولي وعلى الأخص إزاء السودان على خلفية قضية دارفور، وجنوب السودان ولبنان بينما التزمت الصمت إزاء الممارسات الإثيوبية في الصومال والفظائع الأمريكية في العراق.

وبالطبع، فإن هذه الفاعلية التي تبديها مثل هذه المنظمات الموظفة تستمدّ من زخم الدعم الأمريكي.

يبقى أن نشير إلى أن منظمات المجتمع المدني في الأقطار العربية المستقلة والبعيدة عن كونها واجهات للأنظمة أو قوى خارجية تفتقد هي الأخرى الفاعلية بحكم أوضاع وظروف موضوعية، والدليل هذا العجز عن التحرك لمواجهة كوارث أحاقت بالوطن العربي منذ عام ٢٠٠٠ في العراق وفي السودان وفي فلسطين والصومال ولبنان.

المصادر والمراجـــــع

١- الأسبوع العربي الناصرية في ٠٢ نيسان أبريل ٢٠٠٧.
٢- شنيو، باسكال. (٢٠٠٣). مقابلة أجراها فؤاد نهرا أستاذ العلوم السياسية بجامعة ليل. فصلية شؤون الشرق الأوسط. بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية.
٣- صحيفة الراية. تصدرها حركة أبناء البلد، الناصرة فلسطين المحتلة في ٢٠٠٧/٠٨/٠١.
٤- صحيفة العربي الناصرية/ في ٢٠٠٤/٠٤/٢٠.
٥- عكاوي، ذيب.(٢٠٠٥) مجلة الأسوار. مؤسسة الأسوار، عكا فلسطين، العدد ٤.
٦- العمّار، عبد المنعم.(٢٠٠٣). العولمة وتهديد الأمن القومي العربي. القاهرة: جامعة الدول العربية.
٧- عيسى، إبراهيم. أسبوعية الدستور في ٢٠٠٦/١٠/٢٨.
٨- الفالح، فاروق (٢٠٠٦). قضايا دولية. جامعة اليرموك: قسم العلوم السياسية، العدد ٠٤ المجلد ١٦.
٩- اللاوندي، سعيد/ أزمة المنظمات الدولية في زمن الهيمنة الأمريكية. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٠- مقابلة تلفزيونية بثت في الجزيرة ونقلت وقائعها صحيفة العربي الناصرية في ٢٠٠٧/٠٩/١٥.

الإبداع

شعر :

- يدار الشعر — سليمان العيسى
- هنيهات الوردة — عصام ترشحاني

قصة :

- قلب السماء — د. جرجس حوراني
- ترميم تمثال بوذا — خالد زغريت

الإبداع

سليمان العيسى ❁

يُدارُ الشِّعرُ في بَيْتي
تُدارُ القهوةُ المُرَّةْ
وضوءُ الشَّمسِ أَخْزِنُهُ
جِرارَ محبَّةٍ ثَرَّةْ

❁❁ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وأسقي الليلَ.. أسقي الضيفَ
أسقي النبعَ والصخرةْ
أخوضُ البرقَ أنقشُهُ
بحافِرِ مُهرتي طُرَّةْ
ويَهزِمُني على ظَفَري
جَلالُ قصيدةٍ دُرَّةْ
تَصُبُّ على مُدَرَّعَتي
نبيذَ اللهِ والخُضْرَةْ
وتُسْكِرُني فتغدو الأرضُ
تحت وِسادتي زهرَة

❁ ❁ ❁

أقاتِلُ.. كيْ يَمُدَّ النجمُ
فوق هضابنا سِحْرَهْ
أقاتِلُ.. كَيْ أردَّ إلى
خدودِ رِمالنا السُّمْرَةْ
مفاتيحَ البيوتِ وطالَ
طالَ الشوقُ والهِجْرَةْ
أغاني الضوءِ تَذْبَحُهُ

الأفاعي قطرةً قطرةْ
وضوءُ الشمسِ أخزنُهُ

أردُّ لجبهةِ التاريخِ
جِرارَ محبَّةٍ ثَرَّةْ

كلَّ تألُّقِ الغُزَّةْ
أخوضُ البرقَ أنقشُهُ

أرُدُّ كرامةَ الإنسانِ
بحافرِ مهرتي طُرَّةْ

معنى أرضِنا الحُرَّةْ
ويهزمني على ظَفَري

أُسَوِّرُ ياسمينَ حديقتي
جمالُ قصيدةٍ دُرَّةْ

بجهنمي المُرَّةْ

دمشق ٢٠١١

الإبداع

عصام ترشحاني ❁

وردة النّص

تدعو.. إلى

قتلِ الكلامْ

وترى إلى..

«موتِ المؤلفِ»

وانتشار رفاتهِ

❁❁ أديب وشاعر سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

فوق الغمامْ
هي صفوة الرائينَ،
تكتبُ
ما يباغتهُ الفراغْ
هي وردةٌ..
لمّا تزل في النصِّ
يقرؤها..
ويهجرها الظلامْ

❁ ❁ ❁

جذع العاصفة

بيديْهِ..
كان يهزُّ،
جذع العاصفة..
الفجرُ..،
يسقطُ
فوق أسفل حلمها
بيديْهِ..
كلّمَ وهجها
والفجر.. إيقاع لهُ

الفجرُ..
فضَّ لُهابَها
وهَمى..
كشمسٍ راعفة..

❁ ❁ ❁

أفُق

ما.. لي أؤرّقُ وصفها
وأعيد تشويش العذوبةِ
في الندى..؟
هل في ارتجافات الصدى
أفقٌ يُجاسدني
ويرتشف المدى..؟

❁ ❁ ❁

كتابة أخرى

نارٌ..
يُغلّفها الورقْ
نارٌ..
تصوغ قراءتي لشرودها
قُمْ.. أيّها الراوي
إلى مزمورها
هي نخلةٌ عَرَجتْ..
وما.. بعد الشفق
مَحتِ الظلامَ.. لتنحني
لكتابة أخرى
تولاّها الفلق..

❁ ❁ ❁

صورة علّوية

الليلُ..
يرعفُ،
من أنامِلها
والليلُ..
في جسدي
مَن قالَ،
إن البحر اظلمَ،
لم يَرَ الياقوتَ؟
وهو يشعُّ
بالمجهولِ
بين رغائبي..
ويدي..

❁ ❁ ❁

فضاء

مُذْ كانَ،
في ماء الهيامِ،
رأى..
إلى حرب السماء
ورأى..

عوالم روحهِ،
بعد الفناءْ..
هو مُذ تشكّلَ
قال للأشياء.. كوني
ثمّ كان
لها.. الـ فضاءْ..

❁ ❁ ❁

زهرة الغلس

هذي التي،
بخيالها.. وخيولها
قرأتْ دمي
ورمتْ عباءتها
على أرق الجسد
هذي التي..
سكنتْ إليَّ
وَسَوّفَتْ لغتي
هي زهرة الغَلَسِ التي
بالنار شمَّت
ما يُغَيِّبهُ الأبد..

❁ ❁ ❁

نصُّ البياض

لي.. في مشارف كائني الشعريّ،
امرأةٌ..
يُكلّمها الغموضُ
فترتدي..
نصَّ البياضْ
لي.. في ارتعاشات المتاهةِ،
ما يبدّدني
لتعبرني الحياضْ.
ها.. غائبٌ..
يجتاح وهمي
ثم حلمي
ربّما لِنَرِفّ فوق الرملِ
أو.. فوق الرياض..

❁ ❁ ❁

صورة احتمالية

ضغطَ الربيع على دمي
فأصابني
مَسٌّ من الإلهامْ
هذي الوريفة بالسَّنا
لا فرق إنْ..
كانت يداها
فوق رعشة خافقي
أو.. فوق شريان الغمام
هي إن تجلّت..
واختفتْ

أسرى الكلامُ..
وفوقهُ..
انسكبَ المُدامْ..

❁ ❁ ❁

صورة فوق احتمالية

وأراهُ يستوحي الجبالْ
في البرزخ الهيمانِ،
يركض نحوها
ويدور في،
جوف السؤال..
قال الذي..
لا والدٌ..
يُفضي إليهِ..
ولا.. وَلَدْ..
حُزني.. على..
من ضاعَ
في حُمى الزبدْ
ما كان يدرك أنها
ذَرفتْ روائحها
على شعري
وزالتْ.. في الأبد..

❁ ❁ ❁

مأدبة الذهول

ما.. للسوادِ..
وقابَ وجهينا ينامْ
هل أطلقوا ناراً
على لغة اليمامْ؟
-هي متعةٌ لمعتْ كألماس السّموم-
شكراً لمن..
صعدت من الألم الجميل،
ومزقتْ ثوب الغيومْ
شكراً لوردتنا التي
مسحتْ كآبتنا
بمنديل الفصولْ..
شكراً.. لها
حين استوت ما بيننا
ودعتْ قصائدنا
لمأدبة الذهول..

❁ ❁ ❁

انحناءة اللهب

لهبُ استدارتها
جحيمٌ في الشجرْ
نجمٌ تهاوى في دمي
وأقام في جمر المطرْ

❁ ❁ ❁

لهبُ استدارتها
هواء راعشٌ
زهر خرافي
يدور به الشرر..

❁ ❁ ❁

قمرٌ.. لها.. ولثلجها
مَنْ كان خلف سريرها..
يهذي..
بنعناع الغبار؟
هي بيننا..
أنشودةٌ
رعويةٌ للغيمِ،
مصباحٌ..
لأسرار الثمارْ..

❁ ❁ ❁

من أيّ إيقاع أتتْ
تلك الظليلةُ بالضباب؟
أوحتْ..
بزوبعة العطورِ
وزاولتْ..
قبل انحناءة مرجها
لغة اليبابْ..

الإبداع

قلب السماء

د. جرجس حوراني ❁

قال لي فرحاً: شهر وأغادر هذه القضبان اللعينة، وأعود إليك يا عصفورتي الحلوة.. وربما نستطيع أن نحتفل بعيد زواجنا العاشر.

يا له من خبر! يظنني أنني سأرقص من البهجة. أو سينبت لي جناحا بيغاسوس وأحلق في السماء باتجاه الشمس. وربما يعتقد أنه سيجدني ألبس الثوب الأحمر الذي يحبه، وسأنام على صدره، وأهمس له مشتاقة.. البيت في غيابك أشبه بصحراء قاحلة.

❁❁ قاص سوري.

العمل الفني: الفنانة منى مقداد.

كل ذلــك لأنه لا يعــرف أن الفترة التي قضاهــا في السجن كانت أجمل أيام حياتي وأكثرهــا استقــراراً ومتعــة. فيهــا عرفت النوم بعمــق والأحلام الوردية، وفيها عادت الكيلوغرامــات السبعــة التــي خسرتها في الأشهر الثلاثة السابقة لدخوله السجن.

باختصــار كان هنــاك فــرح من نوع مــا لا أستطيع أن أصفــه، يعشش في خلايا قلبــي. وهذا لا يعني أنني أكره هذا الرجل، وأن وجــوده خلف تلــك القضبــان متهماً بتجــارة المخدرات هــو ما يجعلنــي أرتاح وأنتعشــ كزهرة غاردينيا، أبــداً، بل إن نار حبــه اضطرمــت أكثر وهو هنــاك، وقلبي المتيم بــه كان يرتجف مثل قلب مراهقة في كل زيــارة له، وكأننــي أراه لأول مرة. الأمر الــذي جعلني كثيراً ما أسأل نفسي عن هذا الكائن الصغير الذي يتربع مزهواً بنفسه، في الصدر، ويفعل بنا العجائب، أقصد القلب، وهل تختلف القلوب فيما بينها، في تركيبها الفيزيولوجــي؟ وأفكر كثــيراً بقلب زوجي: ما هي الخلايا التــي تشكله؟ وأحياناً أشك أنــه ليس قلباً بشريــاً بل هو قطعة من قلب السماء.

منذ أن تزوجنا رأيت فيه ما لم أره في أي رجل آخر، وربمــا لا يمكن لأي رجل إلا في الكتب والقصص الخيالية أن يملك صفات قلبه، لذلك، تأكدت أنه قطعة من السماء.

بمنتهى الحب والاحــترام كان يعاملني، ويخاف أن يخدشني كما كان يقول لي، حتى أنني اعتقدت أنني أميرة حقيقية، أميرة آتية مــن قصص ألف ليلة وليلــة، لم أعرف منه إلا الكلام الجميل الــذي يشبه الشعر. كان رقيقاً، هادئــاً، لا يستفزه أي خطأ، وكان لا يخطأ، ولا يعرف ما هي الخطيئة، حتى أنه يستغرب كيف للإنســان الذي يملك العقل والروح أن يسقــط في الخطيئة، فالعقل إذا أخطأ لا بد أن الــروح ستقف له بالمرصاد، وكذلــك إذا فعلــت الــروح سيكــون العقل مانعها. أضحك الآن، سوف أسأله: وماذا لو أخطأ العقل والروح يا حبيبي، من سيقف في وجههما. أعتقد أنه سيرتبك لو سمع السؤال، ويجيبني مصعوقاً: الاثنان معاً يخطأا! سأرد عليه ساخرة من ثقته: وما الغرابة في ذلك؟ وإلا لم أنــت الآن خلف القضبــان، ألم تسأل نفسك كيف وصلت إلى هذا المكان المظلم؟

كان يسميني زهرة الغاردينيا ويقول لي: إن هــذه الزهرة بحاجــة إلى رعاية خاصة كي تبقى رائحتها فواحة تملأ قلبي وتهبني السعادة.

موهوم يا زوجي الغالي! زهرة غاردينيا!

ربمــا كنتُ في بادئ الأمــر طيبة، نقية، فواحــة، لكننــي تغيرت. وأنــت من غيرني،

ودفعني إلى ذلك الفعل الذي يخجلني أن أتذكره الآن. كان مدفوناً في أعمق حفرة لكن اقتراب خروجك من السجن يوقظه من جديد.

كثيراً ما كنت أجلس قرب النافذة أراقبه وهو يمضي إلى عمله.. مثل شجرة حور كان يسير منتصب القامة، بخطوات واثقة مثل ملك، ويا لتلك النظرات التي يودعني بها، مثل بحار قديم، وابتسامته حقل سنابل.. ولا أذكر أنني كنت أتمنى أن يتعثر فيقع وينهار هذا العنفوان، ويناديني مستغيثاً، ولكن آمالي دائماً كانت تذهب مع الريح، لكأن الأرض هي الأخرى عاشقة له، مساندة لموسيقى خطاه. عندما كنت أنام في حضنه ويداعب شعري ووجهي، ويقبلني... يحرقني، لا زال حتى الآن بقوة حصان وأكثر. ماذا أريد أكثر من ذلك؟ إذا سمعت امرأة ما أقوله الآن فإنها لن ترحمني أبداً.

شيء مخجل ذلك الذي فعلته! ولكن مهلاً لماذا أعاتب نفسي وأحملها فوق طاقتها؟ ألا يحق للمرء أن يدافع عن نفسه بكل الطرق الممكنة؟ أليست السعادة هي الهدف النهائي

للحياة؟ وهل يمكن للمرء أن يتمم الرسالة التي من أجلها وجد في هذه الدنيا إذا لم يكن فرحاً؟

لم أسمع عن إنسان في هذا العالم يستطيع أن يعيش وينجز ما يتوجب عليه إذا لم يكن باله مرتاحاً. وهذا ما حصل معي. كل ما في الأمر أنني دافعت عن سعادتي وفرحي، هذا كل شيء ببساطة. فلماذا ألوم نفسي؟

لقد صبرت كثيراً.. كثيراً جداً، لكنني في

كل يــوم كانت النار تتأجــج في داخلي أكثر، وكثيراً مــا كنت أحاول إخمادهــا، لكنني لم أقدر. بل على العكس تماماً كان يزداد ألقاً، وازدادُ انطفاء.. بالرغم من كل صلواتي،

وها أنا وبــكل صراحة وســوف أفاجأه باعــترافي هــذا عندمــا يعــود إلى المنزل، وسوف أختــار يوم الاحتفــال بعيد زواجنا العاشــر لأقول لــه: نعم أغار مــن فتوتك، وصحتــك، وابتسامتك الرائعــة، وأسنانك المصفوفة البيضــاء، وطلتك البهية. وأسأل نفسي لمــاذا تهالك جسدي قبله، وأنا أصغر منــه بعشر سنين، وكلما فتحت كيس الأدوية التــي أتناولها صباحاً، نشتعل من جديد نار الغــيرة، التي يكون قــد أطفأها ليلاً عندما أكون بين أحضانه مثل قطة، أتدفأ بجسده، لازال قويــاً يحملنــي إلى السرير مثلما فعل أول زواجنا، واعتــاد على ذلك، وأختبئ في صدره مثل طفلة صغيرة، ويداي تلفان رقبته كأنني أخاف أن يشعر بما أضمر له ويرميني من النافذة، لكنه كان يقابلني بابتسامة، كأنه يقــول لي: مغفورة خطايــاك أيتها الشقية، وبكل هدوء يضعني على السرير، كأنه يضع يــده، أو رأسه، ويقبلني وهو يقول: أحبك يا غاردينيتي الحلوة.

الــذي يزعجنــي أكثر أنه لم يتنــاول أية حبــة دوار حتى الآن، بل إنــه يكره الأدوية ويقول: دعي الجسم يدافــع عن نفسه، إنه يعرف ذلك أكثر من العلماء وتجاربهم، دعيه يعــبر عن غضبه، وألمــه، بحرية، دعيه يثور ويهدأ عندما يريــد، لا تحاربيه بهذه المواد الكيماوية. لكننــي لم أستجب لدعواته وبات كيس الأدوية يغص بأنواع الحبوب المختلفة، وآخرها تلك الحبوب المهدئة، خاصة بعدما فقــدا الرغبة في النوم، أسهــر طوال الليل أراقبــه وهو مسافر مع ملاكــه، وأغار أكثر وأنا أرى هذا التنفس الهادئ، وهذا الجمال الباهر الــذي دفعني إلى الاعتقاد أنه يتحد مع الملاك ليلاً. فيما مضى وعندما تزوجته انتقدني البعض لأننــي وافقت على الزواج من رجــل أكــبر مني بعشــر سنــين، كانوا يضحكون ساخرين: «ستكونين له ممرضة». ليتهم يــرون ما حــدث الآن، سوف يظنون أنني أنا الأكبر، بــل ربما اعتقد البعض أنه أخي الأصغر، يا لتوافه الحياة!.

والآن أنا متأكــدة أنه يمارس العشق مع امرأة فتية بــلا أدوية، ومن يدري ربما أكثر من واحدة، وأنا لا أستطيع أن أبوح بشكوكي هــذه لأحد لأنه لن يصدقني، لأن من ينظر إلى هذا الرجل فإنــه لا يملك إلا أن يحبه، ويسحر بــه.. لا يعرفون الحقائــق، أما أنا فأعرف كل شيء.

وبعد ألا يحق لي أن أدافع عن نفسي، عن

حياتي، وبهجتي، وأن أنتقم لجمالي المهدور أمام جبروت جماله الذي لا يشيخ، لقد هزم كل الظروف التي مرت بنا، وكان يخرج منتصراً بالرغم من قسوة بعضها، وها هو الآن ابتسامة على شفتيه ويعلن لي أنه عائد بعد شهر ويريدني أن أهدل كحمامة.

لن أخجل بعد الآن، وسوف أعلن للدنيا كلها أنني وراء دخوله السجن، وهو بريء ولا أعرف كيف أنهم صدقوا أن مثل هذا الرجل صاحب القلب السماوي يمكنه أن يقترف هذا الجرم؟

لقد تعاونت مع مدير مكتبه ووضعنا كمية من المخدرات في مكتبه وبلغنا عنه الشرطة، بل ودفعنا لعدة أشخاص مبلغاً من المال يشهدوا أمام القضاء أنه كان يبيعهم تلك السموم. حكم عليه، وقبض مديرُ مكتبه المال الذي طلبه ورحل خارج القطر. وبهذا انتصرت عليه.

لكنه عندما ابتسم وأخذ يدي بين يديه وقبلها وأعلن لي أنه سيخرج بعد شهر من السجن، أحسست بقوته. ماذا أفعل؟ سيعود مثلما كان، وربما أكثر نضارة، مثل شجرة مر عليها الخريف، ولكن الربيع زادها اخضراراً.

مضت ليال لا أعرف النوم، منذ سماع الخبر، عاد الأرق من جديد، لا بد أن أجد مخرجاً لحالتي السيئة هذه وإلا سأموت هذه المرة.

وبعد طول تفكير توصلت إلى أمر سيكون ضربة قاضية له. انتظر إذاً المفاجأة الجديدة يا حبيبي. سأحكي له القصة كاملة، سأحطم ثقته بغاردينيته الجميلة، وبأصدقائه، وبالناس. دائماً كان يعلن بثقة أن الحياة لا تخلو من الناس الطيبين، مثل الحديقة، أنى سرت فيها، لابد أنك ستجد زهرة، أو شجرة، أو طير... شيء ما يمنحك الطمأنينة، والسرور. لكن الآن سيعرف الحقيقة، وبهذا يمكن أن يشيخ ذلك الجمال الساحر أعرف أن هذا سينعكس علي بالسوء، لكن ماذا أفعل؟ لم يحقق السجن مرادي، فلا زال جميلاً حتى الإرباك، لم يبق أمامي إلا أن أعترف له، لتكن ضربة قاضية لي وله. المهم أن يسقط هذا الجمال، ويصبح ذلك القلب بشرياً.

الإبداع

خالد زغريت ❁

عقدة الكرسي الأحمر عند (كبجي) نشأت متزامنة مع نهاية حرب السويس، وهي موغلة في مواويل الصبر، وموحلة أقدامها بالحبر الذي هدره الشعراء في وصف قبر الغازين، وكان ميلاد هذه العقدة يوم دخل الأستاذ (ديكان) قبل بدء الحصة مضطرباً وقال: انتبه سيحضر المفتش درسنا، حيوانات، ويلكم، وبينما كان فمه المائل يتفتف تهديداته كانت يداه تصلحان الطاولة، لاحظت فرح (كبجي) الذي كان يستعد عند دخول الأستاذ (لعلقة) لا بد منها يومياً، لذلك

❁❁ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

مـــا إن كان يفلت من المدرسة حتى يطير إلى بيتـــه يلـــف (سندويتش المكدوســـ)، ثم يفرّ نحو الأبنية القديمـــة لاصطياد الحرادين، فيقتلهـــا، ويدهن يديه بدمهـــا الذي يجعل اليد لا تحسّ بألم ضرب العصا كما نصحه

سابقوه مـــن المشاغبين، وكان من ثوابت صفنا اليومية: أن يبدأ الأستاذ ديكان درسه بالقول: إذا كان من الفرض رجم سيدنا كل عـــام مرة، فمن فروضـــ صفكم سلخ كبجي كل يوم عشـــر عصيّ، ثم يصرخ: اطلع يا بن الكلـــب، أنا كلبان يا حقـــير، يشده من أذنيه يبطحه أرضاً ويـــروح يدوس عليه، ويرفسه حتى ينهـــك ثم يأتي بالعصا، ويقول له: عدّ ويبدأ بضربه على يديه، ثم يقول: هل تعيدها يا جربان، ويرد (كبجي) بصوت يخنقه البكاء والله مـــا عليك يا أستاذ، فقد كان من عادة (كبجـــي) إذا رأى: الأستـــاذ (ديكان) يختبئ بحيث لا يراه الأستاذ ثم يصيح: أستاذ كلبان حبـــلان؟ ساخراً من اسمه ومن كرشه. قطع ذكرياتي قول الأستاذ: حيوان (كبجي) اذهب هـــات الكرسي الأحمر مـــن الإدارة ليجلس عليـــه المفتش، ركض كبجـــي وبثوان أحضر الكرسي، قـــال له الأستاذ انظر إلي.. وحياة (حريمي) إن تشيطنتَ.. بعرضي ستأكل فلقاً على هذا الكرسي، قطع دخول المفتش وعيد الأستـــاذ الذي ارتدّ أرنبـــاً عاقاً بين ذراعي ثعلب، رحب الأستاذ بالمفتش، وباشر الدرس بصورة مضحكة نتيجة ذعـــره من المفتش، ممـــا أبهج (كبجي) وبدأ يحدث نفسه أكلتها يا ديـــكان، كنت تأتي لتنـــام الحصة الأولى فأنـــت على المازوت لا(تحمى) حتى الحصة السادســـة، إن شـــاء الله لا تطلـــع حافـــظ الدرس، ويعمل لك المفتش فلقاً والله أنا من سيمسك له رجليـــك، وراح كبجي يتأمل عزّ الكرسي في إذلال الأستاذ، ولكم ودّ أن يقبّل قرعة المفتش لأنه قَلَـــبَ الأستاذ إلى إنسان مهذب ودود لا يشتم، ولا يصفع، ولكم تمنى أن يصير هـــذا الكرسي يوماً لـــه، وبلغ من نشوة كبجي أنه قـــرر أن يشارك في الدرس لأول مرة، فسيحميه المفتش، لأنه كلما أراد أن يشارك، كان الأستاذ يردعه قائلاً: اقعد غبي.. مسطـــول أنت لســـت بشاطر إلا في سرقة البوظة من الصغار وصيد الحرادين، وفجـــأة سأل الأستاذ: مَنْ يعرف كيف نصنع الزجاج، ولأن المصادفـــة بنت حرام لم يرفع يده أحد رهبة مـــن المفتش، رفع كبجي يده صارخاً: أستاذ، أستاذ! وكانت عيناه تبصان شماتة من إحـــراج الأستاذ الذي لم يجد بدّاً مـــن سماع إجابته، فقال: نعم يا كبجي، قال كبجي: أستاذ نجلب التبن ونضعه في القن ثم نجلب البيض نرتبه فوقه، ثم نجلب الدجاجة نقعدهـــا على البيض فتفقس زجاجاً، وفقع

الجميع بما فيهم المفتش بالضحك، فدمعت عيناه، ولم يعد الأستاذ قادراً على ضبط الصف إلا بعد تدخل المفتش الذي قام من كرسيه طالباً من الطلاب الهدوء، غير أنه لم يصمد فاغتصبته قهقهة أسالت أنفه، فخجل وخرج من الصف، أما كبجي فقفز من الشباك؟ لأنه أدرك أن الأستاذ سيأكله من دون ملح، ومن يومها لم يعد كبجي إلى المدرسة، ولم يستقرّ في عمل؟ لأن هدفه الوحيد في الحياة أن يعمل عملاً فيه كرسي أحمر، ولا مانع أن يكون مفتشاً لو على زبالة الحارة وتلك فكرة خرقت ذهنه المتخشب كمسمار من ذهب، نعم لماذا لا يقوم بهذا العمل: أن يجلس جانب الحاوية ويتفقد الزبالة القادمة إليها إن كانت مغلفة بكيس أسود محكم، ثم توضع برفق داخل الحاوية، وبذلك يحمي حارته الشعبية من تلوث البيئة. حَبَكَ المسألة، ثم استعان برضوخ أمه لرغباته التي ذهبت فعلاً إلى أخيها رئيس لجنة الحي، وما إن استقبلها حتى أجهشت بالبكاء قائلة: الله يرحمك يا أمي، أنتِ استرحت بقبرك، وتركتني ضلعاً قاصراً، راحت الكلاب تأكلني، حاول أخوها تطييب خاطرها: ماذا بيدنا يا أختي ماذا تريدين اطلبي، تريدين الباب اخلعيه وخذيه، والله يا حنون يرخص لك الغالي، ردت مقاطعة:

ليس لدي إلا هــذا الولد وهو بلا تعليم ولا عمل، طيب أذهب أشحذ من أين نأكل؟ باءت كل محاولات أخيهــا في حضها على الصبر بالخيبة، قالت: الحل بيديك، سأل. كيف؟ إن كان بيدي ـــوحق تربة المرحومة- تأخذينه، وهذه شواربي، حدثته أخته عن مشروع ابنها، هو عــرف أنه وقع بالفخ، والمشكلة أنه رهن شاربيه، فكر قليلاً، وبلع المقلب شوكاً، وقال: بلــى هي فكرة يمكن تنفيذها، جمع أعضاء مجلس الحي علــى غداء فاخر، حدثهم عن زيارتــه المزعومة لمسؤول كبير وعده بالتفرغ لأحلامه وأحلام من يحــب فور فراغه من ثلاث قضايا ساخنة، هي: ترميم تمثال بوذا في أفغانستان مزامنة مع رفس الأمريكان من ربوعها الطاهرة، ومحو أمية الشيشان بمتة الخارطة فهم صم بكــم بالجغرافية، ومحو أميــة الصوماليين بالواوا، وأردف: يا شباب أريدكــم أن تتفاءلوا..المستقبــل لنــا، وهذا شاربي يا أبا(الرفّ) إن لم أعينك في منصب يجعلك تسد الحارة بسيارات الدولة، أليس عيبــاً أنت قــد عشرة، والله لــو تكن تحلق شاربيك لكنت قد تمثال بوذا ونصف، والله سأطلب من صاحبي أن يفرض على كل بائعي الكاتــو ألا يصنعوه بسكر كي تأكل ما تريد، أما أنت يا مسبع الأحلام سوف أخليك تردح من الصباح إلى المساء في إذاعة لندن، حينها من حقك بثّ ما تشاء من الأغاني التي تحب في برنامج ما يطلبه المستمعون، ويمكنك أن تذكــر كل أسماء أهل (الحولة) في إهداءات أغنية (سلمى بنت الجيران)، كما يمكنك أن تمــوّت أبا الفلسفة غيظاً فــلا تبث أغنيته المفضلــة (دقي دقي يا ربابة) حتى لو وسّط لك أفلاطون، أما أنت يا (سمسوم)، صحيح أنك قد السمسمة وأصلع لكنك بقيت مطهّراً أربعين عاماً، طهرتنا وطهرت أولادنا، بربك أليســ حرامــاً بعــد كل هــذه التضحيات ألا يقبلــوا عضويتك في نقابــة ملك جمال التصفــير وأنت أب عن جــد كشاش حمام، صدقني نكاية بهــم سأعينك ملحقاً ثقافياً للمطهريــن في نيوزلنــدا، وتابع خال كبجي نفــخ أحلام أصحابه بعــد أن نفخ بطونهم، ودار، ولــفّ حتــى دوّخهم بمزايــا توظيف مفتشــ الزبالة، وما إن أخذ موافقتهم حتى ذهب إلى أخته حاورها وابنها بضرورة إتقان هذه الوظيفــة لكي لا يخزيه أمام أصحابه، نبر كبجي يا خــال لي شرط، أراد الخال أن يأكل أسنانه غيظــاً وتشترط، طيب ما هو: قال كبجي: أريد كرسيــاً أحمر، وتمّ كبجي مــا أراد، أخذ الكرســي إلى جانب الحاوية ثبّته هنــاك، وراح يراقب من يجلب الزبالة إليها مملياً شروطه، لا تضعوا الزبالة بأكياس مهترئة، بعرضــي سأرد مَن يأتــي بالزبالة

بكيس غير أسود، لا سأرميها بخلقته، وقبل أن ينتصف النهار جاء الأستاذ ديكان يحمل زبالته بكيس شفاف، لمحه، تأمله مازالت رأسه بصلة مقشرة مثبتة أفقياً على جسمه الذي يشبه جوزة الهند، ردد في نفسه جئت! وكيس شفاف أيضاً، يا أستاذ يا غبي، مفتش الصف كان يرجّفك، فكيف بمفتش مثلي، يا كلبان الكلب ضيعت مستقبلي، آه كم كسّرت من العصي على هاتين اليدين يا بن الحرام، والله وقعت يا أستاذ! وحين وصل، أثار سخريته منظر كبجي لافاً رجلاً على رجل، فقال: وكرسي أحمر يا غبي، مما حرك كل ذئاب الحقد في نفس كبجي، العمى، بدل أن يرجف يسخر مني، وبلا شعور خطف الكيس ورماه بوجه الأستاذ صارخاً: ألم أقل يا كلبان مَن لا يغلّف الزبالة بكيس أسود سأقذفها بوجهه، جُنَّ الأستاذ ومن دون أن يعي رفس كبجي بمنطقة مؤلمة، فسقط أرضاً، تركه، ومشى، ما لبث كبجي أن استجمع قوته، حمل الكرسي وركض وراء الأستاذ وباغته بضربة على رأسه أطاحت به على الزفت، فدوى ارتطام رأسه، حضر سكان الحي، أسعفوا الأستاذ الذي ما لبث أن مات، واقتادت الشرطة كبجي، وحكى لي صديقي الذي مازال يحلم أن يخلص «كاز أيوب الصديق» ليحل محله في إذاعة لندن، أنه حين حكمت المحكمة على كبجي بالإعدام، قال كبجي للقاضي: سيدي وتربة ستي أنا مظلوم، سيدي طيب أقبل الظلم لكن شرط أن يكون الكرسي أحمر، بينما كانت أمه تمسك أخاها من رقبته وتصرخ: ألم تقل لي: إن صاحبك المسؤول يفك المشنوق، وكان الخال دامعاً يقول لها: والله يا أختي لم ينته بعد من شغله، لو تأخروا شهراً في نطق الحكم لخلص من تمثال بوذا، أولاد الحرام في أفغانستان غشوه، فمنهم من يقول: كان تمثال بوذا بشوارب، ومنهم مَن يقول: هو من دون شوارب، وهو حائر لا يجرؤ على تصرف قد يؤدي إلى إشعال الحرب الأهلية في أفغانستان، يا أختي المسؤولية صعبة، هل يرضيك أن يسوّد تاريخه، والله ما حلو بحقنا أن نكون سبب الفتنة، يا أختي هذه شوارب بوذا ما هي لعبة، والله التاريخ لا يرحم، أما قلتُ لك: لا تسميه (كبجي)، قلت لي: انظر إليه ألا يشبه الكبجي، حوطته بالنبي، لعله عندما يكبر يغرف لنا من هذه الدنيا، نظرت إليه أخته، ولأول مرة في عمرها شتمت أمّه المرحومة وتاريخ صاحبه بشوارب وبلا شوارب.

آفاق المعرفة

- الحوار مع الذات ومع الآخر ..... د. خير الدين عبد الرحمن
- الدكتور المفكر عبد الله شريط ومعركة المفاهيم ..... محمود محمد أسد
- أسواق العرب قبل الإسلام ..... د. نزار عوني
- اللغة العربية والنشر الإلكتروني ..... د. تركي صقر
- التلوث النووي ..... د. حسين فاضل
- أكلوني البراغيث (لغة لها أنصارها) ..... حسن موسى النميري
- وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ..... د. محمد البخاري
- أوعية المعرفة ..... د. هزوان الوز
- الطعام والتغذية ..... ترجمة: شريف الموسى
- دور علم النفس في الحوار مع الغرب ..... عبد محمد بركو
- المتاحف الفنية ..... رحاب محمد

آفاق المعرفة

الحوار مع الذات ومع الآخر

د. خير الدين عبد الرحمن

كثر استعمال مصطلح الحوار ومشتقاته، من تحاور ومحاورات ومتحاورين وأحار واستحار..إلخ. وقد اختلطت مقاصد عديدة في سياق هذا الاستعمال. ولئن اشتهرت (محاورات أفلاطون) منذ القديم مشددة على العقل منطلقاً ومنطقاً وقاعدة وعماداً للحوار وسبيلاً إلى الحكمة، فإن الحيرة التي يتسبب بها تباين معاني ومقاصد هذا المصطلح تتبدد عندما نميز في ما ورد من تلك المعاني في آيات القرآن الكريم بين الرجوع (حار، يحور، حوراً) في قوله

أديب وباحث ودبلوماسي سوري سابق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

تعالى: «**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**»، وبين المعنى فائق الشيوع كما في قوله تعلى: «**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**»، وفي قوله تعالى: «**فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**». ويظهر هذا التمييز في قول الزمخشري (أساس البلاغة، دار التحرير، كتاب الشعب، ١٩٦٠، ص٢٠٥) أن «حاورته: راجعته الكلام، ويقال كلّمته فما رد عليّ محوره، وما أحار جواباً: أي ما رجع...». كذلك يظهر التمييز في تبيان ابن منظور في لسان العرب (طبعة القاهرة، ١٩٨١، ج٢، ص١٠٤٢-١٠٤٣) أن «الحور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والتحاور: التجاوب، واستحاره: أي استنطقه، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة». كما يجدر التمييز بين الحوار والمناقشة أو النقاش، فالمناقشة أصلاً -وفقاً للصحاح في اللغة والعلوم (دار الحضارة، بيروت، المجلد الثاني، ص ٦٠١)- هي الاستقصاء في الحساب، وفي الحديث: «من نوقش في الحساب عُذب». يجدر التمييز أيضاً بين الحوار والجدل، فالجدل هو «اللدد في المخاصمة والمنازعة والمراء والكبر»، فيه يجهد كل من طرفيه على قهر خصمه وتسفيه منافسه، بينما يمضي الحوار ليناً متجرداً من الأهواء، معتمداً الحجة والمنطق والعقل، مخلصاً في ابتغاء التوصل إلى الحقيقة أو النتيجة الإيجابية، ينطلق من البدهيات، ويحض على التفكر والتدبر والاتعاظ والاعتبار. ولذلك قد يكون طرفا الحوار المرء وذاته، أو فرداً وآخر، أو فرداً وجماعة ،أو جماعة وجماعة، أو مجتمعاً وآخر.. إلخ. تظهر ذروة الحكمة لبني البشر في حوار الله عز وجل مع سائر مخلوقاته: حواره مع أنبيائه، ومع ملائكته، ومع المؤمنين، ومع أهل الكتاب، ومع الكافرين، ومع الشياطين وكبيرهم إبليس، ومع الأحياء غير العاقلة، ومع الجماد.. إلخ.

يندر أن يعترف أحد بأنه عدو للحوار أو رافض لمبدأ التحاور. لكن التطبيق العملي يظهر كم أدى تزييف الحوار أو الاكتفاء بمظاهره إلى اختلال العلاقات في عالمنا على كل صعيد، وخاصة في عالمنا الذي كان يسمى ثالثاً. لقد استشرى مثلاً توهم تمايز فطري أو احتكار الحقيقة والصواب بما ينسف غاية الحوار وأسسه. استسهلت قوى وجماعات مختلفة زعم حق مطلق لها، وافتعلت أسانيد مزيفة تدّعي بموجبها أنها تملك ناصية الحقيقة المطلقة، وتسوّغ لنفسها بناء على هذا التوهم اعتماد البطش والقمع والإرهاب والتصفية الجسدية في التعامل مع المعارضين أو ذوي الرأي المخالف، معتبرة إياهم ضالين أو مضلِّلين أو متآمرين أو شرّاً مطلقا!

«هـذا الحـوار المدمّـر لثوابـت المجتمـع وقيمـه المشتركـة وعقلـه الجمعـي يحمل بذور السقوط للجميع، ففي خضـم الصراع الدامي يتم تغييـب النهاية التي من أجلهـا يقوم هـذا الصراع، وتتحـول هـذه الوسيلة إلى غاية بحـد ذاتهـا. وعندما تكون هذه الوسيلة هي القتل والتدمـير فـإن المجتمع كله يفقد عقلـه وتتسـاوى فيه الهرطقـة والإيمـان، العقل والخرافـة، السحر والمعرفة. وتتحول فيه الأيديولوجيا إلى مشروع قتـل أو.. انتحار(!). وليس من المفارقة أن نكتفي بثلاثة حـروب فقـط لمواجهـة (المؤامرة) الصهيونية على مدى ما يقارب نصف قرن (أكثر من قرن عملياً حتـى الآن)، بينما في المواجهة مع (الداخل) فإن حروبنا لا تتوقف، وهـي لا تستخدم الكلمة بل الرصاصة التي تضن بها علـى (المؤمرة الكبرى)..» (شوقي رافع، أفلاطون الأمريكي يتصدى لسقراط البريطـاني، العربي، الكويـت، العدد ٤١٨، أيلول ١٩٩٣، ص٧٣).

إن لـدى الناس غالبـاً مفاهيم مختلفة جـداً لمدلـولات كثـير مـن المصطلحات، وبالتالي فنقص وضوح المفاهيم التي يجري الاستشهـاد بها يؤدي إلى التشويش بدلاً من الحوار الحقيقي. كما تشتد صعوبة السعي إلى حوار متوازن في ظـل الضحالة المريعة والسطحيـة السمجة والعنصريـة السافرة لطغيـان هيمنـة أمريكيـة متصهينة بديلة للهيمنـة الاستعماريـة السابقـة، مصممة على اجتثاث الجـذور الحضارية والقيمية

والفكرية للأمم عموماً، ومركزة بحكم محوريتها الصهيونية وعوامل تاريخية وعقدية واقتصادية وجيواستراتيجية على مزيد من تفتيت أمتنا بالذات، ودفعها إلى التلاشي، لا على صعيد الفعل والتأثير فحسب، وإنما على صعيد الانتماء ووجود الكيان الاجتماعي والحضاري أيضاً. وقد زاد من إشكالية تصادم المفاهيم وتلاطم المصطلحات تفتيت الإعلام الراهن للوقائع والأحداث والتطورات، إذ راح يغرقنا في كم هائل من هذا الفتات، كما تعاظم دوره في تكييف السلوك وتشكيل المشاعر وإثارة الحقد والكراهية والذعر والرغبة في الانتقام والثأر. وتضاءلت إنسانية الإنسان مع اشتداد طغيان المال والآلة والإلكترون وروح الذئب... كم هو مرعب تزاوج الاختراعات والاكتشافات والإبداعات العظيمة المتلاحقة مع استشراء عبادة عجل ذهبي وتأله مخلوق واستبداد روح الذئب التي قال بها توماس هوبز، أكثر المفكرين تأثيراً في التأسيس النظري لفلسفة وأفكار الأنكلوسكسون المهيمنين على الولايات المتحدة الأمريكية، والذي اعتبر أن الإنسان ذئب للإنسان، جنباً إلى جنب مع مقولته عن حاجة العالم إلى سيد أعلى حدده بالولايات المتحدة، مؤسساً لعلاقة أمة سيدة وأمم من العبيد!

لقد طغت مفاعيل ثورة الاتصالات الكونية اليوم، لكن هذه الثورة لم تنتج بمعايير التفاعل الثقافي والإنساني وإنما وفق آلية التلاطم، كما لو أننا في محيط هائج تتلاطم أمواجه، لا يستطيع أحد أن يرى الآخر إلا من خلال رغبته في البقاء الذاتي، كما رأى المفكر السويسري المعروف جان زيغلر، في واقع غير مسبوق من فيضان إعلامي يتجدد طوفاناً يومياً من صور ومعلومات وأخبار، يصعب على المتلقي التوافق مع سرعة هذا الدفق وقوته ما لم يحصل على أكثر ما يمكن بأقل جهد ممكن وأقصر وقت ممكن.

في المقابل، جاء الإرشاد الإلهي واضحاً لنبينا العربي(ص) في أسلوب الدعوة والتعامل:

«**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**». هذا درس يتكامل مع قوله عز وجل: «**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ..**» (البقرة٢٥١).

إن الدفع، وما ينجم عنه من تدافع، صراع متعدد الوسائل والأشكال يشكل إحدى سنن الخلق وخصائص الإنسان. يبدأ الصراع في ذات الإنسان عندما يحتار قبل أن يقرر أنسب الخيارات، ويفكر ويناقش نفسه قبل أن يحسم الأمر لمصلحة أحد البدائل المتاحة في

أموره وسلوكه ومصالحه وعلاقاته ،وعندما يردع نفسه عن تصرف أو قول يجده خاطئاً أو سيئاً أو خطراً. يمتد الصراع متجاوزاً نفس الفرد إلى علاقاته بالغير، فتكون الأفكار والآراء والرؤى ساحة هذا الصراع، والعقول قادته، والكلمات أدواته. هنا يكون الصراع بالأفكار والآراء حواراً. فإذا استنفد الحوار طاقته وفرصته، تتدخل العضلات والسيوف والعصي والرصاص والصواريخ، أي تتدخل قوى القمع والإرغام وسلطة القسر، ردعاً وعملاً. إن انحسار حوار الأفكار والعقول والكلمات مؤشر واضح على تخلف طرفي الحوار، كليهما أو أحدهما، أو على بغي من يصر على طغيان حوار بالعضلات والرصاص، وهذا أقصر سبيل إلى الخراب، سواء على صعيد الفرد أو الجماعة أو المجتمع أو الأمة. هنا يحكمنا توجيه إلهي لا يحتمل التباساً:

«فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ».

الحوار سمة إنسانية أصيلة دائمة، وعملية فكرية وضرورة فردية ومجتمعية. والقدرة على التفكير من أبرز سمات الإنسان المؤثر في التاريخ، والفكر يخص أولئك الذين يعبرون عن الحياة بحركية، فالحياة حركة تقدم وتطور دائمين في مضمار الحضارة.

إن الأفكار لا تحتمل ظلام الأسر ،بل تتوق إلى فضاء التفاعل والتكامل والصراع أيضاً. كل هذا يفرض الحوار. كل بني البشر يفكرون، وكل الأمم تفكر، ولكن لا الأفراد يتساوون ولا الأمم تتساوى في التفكير. إن التحدي الحضاري الرئيس الذي تواجهه أي أمة هو عملية نقد الذات، أي الحوار الذاتي وصراع الذات، سعياً إلى الأصلح وتقدما نحو الأفضل. إما أن يسير هذا التحدي نحو الأرقى فيكون علامة إيجابية، ويجسد حالة جمعية يسودها تنافس ودي بناء، أو يفتقر إلى التكاتف ويجسد التفكك والتنافس العدائي داخليا إلى جانب خوض الصراع مع العدو الخارجي. ولكننا أشد ما نكون حاجة لحوار دائم متجدد مع الذات، سواء تلك الذات الفردية أو الجمعية، مراجعة لمواقفها وتصويباً لأدائها وتصحيحاً لعلاقاتها وتعاملها. تحضرني هنا فكرة أنقلها عن نصها الإنكليزي، تقول: راقب أفكارك التي سوف تصبح كلماتك، وراقب كلماتك التي سوف تصبح أفعالك التي سوف تصبح عادتك، وراقب عادتك التي سوف تشكل شخصيتك، وراقب شخصيتك فهي التي تحدد مصيرك.

وتظل ثقافة الحوار والمشاركة في الصميم من وعي يحرر الإنسان من طغيان

غريــزة التملك. فهــي تتيح لــه الاعتراف بالآخر حتى لــو كان مختلفاً. لذلك لا نجد تفسيراً لسلــوك رافض الحــوار بالكلمات والأفــكار ومقارعة الحجــة بالحجة، فرداً كان أو جماعــة أو مجتمعــاً، سوى أنه فاقد الثقــة بنفســه وبموقفــه، أو مغتصب حق يكابر مــدركاً أنه مهــزوم لا محالة إن ساد المنطق وتحكمــت العدالة، فيلجأ إلى القمع بالعضلات والرصاص والتسلط ظلماً تشبثاً بما اغتصبه من حق الآخر عدواناً.

ولئن كان الحوار مع الذات أساس بنائها وتطويرهــا وتصويب أدائهــا، فالحوار مع الآخــر هو الطريــق الأمثل لحــل إشكالية تضــاد الأفكار وتصادمهــا، فعبره يستطيع المرء أن يوصل أفكاره ومعتقداته للآخرين، وبالإقناع والتفاهــم واحترام الذات والآخر يتم اعتراف متبادل إن توفر التجرد والعدل. ينسحب هذا على دوائر أوسع من جماعات ومجتمعــات وأمم. وإذا انقطع الحوار تبرز التقاطعات البشرية حقيقة ترتهنها النفوس الضيقة، ووسيلة تفرض عبرها حالة صدام وتثبــت تسلطها وطغيانها على الآخرين. إن مسؤولية الإنسان في ظل ناموس ثابت جعل التدافع والتنافس والصــراع سلوكاً ملازماً للبشر هو السعي إلى تنظيم الاختلاف وتجنب الصراع الساخن والتدافع العنيف ووسائلهما المدمــرة، ليبقــى التقدم العلمــي والمعرفي سبيلاً للعمــران والتفاهم والتنمية المشتركة والتعاون للخير، لا للحرب والتدمير.

لكــن نجاح أي حوار مــع الآخر يشترط التعــرف أولاً إلى حقيقــة ذواتنــا وأحوالنا بدقــة، مثلما يحتــاج إلى الوعــي بشروط الحــوار المجدي حتى لا يكــون مجرد حوار طرشان، أو حواراً لا طائل منه.

إن نظرة إلى جذور ما في راهننا العربي من تشتت ووهن وبؤســ وتخلف وانهيارات وهزائم تقودنــا إلى إدراك واحد من أخطر ما ألم بنا مــن أمراض: ذلك هو ما قد أبعد الأجــداد عن السمو الــذي كان في السؤال الاستنــكاري للخليفــة عمر بــن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» وصــولاً إلى ذل خنوع من خاطبهم زياد بن أبيــه في جامع دمشــق الكبير بعد سنــوات قليلة قائلاً: «البيعــة لمعاوية، ومن بعده لولده يزيد، وهذا السيف لمن لا يبايع»! منذ ذلــك الحين توالد ذلــك السيف فينا، مورثــاً الخنــوع والجبن والنفــاق لصاحب السلطــان والاستقالة من الحــق في الرأي الحر والقرار المسؤول والمشاركة الفاعلة، بل وتحللاً من الانتمــاء، جيلاً في اثر جيل، إلا من رحم ربي.

حتى لجوء بعضنا إلى التحايل أو الرمز، كما فعل الجاحظ مثلاً عندما خشي القمع والعقاب الظالم وبطش السلطان فأنطق الحيوانات في حوار بشري من ألفه إلى يائه، إنما يشكل إدانة للذات، فأي أمة لا تنهض ولا تبنى ولا تتقدم ما لم تتنفس بحرية، ما دام الخالق عز وجل قد قال: «**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**»، موضحاً تبعات كل من خياري الإيمان والكفر، بل وخاطب نبيه محمد محذراً: «**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**»، ونبهه كذلك بقوله: «**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**»، كيف لصاحب القوة المادية البائسة أو السلطان العابر إرغام الآخر، فرداً أو جماعة أو مجتمعاً، بالقسر والقهر بدل الإقناع عبر الحوار والنقاش، اعتداء على حرية من كرّمه خالقه إذ قال: «**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**».

هنا يبرز إشكال ملحٌ فيما يخص الحوار مع الآخر عندما يكون هذا الآخر باغياً معتدياً يستخدم وسائل القوة المادية لاغتصاب حقوق الآخرين وقمعهم. نحن من القائلين مثلاً بضرورة التكافؤ النسبي أو ندية في الحوار مع الآخر البعيد، يوفرها احترام متبادل، أو اعتراف متبادل على الأقل. فلا جدوى من حوار محكوم بخلل يجعل أحد طرفيه طاغياً وداعياً إلى استعباد الآخر بقناع ما، أو إلى إقصاء الآخر، بل إلغائه. هناك من يختلف مع هذه النظرة، فيرى أن أهمية الحوار لذاته بغض النظر عن أي قضايا أخرى معوقة للحوار، ومنها قضية التكافؤ أو الندية. يرى بعض أصحاب هذه النظرة التباساً يعتقدون أن مخالفيهم واقعون فيه بخلطهم بين شروط الحوار وشروط التفاوض. تختلف احتياجات الحوار طبعاً عن احتياجات التفاوض. نعم، فالتفاوض يحتاج إلى الندية والتوازن، بينما لا يحتاج الحوار في أحيان كثيرة إلى ندية أو تكافؤ برأي هؤلاء. يمكن خوض نقاش مع أصحاب هذا الرأي، دون الوقوف عند التغريبيين المبهورين بالغرب إلى درجة الاستلاب والتبعية له والاستعداد للتلاشي إزاءه. وما هو جدير بالنقاش أكثر من حجج رافضي اشتراط التكافؤ حجة قوية هي حوار الأنبياء مع أقوامهم عندما كانوا الطرف الأضعف إزاء الحكام والمتكبرين والطغاة المتجبرين بمعايير الندية والقوة، فقد انتصرت دعوات الأنبياء بالحوار والجدل والبرهان ثم الإقناع، واستطاعوا التأثير بأقوامهم، وهزموا الجبابرة والمكابرين. تظلّ دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاصة برهاناً ساطعاً على انتصار حوار

لم تتوافر لبدايته شروط التكافؤ والندية، فقد حاور المشركين وهو الطرف الأضعف وزعزع قناعاتهم الاعتقادية بالحوار. لذلك يرى بعضنا أن الحوار يطلب لذاته، بغض النظر عن المعايير والاشتراطات مهما كانت وجيهة، وأن الحوار مع الآخر المختلف، وإن كان معادياً وكارهاً لمعتقداتنا وأفكارنا، مبدأ إسلامي أصيل. بل ذهب بعضهم إلى اعتبار أن القول بضرورة التكافؤ شرطاً لازماً لمشروعية الحوار مع الآخر يشكل مزايدة على منهج رسول الله، صلى الله عليه وسلم الذي حاور كفار قريش وهو في أشدّ حالات ضعفه البشري، شاكياً إلى الخالق عز وجل (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس)، ثم كان النجاح حليفه. وقد اقتدى به جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه عند النجاشي وأساقفته فحاورهم وهو مطارد من أهله وقومه، وأثّر صدق بيانه وقوة حجته ومهارته فيهم وأبكاهم وأقنعهم بعدالة قضية المسلمين المهاجرين.

نرى من جانبنا أن ما توافر للرسول القدوة من دعم إلهي لدعوته، تثبيتاً وتعزيزاً لمنهج تتضمنه الدعوة، لا ينسحب بالضرورة على كل زمان وكل حال، كما أن التعاليم الإلهية تؤخذ متكاملة وبتفهم عميق لمقاصدها وانطباقها على الحالة المعنية، لا باجتزائها أو اقتطاعها من سياقها. وإذ يظل قول الله هادينا في كل الأحوال حين خاطب نبيه قائلاً: «**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**»، فإن التزامنا هذا التوجيه الإلهي لا يغفلنا عن أوامر الله عز وجل في مجاهدة المعتدين الذين لا يجدي معهم حوار ولا موعظة. مقارعة هؤلاء واجب لا يقبل تهرباً ولا مداورة، التزاماً بأمر الله عز وجل: «**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**». ولهذا كررنا القول مراراً في مواجهة موجة التخاذل والاستسلام والخنوع والتفريط بالأرض الوطنية وبحقوق الأمة ومصيرها بأن هذه الآية هي بالتأكيد الحكم الإلهي لتعاملنا إزاء الغزاة الذين أخرجوا الملايين منا اقتلاعاً وقهراً من يافا وحيفا وعكا وطبريا والناصرة والقدس وبئر السبع واللد والرملة والقنيطرة وبغداد والموصل والفلوجة والرمادي ودارفور ومقديشو ووزيرستان وهلمند وقندهار.. ولا ندري من أين سيعمل الغزاة على إخراج مزيد منا، بعدما فشلت إلى حد كبير حروب وجهود تنفيذ توصيات مؤسسة (راند) الأمريكية للإدارة بضرورة تنشيط جهودها لإقامة ودعم تنظيمات وجماعات وأحزاب محلية تتصدى للتيار الإسلامي وتروّج للقيم والمفاهيم الأمريكية

ونمط حياتهـا وتفكيرها. لقد ذهب منفذو هذه التوصيـات بعيداً فجاهروا بإصرارهم علـى إخـراج ثلاثمئـة مليـون عربي من عروبتهـم، وإخـراج مليار ونصـف المليار مسلم من إسلامهـم، وكانت النتيجة ثورات وانتفاضـات شعبية هائلـة التأثير في تونس ومصر واليمن.. ثورات وانتفاضات فاجأت العدو الصهيوني الذي اطمأن إلى استسلام معظم أطراف النظـام الرسمي العربي له، وفاجأت الغـرب الأمريكي والأوروبي الذي أقنع نفسه بأن الأمة العربية قد دخلت طور الموات، وباتـت مطواعة خانعـة لكل عابر سبيل! بل فاجـأت أمتنا ذاتها بعدما ذهب معظـم مفكريهـا إلى اعتبـار أن «الأجيال الشابة، وهـي المحرك الحقيقي لكل نشاط سياسـي أو تجديـد ثقـافي أو أخلاقي قد انسحبـت تماماً من الساحـة..» (د.محمد السيد سعيد، عصر الاقتصاد...، الاتحاد أبو ظبي، ٢٠٠٧/٩/٦، ص٢٧)، كما كتب مثقف مصري متـزن تساءل قبل ذلك بشهور قليلة «كيف يمكن للمسلمـين شعوباً أو حكومات أن يتحاوروا مع الآخر سواء كان أمريكياً أو أوروبياً أو آسيوياً أو أفريقياً وهم ليسوا على قلـب رجل واحد، وهم عاجزون عن الحوار مـع النفس!» (د.محمـد السعيـد إدريس، حوارات لابد منها، الخليج، ٢٠٠٧/٢/٢٣).

إننا نتفق مع القائلين بأن راهن حالنا العربي وحال العـالم الإسلامي لا يحتمل مزيداً من خداع الـذات، فالإيغال في التشتت والفرقة والحرص على تجزئة عالمنا العربي وتقديس الفتات الكياني الـذي افتعله المستعمر، هو جوهر الأمراض المزمنة التي حولت الجسد العربي إلى مـا يداني الشظايـا، بل وحتى الهباء، وكرست الأنانيـة والفساد والتنصل من الواجب وخداع الذات ونهشها.

زاد من تفاقم الوضع في كثير من أقطارنا العربية مـا رآه بعضنا من أن غياب الفئات الوسطـى العربيـة غيّـب الضالعين بدور وكيل التغيير. لأن العلاقـة بين الأنظمة أو الأحزاب وبين الشعب ليست علاقة حوارية فيهـا أخذ وردّ وكرّ وفـرّ وتحديات تُفرض تبادليـاً بين طرفي المعادلة أو موقعيّ الهرم، القائد والشعب، لأن الموصل للحوار غائب أو مغيّب. فالفئات الوسطى تضطلع في العادة بدور التغيير في كل المجالات والاتجاهات، في الموارد والخبرات والأفكار والأعمال والقِيم والمفاهيم والأنسـاق والنُظم. ومن هنا هذا الفقر في قوى التغيير في المجتمعات العربية وانحسار اللعبـة بين قوى سلطـة مستبدّة وقوى معارضـة شعبية وشعبويـة علمانية أو دينيـة (انظـر: مرزوق الحلبـي ،الحياة ،لنـدن، ٢٠٠٦/١١/٩). لكن نجـاح الثورة

الشعبيــة الرائعة في تونــس، جنباً إلى جنب مع إنجازات المقاومة في لبنان وصمودها في فلسطين بشائر غد واعد مختلف.

نعــود إلى مسألــة الحــوار مــع الآخر الأجنبي، فنستعرض ما كتبه أنطونيو باديني، سفير إيطاليا في القاهرة، في مقالة عنوانها «البعــد الأمني في صميم الحوار الحضاري بين الغرب والشرق العربي». نتجاوز ما أورد هذا السفير فيها عــن التاريخ الاستعماري والمصالــح الغربية والغزو الأمريكي مكتفين برؤيته عن الحوار الثقافي، إذ قال إن مشاعر عدم الثقــة والخوف هي نتيجــة نقص أو عدم معرفة الواقــع. وكلما انتشرت المعرفة علــى مستوى الــرأي العام قلّــت الخسائر الناجمة عن الأخطــاء المحتملة. كما اعتبر تشجيع التفكير في عمل مشترك بين أوروبة والعــالم العربي لمواجهــة التكيف مع العولمة أمراً أساسياً - تكيفاً ناجحاً من دون التخلي عــن الخصوصيــة الجيوبوليتيكيــة للبحر المتوســط. وأن أوروبــة تتوقع مــن الثقافة العربيــة مشاركة قوية قائمــة على الإقناع في تحديــد إجابات مشتركــة عن تحديات الحداثــة. حيــث أن الانعزاليــة والانغلاق داخل حدود العــالم الخاص تضعفان فرص وقــدرات الشراكــة ،إلى أن يتــم تصحيــح الاتجاهــات التــي تناقض قيــم مجتمعاتنا ومصالحها المشتركــة. وانتهى إلى القول إن «من المهم أن تتاح إمكانية أن يتعمق النقاش داخــل العالم الغربي والعالم العربي لكي يبرز فضل من هو مستعد للتقريب بين مجتمعات المنطقــة ولتشجيع الاتفاق اتفاقــاً حقيقياً على القيم والمصالــح. ولكن لكي نصل إلى هذه الغاية، ينبغي لحوار الثقافات أن يأخذ على عاتقــه واجبات واضحــة مستنداً إلى التعاون والعمل الحقيقــي. فمن دون عمل ميــداني قائم على الاقتنــاع من جانب أكثر هيئــات المجتمع المــدني إدراكاً ينتابنا شك كبــير في أن تستطيع مبــادرات ضخمة مثل تحالف الحضارات تحقيــق نتائج حقيقية لها صفة الدوام. وينتابنا كذلك شك كبير في أن يستطيع الحوار أن يستمر أمام سياسات تظهر فيها عوامل إيجــاد الفرقة والتفرقة ومشاعــر الإهانــة والخــزي..» (الحيــاة، ٢٠٠٦/٩/١٧).

مــن الذاكرة الشخصيــة، استفسر مني سفــير آخر لإيطاليــا، كان عميــداً للسلك الدبلوماســي في دولــة كنــت علــى وشك مغادرتها بعد انتهاء عملي سفيراً لديها، عن السفــراء الذين أرغــب في أن يدعوهم إلى حفل عشــاء لوداعي في منزله، فطلبت منه دعوة سفراء الاتحــاد الأوروبي. شدّدت في خطابي في تلك الليلة على حاجتنا المشتركة

إلى الحــوار والتواصل، وكررت مرات ثلاث عبارة قمت بنحتها متضمنة طباقاً مزدوجاً في كلماتها الإنكليزية: «أرى البحر المتوسط بحــيرة للوصل وليس بحراً للفصل ». لكنني بت أدرك اليوم بعد نحو ربع قرن أن الآمال الطيبة والنوايا الحسنة قد تودي إلى التهلكة في عالم هيمنة متوحشة لطواغيت يتوهمون أنهم سادة العالم وسواهم العبيد.

لقد لخص المفكر المرحوم إدوارد سعيد محاولته الطويلة المضنية على امتداد عمره للتحاور مع الغرب، وخاصة على مدى العقود التي عاشهــا في الولايات المتحدة الأمريكية ولمع خلالها مفكراً وأستــاذاً جامعياً وكاتباً مرموقاً، فقال الرجل في أواخر أيام حياته: «حياة الفلسطيني العربي في الغرب، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، تبعث اليأس في النفس، وحين يتسامح فيعترف به فبوصفه إما أمــراً مزعجاً، أو شرقيــاً». رأى إدوارد سعيد للمثقف العربــي مسؤولية مضاعفة ودوراً شديد الحــرج في مجتمعاتنا، عندما يجــد نفسه أمام خياريــن: «إما أن يخاطب السلطــة كمتضــرع محــترف، أو يخاطبها كضميرها الذي لا يقبض ثمناً..».

ننتقــل إلى مثــال آخر لواحــد من أبرز مفكــري شمــال أفريقيا العــرب، عاش في فرنســا ومات فيها سنة ٢٠١٠، بعدما حمل جنسيتها وكتب بلغتها وروّج طويلاً للاندماج في مجتمعهــا وثقافتهــا، ذلــك هــو محمد أركــون الذي كتب بحسرة عــن مآل تجربته الطويلــة فقال: «على الرغم مــن أني أحد الباحثين المسلمين المعتنقين للمنهج العلمي، إلا أنهــم يستمرون في النظــر إليّ بوصفي مسلمــاً تقليدياً، فالمسلــم، في نظرهم، أي مسلم، شخص مرمي في دائرة جهاده المقدس وقمعه للمــرأة وجهله بحقوق الإنسان وقيم الديمقراطية ومعارضته الأزلية والجوهرية للعلمنــة... هذا هو المسلــم، في رأيهم، ولا يمكنه أن يكون إلا هكذا !».

إن «الأصــل في العلاقات الحضارية هو التواصل والتــزاوج والاندماج ولكن ما نراه الآن يعكــس صــورة أخرى مختلفــة تماماً عمــا ألفناه في العلاقات العربية والعلاقات الغربيــة معاً. فالمشهد بــدءاً من أفغانستان مروراً بالعراق وصــولاً إلى فلسطين ولبنان ثــم الصومــال والســودان يؤكــد أن حالة الاستهداف مستمرة وأن الأوضاع قلقة وأن النفوســ تفيضــ كراهية وعدوانــاً لأن ما حدث هــو عملية حقن للأجيــال الجديدة بمشاعــر الكراهية والغضــب.. (مصطفى الفقي، صراع حضــاري أم خلاف سياسي، الحياة ٢٠٠٦/٨/٢٨)

من أشد مشــاكل راهننا تعقيداً وتأزيماً

ما غلب من عصبية قبلية/عرقية/ عنصرية /طائفية/ مذهبية، مع ازدواجية في تعاملنا مع التراث. احتماءً ومباهاة، أو تنكراً له وتمرداً على جوهره. نتيجة ما قد استوردنا بخفة من فهم وتطبيق سيئين للانتماء القومي. فجوهر الانتماء القومي عالمياً هو تقرير الشعب لمصيره، بينما تقرير المصير بالذات هو ما لم يستطع العرب ممارسته أبداً في العصر الحديث نتيجة ارتهانهم لقوالب وقيود فرضتها قوى خارجية ولما افتعلته أو تبنته من بنى سياسية واجتماعية واقتصادية كرستها لتبقي أوضاع ما بعد الاستقلال أسيرة لها إلى حد بعيد. بلغ الخلل مداه عندما جرى افتعال صدام وتناقض بين الوطني والقومي والإسلامي في صفوف أمتنا، على نحو يفتقر إلى المبرر والمنطق والأساس. لم يكتشف أكثرنا لدى وقوعنا في الفخ أن ذلك الافتعال كان مقصوداً بخبث لإضعافنا جميعاً، وبالتالي للإمعان في وهن الأمة بأسرها. جاءت أولى نتائج هذا الصدام المفتعل تنافر سلوك الأمة مع جوهر ذاتها الحضارية وثقافتها، الذي هو الإسلام، بما أدى إلى اضطراب مساراتها على كل صعيد، وهدر طاقاتها ووقتها في صراعات عبثية، واختلال علاقة أكثرية عربية بفئات ومجموعات وأقليات عاشت معنا وعشنا معها قروناً مكوناً أصيلاً من مكونات مجتمعنا، لكنها باتت غير مشمولة بتعريف العربي وفقا للمفهوم الأوروبي المستورد. تطور هذا الاختلال صراعات دامية وحروب انفصال فاقمت ما قد فرضته بريطانيا وفرنسا من تمزيقنا أرضاً وبشراً وكياناً إلى فتات دول متنافرة متصارعة، فازددنا تجزئة فوق التجزئة، وتفتيتاً متجدداً لهذا الفتات. لا تقتصر الحالات المعاصرة على ما كان من تمرد مزمن للأكراد في العراق، وتمرد بعض قبائل جنوب السودان وغربه. وحتى شرقه أيضاً، مما جاء آخر فصوله انفصال جنوب السودان بتخطيط وتحريك وتسليح وتمويل من الموساد الإسرائيلي وأجهزة مخابرات أوروبية وأمريكية ومجلس الكنائس العالمي وشركات نفطية على مدى أكثر من نصف قرن، ولا على تلويح متجدد يطالب بحق تقرير المصير لأكراد العراق، على طريق قضم مزيد من أطراف العالم العربي بعد اغتصاب قلبه فلسطين، ناهيك بصراع دموي عابث على الصحراء الغربية استنزف الجزائر والمغرب معاً، وتحركات فرنكوفونية تتداخل مع هبات دامية للبربر برعاية فرنسية ظاهرة أحياناً ومستترة في أحيان أخرى ضد اللغة والثقافة والأخوة العربية في شمال أفريقيا، ودعوات متصاعدة لفرعونية تزعم

العمل لتحرير(!) مصر من العرب والعروبة. لقد باتت الاحتمالات تتوالد وتتناسل اليوم مزيداً من حركات وتحركات مماثلة. وإذ يتم الاستقواء أو التذرع بحق تقرير المصير، يظل من المحرّم ذكر هذا الحق أو استدعاؤه حين يتعلق بعشرة ملايين فلسطيني اغتصب وطنهم، بل وبثلاثمئة مليون عربي اغتصبت إرادتهم. لا ننسى كذلك مجموعات مشبوهة ادعت تجديداً للإسلام بينما هي راحت تهدم جوهره وأركانه -بوعي أو دون وعي- وتشوّه روحه ووجهه. لقد ثبت دور أجهزة المخابرات البريطانية وخبراء شركة الهند الشرقية ووزارة المستعمرات البريطانية بداية، والمخابرات المركزية الأمريكية لاحقاً، ومحافل سريّة لم تعد سريّة على أي حال، في تفريخ تلك المجموعات ورعايتها وتمكينها من النفاذ والامتداد في العديد من المجتمعات العربية والإسلامية، مشكلة طابوراً خامساً وميكروباً يفتك بجسم الأمة من داخله. تصب دعوات وحركات وتيارات أخرى متعددة الألوان في الاتجاه نفسه، منها قديم بات معروفاً، ومنها مستجد يتم تفريخه وإعداده ليعمل خفية، جنباً إلى جنب مع تفريخ وإعداد ودعم وكلاء من فئات وأفراد يتم تنصيب بعضهم قادة وحكاماً وأصحاب نفوذ.

ترى أما كنا سوف نتجنب الكثير من الانتكاسات والمنزلقات لو وضعنا في اعتبارنا لدى اختيار مسألة الهوية والانتماء، بدل العديد من الصيغ العنصرية المتضاربة - الأوروبية وبعدها الأمريكية- ذلك التحديد الذي ورد في حديث نبوي أخرجه الخطيب في رواية مالك عن أبي سلمى بن عبد الرحمن، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس، إن الرب رب واحد (الله) وإن الأب أب واحد (آدم) وإن الدين دين واحد، وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي». وهكذا فإن البعد الثقافي والعقيدي أساس الانتماء العربي وفق هذا الحديث النبوي، إذ ليس المقصود باللسان مدلوله الضيق كلغة، وإنما هو الثقافة بقيمها وتراثها وتفاعلاتها. وقد تجسد تأثير العامل العقيدي والثقافي في استيعاب نماذج بارزة مثل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في بدايات التجربة التي أقامت دولة امتدت فيما بين الصين وأسبانيا وشملت ما عرف بالعالم القديم ،أي آسيا وأفريقيا ومعظم أوروبة.

لقد آذانا كثيراً تمثل وتقليد الانحراف الفكري الذي كرّسه خطاب نرجسي أوروبي يمجد «عبقرية الغرب» على نحو أسطوري، ويصورها تميزاً جوهرياً وتكوينياً وفطرياً

عن باقي الأمم والشعوب، مستوحياً روحية هذه الثقافة النرجسية الشوهاء من آلية فكر لاهوتي سياسي مزور مريض، على نحو تقسيم البشر إلى آريين وساميين وحاميين ليصب آخر الأمر في خدمة مشروع الغزو الاستيطاني الاستعماري الإحلالي الصهيوني في فلسطين، الذي شكّل قاعدة انطلاق لهيمنة أوسع تمتد بعيداً في سائر الاتجاهات، ملتقية مع نزعات السيطرة والهيمنة والمصالح الاستراتيجية والجيوسياسية الغربية، ومتبادلة معها الخدمات على حساب سائر الأمم الأخرى. إنه خطاب مدمر تنبع جذوره من خرافات تلمودية عنصرية سامة كمقولة شعب مختار. فكيف يلتقي أو يتعايش زعم بفضاء إنساني لا متناه لبناء الحضارة الإنسانية مع أحكام مسبقة تجعل لكل أمة أو شعب أو مجتمع موضعاً ثابتاً في سلم تطور مقيد بخصائص بيولوجية أو عرقية أو اجتماعية أو جغرافية أو بيئية تؤبد تفوقاً فطرياً لأمة وإعجاز أخرى وتخلف ثالثة؟

مع ذلك، يظلّ الحوار هو المنطلق وهو الحل. حوار مع الذات أولاً يكتشف حالها ويحصّنها ويقوّمها بالنقد المتجدد والتطوير البنّاء الدائم، وحوار مع الآخر يبني جسور تفاهم وتعاون معه، مصحوباً بإعداد القوة لدرء العدوان واسترداد حق اغتصبه معتد لا يجدي حوار معه بغير قوة.

في كل الأحوال، إن حوارنا شاق نحن الذين تأسست ثقافتنا على الانطلاق من اعتبار الخلق كلهم عيال الله، وعلى قاعدة القول الإلهي: «**إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**» والحديث النبوي: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، وقول علي بن أبي طالب إن الآخر أخ لك في الدين أو أخ لك في الخلق، عندما يكون طرف الحوار الآخر نخباً ومجتمعات أسس ثقافتها تراث أمثال توماس هوبز على قاعدة سيد أعلى يتحكم بعبيد وتابعين، وجان بول سارتر الذي ردد مراراً عبارة: (إن الآخر هو الجحيم)، وجحافل توارثت حقداً عنصرياً أعمى جعلها تصرّ على شيطنة كل ما هو عربي أو مسلم.

مرة أخرى يشترط نجاح حوار مع طرف كذاك على أي حال حواراً صادقاً وفاعلاً مع الذات يسبقه ويواكبه!.

آفاق المعرفة

الدكتور المفكّر عبد الله شريّط ومعركة المفاهيم

محمود أسد ❁

أسئلة عدّة تلحّ عليّ قبل الشروع في هذه المقالة، ألم تجدْ غير هذا العنوان الكبير؟

وهل تُعْطي كلمةَ مفكر لإنسان عاش مديد العمر دأباً وبحثاً وتدريساً ودراسة، لكنه مات دون لفت نظر عربي في عصر السّرعة والمعلوماتية والاتصالات؟

وهل أدركتَ ما تعني كلمة المعركة وكلمة المفاهيم وكلتاهما معا؟

❁ ناقد وأديب سوري.

وهـل تجدُ المرحلة الراهنة مناسبة لهذا الموضوع، وقد اختلطـتِ الأوراقُ وتداخلتِ المفاهيـم، وتجنّبَ الناس القـراءة والكتاب وراحوا يلتفّون ويجتمعـون لمشاهدة مباراة استنفر الإعلام السياسيّ والثقافيّ والرياضيّ لأجلها؟

وهل تجد مـن يناقشُك ويتابع ما تريده من هذه المقالة؟

والإجابة ليستْ عسيرةً وصعبةَ الوصول ما دام المرءُ يعي ما يقرأ ويُدرك أبعاده.

ومـا دام السّـؤال محرّضـاً وموحيـا. فالدّكتور المرحوم عبد الله شريط ليس أوّل من يحظى باسم المفكر وهو أهلٌ له،وسوف أقول ذلك في ثنايا المقالة، وما أكثرَ الحائزين علـى الألقـاب والأسمـاءِ الإسفنجيّة التي لا تستطيـعُ حملَ أسمائهـم وجهالاتِهم مع الاعتذار من هذا التوصيف.

فالدعوة مفتوحـة لمعرفة ما يجري من تشويه وتزوير في المشهد الثقافي.

فالشّهادات العليـا مصدرُها السرقة أو الابتياعُ أو التأجيرُ والاعتماد على الآخرين، تابعوا تعرفوا.. وكلمـةُ معركة لها مدلولُها الفكريّ. فهي ليستْ قعقعةَ سلاح، ولا أزيزَ رصاص وقتل أبرياء. هي مواجهةٌ قاسية ومرّةٌ بين مجموعة كبرى مـن المفاهيم المتناقضة والسقيمة والتـي راحتْ تصرعُ ذِهْنَ النّاس، وتُفتِّـت ثقافتهم وتكويناتِهـم، وتُضلّهم عن فهم الماضـي والحاضر والمستقبل. وهذا ما أقدم عليه المفكر الدكتور عبد الله شريط.

سيرة موجزة:

أوّلُ معرفـةٍ لي عـن الدكتـور عبد الله شريـط كان عام ألـف وتسعمئـة وثمانية وسبعين أثناء تدريسي لمادة اللغة العربيّة في الجزائر. لم أعرفْه شخصيّا ولكن من خلال كتابه «معركة المفاهيم» الذي سوف أتحدّث عنه من بعد..

عبد الله شريّط مولود عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين على تخوم جبال الأوراس في قرية «مسكاته» والمتوفى في التاسع من تموز عام ألفين وعشرة. عن تسع وثمانين سنة.

سنواتُ عمره حافلة بالعطاء والإنجازات، درَسَ في قريته، ثم انتقل عام ألف وتسعمئة وثمانيـة وثلاثين للدراسة في تونس، وعكف علـى طلب العلـم والمعرفـة، ولكنّ الحرب العالمية الثانية التي اندلعتْ أرجعتْه إلى مدينة القسنطينة. وفيها انضمّ إلى علماء عصره. وأهمُّهـم «عبد الحميد بـن باديس» ولكنه سرعان ما عاد إلى تونس لينهي دراسته سنة ألف وتسعمئة وستّـة وأربعين. ومنها انتقل إلى دمشـق ليسجّل في قسـم اللغة العربية وبعد عام انتقل إلى قسـم الفلسفة،وتخرّجَ منه سنة إحدى وخمسـين وتسعمئة وألف.

وبعد عودته إلى الجزائر ومع اشتداد وطأة المعاناة للشّعب الجزائري من المستعمر الفرنسي. وجد نفسَه عاطلا عن العمل، فذهب إلى تونس للعمل في معاهدها. وهناك خاض معركة الفكر والقلم وربط ذلك بجهاد الجزائريين مع انطلاق ثورة أول نوفمبر «تشرين الثاني» عام أربعة وخمسين وتسعمئة وألف.

من تونسَ كان يُلهبُ النفوس،ويوقد المشاعر بمقالاته التي ينشرها في الصّحف التونسيّةُ ومنها «المقاوم» و«المجاهد» و«الصّباح التونسية» وكان سببا من أسباب مصادرتِها من قبل المحتلّ الفرنسي لجرأة قلمه.

تولّى مهمّة الإعلامِ بحزب جبهة التحرير ومع ذلك فُصِلَ من عمله، وصار عاطلا عن العمل لأنه يؤمن بحرّيّة الكلمة وصدق الموقف.

نال شهادةَ الدكتوراه عام ألف وتسعمئة واثنين وسبعين في الجامعة الجزائرية وكان موضوعُها «الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون» وأعتقدُ أنّ اختيار العنوان والأسماء في كثير من الأحيان يرسم ويوحي بأبعادِ نفسيّةِ صاحبِه.

ثم عمل في الجامعة وناقش وأسّس أجيالا وخرّج الكثير منهم.. وحبُّه لعمله وإيمانُه بجدواه دفعَهُ لرفض منصب كبير في الحكومة. ولقد خاض العديدَ من المعارك الفكريّة والاجتماعية والتي هي نتاجُ الواقع المنتَجِ بعد الاستقلال وأثناءَ الثورة. وكان شديدَ التمسّك بالمبادئ التي يُؤمن بها بلا هَوادة ولا مُجاملة وهذا ما عرّضه لمواقف ذكرناها آنفا.

وهو الذي كوّن نفسَه بوعي وثقة فجمع بين (سعةِ عقل ابن خلدون وإصلاح ابن باديس وملكَة مالك بن بتي).

وكان له لقاءٌ وموقف من الرئيس الجزائري هواري بومدين الذي رفض تأسيسَ اتحاد الكتاب الجزائريين عام /١٩٧٤/ وإلى جانب هذه القضايا الكبرى خاض معركة التّعريب التي تأجّجتْ بعد الاستقلال، وخاض متابعا وناقدا ومعلِّقا على تلك الصّراعات التي جرت بين رجال السّلطة في جبهة التحرير الجزائرية. فكان يُعبِّر ولا ينحاز إلاّ لعقله وللجزائر والحقيقة.

كان عبد الله شريط صاحبَ مشروع فلسفيٍّ واجتماعيٍّ، فهو رجلٌ متعدِّدُ الأبعاد، ومتنوِّع الثقافات فنال التكريم على جهوده من «المجلس الأعلى للّغة العربية».

ومن أهم مؤلفاته:

١- الأخلاق في فلسفة ابن خلدون عام ١٩٧٢م.

٢- من واقع الثقافة في الجزائر عام ١٩٧٢م.

٣- المشكلة الأيديولوجية وقضايا التعليم في الجزائر.

٤- حوار أيديولوجي حول القضية الفلسطينية ١٩٨٢م.

٥- معركة المفاهيم وهو موضوع بحثنا.

وترك كتابا لم يصدر (الثورة الجزائرية في جريدة الصّباح التونسية).

وقد نُشرتْ أعمالُه في سبعة مجلدات عن وزارة الثقافة الجزائرية. وبهذه المجلّدات عرّف بالثورة الجزائرية والمجتمع الجزائري والقضايا العربية المصيريّة وتحديدا القضية الفلسطينية.

الدكتور عبد الله شريّط وكتابه «معركة المفاهيم»:

الكتاب من منشورات (الشّركة الوطنيّة للنّشر والتوزيع الجزائر) ولم يُذكرْ تاريخُ النشر عليه. وغاب الفهرس، ولم تذكر الصفة العلميّة «الدكتور» قبل اسم مؤلفه. والكتاب عددُ صفحاته ثلاثمئة وأربعُ صفحات وكلّها مقالاتٌ ومتابعاتٌ منشورة في الصحف.

يُذكِّرنا بمقالات الأدباء الذين جمَعوا مقالات الصّحف بكتب كطه حسين في حديث الأربعاء بأجزائه الثلاثة ومن وحي القلم للرافعي ومن وحي الرسالة للزيات وغيرها من الكتب التي راحتْ تتكاثر في عصرنا الراهن. وهذا يدلّ على مدى العلاقة الوثيقةِ بين الإعلام ممثّلا بالصحافة والأدب، وهي علاقة تحتاج لإعادة اعتبارها بعد القطيعة القاسية والتي انفرد بها الجانب الصحفي على الأدبي. وأضحى الأديبُ المثقّف بمعزل إلا لفئة من الأدباء الصحفيين. للكتاب مقدّمة ذات أهمية، وهي نافذة مفتوحة لفك الألغاز والأسرار إن وجِدت لدى عبد الله شريط ولا أعتقد ذلك. لأنّه يميل إلى الوضوح والمباشرة ومدِّ جسور التّواصل مع قارئيه. ولكنّها تُجمِل مسارَ المفكّر وأسلوبَه وطريقةَ علاجه، وتلخِّصُ بعضَ آرائه وتجربته. وقد كتبَ المقدمةَ الدكتورُ المرحومُ محمود قاسم عميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سابقا.

وبلغتْ ثلاثَ عشرةَ صفحة على درجة عالية من التركيز والتحليل

وقفات وأقوال:

عنوان الكتاب «معركة المفاهيم» ذو دلالة، ومحرِّض للتوقُّف عند كلمة معركة، والمعركة هنا حيِّزُها المعاني، ومساحاتُها المفاهيم والمقولاتُ والعادات والمأثورات،

وأبطالُهـا أفرادُ المجتمع بمـا يحملون من متناقضات ومن مخلّفـاتِ العصور الطويلة ومن نتائـج الاستعمار والثـورة والتحرير، وميدانُهـا الجزائـرُ في المركـز، والسّاحةُ العربيّـةُ والإسلاميـة أطرافُها دون الفصل بـين الجميـع في نظر المفكـر شريّط الذي يقول عن كتابه:

(يتحدّث عن مفاهيمَ اجتماعيةٍ سياسية داخل المجتمع الجزائري وتُعتبر من الرّواسب الاجتماعية المضرة..).

وفي كتابـه أراد أن يَلفُت النّظرَ. فيدعو للانتقـال من معركة السّلاح إبان الثّورة إلى معركة المفاهيم التي نشطت بعد الاستقلال فيقول:

(إنّنا نحن -الشّعـوبَ المتأخرة- يتحكّم فينا الأمواتُ أكثرَ ممـا تتحكّم فينا الحياة ومشاكلُها.. لهـذا لا يوجد عندنا تفكير في المستقبـل.. المستقبل عندنـا هو عالم خارج هذا العالم.. هو الآخرة..).

فالدكتور شريّـط كرّس نفسَـه وحياته في كتبه عامـةً وفي كتاب معركـة المفاهيم للتّصـدّي لمثل هذه الأمراض والمواقف التي يَلفُـت النّظـر إليها طويلا واصفـاً ومحلّلاً ومحـاوراً. يصف الدّواء لكل داء، فلا عجب إن اصطادَ القارئُ جملاً وأحكاما لها صداها في النّفـس، تثيرك وتدعوكَ للتأمُّل والحوار مع الذات والآخر فعلى سبيل المثال:

(الحكم غنيمة وليس مسؤوليّة، والحكمُ شهوة وليس قانونـاً، وتسلُّطٌ وليس تنظيماً انظر مـدى مساحـة هذه الجملـة ومدى قدرتِها على توسيع دائـرة التفكير لمواجهة الواقع. ولذلك نراه يضايـق الآخرين، لأنّه يضع يدَه علـى الجرح الدامي، ولأنّه يسعى لإزالة صدأ العقول والنّفوس).

في كتابـه يسعـى إلى تحديـث الأفكار وإيجاد آلية جديدة وجادّة للتفكير. فيمضي للوقوف في وجه التعصّب الفكريِّ والجهل. واندفـع مُبدِيـاً اهتمامَه بقضايـا العدالة الاجتماعيّة.

جمـع كتـابُ «معركة المفاهيـم» ثمانياً وأربعـين مقالـة تراوحـت بـين الزّاويـة الصّحفيـة والمقالة المطوّلـة. وهي مقالاتٌ متنوِّعةُ الموضوعـاتِ، وغزيرةُ الثقافة. وقد جـاءت بأسلوب شائـقٍ يقتُل الملـلَ، ويدفعُ للمتابعـة. يعتمـد في مُعظمها على خطاب الآخر عن طريق الحوار. ليكون القارئ على مقربة منـه. وبأسلوبه يميـل إلى البساطة والعفويّة،ويستخـدم اللغة السلسةَ الملامسة لوجـدان القـارئ دون الاستسهـال باللغة الفصيحـة، وهـو أحدُ المدافعـين عنها في الجزائـر. ومن عناويـنِ مقـالات الكتاب وليس على سبيل التّعيم «المعركة بين الشّهوة

والقانون، ومعركة المفاهيم، وعود إلى معركة المفاهيم، وفلسفة البساطة، وأين هم تلامذة الشيخ ابن باديس، وفكرة للمسؤولين، وحياتُنا النّفسية قبل الثورة واليوم. والحقيقة والزّيف في مجتمعنا العربي»، وهي من المقالات الطويلة ولا تميل إلى الصّحافة وهناك مقالة البحث عن الحقيقة وتحدّث فيها محلِّلاً وراصداً ظروف النّكسة وما تبعَها..

ومن المقالات: «هل هي مسألةُ عُقد؟ والهوّة بيننا وبينهم.. والقهر الاجتماعي.. ومفهوم الحكم عندنا وعندهم.. والثقافة والسياسة..»

جُلّ هذه العناوين مجالٌ للحوار والحديث، وأبوابُها ونوافذُها مفتوحة وعرضة للتّساؤل والبحث، وهذا هو الهدف من الكتاب.

المؤلف يريد إيقاظ الجزائريين وتعريفَهم بأنّ ثورة الجزائر هي معجزة تضافرتْ بها الجهود العربية والإسلامية والوطنية، واعتبرها مرحلة لنهوض الوطن العربي وهذا ما دعاه إلى تبيان طريق المستقبل والسّبيل إلى ذلك في تجاوز السلبيات وتجديد آلية الحياة والتفكير والعمل والحوار والبناء

فكان يلحُّ على الثنائيّات والمقارنةِ والمقاربةِ بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية المعاصرة. تراه في مقالاته يمسكُ الواقع والعصا من وسطها، وينظر للأمور نظرة المتأنّي الواعي، ينظر إلى الوراء بعين وقلب بصيرين، وإلى الواقع والمستقبل بعين العقل لأنّ هاجس التغيير المبني على الأسس السليمة لا يفارقه.. وهذه مقولة المفكر والكتاب «معركة المفاهيم».

ومن الطبيعي وأمام هذا الهدف أن يقدِّم المفكِّرُ الشريّطُ أسلوبه بشكل يتناسب ويتلاءم مع سموِّ الهدف. فأسلوبه يُعجبك بطلاوته وسلاسته. وواقعيَّتُه تأخذُك إلى البؤر الغامضة لتكشفَها وترصدَها. وهذا عائد لأنّه رجلٌ مزيجٌ من الأدب والفلسفة وعلم النفس والشّريّط لا يفتعل الموضوعاتِ بقصد الكتابة وشهوة القول، بل كتابتُه حصيلةُ تفكير، يعي الواقع ويلامسُه فمن هنا نرى المعاركَ التي فتحها ما زالت متّقدة وأكثر اتّقاداً .دعوتُه ما زالت مستمرة،ومحيطُها يتجاوز مركزَها الجزائرَ إلى عوالمَ أخرى تحيط بنا.

تبدو في حنايا مقالاته آلامُه النفسيّة وقلقُه المستعر الذي يقضُّ مضجعَه، والجميلُ بالأمر أنّه ربط العاطفيَّ بحبل متين من حكمة العقل والتجربة وهي ميزة تجلّت فيها الموضوعيّة ومصداقية التوجه ممّا أكسبه احترامَ مَنْ ينتقدهم ويتوجّه إليهم..

في هذا الكتاب مقولاتٌ تستحقُّ الوقوف أمامها لفكّ دلالاتها، الشريّط في ذلك يضايق المتنفّذين والمستفيدين من الأوضاع السلبيّة السائدة، ولكنّه يأخذهم وغيرَهم إلى مواطنِ العلّة والدّاء. يلجأ لهذا باستخدام الحوار والقصّ والمقارنة واستدعاء التّاريخ والأحداث، فيفرّق بين الثقافة العربية الأصيلة وبين الرّجعيين المتخلّفين عقلاً ونظراً ورؤية، ولذلك يحذِّر من أدعياء الثقافة وأعداء التفكير الواعي. فيقول:

(رجالُ الدين كانوا ثوريّين في مواجهة فرنسا وبعد الاستقلال رجعيّون، أمّا اليوم فقد أصبحنا نستطيع أن نكون مثلَهم دون أن يسوقونا إلى ذلك بأنفسهم. فإنّنا اليوم لا نريد أن نكون فرنسيين،بل نريد أن نكون متحضّرين مثلَ الفرنسيين والإنجليز والروس... إنّنا اليوم لا نتشبّه بأمّة بعينها. بل بطائفة من الأمم الرّاقية. كما لا نريد أن ننسلخ من كلّ مظاهر التأخّر التي نلتقي فيها مع كل الشّعوب الأخرى المتأخّرة).

هذه الإحاطة بعناصر الموضوع وحسنِ معالجتها إحدى سماتِ المقالات والمفكّر. تراه متمكّنا وماسكا مسار موضوعِه لا تجرفُه المشاعر فينزلق وراء ذاته اللاهبة والملتهبة.

فالشّريط إحدى غاياته من هذه المقالات تطهيرُ وتعقيمُ التراث من الأوشاب والأمراض. ويسعى إلى تعميق فهْم الحاضر ورصده استعداداً للمستقبل الأفضل يقول متسائلاً:

(ماذا يفعلون بالنّصر، لقد تغلّبوا على العدوّ وأخرجوه من أرضهم. ثمّ ماذا؟ وإذا كان هذا هو الهدف فإنّهم بعد أن حقّقوه سيبقون مكتوفي الأيدي، ينعمون بنشوة النّصر ويتغزّلون به، ويَنظُمون فيه الأشعار، ويُمجِّدون الأبطال الذين استشهدوا ونالوا جزاءهم في الجنة...).

الشريّط يخشى على ضياع ثمَرة النّصر الذي حقّقه الثوّار وهو على حقٍّ بذلك.. فيبدو قلقاً، ويضيء الدّرب الغائب.

الشريّط ينتمي إلى الأسمى والأنقى فهو وطنيّ صادق، وهو عربيّ ومسلم أصيل. حمل لواء الإصلاح مؤمناً بدور التأسيس الحضاري والفكري. فاتجه إلى المفارقات والسخرية.

في مقالته «دعوة بلا رسالة» يسخر من ملك مسلم يقطع يدَ من يسرق دجاجة، ولا يطبِّق الشّريعة ممّن يسرقُ ثرَواتِ الأمة بأسرها من الأمراء..

ولهذه الأسباب والمفارقات كان يذهب بأسلوبه إلى السّخريّة القاسية المعرّية يدفعُه إلى ذلك حبٌّ مثاليٌّ ونظرةٌ واقعيّة من

الغيرة.. والقارئ لسيرته وعطاءاته وعلاقاته يرى مصداقيّة ما طرحه من مفاهيم أخلص لها، فقد ترك أهمّ المواقع السياسية والحكومية ليبقى إلى جانب الجيل في كلية الآداب فيقول:

(إنّها قضيّة مجتمع كامل، وليست قضيّةَ الفرد أو بعضِ المسؤولين، وهذا المجتمعُ يجب أن نكوّنه في الأساس، ونبعثَ أجيالاً جديدة تتعلّم النظام والاقتصاد من الصّغر. وهذا ما نفعلُه. ونحن مجرّدُ معلمين، ولا نستطيع فعله ونحن مسؤولون كبار).

وهذا ما أراد قوله في مقولته «التزام أخلاقي وسلوكي» فهي دعوةٌ لربط القول بالعمل، وتفسيرِ النّظريات والمقولات بالممارسات.. ولم يأتِ هذا من فراغ لأنه عايشه عن قرب، وهذه المعارك في المفاهيم يراها أشدَّ شراسة وأقوى وطأة لأنها تتناول البُنيةَ العقلية والنفسيّة للمرء. وهذان الجانبان لهما عظيم الأثر في رسم مسار الوطن. فيذكر في مقالته معركة الشّهوة والقوانين:

(هي معركة أشدُّ خطرا من معركة تحرير الوطن من المستعمرين. إذ هي معركة المفاهيم التي يجب أن ينتصرَ فيها الشّعبُ لتعميق الصلة بين ما أنجز وما سوف يُنْجز...)

ولذا كان لايخشى لومة لائم، ولا يحاولُ تجنُّبَ السّلبيّات،بل يُواجهها حسب مقتضى الحال.. مراعياً بأسلوبه ومعالجته الواقعَ بشكل عام وظروفَ المواطنين والمجتمع، فيميل إلى بسط آرائه مستعيناً بالحكاية أو الحوار أو تنويع المشاهد والصور فيضعك في المعترك وفي قلب المشهد كيلا تكون حياديّاً. اصطادَ عقدَ النقص وواجهَها: في مقالته «المقارنة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية».

(أخشى أن يكون نفورُكم من الحضارة الحديثة سببُه هو عجزُكم عن هضمها، وتحمُّلِ مسؤوليّاتها، وفرارُكم ممّا تقتضيه هذه الحضارةُ من يقظةٍ فكريّة مستمرّة، وأفكارُكم أنتم تعوّدتِ الهدوءَ والفراغ وصمتَ الصّحراء وحوافرَ الماشية...)

رغمَ قسوة المواجهة، وصراحة القول نراه لا يقطع صلتَه بالمتوجَّه إليهم. فيبني الجسورَ، ويقوِّي العلاقات، وهذا يرجع للتلاحم العضويِّ بين المقالات،ويعود لحسن معالجتها، فأكثرُ ما يشغلُه في هذه المقالات أمرُ الأجيال وضرورةُ التعايش معهم والتّقارب منهم، هذه المقالاتُ تقدّم الدكتور عبد الله شريط أديباً وسياسياً وفيلسوفاً وعالمَ اجتماعٍ وحكيماً. كلُّ هذا برجلٍ لم يخرج عن إطار عصرهِ ومحيطِهِ. يأخذُك بقلمه وفكرِهِ

إلى مركـز وثـورة الإشعاعِ لكشـف الظُّلمةِ والظّلامـة عـن النفس الضالّـةِ والمضلّلةِ. العنوانـات تتكئ على الثنائيـة والتضاد... الشّكل والمضمون.... الهـوّة بيننا وبينهم.. مفهـوم الحكم عندنـا وعندهـم، الثقافة عندهم وعندنا، بين السماء والأرض، يجب ولا يجـب، الحقيقـة والزيـف في مجتمعنا العربي.

كتـاب معركة المفاهيم ليس كتاباً لمرحلة معيّنـة وإن كتب في ظرف ما، وليس موجَّهاً لشعب أو قطر، وليس كتاباً أيديولوجياً تابعاً أو مروِّجا لنظريّة سياسية أو حزبيّة محدّدة. هو كتابٌ وجَباتُه غنيّـة وثريّة يستفيد منها المجتمع والفرد. كتابٌ يتجاوز زمانَه ومكانَه، ويتجـاوز النّظـرة الضّيّقة. حاملُـهُ العقلُ والفكـر، ومحرّكُه القلب،ورُبّانُه أسلوب سهل وماتع...

وما دامـتِ المعارك مستمـرّة ومتجدّدةً فإنـه يبقى. ومـا دام القسـمُ الأعظم من مفكّرينا ومثقّفينـا توجَهوا إلى الخصومات والتّنظيرات وإفراغِ شِحَن الغضب والانحياز والبعدِ عن الموضوعيّـة، وابتعدوا عن بؤرة الضّوءِ الحقيقيّة، فإنـه يبقى مُعَدّاً للقراءة وتجديـد الأسئلـة وبعثِهـا وتوليدِهـا من جديد..

وإليـك بعضَها: في ختام المقالة «ورد في مقالة مشكلة ازدهار ولا حلّ لها..»

(إنّ الهـوّةَ سحيقـة بـين إمكانياتنا في الميزانية والإطارات، وبـين سيرتِنا القديمة في إنجـاب الأولاد بـدون حسـاب. فكيف العمل؟) ص١٢٥.

ويقول في مقالة «يجب ولا يجب»:

(إنّ مفهوم الوطنيّة عندنا ما يزال بدائياً سـواءٌ عند المثقفـين بالفرنسية أو العربية. محبّة الوطن هي محبة خيراتِه التي ينعُم بها علينـا. وليستْ هي محبةَ المواطنين والبحثَ عـن صالحهـم قبـلَ البحثِ عـن راحتنا. ومفهومُ السعادة عندنا هو أن يَكثُرمن حولنا الأشقياءُ وليس هو العمل على إشراكهم معنا في أكبر نصيب منها...) ص١٤١.

ويقول في مقالتـه «الحقيقة والزّيف في مجتمعنا العربي..»:

(وإذنْ، فالمجتمع الذي لم يقُمْ على أسس عقليّة فهـو لا يُعدُّ مُجتمعـاً حقيقيّاً. وابنُ خلدون من ناحيته يعتبر الوجودَ العلميَّ هو آخرُ مرحلة في الوجود النظريّ، بحيث يكون الوجـودُ الاجتماعيُّ الذي لم يركـبْ مطيّةَ الفكـر إلى الوجود العملي فـلا أمل له في الوجود الحقيقي. ومـن ثَمَّ كرَّس كلَّ جهده إلى فهم المجتمع العربي ذهنيّاً لأنّه لاحظ أنّ هـذا المجتمعَ بقي محروماً من قِبَله من هذا الوجود الذهنيِّ الذي هو الوجود الحقيقي) ص١٤٦.

ويذكر في مقالته «نحو آراء أخرى»:

(هنا أنا أيضاً يجب أن أعترفِ بغرورنا. إنَّ كلَّ من شَعَر منّا بأنه متفوِّقٌ على صاحبه في ميدان من ميادين الثقافة إلاّ وحاول أن يُظهِرَ هذا التفوُّقَ لا رغبةً في تعليم غيره بما يعرف. بل حرصاً على إظهار عضلاته الفكريِّة الناتئة. ولقد شعرْتُ بهذا أكثرَ من مرّة،كلما اجتمعْتُ بقوم من طبقتنا. وكان الحديثُ يدور في موضوع. فلا تشعرُ إلاَ أحدَ الحاضرين قد حاول أن يخرج به إلى موضوع آخرَ، يجد فيه هو ما يقول إن ضاقتْ به سبلُ القول في الموضوع الأول...) ص ٢٥٤.

وفي الختام يقول في مقالته «الثقافة عندهم وعندنا» ويسرد فيها العديدَ من الآراء إلى أن يختمها.

(ورأيي هنا هو أنّنا إذا كنّا بين شرّين وكان لا بدّ لنا أن نتخلّص من أحدهما: شرِّ تقليد القدماء وشرِّ تقليد المُحدثين،فإنّي أفضّل شرّ المحدثين على شرّ القدماء لا لأنّي أحملُ عاطفةً خاصّةً نحو هؤلاء وأولئك. بل لأنّي أعتقدُ أنّ ذلك هو الذي سيتمّ شئْنا أو كرهنا. ولكنْ أليس الأفضلُ أن نجد طريقاً وسطاً يقينا الشرّين..؟ بلى.. قد يوجد.. ولكنّي أخشى أن يكون طريقاً نظريّاً أكثرَ منه عمليّاً..) ص ٢٦٩.

آفاق المعرفة

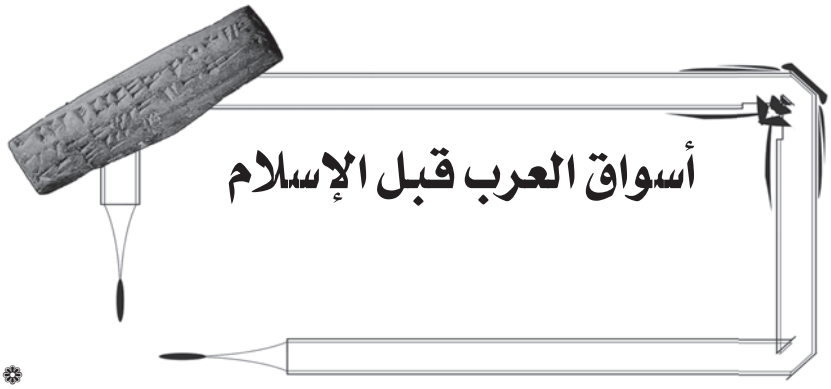

أسواق العرب قبل الإسلام

د. نزار عوني ❁

الحديث عن أسواق العرب في الجاهلية، حديث فيه متعة للنفوس وفوائد للعقول، فهو يعود بنا إلى المجتمعات العربية القديمة مسلطاً الضوء على ظواهر مرتقية فريدة، وقد لا يعلم الكثيرون، أنه كان للعرب في الجاهلية «معارض موسمية» لم يعرف تاريخ الأمم الأخرى مثيلاً لها، لا من قريب ولا من بعيد.. إنها أسواق تجارية، ولكن من نوع متميز.. فقد كانوا يقيمونها في مواقيت معلومة كل سنة وفي مواقع محددة منتشرة في ربوع وأماكن مختلفة من الجزيرة العربية وأطرافها.

❁ باحث سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

أسواق الحجاز ونجد

سوق عكاظ: وهو حدث فريد من نوعه في التاريخ العربي وظاهرة متميزة لم تشهد لها حياة العرب مثيلاً قبل الإسلام، فهو وإن كان سوقاً تجارياً في بدايته، إلا أنه اتسع وتطور تطوراً ملحوظاً ليشمل كل الأنشطة في حياة العرب. فعكاظ -كما يقول د.طه حسين في كتابه الشهير: الشعر الجاهلي- كان محفلاً مشهوداً وعالماً كبيراً قائماً بذاته:

١- نبدأ أولاً بمعنى كلمة «عكاظ».. وكيف اصطلح على أن تكون اسماً لهذا السوق الشهير؟ كلمة «عكاظ» من عكظة يعكظه عكظا: حبسه، عركه، قهره، رد عليه فخره، رده، صرفه، مطله..

عكظ به: افتخر.. وتعكظ القوم: اجتمعوا، ازدحموا.. وتعاكظ القوم، تفاخروا، تعاركوا، تجادلوا.. هذه هي مجمل معاني الكلمة، وكأن الكلمة وجدت فقط من أجل هذا السوق، لا لسبب لغوي آخر.

٢- عكاظ المعرض التجاري: ما الذي كان يعرض في سوق عكاظ من أصناف التجارة؟.. وما هو النظام التجاري الذي كان يضبط أمور التجارة، والتوريد والتصدير، وعمليات البيع والشراء؟ يقول المؤرخ سعيد الأفغاني في كتابه «أسواق العرب في الجاهلية والإسلام»: «لاشك أن المعروضات في سوق عكاظ كانت كثيرة ومتنوعة، حتى إنها أغرت الملوك والأمراء في المناطق المجاورة، ومن هذه المعروضات: الثياب والزعفران والأصبغة والعلك والخضاب والبخور والعقيق، إلى جانب الطيور المستخدمة في الصيد كالصقور».

٣- عكاظ المنتدى الاجتماعي: وكما كان سوق عكاظ معرضاً تجارياً عاماً لقبائل العرب كافة. فقد كان كذلك منتدى اجتماعياً كبيراً حافلاً بكل النشاطات والفعاليات الاجتماعية في حياة العرب.

٤- عكاظ المجمع اللغوي والأدبي: كذلك كان سوق عكاظ مجمعاً لغوياً وأدبياً اهتدى العرب بوساطته إلى تهذيب لغتهم لفظاً وأسلوباً، وإلى جعل لغة الشعر والخطابة لغة واحدة بين جميع القبائل.

• **سوق مجنة:** يقع هذا السوق على

بعد بضعة أميال من مكة، أما موعد قيامه فيبدأ بعد انتهاء أيام سوق عكاظ ويقام في العشر الأخير من شهر ذي القعدة، حيث ينتقل إليه من شهدوا سوق عكاظ وللغايات نفسها تقريباً.

• **سوق ذي المجاز:** ويقام عادة أوائل شهر ذي الحجة بعد انتهاء أيام سوق مجنة، لتكون أيام العرب، التجارية والاجتماعية والأدبية قد تنقلت بصورة متفق عليها داخل الجزيرة العربية.

• **سوق دومة الجندل:** يقع هذا السوق شمالي نجد في منطقة الجوف على حدود الشام، ويعتبر موقعه الهام نقطة متوسطة بين المدينة (يثرب) والخليج العربي وبلاد الشام، ويحتشد فيه القادمون من الشام ومن كل أنحاء الجزيرة العربية، وضمن هذا المربع الجغرافي الواسع للأسواق الأربعة، التي تبدأ في الجزيرة وتحتضن كل أمصار الخليج العربي، تستكمل تلك الأسواق أنشطتها وفعاليتها السنوية لتبادل التجارة

والتلاقح الاجتماعي والأدبي مع بلاد الشام عبر بوابة سوق دومة الجندل.

أسواق الشام

• **سوق دير أيوب:** دير أيوب بلدة من البلدان التاريخية القديمة، وما تزال موجودة آثارها حتى اليوم، في منطقة «شيخ سعد» التي تقع في حوران من أعمال الشام والقريبة من مدينة «نوى» ويزعم المؤرخون

أنــه كان بها منزل النبي أيــوب وأن مقامه مــا زال فيها حتى اليوم.. وهــو أول أسواق الشــام قياماً، لأنــه أول محطة من مشارف الشام، تصل إليها القوافل التجارية القادمة من الحجاز.

• **سـوق بصـرى:** تعتبر مدينــة بصرى، منذ القديم، من كبريات مــدن الشام، ومن أهمها شأناً في التاريخ وتقوم شهرة بصرى، بنوع خاص على التجارة.. لأنها كانت ملتقى التجــار العــرب، الذين يأتونهــا بما تنتجه بلادهم، وبما يحملونــه معهم من منتجات الهند والحبشة.

• **سـوق أذرعـات:** أذرعــات: مدينة من مدن الشام، تقع بالقرب من البلقاء وتعرف اليوم باســم درعا ويمكن القــول إن شأنها شبيه بشأن بصرى، أو هو يليها.

أسواق الخليج العربي

انتشــرت ظاهرة الأســواق الموسمية في الخليــج العربي انتشــاراً واسعاً، وفيما يلي أبرز تلك الأسواق:

• **سـوق هجـر البحريـن:** يطلــق اســم البحريــن حالياً على مجموعــة من الجزر الواقعة في منتصف الخليج العربي بين قطر والقطيــف، وكانت تلك الأسواق تشتهر ببيع التمور والمنسوجــات والثياب المصنوعة من الكتان.

• **سوق عمان:** وفي تلك الأسواق العامرة كان يجري تبادل البضائع ما بين منتوجات اليمن والحجاز وبلاد الشام والحبشة والهند وفارس.

• **سـوق المشقـر:** والظاهــرة الغريبــة في هــذا الســوق، هــي إحدى طــرق البيع المتميــزة.. فقد ذكر ابن حبيــب أن «بيعهم فيه الملامســة والهمهمــة» إذ يتبايعون ولا يتكلمون.. فهــي طريقة طريفة وعجيبة في التبادل التجاري.

• **سـوق صحـار:** وهو سوق عماني شهير آخر كان يستقبل التجــار الأحباش والهنود والفرســ وبعض البلــدان العربية القريبة، وعــادة مــا يقصدهــا التجار عــن طريق البحار.

• **سوق دبي:** ويقع إلى الشمال من مدينة صحار، ويجتمــع فيه من لا يجتمع في غيره مــن أهل المشرق والمغــرب، وهو عامر طيلة أشهر السنة.

• **سوق حجر اليمامة:** ويقع في بلاد اليمامة إلى الغرب من البحرين.. وقد بقي هذا السوق معروفاً حتى أواخر العصر الأموي.

أسواق الجنوب العربي

• **سوق شحر قهره:** وهذا السوق لايقصده إلا من كانت له مصلحة في تجارته لأن الطريق إليه طويلة وصعبة ولا تخلو من المخاطر، كما أن قاصده لا يمكنه الاستغناء عن خفارة يتحفز بها خوفاً من اللصوص والغزاة وقراصنة البحار وقطاع الطرق.

• **سوق عدن:** كان العرب إذا انتهوا من سوق الشحر، بعد أن ينتهي موسمه، رحلوا إلى عدن.. إذ فيه أشهر منتجات عدن إضافة إلى البن وأنواع الطيب الفاخرة.

• **سوق صنعاء:** حين ينفض الناس عن سوق عدن، يتابعون رحلتهم، فيصلون إلى صنعاء، حيث يقام هذا السوق في وادي صنعاء، وكان التجار يحضرون السوق بالأدم والبرود والزعفران والأصباغ وسوى ذلك من المعروضات.

• **سوق حضرموت:** معروف أن حضرموت هي إقليم يقع غربي عمان وشرقي صنعاء وشمالي الشحر، وهو قاحل إجمالاً، أما هذا السوق فيقوم في رابية حضرموت.. وهو سوق عادي يقتصر على أهل المنطقة فقط.

• **سوق حباشة:** الحباشة هم جماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.. وقد سمي كذلك، لأن من يقيمون فيه ينتمون إلى مختلف القبائل العربية. ومن طريف ما يذكر عن سوق حباشة أنه كان السبب في قيام المؤرخ ياقوت الحموي بتأليف كتابه الشهير «معجم البلدان»، على أثر خلاف قام بين ياقوت ورجل آخر، حول ضم الحاء في كلمة «حباشة» أو فتحها.

أسواق العراق

لم يذكر شيء مفصل عن أسواق العراق سوى ما ورد في بعض المصادر من إشارات مختصرة.. ومن أسواقها:

• **سوق الحيرة:** الحيرة مدينة قديمة مشهورة كان موقعها شمالي الكوفة..

• **سوق المربد:** المربد ضاحية من ضواحي

مدينـــة البصرة، والسوق المذكـــور من أشهر أسواق العرب القديمة، وقد عرف بالتجمع الكبير للقبائل العربيـــة، خصوصاً الشعراء المعروفين في تراثنا العربي القديم.

المراجع

١- د. محمد عاطف، أدبيات اللغة العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر.
٢- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار التراث للنشر، دمشق، سورية.
٣- عرفان محمد حمور، أسواق العرب قبل الإسلام، المركز العربي للنشر، بيروت، لبنان.

آفاق المعرفة

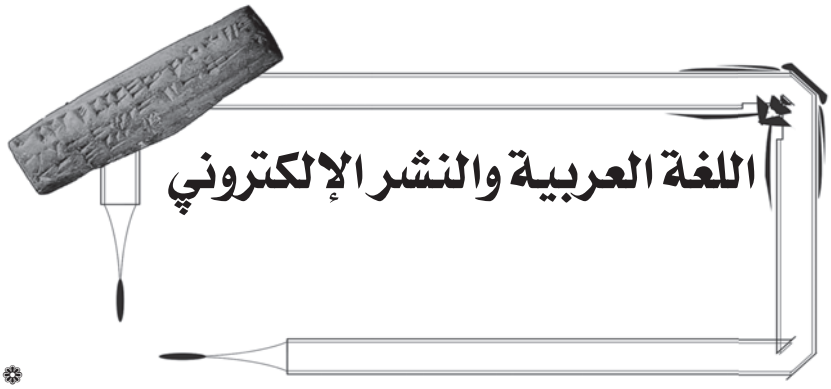

اللغة العربية والنشر الإلكتروني

د. تركي صقر

كان احتفال منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» باليوم العالمي للغة الأم هذا العام مشوبا بظلال من التشاؤم حيث أفادت المنظمة أن نصف لغات العالم وعددها ستة آلاف لغة مهددة بالاختفاء وأن عشرات اللغات الموجودة في ألمانيا سواء كانت محلية أو تتحدثها أقليات مهددة بالانقراض خاصة لهجات: ريزش وبايريش وموزلفرانكيش.

كاتب وصحفي ودبلوماسي سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

وقالت لجنة تمثيل ألمانيا لدى المنظمة في بون إن لغة من بين لغات العالم تختفي كل أسبوعين تقريباً علما أن المنظمة تحتفل كل عام باليوم العالمي للغة الأم تذكيراً بالتنوع اللغوي في العالم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هل كان للتطور التكنولوجي الهائل وثورة الاتصالات أثر سلبي في انقراض هذه اللغات خاصة وأن لغة النشر الإلكتروني تهيمن عليها بنسبة ٨٥٪ لغة واحدة هي اللغة الإنكليزية؟؟؟ والسؤال الآخر الهام المطروح أين تقف اللغة العربية في ظل هذه العولمة الإعلامية التي تحمل في طياتها تنميط الثقافات بثقافة واحدة وبالتالي فرض لغة عولمية واحدة على الشعوب والمرشح الأوحد لهذا المنصب بالطبع هي اللغة الإنكليزية بلا منازع كونها المهيمنة بالمطلق على لغة الشبكة العنكبوتية..؟؟ وقبل التحري عن الإجابة الممكنة يجدر التنويه بمعنى النشر لغة واصطلاحا: يقول المعجم الوسيط. نَشرَ الكتاب أو الصحيفة: أي أخرجه مطبوعا. والناشر: من يحترف نشرَ الكتب وبيعَها. والنشر: طبعُ الكتب والصحف وبيُعها أما بخصوص النشر الإلكتروني فالمصطلح يتباين من حيث الوسيلة ونورد المعنى والفروقات كما ورد في الموسوعات الحديثة وفي مقدمها الموسوعة الحرة – ويكيبيديا.

١- معنى النشر الإلكتروني:

النشر الإلكتروني (بالإنجليزية: Electronic Publishing أو ePublishing) هو النشر الرقمي للكتب والمقالات الإلكترونية، وتطوير الكتالوجات والمكتبات الرقمية. ولقد أصبح النشر الإلكتروني شائعاً في مجال النشر العلمي، حيث وجد أن النشر العلمي هو طبعُ الكتب والصحف وبيُعها والعمل على استبدال مراجعة الدوريات العلمية من قبل المختصين ولكن وعلى الرغم من أن التوزيع عن طريق الإنترنت عبر المواقع مرتبط جداً بمصطلح النشر الإلكتروني، إلا أنه يوجد الكثير من طرق النشر الإلكتروني عبر الشبكة، كالموسوعات التي تكون على قرص مضغوط، إضافة إلى المنشورات المرجعية والفنية التي يعتمد عليها المستخدمون المتجولون من دون اتصال عالي السرعة بالإنترنت. وهناك بلا شك فرق كبير بين النشر الإلكتروني وبين النشر التقليدي للمعلومات الذي يتم من خلال طباعة الكتب والصحف والمجلات وتوفيرها للقراء، كما أنه يشمل طباعة المنشورات والإعلانات التجارية وغير التجارية وتوزيعها بشكل ورقي على المهتمين. وشركة النشر التي ترغب بالترويج لكتاب معين لا يمكنها الوصول إلى قطاع واسع من الناس إلا من

خلال حملة إعلانية واسعة تشمل التلفاز والمذياع بينما النشر الإلكتروني بطبيعته قائم على التعميم والانتشار الواسع لعموم المتلقين في أربع جهات الأرض في وقت واحد فمسافات المكان تتماهى مع فواصل الزمان والمتلقي في النشر الإلكتروني لم يعد متلقيا فقط وإنما غدا طرفا فاعلا ومتفاعلا في مجمل العملية ويهمنا أن نقف هنا عند الحالة العربية فيما يتعلق بالنشر الإلكتروني للوصول بالتالي إلى وضع اللغة العربية.

٢- العرب والنشر الإلكتروني:

لقد تأخرت صناعة النشر الإلكتروني في الوطن العربي مقارنة بالتقدم المذهل الذي تحقق في الغرب والمصاحب لنمو كبير في صناعة الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات. ففي الوقت الذي يتحول فيه العالم من عصر النهضة الصناعية إلى عصر المعرفة وتتحول اقتصاديات العالم إلى اقتصاد المعرفة مازال حجم التواجد العربي والإسلامي في العالم الرقمي ضئيل جدا مقارنة بتعداد سكانه الذي تخطي المليار. وبالتالي فإن الثقافة العربية والإسلامية من ناحية حجم المعلومات والموجودة في صورة رقمية مازال ضئيلا، مما يترتب على ذلك كلفة باهظة تضاف إلى ثمن الكتاب.

وتحضرني هنا تلك الحكاية العربية القديمة التي تقول:

أن أميرا أراد أن يكرم عالما كبيرا، فدعاه إلى الإقامة في قصره، ليستفيد من علمه وينهل من شعره، ولم يشأ العالم الكبير، أن يرفض دعوة الأمير، ولكن طلب منه أن يرسل له أربعين من الإبل والبغال والحمير، ولما سأله الأمير عن سر طلبه، أجابه أن الإبل والبغال والحمير ليست له، ولكن لحمل بعض كتبه ومراجعه ومجلداته ومعاجمه التي لن يستطيع الاستغناء عنها أثناء إقامته عند الأمير، فطلب الأمير من الوزير تنفيذ رغبة العالم الكبير.

تُرى لو بُعِثَ هذا العالم الأديب الآن من قبره، وشاهد بأم عينه، التطور التكنولوجي والإلكتروني الهائل الذي يعيشه أحفاده من العلماء والأدباء، بل يعيشه الإنسان العادي، إنسان أول القرن الحادي والعشرين، تُرى ماذا يفعل وماذا يقول؟

أعتقد أن أول شيء سيفعله هذا العالم هو محاولة التعلم والتدرب على أجهزة الحاسبات الآلية، ومعرفة كيفية الدخول أو الاشتراك في شبكة الإنترنت العالمية، وإذا طلب منه أحد أمراء العصر أن يستضيفه في القصر، مثلما فعل الأمير القديم، لذهب عالمنا إليه ومعه حقيبة (سامسونيت) صغيرة

فيهـا كل كتبه ومراجعه ومجلداته ومعاجمه المخزنة علـى أقراص الحاسب الآلي، والتي يستطيع تشغيلها من خلال أجهزة الكمبيوتر الموجودة بلا شك في قصر هذا الأمير الذي يقدر العلم والعلماء، ويكرم الأدب والأدباء. أما إذا كانت هذه الكتب والمراجع والمجلدات والمعاجـم موجودة على شبكة الإنترنت، فلن يحمل معه هذا العـالم سوى حقيبة ملابسه فقط.

لاشك أننا نعيش الآن لحظات فارقة بين عصرين من عصور النشر، هما النشر الورقي والنشـر الإلكـتروني، تماما مثلمـا عاشت البشريـة تلـك اللحظات الفاصلـة عندما اخترع يوهان جوتنـبرج حروف الطباعة في عام ١٤٦٥م، فتحقق لعالم النشر قفزة نوعية هائلة وصفهـا مارتن لوثر ـ مؤسس المذهب البروتستانتـي ـ بأنهـا «أسمى فضائل الرب على عباده»، واستفاد منها المجتمع الإنساني طوال القرون السابقة، ولا يزال يستفيد.

٣ - نقلة نوعية في الوسيلة والمضمون:

يعيشـ إنسان هـذا العصـر الآن نقلة نوعية أخرى على مستوى الوسيلة التي ربما تؤثر في المضمون، وفي شكل طريقة الكتابة، فالنشر الإلكتروني -كما يقول صادق طاهر: هو استخدام الأجهزة الإلكترونية في مختلف مجالات الإنتـاج والإدارة والتوزيع للبيانات والمعلومـات وتسخيرهـا للمستفيدين (وهو يماثـل تماماً النشـر بالوسائـل والأساليب التقليديـة) فيما عـدا أن ما ينشر من مواد معلوماتيـة لا يتم إخراجـه ورقياً لأغراض التوزيع، بل يتم توزيعه على وسائط إلكترونية كالأقراص المرنة أو الأقراص المدمجة أو من خـلال الشبكات الإلكترونيـة كالإنترنت... ولأن طبيعـة النشـر هذه تستخـدم أجهزة كمبيوتـر إلكترونية في مرحلة -أو في جميع مراحل- الإعداد للنشر أو للاطلاع على ما ينشـر من مواد ومعلومات فقد جازت عليها تسمية النشر الإلكتروني .

ويعد النشـر الإلكتروني أحـد إفرازات البرامـج التطبيقيـة application programs التي تنتمي إلى عالم البرمجيات أو الـ software.

وقد استفاد الناشرون من تقنيات العصر، ومن وسائـل الاتصال والمعلومات، ومن عالم البرمجيـات، فاقتحموا فضـاء المعلوماتية، وحلقوا في سمـاء الصفحـات الإلكترونية والشرائـح الممغنطـة، وأقراصـ الليـزر، ووضعـوا مكتنزاتهم ومجلداتهـم على تلك الشرائح الرقيقة وطرحوها في الأسواق، أو عبر الأثير من خلال شبكة الإنترنت، فحدث تضخم هائل وغـير مسبوق بل يعجز العقل البشري عن التوصل إلى تقدير حجمه الآن،

ولعل هذا يرجع إلى أن المعلومات «تعد المورد الإنساني الوحيد الذي لا يتناقص بل ينمو مع زيادة استهلاكه»، على حد تعبير الدكتور نبيل علي في أحدث كتبه «الثقافة العربية وعصر المعلومات، ص٤٨».

يقول الدكتور سليمان العسكري في عدد يناير ٢٠٠١ من مجلة العربي إن «السنوات الراهنة ستشهد تطورا متسارعا تكون إحدى ثماره المباشرة اتساع رقعة النشر الإلكتروني على حساب حجم النشر الورقي على مستوى الدول المتقدمة في السنوات العشر القادمة، أما في الدول التي يطلق عليها العالم الثالث، فتحتاج من عشرين إلى ثلاثين عاما حتى يصبح لها نصيب يعتد به في هذا المجال». ويُضيف أنه مع حلول العقد الثاني من القرن سوف تفقد وسائل الإعلام المطبوعة والإصدارات الورقية بوجه عام جانبا كبيرا من أهميتها ودورها نتيجة التطورات الهائلة في مجالي الاتصال والمعلومات».

وفي خبر نشرته جريدة الأهرام المصرية جاء فيه: «قريبا وبالتحديد في عام ٢٠٠٦

ستختفي الصحف الورقية والأكشاك التي تبيعها من الشوارع، وتحل محلها أكشاكٌ إلكترونية، يمكن للقارئ أن يشحن منها جهازا إلكترونيا خاصا بالصحيفة أو المجلة التي يريدها، ثم يقرأها فيما بعد عن طريق شاشة إلكترونية خاصة».

وتقول شركة مايكروسوفت لقطاع التطوير التكنولوجي إنه بحلول الأعوام القليلة القادمة ستصبح هذه الأجهزة خفيفة، ولها شاشة مرنة وتزود ببطاريات تعمل لمدة ٢٤ ساعة. وأضافت إنه في عام

٢٠١٨ ستنقرض الصحف الورقية تماما، لأن الإلكترونيات هي المستقبل، أما الورق فهو الماضي.

ويقول بيل جيتس - مؤسس شركة مايكروسوفت- في كتابه «المعلوماتية بعد الإنترنت -طريق المستقبل»: -الذي قام بترجمته عبد السلام رضوان- إن الطريق السريع للمعلومات سوف يحول ثقافتنا بالقدر ذاته من العمق واتساع المدى الذي اتسم به التحول الذي أحدثته مطبعة جوتنبرج في العصر الوسيط. ويضيف: إن الأشياء تتحرك بدرجة من السرعة يصبح من العسير معها إمضاء الكثير من الوقت في النظر إلى الوراء. وأن التكنولوجيا لن تنتظر حتى يصبح الناس متهيئين لها، على الرغم من أنها هي الخادم وليست السيد. وعلى الرغم من ذلك فإن الناس يريدون أن يفهموا كيف ستجعل هذه التكنولوجيا المستقبل مختلفا، وهل ستجعل حياتنا أفضل أم أسوأ؟ غير أن إيقاع التغير التكنولوجي هو من السرعة بحيث يبدو في بعض الأحيان أن العالَم سيكون مختلفا تماما من يوم لآخر. وأن التكنولوجيا هي التي ستمكن المجتمع من اتخاذ قرار سياسي، لذا فإن الأمر يستحق بذل الجهد من أجل تأسيس علاقة ألفة مع أجهزة الكمبيوتر»..

يقول الأستاذ د.نضال صالح في كتابه «القصة القصيرة في سورية قصص التسعينيات» حول النشر الورقي في سورية خلال عقد التسعينات بأنه يمثل (ذروة ما وصل إليه الخط البياني المحدد لمسار التجربة القصصية السورية، فقد صدر فيما بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩٩ ما يزيد على خمسمئة وتسع وعشرين مجموعة قصصية، لنحو مئتين وخمسين قاصاً وقاصة، أي بمعدل ثلاث وخمسين مجموعة كل سنة، ومجموعة كل سبعة أيام!! وقد بلغت هذه الذروة حدها الأعلى في السنة الأخيرة من التسعينيات، التي شهدت وحدها صدور نحو ست وسبعين مجموعة، أي مجموعة كل أربعة أيام تقريباً!!).

٤-تأثيرات النشر الإلكتروني على اللغة العربية:

هناك تأثيرات سلبية وتأثيرات إيجابية على اللغة العربية جراء النشر الإلكتروني وتظهر التأثيرات السلبية أكثر ما تظهر في ناحيتين الأولى الحد من جماليات اللغة العربية والثانية الحد من فاعلية المواقع العربية بسبب مشكلات الصرف والنحو في اللغة العربية.

فنظرا لسرعة التعامل المطلوبة لغوياً على صفحات الويب، حيث إن كل ضربة

علـى لوحة المفاتيح لهـا ثمنها على الشبكة العالمية، فقد أدى هذا إلى اختزال النصوص إلى كلمات مفتاحية، الأمر الذي سيؤثر . في المدى البعيد . علـى جماليات اللغة العربية في عمومياتهـا، وأيضا في طريقة شكلها أو رسمها. وربما بعـد عشرين أو ثلاثين عاما من التعامل اللغوي بهذه الطريقة، نجد لغة عربيـة أخرى غـير التي نتعامـل بها اليوم هذا من ناحيـة ومن ناحية أخـرى فاللغة العربيـة تعتبر دخيلة على لغـات البرمجة، فقـد ظهرت بعض المشـكلات في المحارف العربية على مستوى الصرف والنحو، الأمر الـذي يؤدي إلى انغلاق نصـي يؤدي بدوره إلى انعزاليـة وثائقنـا الإلكترونية، وسرعة اندثارها، وضعف فاعليـة مواقعنا العربية لكـن التأثـيرات الإيجابية تبـدو أكثر كما عددها الشاعر المصري أحمد فضل شبلول وتتمثل بمايلي:

١- يُحرر النشر الإلكتروني النصوص من قبضة الخطيـة linearity الصارمة التي فرضها عليها جمود الورق وثبوت الطباعة، حيـث يمكـن الربـط -في حالـة النشـر الإلكتروني- بين أي موضع وآخر داخل النص أو الوثيقة، وكشـف مسارات التشعب داخل النص المفرد.

٢ . يُتيـح النشـر الإلكـتروني فرصا لا متناهية مـن عدد الصفحـات الإلكترونية في شريحـة صغيرة للغاية، فعلى سبيل المثال يمكـن لقرص ليزر c.d واحـد أن يسع ما يـوازي ألف كتـاب بحجم القـرآن الكريم، وعمـا قريب ١٠ آلاف كتاب في مثل حجمه، فضـلا عن الطابعات التي ستكون في حجم علبة الكبريت.

٣ . الحريـة المطلقـة في نشـر مـا يود الإنسـان نشـره، فلا قيـود، ولا رقابة على النشـر الإلكـتروني، وخاصـة علـى شبكة الإنترنت. وأكبر مثـال على ذلك ما نشر في منتدى موقع أخبـار اليوم بشبكة الإنترنت. ولكن سرعان ما ألغى هذا الموقع منتداه، لأن الزائرين تجاوزوا حدود الأدب واللياقة. ولم يستطع الموقع أن يفعل أكثر من هذا.

٤-يُتيـح النشر الإلكتروني -كما سبق أن رأينـا- إنشاء مجلات إلكترونية تقضي على عنصـري الزمن والمسافـة اللذين يفصلان بين الناس، ويحررها مـن أراد من الكتَّاب، وفي هذه الحالة سيصبـح الكاتب المشترك أو المستخـدم لشبكة الإنترنـت قادرا على نشر إنتاجـه بنفسه، بل إنـه سيكون قادرا على قـراءة نصوصه بصوته وإرفاق صورته مـع النص، كما أنه سيتلقى ردودا من كتاب آخريـن، ربما لا يكونون على علم بشخصية

صاحب النص، لأن التعامل في هذه الحالة سيكون مع النص المرسل، وليس مع الكاتب ذاته، وهنا يلاحظ أن شبكة الإنترنت ستعمل على إلغاء جميع الفوارق الطبقية (على حد تعبير بهاء شاهين في كتابه عن شبكة الإنترنت)، ذلك أنه لن يكون هناك كمبيوتر أفضل من كمبيوتر داخل الشبكة، وبالتالي لن يكون هناك شخص أفضل من شخص، إذ تعتمد هوية الكاتب ومركزه في الشبكة على كيفية تقديمه لنفسه ولأفكاره من خلال لوحة المفاتيح، فلو أن كاتبا كبيرا مثل أستاذنا نجيب محفوظ قدم نصًّا روائيا جديدا من خلال الشبكة، فإن الحكم النقدي عليه سيكون من خلال التعامل مع النص نفسه، وليس من خلال اسم نجيب محفوظ.

٥- إذا كانت تكنولوجيا الطباعة نجحت في إسقاط سلطة المتحدث على مستمعه (عن طريق قراءة الورق) فربما يكون بمقدور تكنولوجيا المعلومات إسقاط سلطة المؤلف على قارئه، لينتزع هذا القارئ حقه في حرية قراءة نصه وفقا لرؤيته وغايته.

٦- التوفير في تكاليف الاستخدام الورقي: حيث تكون عملية النشر فاعلة ومجدية اقتصاديا عندما لا تعتمد على استخدام الورق، الذي ترتفع أسعاره بصورة ملحوظة، من وقت لآخر. كذلك فإن اعتماد النشر الإلكتروني،يلغي حلقة مهمة ألا وهي التوزيع الذي يحتاج إلى جيش من البشر والوسائط.

الخلاصة:

في النهاية هل سنقول وداعا للكلمة المكتوبة بالقلم الرصاص أو الحبر على الصفحة الورقية البيضاء، هل ستحل المعادلة الرياضية محل قصيدة الشعر، وتحل أرقام الكمبيوتر الثنائية محل اللوحة التشكيلية، وهل سيصبح الإنسان في القرن الحادي والعشرين رقما في معادلة جبرية تحكم هذا العالم؟ يقدم الشاعر المصري أحمد فضل شبلول تصورا لمستقبل الأحاسيس تجاه الآداب العربية في ظل طغيان أنظمة النشر الإلكتروني فيقول:

هل ستصبح روايات نجيب محفوظ وأشعار المتنبي وأحمد شوقي وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل، تراثا محفوظا في العلب الممغنطة؟ أم أن الإنسان سيظل إنسانا تهز مشاعره نجمةٌ في السماء وموجةٌ في البحر وزهرةٌ على الغصن وشخصيةٌ في رواية وصورةٌ شعرية في قصيدة ومنظرٌ طبيعي في لوحة فنان؟ بينما يناقش الدكتور نبيل علي التأثيرات المختلفة للنشر الإلكتروني على الثقافة العربية

فيقول في كتابه المهم: «الثقافة العربية وعصر المعلومات» ص١٥١ -السابق الإشارة إليه- «هناك من يقول إن الإنترنت ستزيد من قدرة الإبداع والابتكار من خلال مداومة الإبحار اللامحدود في فضاء المعلومات وتوفير العديد من وسائل التعلم الذاتي وتنمية القدرات الذهنية، خاصة أن التعامل مع النظم الآلية والبرمجيات يساعد على نمو التفكير المنطقي والمنهجي. في المقابل هناك من يقول إن الإنترنت ستحيل عملية الإبداع إلى نوع من الاجترار (أو إعادة الإنتاج) لينحو الأدب إلى الوثائقية والفن التشكيلي إلى الكولاج (القص واللصق) والموسيقى إلى نوع من المزج الإلكتروني، ويصبح إبهار العرض واستغلال إمكانات وسيط الإعلام عوضا عن مضمون الرسالة التي ينقلها تحقيقا لمقولة «الوسيط هو الرسالة» التي أطلقها مارشال مكلوهان رائد التنظير الإعلامي».

قد توحي النظرة الأولى وكأن المستقبل سوف يكون للكمبيوتر وعالم الإنترنت في تطوره المذهل والمثير الذي لا يعرف الحدود، غير أن الإنسان الذي اخترع الكومبيوتر قد يستبعده هذا الجهاز لفترة ولكن ليس على طول الخط فلابد أن يستعيد الإنسان زمام المبادرة ويسخر مبتكراته لما يريد، وأن يزاوج الإبداع مع العلم، والفن مع الرياضيات، لأن الإنسان سوف يظل هو محور هذا الكون يصنع فنا إذا انتشى فينتشي معه الآخرون ويكتشف ويخترع ويبدع ويضيف للحياة الإنسانية مالا يمكن توقعه في كل المجالات، فالكمبيوتر بالتأكيد لا ينتشي ولا يعرف البكاء أو الفرح ولا الحزن أو السهر، ولهذا فهو لا يستطيع أن يبدع فنا ولا فكرا ولا يملك في أفضل حالاته إلا أن ينفذ أمرا يصدره الإنسان بطرف إصبعه وأما بالنسبة للغة العربية التي أثبتت أنها لغة الفن والإبداع والفكر وأنها كانت السباقة في مجالات الطب والخوارزميات والفلك والعلوم المختلفة قبل أن تخرج أوروبة من عصور الظلام لابد أنها قادرة على هضم لغة العصر وعصية على الانقراض بل تملك مقومات تطويع معطيات الثورة الرقمية كلها لصالح استمرارها قوية منيعة..

هوامش ومصادر

١- نبيل علي -الثقافة العربية وعصر المعلومات ص ٤٨- ١٥١.

٢- سليمان عسكري -مجلة العربي عدد يناير ٢٠٠١.

٣- نضال صالح -القصة القصيرة في سورية قصص التسعينات.

٤- بيل غيتس -المعلوماتية بعد الانترنت طريق المستقبل ترجمة عبد السلام رضوان.
٥- المعجم الوسيط.
٦- ويكيبيديا - الموسوعة الحرة.
٧- أحمد فضل شبلول -مجلة الثغر للثقافة والفنون الصادرة بالإسكندرية.
٨- ندوة أفاق النشر الإلكتروني عبد العزيز البابطين -مجلة العربي- نيسان ٢٠٠١.

آفاق المعرفة

التلـــوث النـــووي

د. حسين فاضل ❁

يعتـــبر استخدام الطاقـــة النووية من أهم المجـــالات الحيوية ذات البعد المستقبلـــي في استخدامات الطاقـــة بالصور المختلفة لهـــا على الرغم مما يصاحب ذلك من تلوث نـــووي وإشعاعات قاتلة تهدد جميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات وأيضا جماد.

❁ باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بدايــة يجــب التفريق بــين نوعين من التفاعــلات النووية.. النــوع الأول ويعرف بالتفاعــل النــووي الانشطــاري حيث يتم بقذف نــواة عنصر مشع (Radioactive) مثل اليورانيوم بوساطــة جسيم صغير مثل النيوترونــات، ما ينتج عناصــر أخرى ذات وزن ذري أقل إضافــة إلى جسيمات أخرى مثــل النيوترونــات عــلاوة علــى انطلاق كميات هائلة من الطاقــة النووية تستخدم أغراض شتى، وذلك كما يتضح من المعادلة الكيميائية النووية الآتية:

$$^{253}_{92}U + ^{1}_{0}n \longrightarrow ^{141}_{56}Ba + ^{92}_{36}Kr + 3\,^{1}_{0}N + Energy$$

والنــوع الثاني يعــرف بالتفاعل النووي الاندماجــي، حيث يتم اندمــاج نواتين من نظائر الهيدروجين والتــي يمكن الحصول عليهــا بالتحليــل الكهربائي للمــاء وهذه النظائــر تشمــل الديوتيريــوم والتريتيــوم وتكون عنصر آخر مثــل الهليوم إضافة إلى النيوترونــات مع انطــلاق كميات هائلة من الطاقــة تفوق مثيلتها في التفاعلات النووية الانشطارية. والمعــادلات الكيميائية النووية التالية توضح هذه التفاعلات:

$$1H^2 + 1H^2 \longrightarrow 2He^4 + 0n^1 + Energy$$

$$1H^3 + 1H^3 \longrightarrow 2He^4 + 0n^1 + Energy$$

ويجــب أن نوضح أنه لحــدوث التفاعل النووي الاندماجي يلزم له درجة عالية جداً تصل إلى مليون درجة مئوية. وذلك بإجراء تفاعل نووي انشطاري يتبعه التفاعل النووي الاندماجي. ومما هو جدير بالذكر أن هذا النوع مــن التفاعلات النوويــة الاندماجية يحدث كثيراً داخل الشمس. كما أن التفاعل الانشطاري هو الأساســ لما يعرف بالقنبلة الذرية (Atomic Bomb) بينما التفاعل الاندماجي هو الأساس للقنبلة الهيدروجينية (Hydrogen Bomb) والتلــوث النووي هــو أخطر أنواع التلــوث والتي يتعرض لها الإنسان وذلــك لما يحدثه مــن آثار مدمرة وأمراضــ قاتلة تهدد حياتــه بالفناء، وكلنا نذكر الآثار المدمــرة والتي نتجت عن إلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما باليابان في عــام ١٩٤٥، ثم أعقبها قنبلة أخرى على مدينــة ناغازاكي في العام نفسه قبيل انتهاء الحــرب العالمية الثانية ممــا أدى إلى موت الآلاف مــن السكان وإصابــة آلاف آخرين بالحروق والتشوهات، كذلك موت الكثيرين منهم بعد ذلك بعدة سنوات نتيجة إصابتهم بالإشعاعات القاتلة، وكذلك لا ننسى حادثة التسرب الإشعاعي التــي حدثت في مفاعل تشرنوبيل في الاتحــاد السوفياتي (السابق)

ومـا كان لها مـن آثـار سلبية على صحة البشـر في تلك المنطقة والبيئة المحيطة.

والمعـروف أن الآثـار الضـارة للإشعـاع تختلف باختـلاف مصدر الإشعـاع وشدتـه إضافـة إلى طول الفـترة الزمنيـة التـي يتعرض فيها الإنسـان للإشعاع. والحـد الأقصى المأمـون للإشعاعـات النووية الذي يجب ألا يتجاوزه الإنسان في تعرضه لـه هـو /٥/ ريم (Rem) في اليوم الواحد. والريم وحـدة لقياس كمية الإشعـاع الممتص وهي تعادل رونتغن (Roentgen) واحـدة مـن الأشعة السينيـة (X-Rays). وتتكـون كلمـة ريم (Rem) مـن الأحـرف الأولى مـن الكلمـات (Roentgen Equivalent Man). ويتعرضـ الإنسان إلى الكثـير من مصـادر الإشعاع في الحياة اليومية. ومثال ذلك تعرضه لهذه الإشعاعات عنـد استعمالـه للأشعة السينيـة سواء في أغراض التشخيص أو العلاج. ولا ننسى في هذا الصدد تعرض الإنسان المستمر للأشعة الكونيـة (Cosmic Rays) الصادرة من الفضاء الخارجـي وللإشعاعـات الضارة خلال تعامله مع النظائر المشعة (Sotopes)

وتطبيقاتها المختلفة سواء في مجالات الطب أو الصناعـة أو الزراعـة. وكذلـك تعرض العاملـين في المفاعلات النووية ومن يعملون في بعض المناجم التي يستخرج منها خامات العناصـر المشعة مثل الراديـوم واليورانيوم لإضرار هذه الإشعاعات القاتلة.

ومن العوامل الرئيسيـة المسببة للتلوث النـووي ما كان يحدث في الدول الكبرى من إجراء التجارب النووية وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية. حيث استخدمت هذه التجارب

لعدة سنوات طوال بهـدف تطوير الأسلحة الذرية وزيادة القوة التدميرية لها. وقد أدت هذه التجـارب إلى انتشار كميات كبيرة من الغبار الذري المشع وحملت الرياح بعض هذا الغبار المشع إلى طبقات الجو العليا ويحتوي هذا الغبار علـى بعض النظائر المشعة مثل (السيزيـوم- ١٣٧) و(الاسترونشيوم- ٩٠) و(الكربـون- ١٤) و(اليـوم- ١٣١) وغيرها من النظائر والتي يستمر نشاطها الإشعاعي فترة طويلة من الزمـن ليتساقط فوق كثير من المناطق البعيدة عن الموقع الأصلي لهذه التجـارب، حيث يتلوث الهواء والماء والغذاء ويتخلل دور السلسلـة الغذائية حيث تنتقل هذه النظائر المشعـة القاتلة من النبات إلى الحشرات ثم إلى الطيور والحيوانات وأخيراً تصـل إلى الإنسان وتتركز في أماكن مختلفة من جسمه فمثـلا الكالسيوم والاسترنشيوم يتركزان في العظام واليود في الغدة الدرقية. بينما تتركز نظائر النحاس والزرنيخ في مخ الإنسـان، ومما يزيد مـن الأضرار الناتجة عن التلوث النووي أن أغلب النظائر المشعة يستمـر النشاط الإشعاعـي لها فترة طويلة مـن الزمـن الأمر الـذي يضاعـف الآثار الضارة لهـذا التلوث علـى عناصر البيئة كافـة. وهـذا النشاط الإشعاعـي للنظائر المشعة يقاس زمنيا بمـا يعرف فترة نصف العمر وهو الزمن اللازم لتحلل نصف أنوية العنصر المشع، فمثلا عنصر الراديوم المشع فترة نصف العمر له ١٥٩٠ (ألف وخمسمئة وتسعـون عاما). فإذا كان لدينا غرام واحد منه فإن هذا الـوزن يحتاج إلى ١٥٩٠ عاما ليصبح نصف غرام. حيث يتحول إلى عنصر مشـع آخر هو الرادون. ويحتـاج أيضاً إلى ١٥٩٠ عاما أخـرى ليصبح وزنه ربع غرام. وهكـذا ليصبـح وزنه ثمن غـرام. وهكذا يستمر النشاط الإشعاعي لهذه العناصر.

أما النـوع الآخر من هذه النفايات فهي التـي تنتج مـن المفاعلات النوويـة داخل المحطات النووية. حيث تنتج نفايات ضعيفة أو متوسطة في قـوة إشعاعها، تصدر عنها إشعاعات بيتا وغاما. وهذه الإشعاعات ليس لها خطـورة كبيرة لصغر حجمهـا النسبي وأخرى قوية الإشعاع تشمل الكثير من النظائر المشعة الثقيلـة والتي تشـع جسيمات ألفا ومن أمثلتها النبتونيـوم (Neptonium) والبلوتونيوم (Plutonium)، وهذه النظائر عاليـة النشاط الإشعاعي وذات فترة نصف العمـر فائقة الطول حيـث يستمر نشاطها الإشعاعي لفترة طويلة جدا من الزمن. ويتم التخلص من هذه النفايـات النووية بطرق عدة تختلف وفقا لقوة الإشعاعات الصادرة منهـا. فالنفايات ذات الإشعاعات الضعيفة

أو المتوسطـة توضع بعـد تبريدها في باطن الأرض حيث تحاط بطبقة من الأسمنت أو الصخور وأحياناً تقوم بعض الدول بإلقائها بكميات صغيرة في مياه البحر أو المحيطات. أما النفايات ذات الإشعاعات القوية فيمكن التخلص منهـا بغمرها في الماء لتبريدها ثم تدفن على عمق كبير في باطن الأرض.

وهنـاك طريقـة حديثـة للتخلص من النفايات النووية قوية الإشعاع والتي يستمر نشاطهـا الإشعاعـي فترة طويلـة جدا من الزمن حيـث يتم حفظ هـذه النفايات في مـواد عازلة مثل الخزف أو الزجاج من نوع البورسيليـكات. وتتلخص هذه الطريقة في خلط النفايات النووية مـع مادة مكلسة ثم تصهر عنـد درجة حرارة عاليـة ثم يُصبّ الخليط المنصهر في عدة أوعية من الصلب غير قابل للصـدأ ويبرد جيداً ثم تقفل هذه الأوعيـة إقفالاً محكماً مع إزالة ما قد يكون على سطحهـا الخارجي من آثـار الإشعاع وذلك بغسلها جيدا بالماء. وأخيراً تدفن هذه الأوعية الصلبة في أعماق كبيرة تحت سطح الأرض مع أخذ الاحتياطات الأمنية اللازمة لأنها تظل مصدراً للأخطار لفترة طويلة من الزمن.

وأخيرا نذكر نوعا آخر من التلوث تسببه المحطات النووية وما يحدثه من آثار خطرة وهو ما يعرف بالتلـوث الحراري وهو ينشأ عندما تستخدم هـذه المحطات والتي تقام عادة بجـوار شواطئ البحـار أو البحيرات كميات كبـيرة من المياه لتبريـد مفاعلاتها النوويـة ثم إلقـاء هذه الميـاه الساخنة في البحار أو البحـيرات وبالتالي الإضرار بكل الأحيـاء المائيـة التي تعيش في هـذه المياه ويفسر ذلـك بأن ارتفاع حـرارة المياه يقلل من نسبة الأوكسجين المذاب في الماء واللازم لحياة الكائنات البحرية. وللتغلب على هذه المشكلـة وضعت بعض الدول قوانين خاصة تلزم هـذه المحطات بتبريد الميـاه الساخنة قبـل إلقائها في البحار أو البحيرات.كما أن بعض المحطات أنشأت لها بحيرات صناعية تستخدمها لأغراض التبريد.

آفاق المعرفة

أكَلُوني البَراغِيثُ
(لُغَةٌ لَها أنْصَارُها)

حسَن موسى النُّمَيْري

كَثيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ والنَّحْوِ، وَقَفُوا مَوَاقِفَ مُعَارِضَةٍ ومُناوِئَةٍ، لِلقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ المُطَالِبَةِ بإجَازَةِ (مُطَابَقَةِ الفِعْلِ المُتَقَدِّمِ لِفَاعِلِهِ المُتَأَخِّرِ، في الإفْرادِ والتَّثْنِيَةِ والجَمْعِ، بِنَوْعَيْهِ المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ) هذهِ القاعِدَةُ التي دارَ حَوْلَها كَثيرٌ مِنَ الجَدَلِ قَديمًا وحَديثًا، والتي رُبَّما سَمَّاها بَعضُهُم لُغَةَ:

(**تَعَدُّدِ الفاعِلِ، أوْ ثُنائيَّةِ الفاعِلِ، أو ازْدِواجِيَّةِ الفاعِلِ**) وهي لُغَةٌ، أو لَهْجَةٌ تُجيزُ قَولَ مَنْ قالَ: (**نَجَحا الطَّالِبَانِ -وفَازُوا الطُّلابُ- وزاروني**

باحث في التراث العربي.

العمل الفني: الفنان وليد الحسيني.

أصْدِقائي) هــذِهِ اللُّغَةُ أو هذِهِ اللَّهْجَةُ التي أجَازَهــا بَعضُــ العَــربِ، واسْتَخْدَموها في كَلامِهِم، اعْتَرَضَ عليْها كَثيرونَ، وشَنَّعَ عَلَيْها بَعضُ العُلَمــاءِ، وحَقَّرُوها، وسَخِــرُوا مِنْها ومِمَّنْ يَستَعمِلُهــا، حتى وَصَلَ بِهِم الأمْرُ إلى أنْ سَمَّوْهــا اسْمًا تَفُوحُ مِنْهُ رائحَةُ السُّخْريَةِ والطَّنْزِ والاسْتِصْغارِ، سَمَّوْهــا لُغَةَ (أكَلُوني البَراغيثُ) وذلكَ لإهانَتِها وتَحْقيرِها، وتَقليلِ شَأنِهــا في نُفُوسِ النَّاســ ودَعوَتِهِم بِدَورِهِم لِمُحَارَبَتِهــا، وصَــرْمِ مَــنْ يَسْتَخْدِمُها. فَعَلُوا ذَلكَ-كَمَا يَزْعُمُونَ -بِدافِعِ حِرْصِهِم الشَّديدِ عَلَيْها، وتَمَسُّكِهِم العَنيدِ بِقَواعِدِها، وخَشْيَتِهِم مِنَ التَّلاعُبِ بِأُصُولِهــا، وتَدنيسِ قُدْسِيَّتِها، وتَمْريغِ سُمْعَتِها، ومُحَاوَلَةِ التَّجَنِّي، والاعْتِداءِ على قاعِدَتِهِمْ القائلةِ بِوُجُوبِ (إفْرادِ الفِعْلِ معَ الفاعِلِ المُثَنَّى أو المَجْمُوع).

وإذا كانَ أسْتاذُنا الكَبيرُ (سَعيدُ الأفغاني) الــذي نَرْجُو لَهُ مِنَ اللهِ الرَّحمَــةَ والغُفْرانَ قــد اعْتَرَضَــ على الشَّاهِــدِ المُقْتَبَســ مِنْ حَديثِ النَّبيِّ صلــى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ، والذي لا يَشُكُّ أحَدٌ بِصِحَّةِ الاحْتِجَاجِ بِهِ، واعْتِمَادِ الاسْتِشْهادِ بِهِ بَعدَ القُرآنِ الكَريمِ (كِتابِ اللهِ المُعْجِزِ) الــذي لا يأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلفِهِ، على قَوَاعِــدِ اللُّغَةِ العربيَّةِ.. أقُولُ اعْتَرَضَــ الأفغاني على الحَديثِ الذي يَرْويهِ النَّاسُ، نَقْلاً عــنْ مُوَطَّإِ الإمامِ مَالِك ((**يَتَعَاقَبُــونَ فِيكُــمْ مَلائِكَــةٌ فِي اللَّيْــلِ، ومَلائِكَةٌ فِي النَّهارِ..**)) قال الأُستاذُ الأفغاني عليْهِ رَحْمَةُ اللهِ: ((**ولكِنَّنا حينَ رَجَعنَا إلى مُوَطَّإِ مالِك، وجَدْنا لِلحَديثِ أوَّلاً وهو: (إنَّ للَّهِ مَلائِكَــةً يَتَعَاقَبُــونَ فِيكُــمْ؛ مَلائِكَةً (أوْ مَلائِكَــةٌ) فِي اللَّيــلِ، ومَلائِكَــةً (أوْ مَلائِكَــةٌ) فِي النَّهارِ)**)) وَوَصَلَ إلى نَتيجَةٍ مفادُها: (وإذًا فَلا شَاهِــدَ صَحيحًا على القاعِدَةِ المَزْعُومَةِ (يَعني قاعِدَةَ: جَــوَازِ مُطَابَقَةِ الفِعْلِ لِلفاعِلِ المُثَنَّى والمَجْمُــوعِ) ثمَّ أدَّى ذلك -حسبَ رأيِ المَغْفُــورِ لَهُ (بإذْنِ اللهِ تَعالَى) سعيدِ الأفغاني (ومَــنْ يُمَاثِلُــهُ في الــرَّأيِ) إلى بُطْلانِ هذِهِ القاعِدَةِ، والحُكْمِ بِفَسَادِها.

لَكِنَّ هــذا المِثــالَ المُقْتَبَسَ مِــنْ حَديثِ النبــيِّ صلى اللهُ عليْهِ وسلــم، ليسَ الوَحيدَ في هــذا المَجَالِ، وإذا كانَ الأُستاذُ الأفغانــي، غَفَــرَ اللهُ لَنا ولَهُ، قد نَجَحَ في رَدِّ الاحْتِجَاجِ بِهذا الحَديثِ (لأنَّهُ مَبْتُورٌ) في رِوايَتِهِ، فَكَيْفَ نَسْتَطيعُ أنْ نُبْطِلَ الاحْتِجَــاجَ بِآياتِ القُرآنِ الكَريمِ، التي جاءتْ مُتَّسِقَةً مَعَ قاعِدَةِ جَوَازِ

(مُطَابَقَةِ الفِعْلِ للفاعِلِ المُثَنَّى والمَجْموع) وهيَ عِـدَّةُ آياتٍ، ولَيسَـتْ آيَةً واحِـدَةً، سَنُوردُ نَصَّها بَعـدَ قليلٍ إنْ شاءَ اللّهُ تَعَالى.

نُؤمِـنُ ونَثِقُ بِـأنَّ الذينَ وَقَفُـوا ضِـدَّ لُغَـةِ (مُطَابَقَةِ الفِعْلِ للفَاعِـل..) إنَّمَا فَعَلُوا ذلـكَ مِـنْ بـابِ حِرْصِهِـم على قُدْسِيَّةِ اللُّغَـةِ العربيَّةِ، وأصالَتِها وكَرامَتِها، وخَوْفِهِم مِـنَ جُـرْأةِ المُخالِفِـينَ على تَحَـدِّي قَواعِدِها، والتَّلاعُبِ بِهـذِهِ الأُسُسِ.. لَكِنَّنا رُبَّمَا لا نَجِدُ مُسَوِّغًا لِهذا الخَوْفِ، ولا تَبْريرًا مُقْنِعًا لِهـذا الفَزَعِ، على أُصُـولِ اللُّغَةِ وقَوَاعِدِها، فاللُّغَـةُ العربيَّةُ طَوْدٌ شَامِخٌ، وعِمْلاقٌ صَامِدٌ مُتَمَاسِكٌ، قَوِيُّ الجُـذُورِ، مَتِينُ القَواعِدِ، لا تُؤَثِّرُ فيـهِ (خَرْمَشَةُ المُعتَديـنَ، ولا خَرْبَشَةُ المُعانِدينَ) مَـنْ ذَلِكَ الذي يَقْدِرُ على خَدْشِ أدَمَتِهـا ؟ والتَّأثيرِ فـي إهَابِها، وهيَ الثَّابِتَةُ الأرْكانِ، القَوِيَّـةُ البُنْيانِ، مَهْما كانتْ أظافِرُ المُخَرْمِشينَ طَويلَةً، حادَّةً، مُؤَثِّرة.

كيفَ يَـرُدُّ أولئكَ الذينَ يَكادُونَ يَذوبُونَ حِرْصًا وفَزَعًا وشَفَقَةً على قَواعِدِ (العَربيَّةِ) على آياتِ القُرآنِ، وهـي تُصَادِمُ قَاعِدَتَهُم، وتَتَّسِقُ مَعَ القاعِدَةِ التي عَدُّوها شَاذَّةً، أعني تلكَ القاعِدَةَ القائلةِ بِجَـوَازِ مُطَابَقَةِ الفعلِ لِلفاعِلِ، ولا تَتَّفِقُ مَعَ قاعِدَتِهِم التي يُصِرُّونَ علـى تَثْبيتِها في الأذهـانِ، ونَفيِ ماعَدَاها؛

أعني القاعدةَ القَائلَةَ بِوُجُوبِ (إفْرادِ الفِعْلِ مَعَ الفاعِلِ المُفْـرَدِ والمَجْمُوعِ) كَقَوْلِكَ: (جاء الرَّجُلُ – جاءَ الرَّجُلانِ – جَاءَ الرِّجَالُ).

نَحْـنُ واللهِ (مِثْلُكُـمْ) حَريصُـونَ على قُدْسِيَّةِ هذهِ اللُّغَةِ، مُؤْمِنُونَ بوُجُوبِ احْتِرامِها، وتَقديرِ أُصُولِها والتَّمَسُّكِ بِقَواعِدِها، ولكنَّنَا لا نُريـدُ حَجْرًا علـى الرَّأيِ الآخَـرِ، ومَنْعًا لِلَهْجَةٍ تَواتَرَتْ شَواهِدُهـا، وتَعَدَّدَتْ الأمثِلَةُ على اسْتِخْدامِ بَعضِ العربِ لَها. نَهدِفُ إلى اعْترافٍ مِنْكُمْ بِوُجُودِ هذا الرَّافِدِ يَرفِدُ السَّيْلَ الأصلـيَّ، ويَسيرُ مَعَهُ، وإلى جَانِبِهِ، ونَأمَلُ أنْ يَتَنازَلَ هؤلاءِ المُتَشَنِّجُـونَ عَمَّا يَتَشَبَّثُونَ بِهِ، وأنْ يُحَكِّمُوا صَـوتَ المَنْطِقِ والحَقِّ والعَدْلِ، وأنْ يَمْتَنِعُوا عـن إنْكارِ رَأيِ الطَّرَفِ الآخَرِ، ويُحْجِمُـوا عـن مُهَاجَمَةِ مَـنْ يُخَالِفُهُم في بَعضِ الـرَّأيِ، وجَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الحَقيقَةِ، وأنْ يُدْرِكُـوا أنَّ الحقيقَةَ رُبَّمَا يَكونُ لَها أكثَرُ مِنْ وَجْهٍ..

نُريدُ مِـنْ سَادَتِنا وقادَتِنـا، وأساتِذَتِنا ومُعَلِّمِينـا أنْ يُصْغُوا لَنَـا، ونَحنُ تَلاميذُهُم المُعْتَرِفُونَ بِفَضْلِهِم وتَقَدُّمِهِم وعُلُوِّ مَكانَتِهِم، نُريـدُ أنْ يَنْظُـروا إلى ما نَطْـرَحُ، ويُصْغُوا إلى ما نَقُـولُ، ثمَّ يُبْدُوا–بَعـدَ ذَلكَ– الرَّأيَ الذي يُريدونَ، والمُقْتَرَحَ الذي يُفَضِّلون، دونَ اسْتِهانَـةٍ بِالرَّأيِ الآخَرِ، أو تَحقيرٍ لِطارِحيهِ، أو اسْتِهْجـانٍ لِمَضْمُونِـهِ قبلَ دِراسَتِـهِ بِتَأنٍّ وتَعَقُّـلٍ، نُطالِبُهـم أنْ يُحْجِمُوا عـنْ وَصْفِ ما يَطْرَحُهُ الرَّأيُ الآخَـرُ (بِاللُّغَةِ بِالرَّديئةِ) أو اللَّهْجَـةِ الشَّـاذَّةِ، وأنْ يَعترِفُوا بِوُجُودِها، وعَدَمِ إنْكارِها، لِتَرَدُّدِهـا، وكَثْرَةِ شَواهِدِها، وإنْ كانتْ شَوَاهِدُهـا أقَلَّ بِكَثيرٍ مِن شَوَاهِدِ القاعِدَةِ التي يَتَمَسَّكونَ بِها، ولكنَّ قَاعِدَتَهُم ليستِ الوَحيدة.

سَنَسْتَعرِضُ مَعَ القُرَّاءِ الكِرامِ عَدَدًا مِن الشَّواهِدِ والأمثِلَةِ المُصَادِمَةِ لِقَاعِدَةِ (وُجُوبِ إفْرادِ الفِعلِ معَ الفاعِـلِ) بادئينَ بِأمثِلَةٍ مِن كِتَـابِ اللهِ المُعْجِزِ (القُرآنِ الكريمِ) مُعْتَرِفِينَ سَلَفًا وقَبْلَ كُلِّ شيءٍ بِـأنَّ الأمْثِلَةَ التي تُؤَيِّدُ (وُجُوبَ إفْرادِ الفِعْلِ مَعَ الفاعِلِ) أكْثَرُ عَدَدًا وأوسَعُ انْتِشَارًا مِن الأُخْرَى التي تُؤَيِّدُ (جَوَازَ مُطابَقَةِ الفِعْلِ مَعَ فاعِلِهِ المُثَنَّى والمَجْمُوع).

١- قـال اللهُ تَعـالى في سُـورةِ النِّساءِ: **(وَلَوْ أَنَّـا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُـواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم (مَّا فَعَلُوهُ) إِلاَّ (قَلِيلٌ) مِّنْهُمْ)**[1] (النساء: ٦٦).

٢- وقالَ جَلَّ شَأنُهُ في سُورَةِ المائدَةِ: **(ثُمَّ**

(عَمُواْ وَصَمُّواْ -كَثِيرٌ) مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)[٢] (المائدة:٧١).

٣- وقال عَزَّ سُلطانُهُ في سُورَةِ الأنبياءِ:

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ (وَأَسَرُّواْ) النَّجْوَى (الَّذِينَ ظَلَمُواْ)[٣] (الأنبياء:٣).

- أمَّا أمْثِلَةُ (تَطَابُقِ الفِعْلِ مَعَ فاعِلِهِ المُثَنَّى والمَجْمُوعِ) أو مَا يُسَمَّى بِـ (ثُنَائيَّةِ الفاعِلِ)

في الشِّعْرِ فَكَثيرَةٌ جِدًّا، وقد وَرَدَتْ في أشْعارِ كَثيرٍ مِنْ كِبَارِ الشُّعَراءِ، وَمِنْهُمْ:

(١)- قال عُوَيفُ القَوَافِي[٤]:

سَاءَ الأقَارِبَ يَوْمَذَاكَ فَأصْبَحُوا
بَهِجِينَ قَدْ (سُرُّوا) بِهِ الحُسَّادُ[٥]

(٢)-وقالَ الفرزدَقُ[٦] في مَعرِضِ الهِجَاءِ:

ولَكِنْ دِيَافِيٌّ أبُوهُ وَأُمُّهُ
بِحَوْرانَ (يَعْصِرْنَ) السَّلِيطَ (أقَارِبُهْ)[٧]

(٣)- وقال ذُو الرُّمَّةِ[٨]:

فَلَمَّا (رَأَوْنَا - أهْلُ) مَرْأةَ أغْلَقُوا
مَخَادِعَ لَمْ يُرْفَعْ لِخَيْرٍ ظِلالُها[٩]

(٤)- وقال عَديُّ بنُ الرِّقاعِ العامِليّ[١٠]:

رَشَأً (تَوَاصَيْنَ - القِيَانُ) بِهِ
حَتَّى عَقَدْنَ بِأُذْنِهِ شُنُفَا[١١]

(٥)- وقال كُثَيِّرُ عَزَّةَ[١٢]:

إلى أرْكٍ بِالجَزْعِ مِنْ بَطْنِ بِيشَةٍ
عَلَيْهِنَّ (صَيَّفْنَ الحَمَامُ) النَّوائِحُ[١٣]

❁ ❁ ❁

هذِهِ الأمْثِلَةُ الشِّعْرِيَّةُ، وأمْثَالُها كَثيرٌ، تَدُلُّ بِوُضُوحٍ أنَّ لُغَةَ تَطَابُقِ الفِعلِ مَعَ فاعِلِهِ (في حَالَةِ التَّثْنِيَةِ والجَمْعِ) بِنَوْعَيْهِ المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ، لُغَةٌ واردَةٌ (ومُعتَرَفٌ بها) اسْتَخْدَمَها كَثيرٌ مِنْ فُصَحاءِ العَربِ، مِنَ الشُّعَراءِ والخُطَباءِ..

قد يَجِدُ بعضُ القُرَّاءِ (شَيْئًا مِنَ الغَرَابَةِ) في هذِهِ الأمْثِلَةِ، ومَا يُمَاثِلُها، وقد يَشعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ عَدَمِ الارْتِياحِ وهوَ يُرَدِّدُها، وذلكَ عائدٌ إلى عَدَمِ سَمَاعِهِ لَها، أو لأمثالِها؛ وذلكَ لأنَّ عُلَماءَ النَّحْوِ قد حَارَبُوها، وحَجَبُوها عنِ الأعْيُنِ والأسْماعِ، وبَذَلُوا جُهُودًا لِطَمْسِهَا وتَغْييبِها، والتَّقليلِ مِنْ شَأنِها، وشَأنِ مُسْتَخْدِميها، وعَدُّوها لُغَةً شاذَّةً مَهْجورَةً... ولَكِنْ كيفَ تَكونُ شاذَّةً، أوْ مَهْجُورَةً، وقد تَعَدَّدَتْ أمْثِلَتُها، واسْتَخْدَمَها كَثيرٌ مِنْ فُصَحاءِ العربِ مِنَ الشُّعَراءِ والخُطَباءِ.. وفَوقَ ذلكَ وَرَدَتْ في القُرآنِ الكَريمِ وهو كِتابُ اللّهِ المُعجِزُ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ.

❁ ❁ ❁

الهوامش

١- واو الجَمَاعة في (فَعَلُوهُ) فاعِل. وقَليلٌ: فاعِل. وفي كُتُبِ النَّحْوِ المُعْتَمَدَة (قليلٌ) بَدَل مِنَ الفاعِل.

٢- واو الجماعة في كُلٍّ مِنْ (عَمُوا وصَمُّوا) فاعِل، و(كَثيرٌ) فَاعِل. أمَّا كُتُبُ النَّحْوِ المُعتَمَدَةُ فَتَقُولُ: (كَثيرٌ بَدَل مِنَ الفاعل.

٣- واو الجماعة في (أسَرُّوا) فاعل و(الَّذينَ) فاعل (أمَّا كُتُبُ النَّحو فَتَقُول: (الذينَ) بَدَل مِنَ الفاعِل).

٤- عُوَيف: تَصْغيرُ (عَوف) وهو اسْمُ الشاعر (عَوف بن مُعاوية بن عُقْبة) مِنْ بَني فَزارة، شاعر أُمَويّ، كانَ على صِلَةٍ طَيِّبَةٍ بِالوَليدِ وسُلَيْمان ابْنَيْ عبدِ المَلِكِ بنِ مَروان، قِيلَ لَهُ (عُوَيف القَوَافي) لِبَيْتٍ قالَهُ، ماتَ حَوالي عام ١٠٠ للهجرة.

٥- انْظُرْ الأغاني ١٩/ ١٥٠. واو الجماعة في (سُرُّوا) نائب فاعل، و(الحُسَّادُ) أيْضًا (نائب فاعل) وفي كُتُبِ النَّحْو (الحُسَّادُ) بَدَل مِنْ نائبِ الفاعِل.

٦- هو الشاعرُ الأُموي هَمَّامُ بنُ غَالب التَّميمي، وهو مِنْ أكبَرِ شُعراء العصر الأموي، ومِنْ أفصَحِ العربِ.

٧- انظر طَبَقات ابن سَلاَّم ١/ ٣٢٩. وفي رِوايَةٍ: قَرَائبُهُ. دِياف: قَريةٌ قِيلَ إنَّها كانتْ بِحَورانَ في الشَّام، أهْلُها أنْباطٌ (وكانَ يُقالُ لَهُمْ دِيافِيُّونَ). السَّليطُ: الزيْتُ.

٨- ذو الرمّة: اسْمُهُ غَيْلانُ بنُ عُقبة بن نَهيس العَدَوي، شَاعِرٌ بَدَويٌّ مِنَ العَصْرِ الأُمَوي، كانَ يُقَلِّدُ الجاهليينَ مات عام ١١٧هـ.

٩- انْظُرْ سِمْط اللآلي ٢/ ٧٦٥. واو الجَمَاعة في (رَأوْنا) فاعِل، و(أهْلُ) تِكرار لِلفاعِل، ويُصِرُّ أنْصَارُ قَاعِدَةِ وُجُوب إفْرادِ الفعل معَ فاعِلِهِ المُثَنَّى والمَجموع على أنَّهُ (بَدَلٌ) مِنَ الفاعِل.

١٠- عَديُّ بنُ الرِّقاع العاملي: شاعِرٌ أُمَويٌّ دِمَشْقِيّ مِنْ قَبيلةِ عاملة، كانَ مُقَرَّبًا مِنَ الوليدِ بنِ عبدِ المَلِك، مات سنة ٩٥ هـ.

١١- ديوانه تحقيق د. حسن نور الدين ص٨٩. الرَّشَأُ: الغَزَالُ الصَّغيرُ إذا أصْبَحَ قادرًا على مُرافَقَةِ أُمِّه. القِيَانُ: جَمعُ قَيْنَةٍ؛ وهي الأمَةُ. الشُّنُفُ: حَلقةٌ تُوضَعُ في الأنْفِ لِلزِّينَةِ. نُونُ النِّسْوَةِ في (تَوَاصَيْنَ) فاعل، والقِيَانُ أيْضًا (فاعِل).

١٢- كُثَيِّرُ عَزَّةَ: اسْمُهُ كُثَيِّرُ بنُ عَبدِ الرَّحمن. شاعر أُمَويّ عُرِفَ بِمَحبُوبَتِهِ (عَزَّة) كانَ على صِلَةٍ بِعبدِ العزيزِ بن مَروان، والي مِصْرَ لأخيهِ عبدِ المَلِك، ماتَ عام ١٠٥هـ.

١٣- أُرُك: جَمْعُ أراكَةٍ (وهيَ الواحِدَةُ مِنْ شَجَرِ الأراكِ) التي يَتَّخِذُ العَربُ مِنْ قُضْبانِها مَساويكَ لِتَعطيرِ رائحَةِ الفَم. الجَزْع: مُنعَطَف الوادي. بيشة: وادٍ يَقَعُ بالقُربِ مِنْ مَدينَةِ (بيشة) في شِبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ. ونُونُ النِّسْوةِ في (صَيَّفْنَ) فاعِل، والحَمَامُ فَاعِلٌ أيْضًا.

آفاق المعرفة

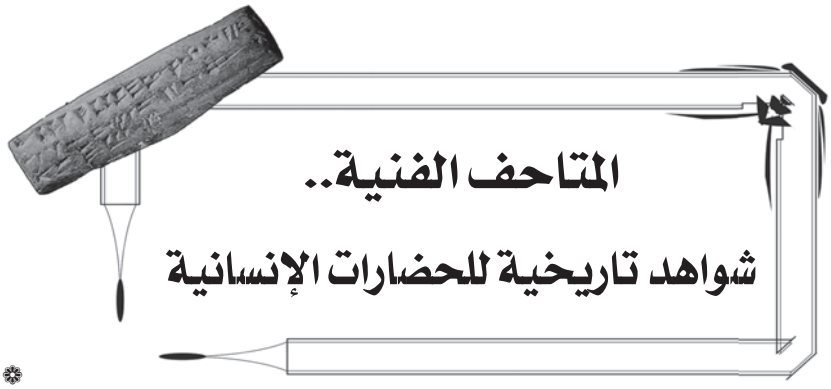

المتاحف الفنية..
شواهد تاريخية للحضارات الإنسانية

رحاب محمد

نشـأت فكرة المتاحف الفنية وقاعات العرض الرسمية منذ زمن بعيد، ونمت وتطورت على مـر الزمن حتى اتخذت شكلها الذي نعرفه اليوم، وإذا بحثنا عن أصولها نجد أنها تنبع من عدة تقاليد ومفاهيم يتصدرها التسليم بـأن الأعمال الفنية ذات قيمة أستطيقيـة منفصلة عن قيمتها النفعية التي صنعت من أجلهـا، فالمعابد والتماثيل والرسوم المصرية القديمة ذات أهمية

باحثة سورية.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

جمالية مستقلة عن أبعادها الدينية المعروفة، وكذلك الصور التي جمعها الإغريقيون في معبد «دلفي» وفي مختلف المراكز الدينية، وجمعها الرومان فيما بعد واستنسخوها بأعداد وفيرة، وكانت على درجة عالية من الجمال الذاتي المتمثل في دقة المحاكاة والحيوية والنسب الجميلة والتعبيرات القوية، ويعتبر هذا الزمن البداية الحقيقية لاستقلال القيمة الأستطيقية عن القيمة الوظيفية.

وما كاد يقبل عصر النهضة الأوروبية حتى انتشرت فكرة اقتناء الأعمال الفنية بسبب قيمتها الأستطيقية، بينما كانت الفكرة موجودة في الكنائس منذ العصور الوسطى لأهداف دينية، وكانت لدى النبلاء وعلية القوم تمتزج بأفكار سياسية، لأن قصورهم كانت ذات صبغة عامة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي وليست مغلقة الأبواب على أصحابها، وبدأت في نفس الحقبة تقريباً جذور ما نعرفه اليوم باسم متاحف الفن الحديث على شكل مجموعات من التحف العجيبة تضم كل ما هو نادر مما يصادف المسافرين أثناء رحلاتهم من روائع المهارات الإنسانية وعجائب الثقافات الغربية، وهي غالباً ما تنتظم أعمالاً فنية ذات طابع جغرافي أو أنثربولوجي أو جيولوجي، كما ساعد على تبلور فكرة المتحف وقاعة العرض ما كانت تجمعه المراكز التعليمية من وسائل إيضاح، يستعين بها الطلبة وصبيان الفن، ومن المعروف أن مايكل أنجلو (١٤٧٤-١٥٦٤م) قد تعلم من خلال معايشته لمجموعة التماثيل التي توزعت حديقة «آل ميديتشي».

وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تأسس متحف فيكتوريا وألبرت في انجلترا لهذه الأهداف التعليمية، إذ إن المفهوم السائد أن الفنانين يتعلمون أساليب الإبداع وحيل الصنعة من خلال تأمل أعمال الأساتذة الكبار القدماء والمتحدثين ونسخها، لأنها تتضمن قدراً عالياً من القوة والنوعية، ومن العوامل التي ساعدت على ظهور المتاحف المجموعات الفنية الخاصة التي آلت إلى الدولة لسبب أو لآخر، فأبت رؤيتها والاستمتاع بها للجماهير التي لا

تستطيع كأفراد اقتناء مثل تلك النفيسة الغالية الثمن، وأدركت الدول أن اللوحات والتماثيل لها قدرة على تخطي حواجز الثقافة والجنسية والتربية والطبقة الاجتماعية والعصر، وقد أسفرت هذه العوامل في نهاية القرن الثامن عشر عن اتضاح مفهوم المتاحف وصالات العرض العامة التي تملكها الدولة، ثم تجسدت المفاهيم مع الحروب النابليونية حين تحول قصر اللوفر الملكي إلى متحف الفنون، وما لبث قصر لوكسمبورغ أن امتلأ بالكنوز التي غنمتها جيوش نابليون من المدن المهزومة، وأصبحت الفرصة متاحة لكل من أراد تكوين مجموعة فنية حين انتشرت في السوق مقتنيات ملكية وأرستقراطية للبيع، وبدأت تتشكل مجموعة مقتنيات تمثل فنون مختلف بلدان أوروبة خاصة إيطاليا وهولندا، وسرعان ما انتقلت فكرة إنشاء المتاحف الفنية وقاعات العرض الرسمية إلى دول أوروبية أخرى أسوة بما

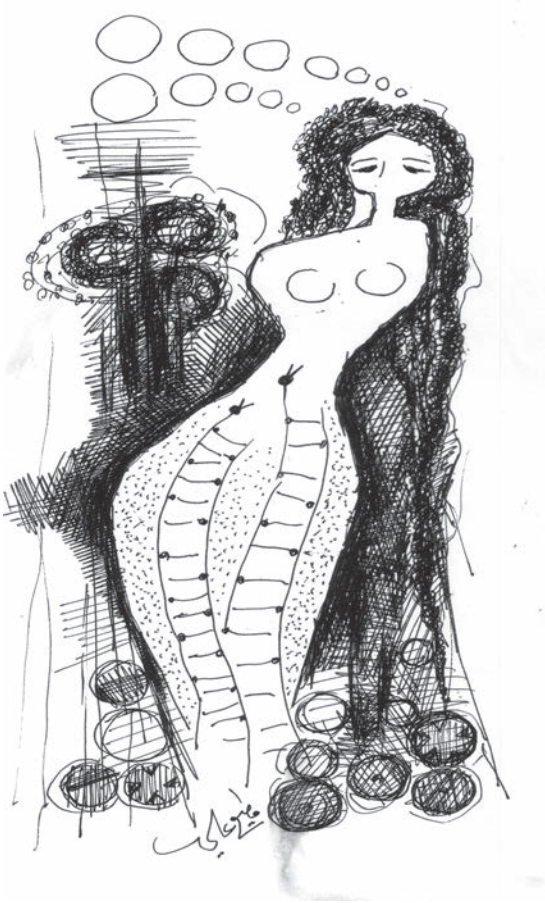

يجري في فرنسا وعاصمتها باريس.

وما كاد يقبل القرن التاسع عشر حتى ظهرت متاحف الولايات المتحدة وتزايدت أعدادها في القرن العشرين، ومن ثم شاعت الفكرة في أنحاء العالم كلما توفرت الإمكانات الاقتصادية للاقتناء، وتسابقت الدول والمدن على امتلاك الأعمال الفنية الكبرى

مـــن لوحات وتماثيل وتحـــف تعوض بها في أوقـــات السلم ما فقدتـــه في زمان الحرب، كمـــا عملـــت على حفـــظ الـــتراث الثقافي الوطنـــي بهدف تدعيم الهويـــة وتقوية روح الـــولاء والانتماء عند الشعوب، كما حرصت على عـــدم التفريـــط في التحـــف الوطنية وعدم تسربها إلى الـــدول الأخرى من حيث أنها مصـــدر فخر واعتزاز، إلا أن المقتنيات الحديثـــة لا تظفـــر بنفس الثقـــة والتقدير العالي اللذيـــن تظفر بهما الأعمال القديمة لأن الزمـــن وحـــده هو الفيصـــل بين الغث والسمين في ميدان الفنـــون، والفيصل بين الضعيف المتهالك والممتاز الجدير بالحفظ في المتاحف العريقة، فحين ظهرت اللوحات الانطباعية في فرنســـا لم تتقبلها الجماهير في بـــادئ الأمر، ولم تتقبـــل أساليب ما بعد الانطباعية وهو مـــا يسمى بالفن الحديث، لذلك يمكن القول بأن متاحف الفن الحديث أماكن انتظار تستقر فيها اللوحات والتماثيل ذات الأساليب المبتكرة تقتنع بها الجماهير، ويشهد النقاد والمؤرخون والمفكرون المعترف بهم بأنهـــا ند للروائع القديمة التي صمدت للزمن.

وقد انتشرت فكرة متاحف الفن الحديث بسرعة في بلـــدان أوروبة جنباً إلى جنب مع متاحف الأساتـــذة القدامى، ويعتبر متحف نيويورك نموذجاً نمطياً لهذه المتاحف شيدته الولايات المتحدة سنـــة ١٩٢٩، ولم يعبأ منذ البدايـــة بالفنون الأكاديميـــة واتجه مباشرة إلى الأعمال الانطباعية المرفوضة، ونسجت المتاحف الأخرى على منواله وأصبح مفهوم كلمة «حديث» لا يعني الفترة الزمنية الراهنة، بل يشير إلى نوع معين من الفن، حتى إن بعض الصور التي مضت عليهـــا عشرات السنين تبدو لمعظـــم الناســـ غامضـــة و«حديثة»، وقد ظفـــرت معارض الفن الحديث في دول الغرب باهتمام الملايـــين يترددون عليها في كل عـــام فاستفادت المتاحـــف الكلاسيكية من هذه الظاهرة، وأصبحت إقامة العروض الحديثة مـــن صلب وظيفتهـــا، تجتذب بها الناس ليتأملوا مقتنياتها التقليدية من وجهة نظر معاصرة ويتعلموا كيف يتذوقونها.

كما تدافـــع الفنانين الحديثين إلى مزيد مـــن الحذر والحرص في إبداعهم، إذا كانوا حقاً يأملون في أن تنظمه جدرانها وأبهاؤها،

لكن بعض هؤلاء ينتجون أعمالاً لا تصلح لمثل تلك العروض ولا تباع ولا تشترى، إما لأنها خافية لا يراها أحد أو مؤقتة لا تدوم سوى لحظات أو أيام، أو كبيرة لا تتسع لها قاعات أو ساعات محددة، فأخذوا يبدعون أعمالاً في عروض الصحراء، أو في الحقول الشاسعة، وربما على فوهة بركان خامد، ولا يمكن مشاهدتها بطبيعة الحال إلا في مكانها وبيئتها، مما يتطلب من الزائرين بذل جهود مضنية وتحمل المشاق لكي يصلوا إليها، الأمر الذي يحرم هؤلاء الفنانين من عدد غفير من الذواقة العابرين وغير المختصين، ومن أجل هذه الأعمال غير التقليدية ظهرت أماكن غير تقليدية أيضاً، في الحدائق العامة والمناطق الريفية، ومن أنجح نماذج هذا الطراز من أماكن عرض الفنون الحديثة تلك الحدائق المترامية على تخوم مدينة كوبنهاجن في الدنمارك تتوسطها حجرات زجاجية الجدران، حيث يرى الزائرون من خلاله التماثيل تتوزع المكان الخلوي بين الزهور والشجيرات، يحدها في الأفق الشاطئ السويدي، وتترامى منه أصوات الرذاذ وصفق الأمواج، بينما تنبثق المجسمات هنا وهناك لتكمل المشهد الجليل وما يحفل به من عناصر الطبيعة.

ويمكن عرض الرسوم الملونة والتماثيل في منزل أو حجرة مصحوبة بأعمال فنية وتطبيقية مناسبة بهدف إعداد بيئة تتعايش مع المعروضات، حتى لو كان هذا الإعداد مجرد مقعد أو منضدة، وقد أوضح أحد مديري المتحف الألمان هذه الفكرة بأن عرض اللوحات والتماثيل في بيئة تضم تجهيزات متوافقة مع عصرها، وأما معروضات الفن الحديث فأحاطها بأعمال من الوسط الثقافي الذي أقبلت منه كالصحف والمجلات والإعلانات والآلات الميكانيكية والأدوات الشائعة الاستخدام، والمتاحف لا تقتني الأعمال الفنية جزافاً، فأعمال عظماء الفنانين أصحاب المدارس والأساليب تفوق أهميتها من تلك التي تنحصر قيمتها في أنها جميلة أو معبرة.

وفي منتصف القرن التاسع عشر تحددت الضوابط التي تصنف على أساسها المقتنيات المتحفية، وجاء في صدارتها

أعمـــال أصحاب الاتجاهـــات الكبرى الذي أقـــر لهم الزمن بالأستاذيـــة مثل: «ميكائيل أنجلـــو»، و«دافنشـــي» من عصـــر النهضة، و«بيكاسو» من القرن العشرين، ثم اللوحات المفعمـــة بالحيويـــة لأساتذة مثـــل «روبنز»، وتأتي في الدرجة التاليـــة لوحات الأساتذة الذي مارسوا الإبداع من خلال اتجاه معين كالانطباعيـــة أو التكعيبيـــة أو السيريالية.. إلـــخ، وانتهـــت التصنيفات بأعمـــال تقتنى لتخزينهـــا كشاهد على العصـــر، وأصبحت هذه الضوابط دستـــوراً لمتاحف العالم حتى يومنا هـــذا، لذلك نراهـــا تتنافس بحماس علـــى اقتناء روائع الفئتـــين الأولى والثانية، مما رفع أسعارهـــا إلى عشرات الملايين من الدولارات.

آفاق المعرفة

وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية من قنوات العلاقات العامة للنظم السياسية

د. محمد البخاري ❁

ممـــا لا شك فيه أن لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية عالية التطور والكفـــاءة والفعاليـــة في عصر المعلوماتية تأثراً كبـــيراً على المجتمعات مهما تباينـــت وتعددت. حتى إن وسائل الاتصـــال والإعلام الجماهيرية غدت من قنـــوات عمـــل إدارات العلاقات العامة وتكمل بعضهـــا بعضاً وتشترك معها بالدوافع والأهداف.

ويشـــير الباحثـــون إلى أن وسائل الاتصال والإعـــلام الجماهيرية تتألف من:

❁ باحث عربي سوري مقيم في أوزبكستان.

العمل الفني: الفنان وليد الحسيني.

- الصحافة المطبوعة؛

- والإذاعتين المسموعة والمرئية، واسعة الانتشار عالمياً بعد دخول الأقمار الصناعية في مجال نقل البث الإذاعي المسموع والمرئي؛

- وشبكة الإنترنت العالمية واسعة الانتشار. وتستخدمها كلها إدارات العلاقات العامة.

وتعتبر نشاطات إدارات العلاقات العامة في سعيها لبلوغ الأهداف المرسومة لها من أكبر الصناعات دخلاً لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في العالم. ومن المعروف أن الإعلان أخذ بالتسابق لشغل صفحات الصحافة المطبوعة منذ نشوئها حيث بدأت فيها خدمات للمعلنين وللقراء على حد سواء وتطور هذا السباق مع تطور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ورافق هذا التطور ظهور منتجين عمالقة في حقل الاتصال والإعلام والإعلان فرض معه اهتمام الباحثين بدراسات التأثير الإعلامي، ودراسات تأثير الاتصال الجماهيري، ودراسات تأثير الإعلان، ودراسات مدى تقدم الصناعات الآخذة بالتطور الدائم في مجالات الإعلام والاتصال والإعلان.

وكان من أول تلك الدراسات، دراسات وظائف وسائل الاتصال والإعلام الرئيسية في الإعلام والتثقيف والترفيه والتربية والتعليم. وأولها كانت دراسات تناولت الصحف التي تعتبر قوة اجتماعية واقتصادية هامة في المجتمعات، وقوة رئيسية لتشكيل الرأي العام، وتؤثر بشدة على الجهود الوطنية والدولية المبذولة من أجل التقدم الوطني والتفاهم العالمي. بعد أن تطورت الصحف من صفحة واحدة توزع محلياً إلى إنتاج متعدد الصفحات يوزع دولياً. وأظهرت الدراسات أن الصحف الأولى صدرت في براغ، وإنفسبورغ عام ١٥٩٧، ودانيفر عام ١٦٠٥، وبال عام ١٦١٠، وفيينا، وفرانكفورت عام ١٦١٥، وهامبورغ عام ١٦١٦، وبرلين عام ١٦١٧، ولندن عام ١٦٢٢، وباريس عام ١٦٣١.

ومع بداية القرن العشرين ظهرت جمعيات مهنية صحفية، وبدأ التطور التدريجي للصحف التي تملكها شركات مساهمة كبرى، وبالتدريج تحولت الصحف إلى مؤسسات متكاملة. وتبعها ظهور أولى وكالات الأنباء، كوكالة هافاس، في باريس عام ١٨٤٥ وكانت أول وكالة تمارس تجارة الأخبار والإعلانات في العالم؛ ووكالة رويتر للأنباء في لندن عام ١٨٥١، وتحول اسمها إلى رويترز فيما بعد؛ وجمعية أخبار الميناء Harbor News Association في

نيويورك عام ١٨٤٨ وتبدل اسمها إلى وكالة أنباء نيويورك أسوشيتد بريس New York Associated Press (AP) عام ١٨٥٦؛ ووكالة وولف للأنباء في برلين عام ١٨٤٩؛ ووكالة أنباء ستيفاني Stefani الإيطالية في عام ١٨٥٣؛ ووكالة إنترناشيونال نيوز سيرفيس International News Service في نيويورك عام ١٩٠٩؛ ووكالة التلغراف الروسية في موسكو عام ١٩١٨، التي تغير اسمها إلى الوكالة التلغرافية للاتحاد السوفييتي TASS تاس بعد قيام الاتحاد السوفييتي، وتحول اسمها إلى إيتار تاس بعد انهيار الاتحاد السوفييتي؛ ووكالة أنباء الصين الحمراء في بكين عام ١٩٢٩ التي بدلت اسمها إلى وكالة أنباء الصين الجديدة في ١٩٣٧/٩/١.

وتظهر بعض الدراسات أن الصحف كانت تعتمد على مواردها من الإعلان في كل مراحل تطورها، إلا أن الإذاعة المرئية استولت على الحصة الأكبر من سوق الإعلان فيما بعد مما أثر على دخل الصحف التي تداركت الأمر وتمكنت من تطوير أساليبها في إنتاج وإخراج الإعلان، مما أعاد لها قيمتها الإعلانية المميزة. لأن قراء الصحف يتميزون بأنهم من المتعلمين القادرين على تدقيق وتحليل وفهم محتوى ما تنشره الصحف. وتلتها وسيلة الاتصال والإعلام الثانية ممثلة بأولى البرامج الإذاعية المسموعة اليومية المنظمة التي بدأت البث من ديتروا نيوز في الولايات

المتحدة الأمريكية عام ١٩٢٠، وتبعتها بريطانيا التي نظم فيها دايلي مايل أول برنامج إذاعي مسموع في العام نفسه. أما في فرنسا فقد نجح الجنرال فيري بإرسال أولى البرامج الإذاعية المسموعة عام ١٩٢١. ومنذ ذلك الوقت اعتبرت الإذاعة المسموعة من الوسائل التي تخاطب حاسة السمع دون الحاجة للتفرغ للقراءة كما في الصحف بينما تتفوق عليها في استثارة المستمع وجذبه للتفاعل مع المادة المذاعة أو مع شخصية مقدم البرنامج، وإثارة خيال المستمع لرسم الصورة الغائبة عنه من الوقائع والأحداث المذاعة فور وقوع الحدث، وأوجدت نوعاً من الألفة بين المستمع والبرامج الإذاعية المسموعة. وهكذا اعتبرت الإذاعة المسموعة امتداداً طبيعياً للأذن.

وجاء بعدها البث الإذاعي المرئي بعد أن بدأ مركز أليكساندر بلاس البريطاني للتلفزيون (التلفزيون كلمة مكونة من شقين TELE أي بُعد، VISION أي رؤية أي الرؤية عن بُعد) بالبث لمدة ساعتين يومياً عام ١٩٣٦، وتبعه المركز الفرنسي في لاتوريفال ببث برامج إذاعية مرئية يومية عام ١٩٣٨، وتبعتهما الولايات المتحدة الأمريكية في العام التالي ببث إذاعي مرئي استهدف جمهور كبير. وأخرت الحرب العالمية الثانية البداية الفعلية لانتشار بث الإذاعة المرئية للجمهور العريض لما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية خلال عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦. وتعتبر الإذاعة المرئية امتداداً طبيعياً للعين، ومن أهم خصائص البث الإذاعي المرئي إضعاف الحاجز اللغوي، لأن الصورة تصبح مكملة للغة، والصورة بطبيعة الحال تخاطب مختلف المستويات الثقافية والاجتماعية، ومن النتائج السلبية للبث الإذاعي المرئي أنها تُعوِّد المتلقي على السلبية، وتقدم له الأخبار جاهزة، ولا تتيح له فرصة التفكير والاستعانة بتجاربه السابقة، وتفرض عليه نوعاً من التذوق أحادي الجانب، وتخضعه لضغوطات المؤسسات المالية والصناعية، ومصالح جماعات خاصة، أو نظم حاكمة. إضافة لمقدرة الإذاعة المرئية على المزج بين قدرات الأداء المسرحي الحي بالنقل المباشر، والإمكانيات التقنية للأفلام السينمائية، وصوت الإذاعة المسموعة، لتوجيه الجمهور نحو أهداف محددة. وبذلك تمكنت الإذاعة المرئية من استخدام أفضل الإمكانيات المتوفرة لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الأخرى التي سبقتها، ومزجت بين الموضوعية والذاتية لدى الجمهور، لأن الكاميرا ومختلف المؤثرات والوسائل الإلكترونية الأخرى التي تتمتع بها الإذاعة

المرئية تمكن كاتب ومخرج البرنامج من توجيه اهتمامات ومشاعر جمهور عريض نحو حافز معين وفق رؤيتهما الذاتية. وأظهرت الدراسات أن فن الإعلان رافق وظائف الاتصال والإعلام على الدوام للدعوة لموضوع معين أو للإقناع بقضية معينة أو للترويج لسلعة منتج معين، أو خدمة تقدمها جهة معينة، مستفيداً من قدرتها على الاتصال الجماهيري الذي يتفوق في بعض الظروف على قدرات الاتصال الشخصي للإعلان.

الإعلان وتطور فنونه

ويعتمد فن الإعلان على قدرات وسائل الاتصال باستخدام رموز تحمل معنى مفهوماً بالدرجة نفسها لدى المعلن والجهة المستهدفة من الإعلان، ولكن قد لا يتم ذلك إلا إذا تحقق حد أدنى من التداخل بين خبرات المرسل (المعلن) وخبرات مستقبلي الإعلان ليؤدي بالتالي إلى فهم مشترك لمعاني الرسالة الاتصالية بين المرسل والمستقبل، وإلى إحداث اتصال حقيقي مبني على المعرفة المتبادلة المشتركة للرسالة بين طرفي عملية الاتصال.

وتطور استخدام الإعلان عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وكان في مقدمة مستخدميه السياسيون والتجار على حد سواء للاستفادة منه لتحقيق أهدافهم كل في مجاله. وجاء الإعلان السياسي كوسيلة اتصال يدفع المُعْلِن ثمنها لقاء ما تقدمه وسيلة اتصال وإعلام جماهيرية لعرض خطاب سياسي هادف للتأثير على مواقف وأفكار وسلوك مستقبلي الرسائل الإعلامية. ويعد الإعلان السياسي أكثر أنواع الاتصال تأثيراً على المجتمعات، يوظفه القادة السياسيون لتحقيق غاياتهم وأهدافهم لخداع الجماهير وإقناعهم وتسويق مرشحيهم والمبالغة في إعطائهم صفات لا تمت إلى الحقيقة بصلة. بينما جاء الإعلان التجاري لإقناع الجماهير والتأثير عليها لزيادة الطلب على سلعة المعلن وخلق صورة إيجابية عن المنشأة المعلنة وجهودها المبذولة لإشباع حاجات المستهلكين، وزيادة الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية.

مما دفع خبراء الاتصال لدراسة نظريات الاتصال وتأثير وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، ويعتقد البعض أن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تتمتع بدرجة قوية للتأثير على الجماهير، وأنها قادرة على تغيير العادات وسلوك وتصرفات الجماهير، وفق الآراء التي يقدمها القائمون على الاتصال الجماهيري معتمدين على مستوى شعبية وانتشار وسائل الاتصال

والإعلام الجماهيرية القائمة آنذاك. ففي أوروبة مثلاً استخدمت الإذاعة، والصحافة، والأفلام السينمائية من قبل الأنظمة الديكتاتورية والشيوعية والفاشية لتحقيق غاياتها، واتجه خبراء الاتصال والإعلام آنذاك لاستخدام نتائج أبحاث علم النفس الاجتماعي وطرقها ومناهجها، لتحديد مدى تأثير وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. وحرصت دراساتهم على معرفة الآثار الضارة والمحتملة لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، ومدى تشجيعها على الانحراف والجريمة والتعصب العرقي والعدوان والانحلال والإباحية. واهتم الباحثون في البداية بالتمييز بين أنواع التأثير الإعلامي الممكن على الجماهير تبعاً لخصائص الشرائح المستهدفة وصفاتها السيكولوجية والاجتماعية، وتلتها مرحلة اهتم الباحثون خلالها بتأثير العوامل الوسيطة في عملية الاتصال والإعلام، ودور الاتصال الشخصي، ودور البيئة الاجتماعية في تنشئة الجمهور. وتلتها دراسات بينت مدى استخدام الساحات المستهدفة لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ومدى تأثيرها وبحثت عن حوافز تدفع الجمهور لاستخدام وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. ورافقتها دراسات اهتمت بمدى تأثير وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وأكدت نتائج تلك الدراسات على أن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية غدت أكثر شعبية وتأثيراً بعد ظهور الإذاعة المرئية خلال خمسينات وستينات القرن العشرين، كوسيلة اتصال وإعلام جماهيرية قوية تتمتع بشعبية جماهيرية كبيرة تفوق سابقاتها من وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي سبقتها.

وتتفق أغلب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع على تقسيم الاتصال إلى أنواع أو نماذج متعددة، منها:

الاتصال الذاتي، والاتصال الشخصي، والاتصال الجماعي، والاتصال الجماهيري: وتستخدم كلها وسائل وتقنيات معقدة باهظة التكاليف، منها: المطبوعات، والإذاعة المسموعة والمرئية، والسينما، ومنظومات الاتصال والمعلوماتية عبر الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت. وتعددت مفاهيم معنى الاتصال بتعدد المدارس العلمية والفكرية للباحثين في هذا المجال، وبتعدد الزوايا والجوانب التي أخذها الباحثون في اعتبارهم، وعلى المستوى العلمي حيث يمكن الإشارة إلى مدخلين لتعريف الاتصال هما:

المدخل الأول: ويعرف الاتصال على أنه عملية يقوم فيها طرف أول (مرسل) بإرسال

رسالة إلى طرف مقابل (مستقبل) مما يؤدي إلى إحداث أثر معين على متلقي الرسالة؛

والمدخل الثاني: يعرف الاتصال على أنه تبادل للمعاني الموجودة في الرسائل الإعلامية، ومن خلاله يتفاعل الأفراد ويتبادلون ثقافات مختلفة، من أجل توصيل المعنى، وفهم مضمون الرسالة الإعلامية.

نماذج عملية الاتصال

وفي هذا الإطار تطورت نماذج تشرح وتفسر عملية الاتصال، وظهر في البداية النموذج المكتوب الذي يرى أن عناصر الاتصال هي: المرسل؛ والرسالة؛ والمستقبل. ولكن الدراسات التي أجريت منذ أربعينيات القرن الماضي بينت مدى قصور هذا النموذج. ومهدت تلك الدراسات لظهور نماذج تطورت بدورها من خلال الانتقال من الاتصال الثنائي إلى الاتصال الدائري، وعلى ضوئها تكونت عملية الاتصال من ستة عناصر أساسية هي: المصدر؛ والرسالة؛ والوسيلة؛ والمتلقي؛ وراجع الصدى؛ والتأثير.

وظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية

واشتملت وظائف وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية على: الوظيفة الإخبارية؛ ووظيفة تكوين الرأي العام؛ ووظيفة توسيع الأفق الثقافي والمعلوماتي؛ ووظيفة تنمية العلاقات العامة وتقوية التماسك الاجتماعي داخل المجتمع؛ ووظيفة الترفيه والتسلية وملء أوقات الفراغ؛ وأخيراً وظيفة نشر الإعلانات والدعاية. وتعني الوظيفة الإخبارية: قيام وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بنقل الأحداث والقضايا المهمة، ومتابعة تطوراتها وانعكاساتها على المجتمع، تلبية لحاجات الإنسان للتعرف على البيئة المحيطة به، والوقوف على ما يجري حوله من أحداث بحيادية ودقة ومصداقية. وتولت وظيفة تكوين الرأي العام إيجاد تعاون بين وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية ومؤسسات المجتمع العائلية والاجتماعية والتعليمية والدينية والاقتصادية في مجالات توجيه الفرد وتكوين مواقفه واتجاهاته المهنية الخاصة وتقوية اللغة الفصحى ضمن إطار التعلم مدى الحياة. وتقوم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بوظيفة توسيع الأفق الثقافي والمعلوماتي بالتثقيف المخطط له لرفع المستوى الثقافي والعلمي والمهني للشرائح الاجتماعية المستهدفة والبعيد عن التثقيف العفوي. وتهتم وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بوظيفة تنمية العلاقات العامة وتقوية التماسك الاجتماعي داخل المجتمع عن طريق تنمية تبادل المعلومات

بين أفـراد المجتمع ومؤسساتـه الحكومية والمدنية والتعريـف بالشخصيات الناجحة اقتصاديـاً، واجتماعياً، وسياسيـاً، وفنياً، وأدبياً، وتسليط الضوء على أسرار نجاحهم ليكونوا قدوة للأجيـال الصاعدة. وإضافة لذلـك تقـوم وسائـل الاتصـال والإعلام الجماهيرية بوظيفة الترفيه والتسلية وملء أوقات الفراغ وتوفير فرص الراحة للجمهور الإعلامي.

أما وظيفة الإعلان والدعاية فتقوم بها وسائل الاتصـال والإعلام الجماهيرية عن طريـق الدعايـة للمرشحـين في الحملات الانتخابية، والإعلان عن السلع الجديدة التي تهم المستهلكـين، والإعلان عن فرص عمل جديدة شاغـرة ومطلوبة، ومواعيد رحلات وسائـل النقل البريـة والبحريـة والجوية، والإعـلان عن إجراء المزايدات والمناقصات العلنية، ووضع التزامات الأحكام القضائية موضع التنفيـذ، وتقديم نشـرات الأحوال الجويـة، والصيدليات المناوبـة، والبرامج الإذاعيـة المسموعة والمرئيـة، وغيرها من الإعلانات. وتبقـى المهمة الرئيسية لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التعريف بما هو جديـد وتقديمه إلى الجمهور الإعلامي وعرض فوائده وحسناته في ظروف تعقدت فيها الحياة وتعددت الاختراعات والصناعات والاكتشافـات العلميـة والتكنولوجيـة والمعلوماتيـة. والاستمـرار بمـا سبق وقام بـه الأبـوان في الأسـرة، والمعلـم والمربي، ومؤسسات التعليم العـالي والمتخصص من أجل تطوير الشخصيـة الوطنية والحيلولة دون الانحراف عـن الطريق القويم، لتكون وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية فعلاً جـزءاً مهماً في عملية التعلـم مدى الحياة التي تحتاجهـا بشدة المجتمعـات من أجل التقدم والازدهار.

وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة، كامتداد لحواس الإنسان

ووسائـل الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثـة، كامتداد لحواسـ الإنسان توفر للإنسان الزمن والإمكانيات، وتشكل تهديداً له لأنـه عندما تمتد يد الإنسـان وحواسه عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، تستطيـع هذه الوسائـل أن تمد يد المجتمع إليـه، كي تستغله وتسيطر عليه. ولكي نمنع احتمال التهديـد أكد ماكلوهين على أهمية إحاطة الناس بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن ماهيـة وأداء وسائل الاتصال والإعلام الجماهيريـة، لأنـه بمعرفة كيفيـة تشكيل التكنولوجيـا الحديثة للبيئـة المحيطة بنا، نستطيـع أن نسيطـر عليهـا ونتغلب تماماً على نفوذهـا أو قدراتهـا الحتمية. وبدلاً

من الحديث عن الحتمية التكنولوجية، قد يكون من الأدق أن نقول إن متلقي الرسالة الإعلامية يجب أن يشعر بأنه مخلوق له كيان مستقل، قادر على التغلب على هذه الحتمية التي تنشأ نتيجة لتجاهل الناس لما يحدث حولهم. ويجب اعتبار التغيير التكنولوجي حتمياً لامفر منه، وهو ما حدث فعلاً، ذلك لأننا إذا فهمنا عناصر التغيير التكنولوجي يمكننا أن نسيطر عليها ونستخدمها في أي وقت نريده بدلاً من الوقوف في وجهها، كما يحدث لدى البعض أحياناً!.

ومن المشاكل التي تواجه عملية التبادل الإعلامي الدولية، مشكلة أهمية مراعاة الظروف البيئية المحيطة بالإنسان، واختلافها من دولة إلى دولة، بل واختلافها من منطقة إلى أخرى داخل الدولة ذاتها، ومن هنا فمن الأهمية بمكان أن يحيط خبراء الإعلام والصحفيون بالاعتبارات البيئية والظروف المحيطة بالإنسان. وإذا كان هذا الإلمام أكثر سهولة في الإعلام الداخلي فإنه أكثر صعوبة بالنسبة للإعلام الدولي، حيث تتعدد الاعتبارات البيئية وتتنوع الظروف واللغات، باختلاف من دولة إلى دولة، ومن منطقة إلى منطقة، ومن قارة إلى قارة. ومع تزايد وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وتطورها واتساعها، أصبح العالم أقرب إلى القرية العالمية، ومما ساعد على ذلك تطور وسائل المواصلات وسهولة انتقال الأفراد والسياح، وهجرة السكان من أماكن سكنهم الأصلية، والإقامة الطويلة لرعايا دولة معينة لدى دولة أخرى بقصد الدراسة أو العمل، وتزايد حجم وسرعة وتنوع المراسلات، ودخولها عصر الحوار المباشر عبر الهاتف والتلكس والفاكس والبريد الإلكتروني بين مختلف دول العالم. وتطور البث الإذاعي المسموع والمرئي واتسع باستخدام الأقمار الصناعية لأغراض الاتصال ونقل المعلومات. وساعد الاحتكاك بالأمم المتقدمة على حدوث تحول ثقافي واجتماعي عالمي، برزت معه قيم ومعتقدات جديدة لم تكن متوقعة من قبل. ومن هنا فإن على خبراء الإعلام والصحفيين أن يدركوا كل تلك المتغيرات عند إعدادهم وتنفيذهم الحملات الإعلامية الموجهة للداخل والخارج على السواء، كي لا تحدث إخفاقات تؤدي إلى عدم استجابة المستقبل لمضمون الرسالة الإعلامية الموجهة له، وأن لا يكون رد فعله مغاير لأهداف الحملة الإعلامية. وأن يؤخذ في الحسبان أيضاً اختلاف درجات التقدم الاجتماعي والثقافي والعلمي والتكنولوجي، وتباين النظم والمعتقدات السياسية والأيديولوجية بين دول العالم

المختلفة، ودرجات التباين حتى بين دول النظام المتشابه. وحدد مارشال ماكلوهين في نظريته تكنولوجية وسائل الإعلام التي تعتبر من النظريات الحديثة عن دور وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وتأثيرها على المجتمعات، أربع مراحل لتطور التاريخ الإنساني وهي وفق رأيه:

- مرحلة المخاطبة الشفهية القبلية؛
- ومرحلة نسخ المخطوطات التي استمرت قرابة ألفي عام؛
- ومرحلة عصر الطباعة والتي استمرت من القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر؛
- ومرحلة عصر وسائل الاتصال والإعلام الإلكترونية وبدأت من مطلع القرن العشرين ولم تزل مستمرة.

وأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في كل مرحلة ساعدت على تشكيل المجتمعات عبر التطور الإنساني، واعترف ماكلوهين أن نظريته جاءت تطويراً لأعمال: أرد لويس موفورد (١٩٣٤)؛ وإتش. جي. تشايتور (١٩٤٥)؛ وسيغفريد غيودون (١٩٤٨)؛ وهارولد أنيس (١٩٥١)؛ ويه. إتش. غومبريتش (١٩٦٠). وأكد على انتقال البشرية من الاتصال الشفهي إلى الاتصال المكتوب ومن ثم العودة للاتصال الشفهي مرة أخرى.

وعن الاتصال الشفهي يقول ماكلوهين أن البشر يتكيفون مع الظروف المحيطة بهم عن طريق إيجاد توازن بين حواسهم الخمس: السمع، والبصر، واللمس، والشم. وأن اختراع غوتينبرغ الطباعة عن طريق الحروف المتحركة خلال القرن الخامس عشر قلب التوازن القائم على الحواس الخمس لتفقد حاسة السمع سيطرتها على عملية الاتصال لتأخذ محلها حاسة البصر في القراءة عن طريق الاتصال بالكلمات المطبوعة التي أخذت تحل بالتدريج مكان ذاكرة الأجيال المتعاقبة، وليصبح خزن المعلومات المطبوعة على الورق واسترجاعها من الأساليب الناجعة للاتصال. وأطلق ماكلوهين على المرحلة المعاصرة تسمية عصر الدوائر الإلكترونية وشملت: أجهزة الاتصال البرقية، وأجهزة الهاتف، والسينما، والإذاعتين المسموعة والمرئية، وأجهزة الفاكس، والحاسبات الآلية (الكمبيوتر)، والعقول الإلكترونية الناطقة، والبريد الإلكتروني، وكلها أعادت الإنسان لاستخدام حواسه مجتمعة. وأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الجديدة التي اختصرت المسافات وتخطت الحواجز حولت العالم إلى قرية عالمية Global Village. لتتحول وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية الجديدة إلى وسيلة نموذجية

للتعليم مدى الحياة. لأن وسيلة الاتصال تحولت إلى رسالة إعلامية غدت الأساس لتشكيل المجتمعات وقللت من شأن المضمون الإعلامي. وأشار ماكلوهين إلى أنه أضحى لكل وسيلة اتصال جمهورها الذي يفوق حبه لها اهتمامه بمضمونها ساخناً كان أم بارداً.

وجاءت نظرية التقمص العاطفي التي سبق وأشار إليها: أفلاطون، وسان جون، وسان أوجستين، وسان الاكويني، وسبينوزا، في مؤلفاتهم، واعتبرها آدم سميث، وهربرت سبنسر، عملية انعكاس بدائي، وناقشها الباحثون ليبس، وريبوت، وشلير، من خلال تحليلهم للعواطف. ويرجع الفضل لإدخال كلمة العاطفة في اللغة الإنجليزية إلى تيوردور ليبس الذي سماها الشعور بالشيء، وطور الباحث جورج ميد نظرية التقمص العاطفي في كتابه العقل والنفس والمجتمع وافترض أنه حينما نتوقع أو نستنتج مشاعر الآخرين، وما سيفعلونه، وحينما نخرج بتنبؤات، تتضمن السلوك الخاص للإنسان، واستجاباته الخفية، وحالاته الداخلية ومعتقداته، ومعانيه، وحينما نطور التوقعات ونتنبأ نفترض أن لدينا مهارة يسميها علماء النفس بالتقمص العاطفي، أي القدرة على الإسقاط وتصور أنفسنا في ظروف الآخرين، وساعد على تطوير تلك القدرة، الانتقال من مكان إلى مكان آخر. ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تعمل على تطوير المقدرة على التقمص العاطفي بين الأفراد الذين لم يغادروا مجتمعاتهم المحلية أبداً، لأن تلك الوسائل نقلت العالم الخارجي إليهم. ونظرية التقمص العاطفي هي جزء لا يتجزأ من الاتصال، لأنها تربط بين ذهن المرسل وذهن المتلقي، والتقمص العاطفي هو المقدرة على فهم ما يدور في ذهن شخص آخر، كأن نقول لشخص آخر أننا نفهم مشاعرك. فكيف يتحقق التقمص العاطفي؟ وما هي قيمته للاتصال في إطار عملية الاتصال؟ فالفرد يكتسب المقدرة على التقمص العاطفي بالتحرك المادي من مكان إلى آخر أو عن طريق التعرض لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، التي تجعل التحرك السيكولوجي يحل مكان التحرك المادي أو الجغرافي، وقيمة التقمص العاطفي للاتصال يمكن تلخيصها بأننا كي نتصل بالآخرين يجب أن تتوافر عندنا ثلاثة عناصر على الأقل وهي:

- وسائل مادية للاتصال؛
- وراجع صدى؛
- ومقدرة على التقمص العاطفي.

والمقدرة على التقمص العاطفي، هي

الخروج باستنتاجات عن الآخرين، وتغيير تلك الاستنتاجات لتتفق مع الظروف الجديدة، وهذه المقدرة معروفة منذ ألفي عام، وهناك نظريتان عن التقمص العاطفي:

نظرية تقول أننا نجرب الأشياء مباشرة، ونفعل ما يفعله الآخرون وفقاً لخبراتنا الذاتية، أي أن نفترض أن جميع الناس سوف يتصرفون بالطريقة نفسها التي نتصرف بها، وأننا لا نستطيع أن نتنبأ بما سيفعله الآخرون، إن لم نمر نحن أنفسنا بالتجارب نفسها التي يمر بها الآخرون.

والنظرية الثانية تقول إننا نحاول أن نضع أنفسنا في ظروف ومواقف الآخرين، وفي اتصالنا نتحول من الاستنتاجات إلى أخذ أدوار الآخرين، على أساس تنبؤاتنا.

فكيف نطور المقدرة على التقمص العاطفي؟ وهذا السؤال أساسي يواجهه طلاب الاتصال والإعلام من دون إيجاد رد قاطع عليه، فهناك نظريات للتقمص العاطفي تتفق مع الأدلة التي تم التوصل إليها عن طريق البحث، ولكننا نستطيع أن نعرف التقمص العاطفي بأنه عملية نتوصل من خلالها لتوقعات عن الحالات السيكولوجية الدائرة داخل الإنسان. ولمعرفة كيفية حدوث ذلك، نذكر أنه هناك ثلاث وجهات نظر أساسية للتقمص العاطفي.

وترى واحدة من المدارس الفكرية أن التقمص العاطفي غير موجود، لأننا لا نستطيع تطوير التوقعات، ومؤيدو هذا الرأي يؤمنون بنظرية التعلم البسيطة المكونة من منبه واستجابة، وأصحاب هذه النظرية يقولون إن كل ما لدينا في عملية الاتصال هي مجموعة من الوسائل، رسالة يقدمها شخص ما، ليدركها شخص آخر، وبمعنى آخر أنه هناك منبهات واستجابات لها.

وتفسر نظرية التعلم البسيطة التعلم غير البشري عند الحيوان، ولكنها لا تفسر السلوك البشري، لأن البشر يطورون توقعاتهم ولديهم المقدرة على تصور أنفسهم في الحالات والظروف النفسية للآخرين، ولهذا لا نستطيع أن نقبل الرأي الذي لا يعترف بوجود التقمص العاطفي، ولا نستطيع تطوير توقعاتنا وتنبؤاتنا، دون حدوث عملية تفسيرية تسبق الاستجابة، لأن تطوير التوقعات يحتاج إلى موهبة من نوع ما، فنحن بحاجة للتفكير بالأشياء التي لا نراها ولم نجربها، ولكي تكون لدينا توقعات لابد أن نتحدث عن أشياء غير موجودة، ونحن بحاجة لصنع تلك الرموز والتأثير عليها، لأن الإنسان يختلف عن الحيوان في تطويره لكلتا المهارتين اللتين سبق وأشرنا إليهما، وأن الإنسان قادر

علـى إدراك الرموز والتأثـير فيها، وصنع رموز تخـدم أغراضه، ولهذا يستطيع إعادة تقـديم أشياء غير موجـودة أمامه، وتقديم مـا لم يحدث وما لا يجري حدوثه الآن، وإن الإنسـان يملك مهـارات فردية تختلف بين البشر. ولهذا رفض الباحثون الرأي الذي لا يعترف بمفهوم التقمص العاطفي، معتمدين على أننا جميعاً نتوقع المستقبل، ونقوم بتنبؤ العلاقة بين:

- السلوك الذي نقدم عليه؛
- والسلوك الذي يقـدم عليه الآخرون استجابة لسلوكنا؛
- والتنبـؤ بالاستجابة التالية التي نقدم عليها بناء على سلوك الآخرين.

أي أننا نقوم بأفعـال وردود أفعال، من خلال تطوير توقعاتنا عن الآخرين وتأثيرهم على أفعالنا قبل قيامنـا بها، وهو ما يعني التقمص العاطفي.

وتأخـذ نظرية الاستنتـاج في التقمص العاطفي هذا الافتراض من خلال أن:

- الإنسان لديه معلومات مبدئية عن أحاسيسه الداخلية، ومعلومات عن الأحاسيس الداخلية للآخرين من الدرجة الثانية؛
- وأنَّ الآخرين يعبرون عن أحاسيسهم الداخلية بأداء السلوك نفسه الذي قمت به للتعبير عن مشاعرك؛
- وأن الإنسان لا يستطيع فهم الحالة الداخلية للآخرين، إن لم يجرب تلك الحالة، فالإنسان لا يستطيع أن يفهم العواطف التي لم يشعـر بها والأفـكار التي لم تخطر بذهنه وهكذا.

فـإذن، نحن بحاجة لاستخـدام أسلوب آخـر في معالجة التقمصـ العاطفي يفسر نجاحنا في التنبؤ بسلـوك الآخرين، وتوقع ذلك السلوك من خـلال أسلوب يفترض أن الناسـ ليسـوا متماثلـين. علاوة عـن أنه هناك دلائل تشـير إلى عدم صحة افتراض نظريـة الاستنتـاج تقول بأننـا لا نستطيع أن نفهم المشاعـر الداخلية للناس الآخرين مـالم نجربها بأنفسنا، وحقيقـة أن الإنسان يفهم بشكل أفضل تلك الأشياء التي جربها بنفسـه، ولكنـه يستطيع علـى الرغم من ذلك أن يفهم جزئيـاً بعض المشاعر التي لم يجربها، على سبيل المثال نستطيع أن نحس بشعـور آلام الأم وهي تلـد طفلها من دون المرور بالتجربة ذاتهـا، وأن نتصور مشاعر السعادة التي يشعر بهـا الفرد عند تحقيق النجاح من دون المرور بتجربته، لأن التجربة تزيد فهمنا للنجـاح، ولكنها ليست أساسية لفهم النجاح.

وثانيـا: نظرية أخذ الأدوار في التقمص العاطفي: وتقـول إن الإنسان يكوّن مفهوماً

معيناً عن ذاتــه قبل أن يتصــل بالآخرين، وأننــا نحــاول فهــم سلوك بعضــ الأفراد وأن نفســر نتائــج ذلك السلــوك من خلال التقمص العاطفي عن طريق سلوك التقليد وتوقع الثواب والعقاب، وتطويره عن طريق الاتصال، وعن طريق أخــذ أدوار الآخرين وعن طريق التصرف نحو الآخرين، كمحور للاتصال، وعن طريق تطوير وتعميم المفاهيم عن الآخريــن. ونظريــة الاستنتاج تفترض وجود مفهوم عن الذات، يمكننا من التقمص عاطفيــا باستخدام مفهوم الــذات، لنخرج باستنتاجات عن حالات الآخرين الداخلية، وترى نظرية الاستنتاج أن مفهوم الذات يحدد كيفيــة التقمص عاطفياً، أمــا نظرية أخذ الأدوار فتعالج الموضوع من الناحية الأخرى تماماً. وكلا النظريتين تعطيان أهمية كبيرة لطبيعة اللغة والرموز المستخدمة في عملية التقمصــ العاطفي وتطويــر مفهوم الذات لأن الإنســان يستخــدم كل تلــك الأساليب في التقمص العاطفــي، ويأخذ الأدوار التي تعجبه، فــكل منا يأخذ أدوار الآخرين، وكل منا يعمم خبراته علــى الآخرين، والطريقة التي ننظر بها إلى أنفسنا تحدد مفهومنا أو أسلوبنا في التعميم على الآخرين، والمضمون الاجتماعــي الموجــود وتوقعــات الآخرين عن سلوكنا. وحينمــا نتقمص عاطفياً، ولا نجازى على تقمصنا العاطفي نضطر للجوء إلى حل من حلين فإما:

- أن نحرف سلوك الآخرين الذي أدركناه لنجعله يتفق مع توقعاتنا؛

- أو أن نعيد النظــر بالصورة الذهنية التــي كوناها عــن أنفسنا، ونعيــد تعريفنا لذاتنــا، أو أن نعود مرة أخرى لأخذ الأدوار السابقة.

وإذا لجأنــا إلى الحــل الأول وحرفنا ما ندركــه، فسنتحــول إلى مرضــى نفسيين، وتصبح تصوراتنا غــير واقعية، وينتهي بنا المطــاف في مستشفى الأمراضــ النفسية، وهذا ليس مرغوباً، وهنا نستطيع التنبؤ بأن مشكلة الصحة العقليــة متصلة بعدم قدرة الإنســان أو عــدم رغبته في تغيــير صورته الذهنيــة عــن نفسه، حينما يجــد أن هذه الصورة غير مجزية في الظروف الاجتماعية المحيطة بــه. وإذا لجأنا للحل الثاني بإعادة تعريف الذات فإننا نعود لأخذ أدوار الآخرين، وتطوير مفهوم جديد للتعميم عن الآخرين، وإيجاد مجموعة جديــدة من التوقعات عن سلوكنا، لنعود إلى أنفسنا ونغير سلوكنا وفقاً لذلــك ومرة أخرى نخــرج باستنتاجات عن الناس الآخريــن. لأن عمليتيّ القيام بالدور والاستنتــاج تسيران سوياً دائمــاً، وتعني أن الإنســان يكيــف نفسه، ويستطيــع أن يغير

سلوكه ليتفق مع الظروف المحيطة والوضع الاجتماعي الذي يجد نفسه فيه، ويطور توقعاته ويقوم بأدوار الآخرين والخروج باستنتاجات.

ولوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية دور في تنمية المقدرة على التقمص العاطفي، ومن النظريات التي تناولت هذا الجانب نظرية عالم الاجتماع الأمريكي دانييل لرنر الذي يفترض أن المقدرة على التقمص العاطفي تعتبر من الخصائص الأساسية اللازمة لانتقال المجتمع من الأسلوب التقليدي إلى الأسلوب الحديث، ويفترض أن هذه الخصائص كانت في الماضي تكتسب عن طريق تحرك الأفراد مادياً وانتقالهم من مكان إلى آخر واختلاطهم بالآخرين، أما في القرن العشرين فأخذت هذه الخاصية تكتسب مقوماتها أساساً عن طريق وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية التي تنقل العالم الخارجي إلى الأفراد الذين لم تتح لهم فرص السفر والانتقال وترك مجتمعاتهم المحلية. وربط لرنر المقدرة على التقمص العاطفي بالتسلسل التاريخي الجاري في المجتمعات الغربية، فأشار في استعراضه لانهيار المجتمع التقليدي في الشرق الأوسط «بناء على المادة التي جمعها مركز الأبحاث التطبيقية في جامعة كولومبيا الأمريكية له عن ست دول في الشرق الأوسط، وبناء على المواد التعليمية التي حصل عليها عن ٥٤ دولة» إلى أنه هناك مراحل محددة يمر بها المجتمع ليصل إلى المرحلة الحديثة، فالمدينة تتسع لتشمل القرى المجاورة، ونسبة كبيرة من الأفراد أخذت تتعلم القراءة والكتابة، والتعلم على كيفية تكوين الآراء، وأن نسبة أكبر أصبحت تشتري الصحف وتستمع إلى الإذاعة المسموعة، ونسب أكبر اكتسبت القدرة على التقمص العاطفي والقدرة على تصور نفسها في مواقف وظروف الآخرين، ليتسع معها نطاق المساهمة السياسية والاقتصادية. واستخلص لرنر نظريته من التطور التاريخي، مستعرضاً تطور الديمقراطيات الغربية، وأن عملية التحضر أظهرت تسلسلاً وخصائص يمكن أن تكون عالمية، لتحدث في جميع المجتمعات، وفي كل مكان حدث فيه الانتقال إلى المدن زادت نسبة المتعلمين، وزيادة نسبة المتعلمين رفعت نسبة المتعرضين لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وهذه الزيادة سارت بالتوازي مع اتساع الإسهام الاقتصادي، والدخل القومي، والإسهام السياسي عن طريق المشاركة في الانتخابات، وأن هذا التسلسل حدث في الديمقراطيات الغربية وهو حقيقة تاريخية، وصاحب تلك التطورات ظهور

تطور تاريخي لـه خاصية سيكولوجية تعبر عنهـا مقدرة الأفراد على تصور أنفسهم في ظروف الآخرين، وتميزت المجتمعات الغربية في مراحـل تطورها الأولى بالاتسام بأوضاع غـير ثابتة، وجرت فيها هجـرات متواصلة للوصـول إلى أراض جديدة، يستطيع الناس فيها تحقيق الربح، وأصبـح الأفراد الذين تركوا أوطانهم يتميزون بشخصيات متبدلة، وبقـدرات عاليـة على استيعـاب الجوانب الجديدة في الظـروف المحيطة بهم، وأنهم تحركـوا وهم مهيئون ومجهـزون لاستيعاب أوضاع جديـدة لا يعرفونها يفرضها عليهم محيطهم الخارجي الجديد، ليواجهوا أشياء لم يجربوها من قبل، وهذا الاستعداد جعلهم قادرين على التقمص العاطفي.

وأن المجتمـع التقليدي مجتمع لا يساهم أفراده في النشاطات السياسية، وأن القرابة هي أساسـ التعامل فيـه، وأن الجماعات الصغيرة منعزلة عـن بعضها البعض وعن المركـز في العاصمـة، وأن حاجات المجتمع التقليدي قليلـة، وليس هناك تبادل تجاري بين أجزاء المجتمـع المختلفة، وأنه من دون الروابـط التي تنشأ نتيجـة لاعتماد أجزاء المجتمع علـى بعضها البعضـ يضيق أفق الأفـراد، وتقـل قدراتهـم علـى التحليل، لأن اختلاطهـم بالآخريـن قليـل إن لم يكن معدومـاً، وأن إدراك الأفـراد في المجتمـع للحـوادث الجارية يقتصر علـى ما عرفوه من خبراتهم القليلـة السابقة المحصورة في نطاق مجتمعاتهم الصغيرة، وهم غير قادرين على فهـم ما لم يجربوه بشـكل مباشر، كما أن معاملاتهـم مقصورة على الأفراد الذين يتصلون بهـم مباشرة عـن طريق علاقات شخصية، لذلك لا تظهر أي حاجة للمناقشة بين الأفراد والجماعـات في الأمور العامة، المتعلقة بالدولة والنظريـات السياسية، أي إن الفـرد لا يحتاج للنقاش وتبـادل الآراء للاتفـاق مع الآخريـن الذيـن لا يعرفهم، كمـا أن المجتمـع لا يحتاج للفـرد للوصول إلى إجمـاع الرأي في الشـؤون العامة، لأن تجربة الفرد محدودة بحدود النطاق المحلي ولا يستطيـع أن يتصور ذهنه انتماءه لدولة كبيرة. وللخـروج باستنتاجاتـه أجرى لرنر دراسـة ميدانيـة تناولت عينـة مكونة من ١٣٥٧ فـرداً من الشـرق الأوسـط وطلب منهـم الرد على تسعة أسئلـة من بينها: إذا كنت رئيساً للحكومـة أو محرراً في صحيفة أو مديـراً لمحطـة إذاعية، فمـا الذي كنت ستفعلـه؟ واكتشف أن الأفـراد التقليديين يصابـون بصدمة من أسئلـة من هذا النوع ويستغربـون توجيه مثل هـذه الأسئلة لهم، أمـا المتميزين بمقـدرة التقمص العاطفي،

فكانت شخصياتهم غير ثابتة، وكانوا أكثر قدرة على التعبير عن آراء وموضوعات في مجالات كثيرة. وتوقع أن تكون وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية قد زادت من مقدرة الأفراد على التحرك النفسي وتخيل أنفسهم في مواقف لم يجربوها، وفي أماكن غير الأماكن التي اعتادوا رؤيتها، كما عودت أذهانهم على تصور تجارب أوسع من تجاربهم المباشرة المحدودة، وعلى تخيل مناطق لم يشاهدوها. وهذه خاصية ميزت الإنسان الذي تغير مع المجتمع المتطور وتميز بشخصية تتمتع بمقدرة على التقمص العاطفي. وأنه حينما يظهر عدد كبير من الأفراد القادرين على التقمص العاطفي في مجتمع من المجتمعات، يمكن القول إن هذا المجتمع في سبيله إلى التطور السريع.

والتقمص العاطفي كما يراه لرنر هو خاصية تمكن عناصر جديدة متبدلة قادرة على العمل بكفاءة في العالم المتغير، ويرى أن المهارات لا غنى عنها للشعب الذي يتحرر من الإطارات التقليدية، وإن المقدرة على التقمص العاطفي هي في أسلوب الحياة السائد الذي يميز الأفراد في المجتمع الحديث الذي يملك صناعة متطورة وتعيش نسبة كبيرة من سكانه في المدن، وترتفع فيه نسبة التعليم، ونسبة كبيرة من أفراده يساهمون في الحياة السياسية. وأن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية هي وسيلة من وسائل مضاعفة القدرة على التحرك، وإن وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية مكنت الفرد من الانتقال نفسيا إلى أماكن أخرى، وأصبح بإمكانه أن يتخيل نفسه في ظروف غريبة وفي أماكن جديدة عليه بعد أن تمكن الفرد من الانتقال عبر وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية من مكان إلى آخر في العالم الخارجي بعيد عن أماكن السكن التي تخلق لديه استعدادات للتغيير والتكيف وتغيير التطلعات والآفاق، وتقدم خدمات ضرورية تسهم في نمو المجتمع المحلي الحديث، وتطور المجتمعات التقليدية، وتساعد على التقمص العاطفي. ولتفرض العلاقة بين نظريات الإعلام والسلطة نفسها. وواضح من الاستنتاجات التي قدمها دانييل لرنر من المعلومات التي حصل عليها والاستبيان الذي قام به جهله للواقع الحقيقي القائم في الشرق الأوسط الضحية في العلاقات الدولية المعاصرة، وأنه يختلف تماماً عما حدث تاريخياً في الغرب المستَعْمِر. وتفسر الغزو الاقتصادي والثقافي والاتصالي والإعلامي والعسكري الذي تتعرض له دول الشرق الأوسط منذ مطلع القرن العشرين ولم تزل مستمرة لفرض

مفاهيم غريبة تتنافى وحاجات المجتمعات الشرق أوسطية. وتفسرها أيضاً النظريات الإعلامية السائدة في عالم اليوم.

الإعلام والتجربة الإعلامية العربية

وللصحافة العربية موروث لا تحسد عليه بحكم نشأتها في أحضان السلطة، واستمرار تطبيق الكثير مما خلفه الاستعمار من قيود وممارسات معادية لحرية الصحافة، وقد انعكس هذا المورث بشكل واضح في التشريعات والسياسات والممارسات لدرجة تطابقت فيها الأنظمة الصحفية والأنظمة السياسية، والتعامل مع ما ينشر في معظم الصحف العربية وكأنه يمثل وجهات نظر رسمية للحكومات العربية، وقامت بعض الدراسات الإعلامية العربية بدراسة:

- قوانين المطبوعات والصحافة العربية؛
- والعلاقة بين الصحافة والسلطة السياسية؛
- وتطور الصحافة العربية، خلال مرحلتي الاستعمار والاستقلال.

ومن تلك الدراسات، الدراسة التي قام بها فاروق أبو زيد للأنظمة الصحفية العربية، معتمداً على تحليل مضمون ١٦ قانوناً للمطبوعات نافذة في بعض البلدان العربية، وخلصت إلى أنه نظام صحفي سلطوي، ويشكل الاتجاه الغالب للأنظمة الصحفية العربية، ولا يوجد نظام صحفي عربي نقي، لأنه تتداخل في تلك القوانين خصائص الأنظمة الليبرالية، والسلطوية، والاشتراكية، نتيجة للخلط القائم في النظم: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، في المجتمعات العربية. وفي محاولة لتطبيق نظريات الصحافة الغربية على واقع الصحافة العربية توصلت الدكتورة عواطف عبد الرحمن إلى أن هناك الكثير من أوجه الشبه بين النظرية السلطوية وممارسات الصحافة العربية، على الرغم من وجود بعض التشابه بين النظرية الاشتراكية وبين الأوضاع الإعلامية العربية إلا أنها ترى أنه من العسير إن لم يكن من المستحيل تعميم هذه النظرية. أما النظرية الليبرالية فإنها لا تصلح للتطبيق على الصحافة العربية ولا تتلاءم مع الواقع السياسي والاقتصادي العربي الراهن حيث تسود الأمية والفقر والتخلف الاجتماعي مع شيوع الأنظمة الأوتوقراطية المتسلطة. وأوضح حماد إبراهيم أن النظام الصحفي السلطوي هو النظام السائد في الوطن العربي، حيث يبرز احتكار النشاط الإعلامي من قبل السلطة السياسية، وأن أغلب الصحف العربية لا تتسع إلا لوجهات النظر الرسمية، والارتفاع

بمكانة صانع القرار المركزي والترويج لسياسات السلطة، والتشكيك في الخصوم أو المعارضين السياسيين وتشويه صورتهم أمام الرأي العام.

وفي دراسة لدور وسائل الاتصال في صنع القرارات في الوطن العربي انتهى بسيوني حماده إلى أن هناك فجوة حقيقية بين النظامين السياسي والاتصالي والإعلامي وأن هذه الفجوة لا تلغي التبعية، وأرجع هذه الفجوة إلى ميل نظم الاتصال والإعلام للإثارة والمبالغة وعدم القدرة على التعبير عن الرأي العام، وغياب المعلومات الموثوقة من السلطة السياسية وعدم اهتمام صانعي القرارات بقراءة ما تنشره الصحف، والنظر إلى الاستجابة لمطالب نظم الاتصال والإعلام على أنه ضعف من السلطة السياسية. لنخلص بأن أزمة حرية الاتصال والإعلام الجماهيري في الوطن العربي لا تنفصل عن أزمة الديمقراطية حيث تسود الأنظمة السلطوية التي تضع كل السلطات في يد رئيس الدولة، وغياب دور التنظيمات السياسية الشعبية والديمقراطية في إطار عدم التوازن بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتحول معظم الصحف العربية إلى أجهزة حكومية مهمتها الدعاية لأنظمة الحكم، وتعبئة الجماهير وحشدها لتأييد سياساتها وممارساتها. ورغم ما شهدته بعض الدول العربية من تحول إلى نظام التعددية السياسية والصحفية إلا أن الأنظمة الصحفية في تلك الدول لم تتحرر حتى الآن من تراث النظرية السلطوية، حيث تهيمن الحكومة على الصحف المركزية الرسمية، وتمارس أشكالاً مختلفة من التنظيم والسيطرة مثل التحكم في تراخيص إصدار الصحف وتعيين رؤساء التحرير وتوجيه السياسات الإعلامية والتحكم في تدفق المعلومات والإعلانات، علاوة عن القيود القانونية التي تجيز مراقبة الصحف ومصادرتها وتعطيلها وحبس الصحفيين إذا تجاوزوا حدود حق النقد المرسومة لهم في القوانين النافذة. ومن الطبيعي أن تسود أنظمة صحفية سلطوية في تلك الدول ذات أنظمة الحكم الأوتوقراطية، ومن غير المقبول أن تستمر المفاهيم الإعلامية السلطوية في تلك الدول ولا بد أن تأخذ بالتعددية وتبني مفاهيم الاتصال والإعلام الجماهيرية الحديثة.

النظم السياسية ووسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية

لكل مجتمع من المجتمعات نظامه السياسي الخاص به، ويشمل هذا النظام آليات معينة الهدف منها تحقيق وظائف

السلطة السياسية كنظام اجتماعي متكامل. ومفهوم النظام السياسي هو من الأسس التي يعتمد عليها علم السياسة في دراسته لجميع أوجه الحياة السياسية وتمييزها عن غيرها من مكونات الحياة الاجتماعية في مجتمع معين بحد ذاته، تلك المكونات التي تتفاعل فيما بينها ضمن المحيط الذي تتفاعل داخله لتكوِّن نتيجة لذلك علاقات معينة تربط بين البنى التي يتكون منها المجتمع الواحد. والنظام السياسي عادة هو مجموعة من المكونات المتتالية وما يجري بينها من تفاعلات تشترك فيها كلها عبر تفاعلها مع غيرها من المكونات التي تشكل تركيبة البنى الأساسية للمجتمع من اجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وثقافية، وتشريعية. وتعتمد درجة اتساع أي نظام سياسي على مدى الحدود المشتركة في الإطارات المتفق عليها سياسياً ضمن نظام معين ملزم وواقعي وممكن التطبيق. ويشمل هذا النظام التشريعي الذي يركز على مدى فعالية القوانين النافذة في حدود معينة، داخل نظام لا مركزي تطبق من خلاله تلك الحدود، والبرامج، والقرارات المتخذة على مختلف المستويات والأصعدة. والنظام السياسي بمفهومه الحديث أخذ بالتشكل في أواسط القرن العشرين، واعتبر تطوراً منطقياً للعلوم السياسية، وضرورة منطقية لوصف الحياة السياسية ومواقف النظم السياسية ومقارنتها مع غيرها من النظم والمواقف. ودراسة بعض نماذج النظم السياسية للوصول إلى تصور معين عن المواقف السياسية وآليات أداء الوظيفة السياسية للنظام قيد الدرس.

ويعتبر الأمريكيان د.استون، وغ. ألموند من واضعي أسس نظرية النظم السياسية عالمياً. وقد وضع الأمريكي د.استون، في أعماله (النظام السياسي ١٩٥٣)، و(حدود التحليل السياسي ١٩٦٥)، و(التحليل المنهجي للحياة السياسية ١٩٦٥) مدخلاً لتحليل النظم السياسية، التي تشمل: البرلمان، والحكومة، والإدارة المحلية، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية. واعتبر استون أن النظام السياسي، هو نظام لآليات الضبط الذاتي المتطورة التي تضبط التأثيرات الآتية من خارج ذلك النظام. وأن النظم السياسية تحتفظ عادة بمداخل معينة تعبر عن نفسها من خلال الطرق والوسائل التي ينعكس من خلالها، وتعبر عن نبضات التطور الاجتماعي، وتأتي تلك النبضات عادة على شكل مطالب اقتصادية واجتماعية معينة، يطالب بها البعض ويؤيدها أو لا يؤيدها البعض الآخر داخل تركيبة المجتمع

الواحد. وتتشكل تلك المطالب عادة وتظهر من داخل الوسط الاجتماعي المحيط بدائرة السلطة الحكومية، أو من داخل النظام السياسي السائد في المجتمع. وتعبر الشرائح الاجتماعية عن تأييدها للنظام السياسي عن طريق الالتزام بدفع الضرائب، وأداء الخدمة العسكرية الإلزامية، والتقيد بالقوانين النافذة، والمشاركة الإيجابية في الانتخابات العامة والتصويت فيها، والتعاطف مع السلطات الحكومية وشعاراتها المطروحة على الرأي العام.

وبغض النظر عن وجود أو عدم وجود مطالب محددة لدى بعض الشرائح الاجتماعية فإن التأييد العام المعبر عنه من قبل أكثرية الشرائح الاجتماعية، يصبح جزءاً من كيان النظام السياسي الذي يلتزم بأخذ المطالب المطروحة بعين الاعتبار، بما يتفق ومصالح سائر التركيبة الاجتماعية، وتلتزم السلطة الحكومية باتخاذ إجراءات معينة لا تخل بالمصالح الوطنية العليا للدولة. كتلبية مطالب شريحة اجتماعية معينة بإعادة النظر بسلم الأجور المطبق انطلاقاً من حاجات تلك الشريحة الاجتماعية على ضوء مجريات الأحداث والتطور الاقتصادي والاجتماعي المحقق. ونتيجة لأداء النظم السياسية لوظيفتها يتحقق شكل للقرار أو الفعل سياسي. وهذا القرار والفعل يؤثران بشكل معين على الوسط المحيط. ويرتفع التأييد المقدم للنظام في حال كان هذا القرار والفعل يتفقان مع المنتظر والمطلوب من قبل الشرائح والجماعات الكثيرة في المجتمع. لتتعزز عمليات استقرار النظام. وفي حال عدم تلبية القرار السياسي المنتظر أو المطلوب بالكامل أو جزئياً للمنتظر والمطلوب يمكن حدوث نتائج سلبية تؤدي إلى ظهور مطالب جديدة، يمكن أن تؤدي إلى أزمة جزئية أو كاملة للنظام السياسي. وفي هذه الحالة تتكاثر في المجتمع أوضاع تهدد الاستقرار. وتشغل المطالب مكانة هامة ضمن المعلومات المتنوعة الداخلة للنظام والتي تظهر الخلفيات المنتظرة ومصالح الناس. وقسمها إستون إلى مطالب توزيعية تتعلق بالرواتب وأوقات العمل، وشروط الحصول على التعليم، والخدمات، ومطالب تنظيمية تتعلق بتوفير الأمن للمجتمع، والتحكم بالسوق... إلخ، ومطالب اتصالية تتعلق بتقديم المعلومات السياسية، وإظهار القوة السياسية وغيرها.

الخاتمة

ويعتبر الوعي السياسي والثقافة السياسية من ضمن العناصر المؤلفة للنظم السياسية في المجتمع. ويعتبران انعكاساً

للمنافسة الاجتماعية والسياسية التي تصور التوجهات والقيم ومواقف وأحاسيس ومنطق تفكير المشاركين في الحياة السياسية، والذي يؤثر تأثيراً كبيراً على تصرفات حركتهم السياسية. لهذا من المهم أخذ المشاعر السياسية للجماهير بعين الاعتبار من خلال التفاعلات الجارية بين قيادة وإدارة المجتمع. ووظائف النظم السياسية المتنوعة والمعقدة بسبب ظروف الحياة السياسية. وتتمثل في:

- تحديد أهداف ومهام المجتمع؛
- وإعداد برامج حياتيه تتفق مع مصالح الشرائح التي تدير المجتمع؛
- وتعبئة إمكانيات المجتمع بما يتفق وتلك المصالح؛
- ومتابعة عملية توزيع القيم المعنوية والاقتصادية.

وفي هذا المجال لا بد من تحديد وتحليل الصدامات الجارية بين مصالح الجماعات الاجتماعية، لتحقيق الوحدة الاجتماعية بالكامل. لأن فقدان السيطرة عليها يحدد مصير النظام الاجتماعي، وتهدده بالأزمات. ويحد من التفاف المجتمع حول الأهداف والقيم الاجتماعية والسياسية. وتحقيق هذه الوظيفة ممكن من خلال توفير إمكانيات متطورة للنظم السياسية لتجنب ظهور تناقضات داخل المجتمع، وتجنب الصراعات، وإزالة الأضرار الاجتماعية. وتحقيق نوع من الرقابة على مجالات توزيع القيم الاجتماعية، التي تشمل الموارد المادية، والامتيازات السياسية، والثقافية، وإنجازاتها، والوصول إلى مختلف أشكال التعليم والحياة العامة. وطبعاً لا يجب أن يكون الضبط شاملاً، ومنحدراً إلى الجزئيات، لأن من لا يملك أشياء مشتركة يمكن توزيعها، لا يصل للرفاهية الاجتماعية المطلوبة للجميع ولمختلف الشرائح والمجموعات الاجتماعية، ولا يمكنه تحقيق الاستقرار الاجتماعي الذي تبنى عليه أهداف تطور المجتمع بحد ذاته، ويمكن الدولة من تحقيق أهداف الأمن الوطني وحماية وحدة أراضيها وتماسكها الداخلي ضد أي عدو خارجي تتعرض له كما هو حاصل اليوم في أكثر من بلد عربي. وكأن التاريخ يعيد نفسه بأحداث تذكر بما جرى قبل قرن من الزمن على الساحة العربية وأدى إلى وقوع الوطن العربي فريسة سهلة للاستعمار الغربي الذي نهب ثرواته، وانتهى بتقسيمه إلى الدول العربية القائمة اليوم والمهددة بالتجزئة مرة أخرى تمهيداً للإطباق عليها ونهب ثرواتها من جديد.

مراجع البحث

١- إبراهيم إمام: الإعلام والاتصال بالجماهير، ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩.
٢- إبراهيم الساعدي: نظريات الاتصال والإعلام الجماهيري. //الإنترنت ميديا PR &.
٣- تشارلز. ر.رايت: المنظـور الاجتماعي للاتصال الجماهيري، ترجمة: محمد فتحي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣.
٤- د.جبـار عودة العبيدي، وهـادي حسن عليوي: مدخل في سياسة الإعلام العربي والاتصال. صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، ١٩٩٣.
٥- د.جيهان أحمد رشتي: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٨.
٦- د.حامد ربيع: أبحاث في نظرية الاتصال والتفاعل السلوكي، القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٣.
٧- د.صابر فلحوط، أ.د.محمد البخاري: الأمن الإعلامي العربي وهموم المجتمع المعلوماتي في عصر العولمة. دمشق: دار العيسى، ٢٠٠٢.
٨- د.صابـر فلحـوط، أ.د.محمد البخاري: العولمة والتبادل الإعلامي الـدولي. دار علاء الدين للنشر، دمشق ١٩٩٩.
١٠- عثمان الأخضـر العربي: النظريات الإعلامية المعيارية ماذا بعد نظريات الصحافة الأربع، حوليات كلية الآداب، الحولية ١٦، الرسالة ١١٢، الكويت مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت ١٩٩٦.
١١- أ.د.محمـد البخاري: العلاقات العامة الدوليـة وإدارة الأزمات. //دمشق: مجلة المعرفة، العدد ٥٧٠ آذار ٢٠١١.
١٢- أ.د.محمـد البخاري: العلاقات العامة الدوليـة. مقرر جامعي لطلاب مرحلة الماجستير. طشقند: جامعة ميرزة ألوغ بيك القومية الأوزبكية. ٢٠١١. (باللغة الروسية)
١٣- أ.د.محمد البخاري: الإنترنت وتأثيرها على تطور المجتمعات. //دمشق: مجلة المعرفة، العدد ٥٦١ حزيران ٢٠١٠.
١٤- أ.د.محمـد البخاري: العلاقات الثقافية حجر الأساس للدبلوماسية الشعبية. طشقند: مجلة أبناء النيل، العدد الرابع ٢٠٠٩/١٢.
١٦- أ.د.محمد البخاري: مقدمة في الإعلان والعلاقات العامة الدولية. مقرر جامعي لطلاب مرحلة الماجستير. طشقند: جامعة ميرزة ألوغ بيك القومية الأوزبكية. ٢٠٠٩. (باللغة الروسية)
١٧- أ.د.محمـد البخاري دور وكالات الأنبـاء العالمية في تحديد أطر السياسـات الخارجية. //دمشق: مجلة «المعرفة»، العدد ٥٣٥/ ربيع الأول ١٤٢٩، نيسان/ أبريل ٢٠٠٨.
١٨- أ.د.محمـد البخاري: العولمة وقضايا التبادل الإعلامي الـدولي. //دمشق: مجلة «المعرفة»، العدد ٥٢١/ محرم ١٤٢٨، شباط/ فبراير ٢٠٠٧.
١٩- أ.د.محمـد البخاري: العلاقـات الدولية في ظروف الثورة المعلوماتية. //دمشـق: مجلة «المعرفة»، العدد ٥١٩/ ذي القعدة ١٤٢٧، كانون أول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

٢٠- أ.د.محمد البخاري: التبادل الإعلامي الدولي والعلاقات الدولية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦. (باللغة الروسية).
٢١- أ.د.محمد البخاري: التفاعلات السياسية في وسائل الإعلام الجماهيرية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦. (باللغة الروسية).
٢٢- أ.د.محمد البخاري: مبادئ الصحافة الدولية في إطار العلاقات الدولية. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، ٢٠٠٦. (باللغة الروسية).
٢٤- أ.د.محمد البخاري: قضايا التبادل الإعلامي الدولي في ظروف العلاقات الدولية المعاصرة. مقرر جامعي. طشقند: معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية، مطبعة بصمة، ٢٠٠٤. (باللغة الروسية).
٢٥- أ.د.محمد البخاري: العولمة والأمن الإعلامي الوطني والدولي. الرياض: مجلة الدراسات الدبلوماسية، العدد ١٨، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
٢٧- أ.د.محمد البخاري: العلاقات العامة الدولية كهدف من أهداف التبادل الإعلامي الدولي. مقرر لطلاب الدراسات العليا (الماجستير)، معهد طشقند الحكومي العالي للدراسات الشرقية. طشقند ٢٠٠٠. (باللغة الروسية)
٢٨- أ.د.محمد البخاري: آفاق التبادل الإعلامي الدولي في إطار العلاقات الدولية؛ الأمن الإعلامي وهموم المجتمع المعلوماتي في عصر العولمة؛ الإعلام والتبادل الإعلامي الدولي؛ الإعلام وتحديات العولمة في الدول الأقل حظاً؛ الإعلام الدولي والسياسة الخارجية؛ الإعلام وتحليل المضمون الإعلامي؛ البحث العلمي ضروري لتطوير الأداء الإعلامي؛ التبادل الإعلامي الدولي واتخاذ القرارات في السياسة الخارجية؛ التبادل الإعلامي الدولي في ظروف العولمة؛ التبادل الإعلامي من وجهة نظر الأمن القومي؛ التبادل الإعلامي الدولي في ظروف العولمة والعلاقات الدولية المعاصرة؛ التبادل الإعلامي والعلاقات الدولية؛ التدفق الإعلامي الدولي وتكوين وجهات النظر؛ الدراسات الإعلامية وتحليل المضمون الإعلامي؛ دور وكالات الأنباء العالمية في تحديد أطر السياسات الخارجية وتنفيذها؛ الصحافة الدولية والتبادل الإعلامي الدولي؛ العلاقات العامة كوظيفة من وظائف التبادل الإعلامي الدولي؛ العلاقات الدولية المعاصرة والتبادل الإعلامي؛ العلاقات العامة في إطار التبادل الإعلامي الدولي؛ العلاقات الدولية في ظروف الثورة المعلوماتية؛ العلاقات العامة الدولية في إطار التبادل الإعلامي الدولي؛ العلاقات الدولية والتبادل الإعلامي؛ العولمة وقضايا التبادل الإعلامي الدولي في ظروف العلاقات الدولية المعاصرة؛ قضايا الأمن الوطني في إطار العولمة والتبادل الإعلامي الدولي؛ مبادئ الصحافة الدولية؛ مبادئ الصحافة الدولية والتبادل الإعلامي الدولي؛ محاضرات في العلاقات الدولية الآسيوية والأفريقية؛ محاضرات في الدراسات الإعلامية وتحليل المضمون الإعلامي؛ محاضرات في العلاقات العامة الدولية والتبادل الإعلامي الدولي؛ المجتمع المعلوماتي وتحديات العولمة في الدول الأقل حظاً؛ المعلوماتية وأمن الموارد الإعلامية بين التخصص والاختصاص؛ مؤتمر هام في مجال تقنيات الاتصال الحديثة؛ النظم السياسية ووسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية؛ وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري كأدوات للنظم السياسية؛ وسائل الإعلام الجماهيرية والتبادل الإعلامي الدولي وكالات الأنباء العالمية والصحافة الدولية؛ وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية

كأدوات للنظـم السياسية؛ وسائل الإعلام الجماهيرية والتبادل الإعلامـي الدولي؛ وكالات الأنباء العالمية وتحديد أطر تنفيذ السياسات الخارجية. //مواد منشورة في شبكة الإنترنت.

٢٩- د.محمد فلحي: صناعة العقل في عصر الشاشة، عمان(الأردن)، دار الثقافة، ٢٠٠٢م.

٣٠- د.نـزار ميهـوب: العلاقات العامة في الأزمات. مجلـة عالم الاقتصاد: دراسات تاريـخ. من مواد شبكة الإنترنت.

٣١- ولبر شرام: أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية، ترجمة: محمد فتحي، القاهرة، الهيئة العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٤.

٣٢- د.يوسف مرزوق: مدخل إلى علم الاتصال، الإسكندرية (مصر)، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨م.

آفاق المعرفة

أوعـية المعرفـــة

د. هزوان الوز ❁

أوعيـــة المعرفة مصطلحٌ عـــام وواسع يُستخدم ليعنـــي جميع الأوعية أو الوسائـــل أو القنوات التي يُمكن عن طريقهـــا نقل المعلومات إلى المستفيدين منهـــا، ويعنـــي هذا في مجال علـــم المكتبات والمعلومات كل مـــا يُمكن جمعه وحفظـــه وتنظيمه واسترجاعه بغرض تقديمـــه إلى المستفيدين من خدمات المكتبات ومراكز المعلومات من دارسين وباحثين.

❁ باحث وقاص سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وقد أطلــق الكتاب والمهتمّــون في هذا المجال العديد مــن التسميات على مصادر المعلومــات مثــل: مجموعــات المكتبــة، أو المقتنيــات المكتبيــة، أو أوعيــة المعلومات، وأخــيراً أطلــق عليها اسم عــام وشامل هو (أوعية المعرفة).

التقسيم الشكلي لمصادر المعلومات:

١- المصادر قبل الورقية:

ويُقصد بها المصادر والأوعية التي كانت تُستخدم في تسجيل نتاج الإنسان ومعلوماته، والوساطة التي تُحفــظ بها تلك النتاجات، كالرُقم الطينية التــي وجدت في حضارات بــلاد الرافديــن، كالسومريــين والبابليين والآشوريين، وكذلــك المصادر الأخرى التي وجــدت مسجلــةً علــى جلــود الحيوانات والبردي والتي سجّلت عليها نتاجات الإنسان في حضارات وادي النيل.

٢- المصادر الورقية[١]:

ويُسمّيهــا البعض المصــادر المطبوعة، أو المصــادر التقليديــة، والمقصــود بها كل المصادر والأوعية التــي يكون الورق مادتها الأساسية مثــل: الكتب والرسائل الجامعية، والدوريات، وبحــوث المؤتمــرات، وتقارير البحوث، وبراءات الاختراع...

٣- المصادر بعد الورقية:

وتُشــكّل كل أنواع الأوعيــة من المصادر التقليدية والتي لا يدخل الورق في تكوينها، ويُمكن حصرها في قسمين:

- القســم الأول: يضــم المصغّــرات الفيلمية[٢]، والمواد السمعية والبصرية.
- والقسم الثاني: يضم الأوعية المحوسبة الإلكترونية.

ويمكننــا أنْ نُحدّد المصادر بعد الورقية في الآتي:

أ- المصــادر السمعيــة والبصريــة: كالخرائط والصور، والتسجيلات الصوتية، والأفلام والتسجيــلات الفيديوية، وغيرها من المصادر.

ب- المصغّــرات: مثــل: المايكروفــورم، والتــي تشتمل علــى المصغّــرات الفيلمية، الميكروفيلم والمصغّرات البطاقية المسطحة المايكروفيش.

جــ- المصــادر الإلكترونيــة المحوسبة: كالأشرطــة والأقراص الممغنطــة، وقواعد البيانــات الداخلية، وغيرها مــن المصادر المشابهة.

د- المصادر الليزرية المحوسبة: كالأقراص المكتنزة (CD-ROM)، والأقراص المدمجة الملتيميديا، والأقراصــ الليزرية التسجيلية المعروفة باسم (DVD).

هـ شبكة المعلومــات المحوسبة الدولية: المعروفة باسم (إنترنــت) والتي جمعت بين

مختلف أنواع المصادر الإلكترونية والليزرية والسمعية والبصرية.

تصنيف أوعية المعرفة:

تتعامـل مع أوعيـة المعرفـة مؤسسات مختلفة، يُمكن حصرها كما يلي[٣]:

أولاً: مؤسسات مسؤولة عن إنتاج وتوفير المعرفة، ومنهـا مراكز البحوث والدراسات، والمعاهد، والجامعات والكلّيات، والمختبرات، وغيرها.

ثانيـاً: مؤسسات نشـر المعرفة، وتشمل المطابـع ودور النشر والتوزيـع، سواء كانت تجاريـة أو حكوميـة، أو أكاديميـة (غـير تجارية).

ثالثـاً: مؤسسات رصـد أوعية المعرفة وضبطها والتحكم الببلوغرافي فيها، وتتمثّل في المراكـز الببلوغرافية[٤]، سواء كانت على المستوى الوطني، أو الإقليمي، أو العالمي.

رابعاً: مؤسّسات مسؤولة عن توفير أوعية المعرفـة وتنظيمها وإعدادهـا للاستخدام، واسترجاعهـا عنـد الحاجـة، وتقديمهـا للمستفيدين، وتتمثّـل في المكتبات، ومراكز التوثيـق، ومراكز المعلومات، ونُظم وشبكات المعلومات بمختلف أنواعها.

وتوجد أكثر من طريقة أو أساس لتقسيم أوعية المعرفـة، إما حسب طريقة إخراجها (مطبوعة كالكتب، وغير مطبوعة كالأفلام)،

(منشورة كالدوريـــات، أو منشورة كالرسائل الجامعية)، أو حســب طبيعة ما تضمّه من معلومات (مصادر أوليــة كتقارير البحوث، ومصادر ثانوية كالمراجع).

ويقسّمهــا البعض إلى مصــادر رسمية كالمطبوعات الحكومية، ومصادر غير رسمية كمحادثــات الزمــلاء، ومصــادر تقليديــة كالكتب، ومصــادر غير تقليدية كالمصغّرات الفيلمية.

أما «جروجان»[٥] فيقسّمها إلى:

- مصادر وثائقية.
- وثائق غير وثائقية.

ويُقسّم الباحث الأستاذ «حشمت قاسم»[٦] أوعية المعرفة على النحو التالي:

١- الأوعية الأولية للمعلومات: كالوثائق والرسائــل الجامعيــة، وتقاريــر البحوث، وأعمــال المؤتمــرات، ومقــالات الدوريات المتخصّصة، والمطبوعات الرسمية، وبراءات الاختراع، وغيرها.

٢- الأوعية الثانوية للمعلومات: وتعتمد على المصادر الأولية، مثل الكتب التمهيدية، والكتب الدراسية، والمراجع، وغيرها.

٣- أوعيــة الدرجة الثالثة: وهذه تُرشد الباحثــين إلى الأوعيــة الأوليــة والثانوية، مثل: الكشّافــات، والببلوغرافيــات، وأدلة الدوريــات، والرسائــل الجامعيــة، وأدلــة المكتبات، وغيرها.

وقسّمها البعض إلى:

أولاً: الأوعيــة المطبوعــة، وتُقسم إلى: الكتــب العامة (غــير المرجعيــة)، والكتب المرجعيــة، الدوريــات، والمطبوعــات غير المنشورة.

ثانياً: المصادر غير المطبوعة، وتضم:

١- المواد السمعيــة والبصرية والمواد السمع- بصرية.

٢- مواد تخزيــن المعلومات بوساطة الحاسب. (المصادر الإلكترونية).

استخـدام التقنيـات الرقميـة في نشر المعلومات والاحتفاظ بها:

لسنــواتٍ طويلة مرت كانــت مؤسسات المعلومــات عمومــاً، والمكتبــات على وجه الخصوص، تعمل بجد على بناء مجموعاتها وإغنــاء مخازنهــا بالكتــب والدوريــات والمطبوعــات الورقية الأخــرى، يدفعها في ذلك سعيها المتواصل لإشباع حاجات شريحة واسعــة من المستخدمين، سواء كانوا باحثين أم طلبة أم مثقفين... إلخ[٧].

لكــنّ هذه المؤسســات؛ وبسبب الطبيعة المادية للمطبوعــات الورقية، وجدت نفسها بحاجة مستمرة إلى توسيع أبنيتها لاستيعاب كل مــا يُنشــر. ومع مــرور الوقــت اضطر العديد منها إلى استحداث أبنية جديدة، أو استغلال الفضاءات الملحقة بها، مقابل هذه

المشكلة، كانــت مؤسسات النشر أيضاً تعاني من الكلفة العالية لمتطلبات النشر والطباعة اللازمــة لتوفــير المعــدات والمــواد الأولية والأيدي العاملــة لتنضيد وطباعة ونشر كم هائل من المطبوعات، وأصبح تأخير الصدور سمة مشتركة تجمــع العديد من دور النشر خاصــةً في الــدول النامية، كــون معظمها لايمتلك الإمكانيات الماديــة الكبيرة لتوفير المستلزمات الضرورية لإنجاز العمل بالسرعة المطلوبــة. وإذا مــا أخذنا بنظــر الاعتبار الحاجــة المتزايدة للباحثــين للحصول على المعلومات بسرعة لمواكبة التطورات الجارية في مجــالات تخصصهم. نستنتــج الأسباب التي دفعت هــذه المؤسّسات إلى التفكير في اعتمــاد أساليب جديدة واستحداث تقنيات متطورة لخفض الكلفة إلى أدنى حد ممكن، مع الحفاظ قــدر الإمكان على الخصائص الفنية والموضوعيــة لأوعية نقل المعلومات، أو بتعبيرٍ أشمل: أوعية المعرفة.

تطور تكنولوجيا المعلومات:

هناك ثلاثة مؤشرات أساسية حصلت في مكونات تكنولوجيــا المعلومات، وخاصة في الأجزاء المادية للحواسيب، وبرامج الحاسوب، ونُظم الاتصال[٨]. ففي جانب الأجزاء المادية للحواســب تعاظمت القــدرة على التصغير المتناهي للعناصر الإلكترونية من الصمامات المفرغــة إلى الدوائــر الإلكترونية المتكاملة ذات الكثافــة العالية، الأمــر الذي انعكس على وحدة البناء الأساسية، وبالتالي تقلص حجم الحواسيــب، وتحقّقت زيادة هائلة في سرعة معالجة البيانات، فمن آلاف العمليات الحسابيــة في الثانية الواحــدة إلى بلايين العمليات الحسابية في الثانية الواحدة. أما تطــور البرمجيات فلقــد كان مساره باتجاه التحول من معالجــة البيانات لغرض إنجاز العمليات الحسابية، إلى معالجة المعلومات، ليتجاوز الحاسوب بذلك العمليات الحسابية البسيطــة المرتبطــة بالبيانــات الخام، إلى قــدرة جديدة يُحدّد مــن خلالها العلاقات بين البيانــات؛ وبالتالي أصبح قــادراً على استخلاصــ المعلومات المنتقــاة على شكل مؤشــرات وتحليلات إحصائيــة. ثم ارتقى الحاســوب ليصبح آلة قــادرة على تحديد الفروق الجوهريــة بين البيانات والمعلومات من جانب، والمعلومــات والمعارف من جانب آخر، بمعنــى الانتقال في نتائج المعالجة من البيانات التفصيلية، إلى المعلومات الإجمالية المستخلصة.

أما في مجــال الاتصــالات فقد حدثت نقلــة نوعية هائلــة في استخــدام الألياف الضوئية الدقيقة وذات السعة الكبيرة لنقل البيانــات لتحل محل أســلاك النحاس التي

يزيد سمكها مئات الآلاف من المرات. حيث يتوقـع أنْ تساعـد الألياف الضوئية هذه علـى بناء شبكات اتصال تصل سرعة تدفق البيانـات عبرها إلى بليون نبضة في الثانية، وهذه السرعة كافية لنقل ما يقارب مئة ألف صفحة من البيانات في الثانية الواحدة.

مستودع البيانات:

مستودع البيانات Data warehouse، أو كمـا يُسّميه البعض (مخـزن البيانات)، هو مـن أهم أوعيـة المعرفة، وهـو عبارة عن أرشيف ومستـودع للمعلومات التي يتم الحصـول عليها مـن مصادر متعـدّدة، ثم يتم تخزينها وفـق خطة موحدة، وفي موقع واحد[٩].

وتكون بيئـة المعلومات في هذا المستودع قابلـةً للتوسـع، ومصمّمة لغرضـ تحليل البيانات المجمّعة مـن مصادر متنوعة، من داخل المنظّمـة أو المؤسّسة أو من خارجها، بحيـث تنسجـم وتتـلاءم مع طبيعـة بُنية الأعمال فيهـا، ويجري تجميع واستخلاص البيانـات والمعلومـات لغرضـ التحليلات السريعة والمهمة في المنظّمة أو المؤسّسة.

من جانـبٍ آخر فإنَّ مستـودع البيانات هذا عبارة عن قاعدة بيانات، تؤمّن التقارير وأدوات الاستعـلام والتحليـل، مـن خلال البيانات الكثيرة المجمّعة بعناية، سواء كانت بيانات تاريخيـة ساندة، وبيانات إحصائية، تُستخلصـ من نُظـم المعلومـات المختلفة، ويجـري توحيدها من أجـل الحصول على التقاريـر والتحليـلات الإدارية، وتحليلات الأعمال، وصناعـة القرارات في المنظّمة أو المؤسسة.

ولكي نجعل من مستودع البيانات كأوعية معرفية في خدمـة منظماتنـا ومؤسّساتنا المختلفـة العامـة والخاصة، ونُظـم إدارة المعرفة فيها، علينا أنْ نقوم ببناء مستودعات جيـدة للبيانات تُبنـى على أسسٍ سليمة ومتينة، وعلى تحليلٍ واعٍ لمتطلبات البيانات والمعلومات اللازمة لها.

منجم البيانات:

منجـم البيانـات Data mining هو عبارة عن تحليلات لكمية كبيرة من البيانات، بغرض إيجاد قواعـد وأمثلة ونماذج يُمكن أنْ تُستخـدم وتدل أصحـاب القرار، وتُنبئ بالسلوك المستقبلي[١٠].

يهدف منجم البيانـات، بشكلٍ عام، إلى توصيف للحالة الموجـودة، أو التي حدثت، والتنبـؤ بما يُمكن أنْ يحدث. وبعبارةٍ أخرى فإنَّ منجـم البيانات الذي يُفترض أنْ يؤمّن قاعدة أساسيـة للتنبؤ Predictive DM عليه أنْ يُفتش عن بيانـات سابقة متوفرة، بغرضـ التنبـؤ بالتحـركات والسلوكيـات

المستقبليـــة المتوقعـــة. وعليـــه فـــإنَّ منجم البيانـــات يُركّز علـــى ثلاثة أساليـــب تؤمّن تحقيق الأهـــداف والأغراضـــ التي تخدم اكتشـــاف وإدارة المعرفة، وهـــذه الأساليب هـــي: التصنيـــف Classification أي تصنيـــف المتغـــيّرات أو الصفـــات غـــير المترابطـــة، إيجـــاد الترابطـــات والصلات المشتركـــة Affinity or association: أي المسائـــل المشتركة التي تـــؤدي إلى إيجاد مواد مترابطـــة في مجاميع البيانات، وأخيراً التجميع والعنقدة Clustering ويُستخدم هذا التوجـــه لتوصيف تجمعات طبيعية من البيانـــات هي غير واضحة المعالم، من خلال التحري عن العلاقات السببية، والهدف من هذا الأسلوب هو إيجاد مجاميع مرتبطة مع بعضهـــا أو متعنقدة، بدلاً مـــن التأكيد على مخرجات معتمدة على المتغيرات والصفات.

الفوائد المعرفية لمنجم البيانات:

يُحقّق منجم البيانات عدداً من الفوائد المعرفية، من أبرزها:

١- العمـــل علـــى تسهيـــل الوصول إلى المعلومات المطورة والمحسنة.

٢- تقديم إسهامات مهمة في المجالات العلمية.

٣- التوسّـــع في تطبيقـــات التجـــارة الإلكترونية.

وعلى هـــذا الأساس فإنَّ طرق وأساليب اكتشاف وبناء المعرفـــة وإدارتها، من خلال تكنولوجيـــا منجـــم البيانات، قـــد أصبحت ترتبط بالعديد مـــن مشكلات الأعمال، في قطاعـــات ونشاطات مختلفـــة، مثل علاقة التسويـــق بمنجم البيانـــات: marketing and DM، أي استخـــدام منجـــم البيانات على مستوى ما يُسمى بأساليب إدارة المعرفة التنبؤيـــة. ومثال ذلك ما يُسمـــى الشبكات العصبيـــة الاصطناعيـــة Artificial neutral networks (ANN) التـــي تُستخدم لتحديد أهداف التسويق.

الهوامش والمراجع

١- المصـــادر الورقيـــة، أو المصادر المطبوعة (Printed Resources): وتضـــم الكتب العامة غير المرجعية، والكتـــب المنفردة أو أحادية الموضـــوع، والكتب التجميعية أو الشاملـــة (Collective Works)، والكتب التمهيديـــة أو كتـــب المقدمـــات (Introductory Works)، والكتـــب الدراسيـــة (Text– Books)، والمطبوعات الرسميـــة، والكتب المرجعيـــة (Reference Books)، أو الأعمال المرجعية (Reference Work).

٢- المصغّـــرات الفيلمية (Micro Forms): وهو اصطلاح عام يُطلق على أشكال النسخ المصغّر، وهي مواد أو وسائـــط بصرية تُستنسخ عليها الكتب والدوريات والمخطوطات والصحف والرسائل الجامعية، والوثائق

المختلفـــة، بصـــورة مصغّرة جداً، بحيث لا يُمكن قراءتها بالعين المجـــردة، إلا بوساطة أجهزة قراءة خاصة بها.

٣- إدارة المعرفة، (الأستاذ الدكتور ربحي مصطفى عليان)، دار صفاء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

٤- الببلوغرافيات (Bibliographies): كلمة يونانية الأصل، مكوّنة من مقطعين (Biblion) وتعني الكتاب، و(Graphien) وتعنـــي وصف أو كتابة، وبالتالي معناها: وصف الكتب أو الكتابة عن الكتب، وأيضاً تعني فـــن جمع المعلومات عن الكتب والإنتاجـــات الفكرية وتقديمها للآخرين بطريقة منظّمة، ومن الأمثلة على الببلوغرافيات العربية القديمة: كتاب إحصاء العلوم وترتيبها للفارابي، وكتاب الفهرست لابن النديم.

٥- Civgan. Denis. Science And Technology.

٦- مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبة، (الأستاذ حشمت قاسم).

٧- الأوعية الرقمية بين الإعداد الفني والاستخدام الفعلي، بحث للأستاذ الدكتور طلال الزهيري.

٨- المرجع السابق نفسه.

٩- المدخـــل إلى إدارة المعرفـــة، (العلي، قنديلجي، العمـــري)، دار المسيرة للنشر والتوزيـــع والطباعة، الطبعة الثانية.

١٠- المرجع السابق نفسه.

آفاق المعرفة

الطعام والتغذية

ترجمة: شريف الموسى

تبدأ التغذية من تناول الطعام. إذ هي العملية التي يقوم الجسم الإنساني بوساطتها بتغذية نفسه، وذلك بتحويل الطعام إلى طاقة وأنسجة بدنية. ولعلم التغذية علاقة بكل ما يتعامل معه الجسم لكي يقوم بوظائفه، حيث يمد الطعام الجسم بمواد تدعى المغذيات والتي يحتاجها الجسم في الطاقة والنمو والترميم، وفي المحافظة على الأنسجة، وعلى سلامة عمل أجهزة الجسم المختلفة، ويمكن إطلاق اسم التغذية أيضاً على نوعية الأطعمة التي

باحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

يختارها بعض الناس. إذ إن تناول الطعام وفق أسس منتظمة وبمقادير صحيحة يعطي الجسم كل ما يحتاج إليه من مواد غذائية، ويمنح الإنسان غذاء سليماً.

وللتغذية الجيدة فوائد كثيرة، إذ تساعد الناس على البروز والشعور بأحسن أحوالهم، وعلى بقائهم ذوي صحة وحيوية على المدى القريب أو البعيد.

المواد الغذائية:

وتقسم إلى ستة أنواع رئيسية هي: الكاربوهيدرات، والبروتينات، والدهون، والفيتامينات، والمواد المعدنية، والماء، ولكل منها مهمته الخاصة التي تبقي الجسم معافى. وجميع المواد الغذائية تتضافر وتساهم في تكوين صحة جيدة:

١- الكاربوهيدرات:

وهي المصدر الرئيسي لطاقة الجسم، وتتضمن النشاء والسكر والألياف المغذية، حيث يقوم الجسم بتفتيت النشاء والسكر إلى سكر الغلوكوز الذي هو المصدر الرئيسي للمخ والجهاز العصبي كما قد يعطي الطاقة للعضلات وبقية خلايا الجسم. أما الألياف فلا تقوم بتقديم الطاقة.

أما النشويات: فمن المعروف أنها من الكاربوهيدرات المركبة. وهي متوافرة في البقول والبازلاء الجافة، كالبقول ذات الشكلين الكلوي والمنقط، وفي فول الصويا والبازلاء شبيهة الطير، والعدس، والبازلاء المشققة، والحنطة ومنتجاتها كالخبز والحبوب، والبطاطا، وغيرها من الخضروات. وقد تكون تلك الأطعمة مصادر جيدة للبروتين والفيتامينات، والمواد المعدنية والألياف المغذية.

وأما السكريات: فهي الكاربوهيدرات البسيطة، وتعد جزءاً من أطعمة طبيعية كثيرة، ولها أنواع عديدة: -فالفراكتوز يوجد في الفواكه مثلاً. -والمالتوز في منتجات قمح. -واللاكتوز في الحليب. وهذه السكريات هي جزء من الأطعمة التي تمدنا بمواد غذائية أخرى.

أما السكاكر المصفاة: فهي التي يتم استخدامها من النباتات وتستعمل للتحلية، وتدعى السكاكر المضافة، ومنها. السكروز أو سكاكر الطاولة، ويتم إنتاجه للتجارة من قصب السكر أو الشوندر السكري. ويستعمل لتحلية أطعمة كثيرة، مثل الحلويات كافة لاسيما التي تؤكل بعد الطعام (ديزرت).

وثمة أصناف أخرى من المحلِّات كعصير الفراكتوز والمستخرج من الحبوب، وهو سكر مصفى يضاف عادة إلى المشروبات الخفيفة والسلع المعلبة المشوية، وإلى العسل وعصير القيقب ودبس السكر. وجميعها تمدنا

بالحريرات، وبقليل -أو من دون- مواد غذائية إضافية.

كما أن تناول كميات كبيرة من الأطعمة المحلاّة قد يؤدي إلى زيادة في الوزن وتسوس في الأسنان. أما الألياف فهي لا تمنحنا أية مواد غذائية ضرورية. إذ هي الجزء الذي يتركب منه النبات ولا يستطيع الجسم هضمه. غير أن أكل الألياف المغذية يفيد الجسم بطرائق عديدة: إذ يساعد على صحة الهضم، وقد يحمي الجسم من الأمراض وإزعاجات معينة. وهناك نوعان للألياف:

أحدهما لا يقبل الذوبان (لا ينحل في الماء)، وثانيهما: يقبل الذوبان (ينحل وينتفخ في الماء).

فمن الألياف غير القابلة للذوبان: النخالة التي تقوم بتسريع مرور الغذاء في القناة الهضمية، بينما تمر المواد الضارة عبر الأمعاء. ويعتقد أن هذا النوع يعطي حماية من بعض الأمراض في القنوات الهضمية، وأفضل مصادره، خبز القمح الكامل والحبوب، ونخالة الحنطة والخضراوات.

أما الألياف القابلة للذوبان: فقد تساعد على تخفيض مستوى الكوليسترول المؤذي في الدم، وتحدد مستويات ارتفاع سكر الدم بعد الطعام. وتكثر الألياف القابلة للذوبان، في التفاح وغيره من الفواكه، وفي البقول والبازلاء المجففة، والشوفان والشعير.

٢- البروتينات:

يتكون البروتين من الـ(أمينو أسيد) وهي عبارة عن وحدات صغيرة ضرورية لنمو وترميم الأنسجة. ويشكل البروتين خُمس الوزن الإجمالي للجسم. فالشعر والجلد والعضلات والأعضاء الباطنية والعظام تتكون من البروتين في الدرجة الأولى. وتعد الأطعمة ذات المصادر الحيوانية، كلحوم الحيوانات والطيور والأسماك، والبيض، ومشتقات الألبان، تعد من الأمينو أسيدات الضرورية، وهي من البروتينات الكاملة.

أما الأطعمة ذات المصدر النباتي، فهي من البروتينات غير الكاملة، لأنها تفتقر كلياً أو جزئياً إلى عنصر أو أكثر من الأمينو أسيدات الضرورية، ومع ذلك يتمكن الإنسان أن يحصل على كافة الأمينو أسيدات الضرورية بتناوله أنواع من مختلف النباتات المحتوية على البروتين وأفضل مصادر البروتين النباتي، هي البقوليات والبازلاء، ومنها فول الصويا، والتوفي وغيرها من منتجات الصويا، والجوز والبذور والحبوب، فعلى سبيل المثال، إن أكل الرز والبقول معاً أو ما يسمى بـ(التورتة) أو بتناول وجبات مختلفة طوال اليوم، تمد الجسم بنوع ممتاز

مـــن البروتـــين. إن كل أو معظـــم المصـــادر النباتية للبروتين، توضع في أطعمة النباتيين الذين لا يأكلون لحوم الحيوانات، ولا الطيور والأسماك. كما أن الأطعمة النباتية بسيطة الكلفة وقليلـــة الدهون، مقارنـــة باللحوم. وهي مـــن المصادر المهمة للبروتينات المكملة للغـــذاء عند جموع غفيرة مـــن النباتيين في أرجاء العالم.

٣- الدهون:

يعد الدسم من المصادر المركّزة في إنتاج الطاقة، (لاحتوائه على ما يربو عن ضعفي ما في البروتينات والكاربوهيدرات من طاقة في الغـــرام). والدسم مطلوب في الطعام من أجل صحة الجلد والنمو الطبيعي، كما يحمل معه أصنافاً من البروتينات إلى الأماكن التي يحتاجها الجسم، ويمده بكميات من الطاقة الاحتياطية. ولما كان الدسم يتحرك ببطء في جهازنا الهضمي، فهو يؤخر أيضاً إحساسنا بوخزات الجوع.

وتتكون دهون الطعام بمختلف أنواعها، مـــن الأحماض الدهنية. وثمـــة أربعة أنواع رئيسية لهـــا وهي: الأحماض المشبعة، وغير المشبعـــة المتعددة، وغير المشبعـــة الأحادية، والمتحولة. ولـــكل منها تأثيره على مستويات كوليسترول الدم.

وعموماً، فإن الأحماض الدهنية المشبعة والمتحولة، تزيدان خطـــر الإصابة بالهجمة القلبية، في حين يعتقد أن الأحماض المشبعة الأحادية والمتعددة تخفض من تلك الأخطار. كما بينـــت الدراسات أن تراكـــم مخزونات الدهـــون في أحد الأوعيـــة الدموية هو من أهم العوامل المؤديـــة للأمراض والإصابات القلبيـــة، والتـــي يمكن أن تبـــدأ في مرحلة المراهقة أو قبلهـــا. والدهون المشبعة (ذات النسبـــة المئوية العاليـــة للأحماض الدهنية المشبعة) تكون عـــادة صلبة في درجة حرارة الغرفة. ومصدرها الرئيسي هو الحيوانات. فمثـــلاً: تتوافر الدهـــون المشبعة في اللحوم وجلد الطيـــور، والشحوم، ومشتقات الألبان غـــير المقشودة، كالزبـــدة والجبن والحليب، إضافة إلى بعض الدهون النباتية، كالزيوت المستخلصـــة من نخيل جـــوز الهند، وزبدة الكاكاو (في الشوكولاتـــه)، فهي ذات تركيز دهنـــي عال أيضاً. والدهـــون المشبعة ترفع مستوى كوليســـترول المادة المسماة (البروتين قليل الكثافة LDL) بالدم وارتفاع مستويات هـــذا النوع من الكوليسترول يترافق بأخطار كبيرة للإصابة بأمراض الأوعية القلبية.

أمـــا الدهون غير المشبعـــة فتكون عادة سائلة بدرجـــة حرارة الغرفـــة، ومصدرها الرئيســـي هـــو النبـــات. وكلا الدهون غير المشبعة المتعددة والأحادية تعمل على تخفيض

مستويات كوليسترول الـ(LDL). فضلاً أن الدهون غير المشبعة المتعددة قد تتسبب في تخفيض مستويات كوليسترول العالي الكثافة (HDL). وإن ارتفاع مستويات كوليسترول الـ(HDL) قد يساعد في الحماية من أمراض القلب. وإن الدهون غير المشبعة المتعددة، كما هو الحال في زيت السمك، كالسلمون. بينما تتوافر الدهون غير المشبعة الأحادية في زيوت الكانولا والأفوكادو، والزيتون وزيت الزيتون، وفي معظم الجوز وزيت الجوز.

وكلا النوعان من الزيوت غير المشبعة تعتبر من الاختيارات الأصح من الدهون المشبعة أو المتحولة. ويضاف الهيدروجين إلى الزيوت النباتية في بعض المنتجات الغذائية لزيادة مدة حفظها. إذ تؤدي إلى تغيير المادة الدهنية لتكون أكثر صلابة، وتسمى بالزيوت المهدرجة جزئياً.

وتلك الدهون تتضمن الأحماض الدهنية المتحولة والتي من شأنها رفع كوليسترول الـ(LDL) وتخفيض كوليسترول الـ(HDL)، كما قد تكون لها تأثيرات ضارة أخرى على صحة القلب وتتوافر الأحماض الدهنية

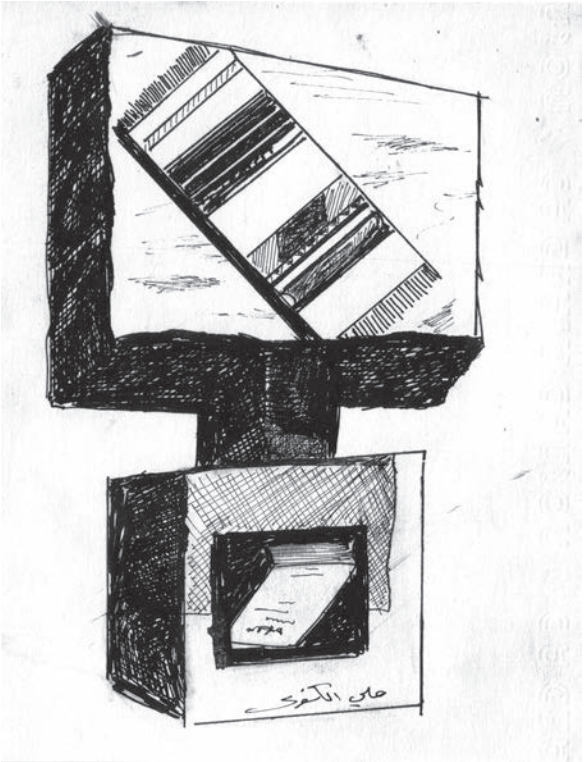

المتحولة في كثير من الحلويات والوجبات المعلبة السريعة (سناك)، كالكعك المحلّى والمقلي بالدهن، ورقائق البسكويت ورقائق البطاطا، وفي معظم الوجبات السريعة، والأطعمة الفرنسية المقلية وكثير من زيوت المارجرين والزبدة.

٤- الفيتامينات:

بدأ اكتشاف الفيتامينات في مطلع القرن العشرين، ويحتمل أن بعضها لم يتم اكتشافها بعد، وعلى الرغم من حاجاتنا إلى الفيتامينات بمقادير صغيرة فقط، فهي

ضرورية من أجل التمتع بصحة جيدة، فهي تساعد على احتفاظنا بأنسجة صحيحة للجسم بأجهزته كي تعمل بانتظام.

ولكل فيتامين مهمات خاصة يقوم بها، إذ إن الكثير من الانعكاسات في الجسم تتطلب فيتامينات عديدة، وكل نقص أو زيادة في أي فيتامين يمكن أن يتداخل مع وظيفة فيتامين آخر وفيما يلي:

- الفيتامينات المحلولة بالدهن:

وهي أربع فيتامينات: (A) و(D) و(E) و(K) معروف أنها فيتامينات محلولة الدسم، إذ يجري هضمها أو امتصاصها بمعونة الدهون المتوافرة في الطعام وغالباً ما يكون ذلك في الأنسجة الدهنية والكبد ولمدة طويلة، وإذا ما تناول الإنسان مقادير كبيرة منها كمواد مكملة، فيمكن أن تستفحل لتصل إلى مستويات سمّية.

- فالفيتامين (A): يلزم من أجل رؤية جيدة ولصحة الجلد ووظائف ملائمة لجهازنا المناعي والمصادر الممتازة للبيتاكارتين، المادة التي يحولها الجسم إلى فيتامين (A): أوراق الخضار الخضراء وكثير من فواكه البرتقال والخضروات.

- والفيتامين (D): والذي يساعد الجسم على استعمال الكالسيوم والفوسفور، لبناء عظام وأسنان قوية وبتعريض الجلد المباشر لأشعة الشمس، يمكن للجسم تصنيع فيتامين (D) الخاص به. وفي الولايات المتحدة وكندا يُضاف فيتامين (D) للحليب بشكل روتيني أثناء تصنيعه وغالباً ما يضاف أيضاً للحبوب والمارجرين، ولحليب الصويا.

- فيتامين (E): يساعد على حماية خلايا الجسم من التلف بفعل الأوكسجين، ويتوافر في الزيوت النباتية والجوز والبذور وقشور القمح، والحبوب الكاملة.

- فيتامين (K): ضروري من أجل التخثر الطبيعي للدم، ومصادره في الطعام وتكمن في أوراق الخضار الخضراء، والملفوف والقرنبيط، وفي البيض والكبد.

- الفيتامينات المحلولة بالماء:

وهي التي تذوب بالماء، وتشمل فيتامين (C) وثمانية من فيتامينات (B)، فيما عدا فيتامين (B٢)، وهذه الفيتامينات لا يتم تخزينها في الجسم لمدة طويلة، كما أن الفيتامينات الجيدة منها يجب أن تؤكل يومياً.

- وفيتامين (C): أو حمض الأسكوربيك، وهو ضروري من أجل صحة اللثة والأسنان، والأوعية الدموية. كما أنه يساعد على شفاء الجروح ومقاومة العدوى.

والمصادر الجيدة له تكمن في الفواكه

الحامضة والتوت، وأوراق الخضار الخضراء.

- فيتامين (B) هي: ثيامين، ورايوفلافين ونياسين، وفيتامين (B٦)، وفيتامين (B١٢) وحمض الفوليك (فوليت)، وحمض البانتوثنيك، وبتوثين، وهي تساعد على تحويل الكاربوهيدرات إلى طاقة، كما نحتاج إليها من أجل صحة الجهاز العصبي وتناسق العضلات، وإن معظم ما نحصل عليه من فيتامينات (B) يتم من أطعمة متنوعة ومن مصادر حيوانية أو نباتية، ومع ذلك فإن فيتامين (B١٢) فقط يتواجد بالأطعمة الحيوانية، علماً أنّ النباتيين (الذين لا يتناولون منتجات حيوانية كاللحوم والسمك والبيض ومنتجات الألبان) فهم بحاجة إلى تناول مكملات غذائية لتجنب افتقارهم لهذا الفيتامين.

٥- المواد المعدنية:

يذهب تفكير الكثير من الناس إلى الصخور عند سماعهم بمصطلح المواد المعدنية، فهي تتواجد أيضاً في التربة والمعادن والماء، وتعتبر المواد المعدنية من زمرة الأغذية الأخرى الضرورية لأجسامنا، فنحن نحتاجها لتنظيم العمليات المختلفة وللتوازن في الجسم، كما أنها تعطي ما يدعم بناء العظام والأسنان.

ويمكن تقسيم المواد المعدنية إلى زمرتين (رئيسية وصغيرة)، وتقدر كميتها حسب حاجة الجسم.

- فالمواد المعدنية الرئيسية: هي التي نحتاج إليها بمقادير واسعة، بما فيها الكالسيوم والفوسفور والمغنيزيوم والكبريت، وكلور الصوديوم والبوتاسيوم.

- والمواد المعدنية الصغيرة: أو العناصر الضئيلة، بما فيها الكروميوم والنحاس والفلورايد والإيودين والحديد والمغنيزيوم، والموليبديم والسيلينوم والزنك والكوبالت، وعلى وجه التقريب، فإن جميع الأطعمة تساهم في إمدادنا بمختلف المواد المعدنية الضرورية.

٦- الماء:

يأخذ الماء جزءاً نشيطاً من تفاعلات الجسم الكيميائية، كما نحتاجه لحمل المواد الغذائية الأخرى، وللتحكم في درجة حرارة الجسم والمساعدة في إزالة الفضلات. ويشكل الماء ٥٠٪ إلى ٦٠٪ من وزن الجسم ومتطلباتنا من الماء يمكن أخذها بطرق عديدة.

مثل: شرب الماء الصرف، وعصائر الفواكه، والحليب والشوربات فضلاً أن نحو ٩٠٪ من الفواكه هي ماء.

سوء التغذية

إن أي خلل في التوازن الغذائي سواء كان معزواً للفقر الغذائي المسمى بنقص التغذية، أو للزيادة في الغذاء المسمى بـ(فرط التغذية)- سوء التغذية. فقد يكون سببه عدم كفاية الطعام، أو انعدام الغذاء المتوازن، أو القصور في طريقة تمثل الجسم للطعام المستهلك.

١- الفقر الغذائي:

غالباً ما ينشأ سوء التغذية عن النقص في الحريرات والبروتين والفيتامينات والمواد المعدنية، وقد ينجم عن نقص في زمرة من تلك العناصر. فالفقر الغذائي بالبروتين والحريرات مثلاً يكون بالافتقار إليهما معاً، ولما كان البروتين ضرورياً للنمو، فإن سوء التغذية بالبروتين والحريرات قد ينتج عنه آثار خطيرة على الأطفال، بما فيها التخلف العقلي. كما نقص الفيتامينات والمواد المعدنية قد يسبب سلسلة من المشاكل الصحية.

- فنقص فيتامين C والمسمى بداء الإسقربوط، بسبب نمو غير طبيعي في عظام الأطفال، بينما يتسبب لدى البالغين بنزف وانتفاخ اللثة، وتخلخل الأسنان، وتيبس المفاصل، وفقر الدم.

- ونقص فيتامين A يؤدي إلى العمى الليلي وأمراض الرؤية الأخرى.

- ونقص الكالسيوم، يحول دون التشكل السليم في العظام والأسنان عند الأطفال.

- ونقص مادة الزنك، يؤدي إلى فقدان الشهية وحاسة الشم.

- ونقص الإيودين، يؤدي إلى تضخم أو توسع الغدة الدرقية، كما أشارت بعض الأبحاث إلى أن الاعتماد الكبير على النباتات، المورث اختياراً من الوالدين قد يؤدي إلى سوء التغذية لدى أطفالهما، إذ إن نقص الحديد والزنك ناتج عن الاعتماد المفرط على منتجات النبات، وعموماً فيمكن دعم نمو وتطور الأطفال، بأكل كميات إضافية من البيض واللحوم والأسماك ومنتجات اللبن.

٢- فرط الغذاء:

تعتبر السمنة من المظاهر الكبرى الشائعة لسوء التغذية في البلدان المتقدمة والتي قد تؤدي إلى الأمراض السكرية والهرمونية، وإلى الإصابة أيضاً بأمراض القلب والكلى وجهاز الدوران، فالإفراط في الغذاء، بتناول مقادير زائدة منه قد ينتج عنه مشكلات صحية خطيرة، تماماً كتلك المشكلات الناتجة عن نقص الفيتامينات والمواد المعدنية، فعلى سبيل المثال إن الإكثار

من الدهون في الطعام قد يسبب ارتفاعاً في مستويات الكوليسترول والذي قد يؤدي إلى أمراض في جهاز الدوران، كما أن المستويات السامة العالية من فيتامينات (A) و(D) تتسبب بأمراض خطيرة.

أسباب سوء التغذية:

إن السبب الرئيسي لسوء التغذية بالأمم الصناعية هو الحرمان الاقتصادي، أو عدم القدرة على التزود بالأطعمة الضرورية، فضلاً عن عامل رئيسي آخر هو العادات السيئة في تناول الطعام، فغالباً ما يطور كبار السن عاداتهم الغذائية البالية بسبب اعتلال صحتهم وانخفاض أو محدودية دخلهم، كما يحدث انعدام التوازن الغذائي نتيجة البدع الغذائية، وحبوب كبت الشهية، والأزمات العاطفية، ولا سيما الكآبة وفقدان الشهية العصابي، مما قد يؤدي إلى مشكلات صحية خطيرة، وهناك أزمات غذائية متنوعة كنقص الثيامين (فيتامين B١) وهذا شائع لدى الكحوليين. أما لدى الأمم النامية، فالسبب الرئيسي لسوء التغذية، هو عدم توافر الطعام، إذ تسهم عوامل المجاعة العالمية السائدة، فاحتياطي الماء والأراضي الزراعية، قليل -إن لم يكن معدوم- في كثير من الأقطار، إضافة إلى أن بعض تلك الدول، كبنغلادش وغيرها من أمم جنوب شرقي آسيا، ليس بمقدورها شراء الطعام من الأقطار الأخرى، بل إن لدى بعض الأقطار موارد كافية لتنمية الغذاء، غير أن الإهمال الحكومي للزراعة، والقرارات السياسية الهزيلة، أدى إلى عدم الاكتفاء الغذائي. كما أن انعدام التوازنات الغذائية يؤدي إلى أمراض بعينها ينتج عنها سوء التغذية، وهي تتعلق في قدرة الجسم على الامتصاص أو الانتفاع بالغذاء، باعتبار أن معظم ما في الطعام من مواد غذائية يتم تمثلها خلال جدران الأمعاء، وبالتالي فأي خلل قد يسبب الإسهال المزمن والذي قد يؤدي إلى سوء التغذية، وهناك الكيسات الليفية، وهو مرض استقلابي وراثي، سببه عدم الانتفاع بالغذاء، كما أن مرض البول السكري يكبح الاستقلاب الطبيعي للكاربوهيدرات في الجسم.

العلاج

في سبيل الوقاية والعلاج لنقص الجسم بالمواد الغذائية، يتم غالباً تدعيم أطعمة محددة سائدة بالفيتامينات والمواد المعدنية، فحالياً يدعم معظم الدقيق بالفيتامين (B٢) و(النياسين). وتدّعم وجبات الحبوب بـ(النياسين)، والحليب بفيتامين (D)، والملح بالإيودين، وفي مثل تلك الحالات، حيثما تحدث الأزمات المرضية، يتم توجيه الجهود

في الوقت المناسب لتصحيح الإعاقات الطبيعية الكامنة. وعندما يكون التسبب في سوء التغذية هو العادات السيئة في الغذاء، يتم الاعتماد على التثقيف الغذائي، مثل التركيز على الدور الحيوي لطعام الإفطار كجزء مهم في العلاج، ببيان الخطوط العريضة للحاجات الغذائية من (توصيات الإعانات الغذائية) العائدة لـ(هيئة الطعام والتغذية) في الولايات المتحدة، وهي تتضمن غذاءً متوازناً ومختارات من هرم الزمر الغذائية الستة السالف ذكرها: (الكاربوهيدرات والبروتينات والدسم والفيتامينات والمعادن والماء)، وهي تساعد على تأمين إمدادات منتظمة للمواد الغذائية الضرورية. وهناك منظمات مثل منظمة الصحة العالمية، و(اليونسيف) صندوق الأطفال العائد للأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى، شُكلت لمكافحة المجاعة العالمية، وتتوجه جهودها إلى تموين الطعام أثناء الطوارئ، وإلى التعليم المجدي للاستعمالات الزراعية في الدول النامية.

المراجع

- عن موسوعة مكتبة الطالب والبيت- شيكاغو.
- دائرة المعارف البريطانية لعام ٢٠٠٩.

آفاق المعرفة

دور علم النفس في الحوار مع الغرب

عبد محمد بركو

يتطلبُ الحِوَار مع الغَرب خَلق أرضية نفسيَّة مناسبة للحِوَار تكون بمثابة مُقدِّمة طبيعيَّة توفرُ الشروط الموضوعيَّة الكَافية لكي يحقق الحِوَار المنشود أهدافه كافة.

وتنطوي سيكولوجيَّة الحِوَار معَ الغَرب على فَهم أنَمَاط شخصيَّة الإنسان الغَربي الذي نُحَاوره، بما في ذلك أنَماط شَخصيته في حياته اليومية، وثقافته.

باحث سوري.

العمل الفني: الفنان جورج عشي.

إنَّ حِوار العرب مــع الغرب لا يمكن أن يحقــق نتائجه المرجوّة منــه إلاَّ إذا استوفى عناصــره الموضوعيــة كافــة، وفي مقدّمتها عناصــره السيكولوجيَّة التــي توفرُ الأجواء المثالية الضَّرورية لبدءِ الحِــوَار واستمراره وتحقيق أهدافه المنشودة.

إنَّ المطلــوبَ منَّا كعرب فهمَ سيكولوجيَّة الإنسان الغَربــي وعناصر ثقافته وحساسيَّة آدَابــه لكــي نتخطَّــى الحَواجــز النَّفسيَّة والمعنويَّة، وهي من أشد الحواجز التي تقف عَقبة في طريق الحِوَار.

إنَّ فهــم سيكولوجيَّــة الإنســان الغربي تُمَكننــا مــن مُحَاوَرته باللغة التــي يَفهمها، وعندَ ذلكَ يكونُ الحِوَار معه أجدى وأنفع.

علم النَّفس والحِوَار

إنَّ الحِــوَار الرشيد مع الغَــرب يستلزم معرفــة بأساسيَّــات علــم النَّفســ العَام، ولاسيمــا علم نفســ الشَّخصيَّــة، ونظرية الدَّوافع وأنمَاط الشَّخصيَّة، وذلك لاختلاف الشَّخصيَّات المُشَاركــة في الحِوَار، فالحِوَار مع الشَّخصيَّــة المنفتحة يختلف عن الحِوار معَ الشَّخصيَّة الأُحادية الإقصائية، والحِوَار مع الشَّخصيَّــة الدِّيمقراطيَّــة يختلف عن الحِوَار مع الشَّخصية الاستبدادية، والحِوَار مــع الشَّخصيَّــة الاجتماعيــة يختلف عن الحِوَار مع الشَّخصية الانطوانية... وَهَكذا فالمعرفــة الصَّحيحــة بالطّبيعــة النَّفسيَّة للذات والطّبيعــة النَّفسيَّة للآخــر الغَربي تثمرُ حــوَاراً هَادفاً وناجحــاً، فقد لا تكون المُشكلــة في الحِوَار نفســه، بل قد تكون في الطّبيعــة النَّفسيَّة لأحد أطــراف الحِوَار أو كليهما معاً.

أنمَـاط الإنسَـان الغَربـي في حَيَاتـه اليوميَّة

لابدَّ من التَعرُّف على الإنسان الغَربي في حياتــه اليوميَّة المعتادة لكي تتسنى مُحَاورته على نحو أفضل.

وقد قدَّم الباحث الإعلامي الفَلسطيني «عقيــل هاشم» صــورة سيكولوجيَّة واقعيّة للإنسان الغربي في كتابه «تخطيط الإعلام الغربي»، حيثُ قسَّم أنمَاط شخصيَّة الإنسان الغَربي على النحو التالي:

١- المثقف الواعي:

عادي وأنيس ومتواضع ويحبُّ النظام والتقيّد بالمواعيد والوعود. لا يهتم بالمجاملة ويتقبل النَّقد بروح سمحة.

٢- نصف المثقف:

هَادئ متصلّب برأيه وعنيد، مُنصت للخطابة، إذا دخل اثنان منهم في حِوَار يطولُ الحِوَار ويمتدُّ طويلاً. وإذا انتهى، قليلاً ما ينتهي بانتصار أحدهما على الآخر، وكثيراً ما تحلُ النِّهاية بسبب التعب والإرهاق. كل ذلك نتيجة الإحساس بنقص المعرفة وضرورة التغطية على هذا النقص بالجدل الطويل.

الإنسان الغَربي-وفقَ هذا النَّمط- انعزالي ومنطو على نفسه ومنصرف إلى شؤون حياته المادية. على ضوء هذا كان ضَحلاً في معرفة الشؤون الدولية، يعرفُ عن نفسه هذا العيب ويتستر عليه بكثرة الكلام. ولكنَّه مستعدّ للاستسلام آخر الأمر.

عَلَى ضَوءِ هذا لابدَّ من التحلي بالصَّبر أثناء حِوَاره ومناقشته واستعمال نفس أسلوبه الهادئ مع إفساح الفرصة له ليتكلم على هواه. فالحِدَّة في المناقشة تصرفه عن الحِوَار تماماً.

٣- الإنسَان العَادي:

بـــريء وطيّب وقانع بـــكل شيء ويأخذ الأمـــور من حولـــه على علاتهـــا. متمسك بتقاليـــد، يعشق الرياضـــة ويحبُّ الضحك، واثق بـــأن أسلوب حياتـــه أفضل مما توافر للشعوب الأخـــرى، لذلك يسهل التأثير عليه في أي اتجـــاه. فهـــو إذاً يُصَدِّق قَولَ صُحفه الكبرى وأجهزة إعلامه. وهـو لا يتردد في دعم المنكوبين وما أسرع ما يتجاوب مع المظلومين بالتبرع بدمه وماله. فهو يترك إصدار الحكم على هذه الأمور لحكومته وصحفه ولا يقرر شيئاً آخر إلاّ إذا سمـــع أصواتاً مدوّية تدله على خطأ اختيار حكوماته وصحفه الكبيرة. إنّه إنســـان إيجابي إذا اطَّلع على حقائق ما يجري في العالم.

الأنمَـاط الثقافيَّـة للإنسَـان الغَربـي الذي نُحَاوره

مما لاشكَ فيه أننا في حِوَارنا المتواصل مع الغَرب الذي نريد له أن يكون ناجحاً ومثمراً يجـــب أن نفهم السِّمات النَّفسيَّة والانفعاليّة والاجتماعيّة والخصائص الثقافية والدِّينية والسياسيّـــة للإنسان الغربـــي وفقَ الأنماط الشَّخصيَّة السابقة.

١- مُحَاوَرة المثقف الواعي:

إنَّ علـــى المُحَاور العَربي لهذا النَّمط أن يكون على درجة عالية من الثقافة والمعرفة في مختلف المجـــالات، ولاسيما في المجالات السياسيّة والحزبيّة والتاريخيّة، إذ عليه أن يحدّد منذ اللقاء الأول الاتجاهات السياسية والفكريّـــة والدِّينيـــة لمُحَـــاوره، وينطلق في تفاعله معه من خلال هـــذه المعطيات التي تدفعُ بالحِوَار قُدماً إلى الأمام.

ومن المفيـــد، أن يستخدم المُحَاور بعض المقولات الفكريّـــة والفلسفيّة لبعض أعلام الغرب من رجال الفكر والسَّاسة، فضلاً عن بعض المقاطع الشِّعرية الغربية.

باختصـــار شديد يجب أن يُظهر المحاور فَهمـــاً كامـــلاً بالثقافـــة الغربيـــة القديمة والحديثة.

٢- مُحَاورة نصف المثقف:

يجبُ على المُحَاور العربي لهذه الفئة أن يدرك أن ثقافتها ضحلة لأنها نتاج الصحف

والمجلات والتلفزيون ومنشورات الأحزاب السياسيّة، وعليه فيجب أن يحاورها متسلِّحاً بقيم الدِّيمقراطية والعدالة والمناداة بالنهوض الاقتصادي والتنموي، والإشادة بمنجزات الحضارة الغربية الصناعية والتقنية، فضلاً عن التحدث عن المصالح المتبادلة والمشتركات الحضارية، والإشارة إلى دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الغربية، والاستشهاد بآراء علماء الغَرب الذين تحدثوا عن هذا الدور الفاعل الذي قام به علماء العرب في تقدم وتطور الحضارة الإنسانية.

٣- محاورة الإنسان العادي:

يجبُ على المحاور العَربي أن يعرفَ طبيعة الإنسان الغربي العادي الذي يمثل الجماهير الغفيرة الخالية من كل عوامل الثقافة والمعرفة، فالإنسان الغربي العادي محروم من كل فرص التثقيف والتوعية بسبب التركيز المفرط على الحاجات الماديّة والرغبات الحسيّة وسائر أنواع الملذات.

إنَّ الحِوَار سيكون أكثر فاعلية معَ هذا النَّمط من خلال تفعيل دور الشباب والأطفال، والفِرق الرياضيّة والفنيّة والمسرحيّة والغنائيّة والاستعراضيّة والفولكلوريّة، ومنح دور أكبر للأفلام السينمائيّة الجادة والمدروسة وإعداد البرامج التلفزيونية التي تخرج من قوقعة الاستديو إلى فضاء الشَّارع لتقديم برامج جماهيريّة تكرِّسُ ثقافةَ الحِوَار بشكل معبّر ومبسط.

لقد ساهمت الصَّهيونية العالمية - عَبرَ منظومتها الإعلامية والثقافية وسيطرتها على معظم دور النشر الغَربيّة- بحرمان الإنسان الغربي العادي من فرص التعرُّف على منجزات الحضَارة العربيَّة في القرون الوسطى، ومنجزات العَرب الراهنة في ميادين تحويل الصَّحراء في الجزيرة العربية والإمارات وعُمان إلى جنان خضراء، فضلاً عن إنجازاتهم العظيمة في مجالات الآدَاب والفنون والعلوم والطبّ والرياضة والعمران.

لقد سَاهمت الصَّهيونية العالمية - تحقيقاً لمصالحها- بخمول فكر الإنسان

الغربي العَادي بالكتب المسطّحة والبرامج الترويحيّة الفَارغة، وهذا يضع العبء على عاتقنا كي نوصل صوتنا وصورتنا الحقيقيّة إلى هذا الإنسان ونُحَاوره بالتي هي أحسن وليكن سلاحنا الفعَّال في ذلك: حُسن النيّة وسلامة المقصد، والكلمة الهادفة، والكتاب المفيد، والفِلم الهادف، والأغنية المُعبِّرة، والرسوم الجميلة.

الأنمَاط النَّفسيَّة للإنسَان الغَربي من حيث اتجاهاته من العرب

الإنسان الغَربي الذي نريد مُحَاوَرته هو إنسان متباين السِّمات النَّفسيّة، و الثقافات، واللغات، والاهتمامات، وموقفه من العَرب وحضاراتهم وثقافاتهم يتميّزُ بالتنوع وفق الأنماط الثلاثة التالية:

١- النَّمَط العَدائي:

((يحمل صُوراً نمطيّة مغلوطة عن العرب وشخصيتهم وثقافتهم، تكرِّسه وسائل إعلام غربية عدائية تجعل من هذه الصُّورة كريهة لإنسان إرهابي بدوي جَلف مُخَادع كاذب شهواني)).

٢- النمط المتعاطف:

يكنُّ للثقافة العربية والإسلامية تقديراً لاعتبارات متعددة، منها اطلاعهم على تسامح الحضارة العربية الإسلامية، وتعاطفهم مع القضايا العربية العادلة في فلسطين والعراق، فضلاً عن كون معظم هؤلاء من أوساط المثقفين واليساريين وذوي النزعات الإنسانية كأحزاب الخضر وأعضاء منظمات حقوق الإنسان في المجتمعات الغربية.

٣- النَّمَط المُحَايد:

ليسَ لديه موقف محدَّد من العَرب ومن قضاياهم.

إنَّ التنوعَ في أنماط الإنسان الغَربي يفرضُ على المُحَاور العربي أن يكون على دراية كاملة بالسِّمات النفسيّة والثقافيّة لهذه الأنماط، وأن يُحَاور الجميع على نفس القَدَر من الأهمية والحماس، لكي لا يخسر الرأي العام المتعاطف بإهماله له اعتماداً

على تعاطفه، وينصرف إلى محاورة الأنماط العدائيَّة والمحايــدة، فيكون بذلكَ قد فرّطَ بالمحافظــة علــى الأصدقــاء بإهمالهم ولم يكسب الأعداء أيضاً.

المراجع

١- هاشم، عقيل: تخطيط الإعلام الغربي.
٢- هلال، د.علي: صورة الأوروبي، من كتاب الإعلام العربي الأوروبي.
٣- أبو إصبع، د.صالح خليل: مؤتمر الإعلام العرب: رؤية شاملة.
٤- خضور، د.أديب: صورة العرب في الإعلام الغربي.

حوار العدد

المخرج أمين البني: «مذكرات وطن»

إعـــداد : عادل أبو شنب

حوار العدد

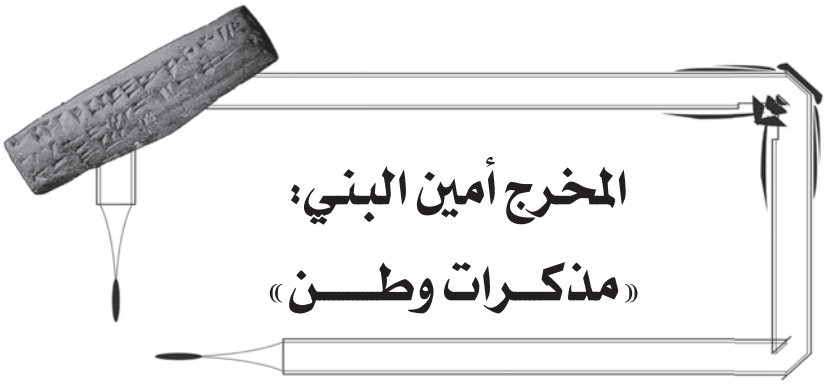

المخرج أمين البني: «مذكـرات وطـــن»

إعداد: عادل أبو شنب

يعتـبر المخرج السـوري التلفزيوني أمـين البني الوحيد مـن بين جيش المخرجين في التلفزيون السوري الذي اتجه إلى إعداد وإخراج سلسلة وثائقية بعنوان «مذكرات وطن» عرض ويعرض فيها تاريخ سورية والمنطقة المحيطة، منذ عهد السلطنة العثمانية. مروراً باتفاقية «سايكس بيكو» والثورة السورية الكبرى عـام ١٩٢٥-١٩٢٧، ثم الاستقلال و الانقلابات فثورة ٨ آذار وانتهاء بالحركـة التصحيحية عـام ١٩٧٠ فهذا الاتجاه الذي اعتمـد فيه المخرج

أديب وقاص سوري

علـى الوثائق التاريخية جديد كل الجدة في تلفزيوننـا، ولهذا تحسب هـذه الفرادة له. وقد التقيته بعد عودته من تونس، حيث كان يعمل.

إنه ليسرني أن أحاور المخرج المتميز أمين البني هذا الشهر، لأعرف ما الذي فعله في سلسلته الوثائقية التي مضى عليها ٢٠ سنة، وهو يعمل فيها.

❁ ❁ ❁

حمصي في فرنسا

- سألتـه كالعـادة عـن المولـد والنشـأة والدراسة، فأجاب:

• ولـدت في مدينـة حمصـ، في الثاني عشر من كانون الثاني، عام ١٩٤٥. درست في حمص الابتدائية والثانوية، ولما كانت عندي رغبـة جامحة في دراسة السينما، ذهبت إلى فرنسا، ودرست السينما في الجامعة هناك.

- هل كنت تعرف اللغة الفرنسية؟

• قال متجاهلاً سؤالي:

نلت دبلوم دراسـات فرنسية من جامعة بواتيه عـام ١٩٦٤ أولاً، ثم نلت شهادة عليا في الإخـراج السينمائـي والتلفزيـوني من جامعـة باريس عـام ١٩٦٧. وهكذا وجدت نفسي أحقق أحلامي.

أعمالي الفنية.. وجوائز

- سألتـه: هـل عـدت إلى دمشـق فـوراً وعملت في اختصاصك؟

• هذه أعمالي بعد أن عدت:

٤٥ فيلماً وثائقياً من مختلف القياسات.

١٠٠ شريـط تلفزيـوني مـن البرامـج الوثائقية والفنية.

وقد حـازت أفلامه علـى عشر جوائز منها ثلاث ذهبيـات وفضيتان وأربع جوائز خاصة في المهرجانـات السينمائية العربية والدولية.

مناصبه المتعددة..

- ما دمت قد دخلت فوراً في أفلامك فما هي المناصب التي تبوأتها، قبـل أن ندخل في حديـث عـن «مذكـرات وطـن» البرنامج الذي نحن بصدده؟

• قال:

– كنـت عضو لجنة التحكيم الدولية في مهرجان لايبزيغ للأفلام الوثائقية في ألمانيا ١٩٨١.

- وكنت عضو لجنة التحكيم الدولية في مهرجان دمشق السينمائي الثالث ١٩٨٥.

- وعملت مديراً للشؤون السينمائية في التلفزيون العربي السوري اعتباراً من ١٩٨٨/١/١.

- عملت مديراً لإدارة برامج اتحاد إذاعات الدول العربية من ١٩٩٤/٧/١ وحتى ٢٠٠٤/١١/١ وأشرفت على المهرجان العربي للإذاعة والتلفزيون التابع لجامعة الدول العربية في تونس خلال عشر سنوات.

- كنت رئيس لجنة تحكيم الأفلام التسجيلية في مهرجان القاهرة للإعلام العربي عام ٢٠٠٨.

قصة «مذكرات وطن»

- حدثني الآن عن برنامجك الذي أعلنت أنه مقسم إلى ثلاثة أقسام، أو بالأحرى، ثلاث مجموعات، فقد طال شوقي لمعرفتي هذا البرنامج الذي استغرق منك إعداداً وإخراجاً وتجميع وثائق ما يزيد عن عشرين سنة؟

قال:

وثائق فيلمية وفوتوغرافية

بدأت مسيرة توثيق سورية من خلال الأفلام الوثائقية في التلفزيون العربي السوري منذ منتصف الثمانينات بإشرافي الذي توليت خلاله سنوات طويلة تجميع الوثائق الفلمية والفوتوغرافية لتاريخ البلد ونضاله الوطني من أجل التحرر والاستقلال.

المجموعة الأولى

في عام ١٩٨٧ أنجزت المجموعة الأولى من السلسلة الوثائقية «مذكرات وطن» وكانت مؤلفة من ٦ أجزاء وقد عرضت على شاشة التلفزيون السوري طيلة عشرين عاماً. وتم جمع كم من الوثائق الفيلمية والفوتوغرافية من عدد كبير من مراكز الأرشيف في أوروبة وسورية.

تناولت المجموعة الأولى تاريخ سورية منذ منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الفترة العثمانية وظهور حركات النهضة العربية والثورة العربية الكبرى والمخططات البريطانية الفرنسية من خلال اتفاقية سايكس- بيكو ووعد بلفور وفرض الانتداب البريطاني الفرنسي على المنطقة العربية مع

استعراض الثـورات والانتفاضات الشعبية ضـد قـوى الاستعمار مـن أجـل التحرر والاستقلال.

المجموعة الثانية

- هـذه المجموعـة عرضت. مـاذا بشأن المجموعات الأخرى؟

• تم إنجاز المجموعة الثانية من السلسلة الوثائقيـة عـام ٢٠١٠ بعـد أربـع سنوات مـن التحضير والإعـداد. واعتمدت بشكل رئيسي على الوثائـق الفيلمية والتلفزيونية والفوتوغرافية مع الاعتماد أيضاً على تقنيات الغرافيك. وتتألف هـذه السلسلة من (١٢) حلقة بمدة نصف ساعـة للحلقة الواحدة. وهي تعتبر امتـداداً للمجموعة الأولى. وتم الربـط بصورة دقيقة بـين المجموعتين من خـلال تلخيص موجـز للمجموعة الأولى. وتكمن المقاربـة الجديدة للمجموعة الثانية في أنهـا تتناول تاريخ سوريـة خلال القرن العشريـن (منذ عام ١٩٠٠) مع ربطه بتاريخ بلدان المشرق العربي خاصة بعد التقسيمات التي فرضها الاستعمار الأوروبي على بلدان المشرق العربـي من خلال اتفاقية سايكس-

بيكو ووعد بلفـور وتقسيم سورية الطبيعية إلى دويـلات بمـا فيها نشوء لبنـان الكبير وإمارة شـرق الأردن وزرع الكيان الصهيوني في فلسطين ونشوء المملكة العراقية واحتلال المملكة المصرية.

- سألت: علام تركز هذه المجموعة؟ متغيرات جوهرية..

• تركز المجموعـة الأولى من المجموعة الثانية على التغييرات الجوهرية التي جرت في سوريـة وبلدان المشـرق العربي بما فيها مصـر في النصف الأول من القرن العشرين وتستعرضـ نضـال الشعـب العربي ضد

الانتداب والاستعمـار والمعاهدات المجحفة التي فرضت على بلدان المشرق. كما تستعرض نشـوء الأحـزاب الوطنيـة العربية وتعرف بها وبدورها. كما تبـدأ منذ الحلقة الأولى الإشارة إلى تسلسل الوزارات في سورية منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٦ وفق المرجعيات والوثائق الرسمية.

وتتابـع بقيـة حلقـات السلسلـة أهم الأحداث السياسية في سورية بشكل رئيسي وفي بلـدان المشرق العربي بمـا فيها مصر بشكل مكثـف كما تتنـاول مراحل الصراع العربي الإسرائيلي والحروب التي اندلعت في المنطقة منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٧٣.

وتم تقسيم الحقـب التاريخية لحلقات المجموعـة الثانية مـن «مذكرات وطن» من خـلال منهجيـة أكاديمية وقـراءة وطنية للأحداث التاريخية المفصلية في المنطقة مع مراعاة المدة الزمنية لكل حلقة.

عن الحركة التصحيحية..

- سألتـه بعـد هـذا العرض الـوافي لبرنامجـه الوثائقـي: هل هنـاك المزيد في برنامجك؟

• هناك المجموعة الثالثة، بعد أن عرضت المجموعة الثانية.

- أعطنـي شيئـاً عـن مجموعتـك الثالثة؟

• سـوف تغطـي المجموعـة الثالثة من السلسلـة الوثائقية «مذكرات وطن» الحقبة التاريخية الممتدة مـن تشرين الثاني ١٩٧٠ إلى عـام ٢٠٠٠. ومن المتوقـع أن يبلغ عدد حلقات هذه المجموعة ٦ أجزاء. وقد تم منذ فترة جمع قسم كبير من الوثائق العلمية لهذه المرحلة إضافة إلى توافر كم كبير من الوثائق التلفزيونية في التلفزيون العربي السوري.

أرشيف روائي

• وقال منهياً حديثه عن مذكرات وطن:

تهـدف المجموعـات الثـلاث للسلسلة الوثائقيـة «مذكرات وطن» إلى المساهمة في بناء نواة لأرشيف وطنـي بصري عن تاريخ سورية.

الإنتاج الفني

وسألتـه عـن إنتاجـه الفنـي خـلال مسيرته الحافلة؟

• فقال: عد بأصابعك:

أبرز الأفلام الوثائقية:

- دروس في الحضارة ١٩٧٣
- القنيطرة.. حبيبتي ١٩٧٤
- اليوم الطويل (يوم الأرض) ١٩٧٦
- طريق الجلاء ١٩٧٧
- فلسطين الجذور ١٩٧٨
- الطريق إلى السلام ١٩٨٠
- سورية.. سمفونية من الشرق ١٩٨٣
- مذكرات وطـن (المجموعة الأولى- ٦ أجزاء) ١٩٨٧
- الفيلـم الوثائقـي العام عـن الدورة العاشرة لدورة ألعاب المتوسط ١٩٨٨
- مذكرات فلسطينية (٢ جزء) ١٩٨٩
- مذكرات وطن (المجموعة الثانية- ١٢ جزءاً) ٢٠١٠.
- مذكـرات عربية مـن القرن العشرين (١٥ ساعة قيد الإنجاز) ٢٠١١.
- (سلسلـة وثائقيـة عـن تاريخ المشرق العربي).
- (مصـر- سوريـة- لبنـان- الأردن- العراق- فلسطين).

أبرز الأشرطة الوثائقية التلفزيونية:

- روائع الفن العالمي ٤٥ حلقة.
- الفن التشكيلي في سورية ٣٦ حلقة.
- الفيلـم الوثائقي العـام عن مهرجان الشباب العربي الخامس (١٩٨١).
- معارض الفنون الإسلامية.
- قصر العظم.
- الصناعات التقليدية.. تاريخ وأصالة.
- الحرف العربي.. حضارة وجمال.

❁ ❁ ❁

كنت أعـددت أسئلة خاصـة بمذكرات وطـن، سلفـاً، لكنني وقد وجـدت الأستاذ أمـين البني أمامي يشرح لي أقسام البرنامج الثلاثـة، واحتـواء كل قسـم علـى أجزاء مختلفة، ولبعـد المسافة بين إعداد البرنامج وصعوبـة جمع وثائقه التـي تمتد منذ أيام الامبراطورية العثمانية، وحتى ما بعد الحركة التصحيحية، تركت أسئلتي جانباً، وجلست أصغـي إلى معد ومخرج هذا البرنامج الذي صـرف جانباً من عمره في إعـداد وإخراج هذا الضرب مـن الأفـلام الوثائقية، التي هي، كما قال، نزوع إلى إعداد أرشيف وطني

يعتمد على الصورة والفيلم والوثيقة، لإبراز نضال الشعب العربي في سورية في سعيه إلى الاستقلال، وتشبثه بالوحدة والحرية.

إن المخرج أمين البنـــي قد سلك طريقاً صعبـــاً في إعداد أرشيف وطني، يحق لنا أن نفخر به، ونغذيه باستمرار.

لقطات من حياة أمين البني

- ولـــد عـــام ١٩٤٥ في مدينـــة حمص أواسط سورية.

- بسبب حبه للسينما درس بعد دراسته الثانوية في حمص في فرنسا، أولاً في جامعة بواتيه، ثم في جامعة باريس.

- أخرج عدداً من الأفلام الوثائقية، قبل أن ينفرد بإعداد وإخراج برنامجه المؤلف من ثلاثة أقسام: «مذكرات وطن».

- عـــين في أكـــثر من لجنـــة تحكيم في المهرجانات السينمائية في سورية وخارجها.

- يقيم حالياً في دمشق، ويعد المجموعة الثالثة من برنامجه ذي التسمية الموفقة.

- يعتبر المخـــرج الأول الـــذي انتبه إلى ضرورة إنشاء أرشيف وطني.

متابعات

- صفحات من النشاط الثقافي — إعداد: أحمد الحسين

كتاب الشهر

- الطريق من دمشق إلى قرطبة — إعداد وتقديم: محمد سليمان حسن

آخر الكلام

- محمود أمين العالم: مفكر استثنائي — رئيس التحرير

متابعات

أحمد الحسين

مدفن أثري بحماه:

اكتشفت دائرة آثار محافظة حماة مدفنا أثريا خلال عمليات حفر لخطوط الصرف الصحي في قرية الربا التابعة لبلدية زغرين يعود للفترة البيزنطية ويضم ١٥ قبراً عثر فيها على لقى فخارية ومعدنية وزجاجية ورقائق ذهبية.

أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

وقال عبد القادر فرزات رئيس دائرة آثار المحافظة: إن المدفن الذي تمَّ اكتشافه داخل المخطط التنظيمي لقرية الربا الواقعة على بعد نحو ٣٠كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حماة يحوي مدخلاً بطول ١١٠سم وعرض ٦٠سم يؤدي إلى ساحة المدفن التي تحيط بها خمسة معازب تتألف كل منها من ثلاثة قبور بينها فاصل بعرض ٢٥سم ويصل طول كل

قبر إلى ١٧٥سم وبعمق وعرض ٤٠سم، مشيراً إلى أن مجموع القبور المكتشفة يبلغ ١٥ قبراً تكرر في البعض منها أكثر من عملية دفن لافتاً إلى أنه تمَّ اعتماد أسلوبين في تغطية القبور الأول تمثل في تغطيتها بألواح من القرميد بأبعاد ٥٠سم ضرب ٤٠سم ولها أفريز خارجي وقد تبين أن ستة ألواح كاملة والباقي متكسرة وهي على نوعين أحمر غامق وأصفر فاتح في حين تمثل الأسلوب الثاني في تغطية القبور من خلال وضع حجارة بازلتية طبيعية غير مقصوصة عليها.

وأوضح فرزات أن المكتشفات الأثرية التي تمَّ العثور عليها في المدفن عبارة عن ١٠ جرار فخارية غير كاملة وأربع أساور معدنية وسوار من الزجاج وخاتمين مصنوعين من المعدن وهما بوضع سيِّئ وقطعتين من النقود مصنوعتين من معدن النحاس وخرزتين كبيرتين مصنوعتين من الحجارة وأربع خرزات حجرية صغيرة وزجاجتين صغيرتين كاملتين كانتا تستخدمان في حفظ العطر وكذلك أربع رقائق ذهبية يعتقد أنها كانت تستخدم في تغطية عيون الميت خلال عملية الدفن، مبيناً أنه تمَّ العثور أيضاً في المدفن المكتشف على ٨ أسرجة فخارية واحد منها مكسور والباقي بحالة جيدة لافتاً إلى أن أبرز ما تمَّ اكتشافه في المدفن مجموعة من النعال المتكسرة والمهترئة المصنوعة من الحديد والتي تدل على أن القبور تعود لجنود كانوا يستخدمون هذه النعال أثناء الحروب لوقاية أقدامهم من أي إصابات محتملة.

بدوره لفت الآثاري علي القطلبي المسؤول عن التنقيب في المدفن إلى أهمية المدفن من الناحيتين التاريخية والحضارية حيث يُعدّ من المدافن القليلة في المنطقة التي لم تتعرض

في الفترات الزمنية السابقة للتخريب أو النهب حيث جرت العادة على أن معظم المدافن التي يتم اكتشافها تمَّ فتحها سابقاً وطالتها أعمال التخريب والنهب مشيراً إلى أنه ستتم دراسة جميع المكتشفات الأثرية التي تمَّ العثور عليها بشكل مستفيض لاحقاً بهدف التعرف على المزيد من أسرارها ومدلولاتها الحضارية والأثرية.[1]

المدارس النقدية والأدب العربي:

أعرب الباحث المغربي محمد مفتاح، الفائز بجائزة الشيخ زايد للكتاب للعام الحالي، عن قناعته بصلاحية المدارس النقدية الغربية للتطبيق على الأدب العربي، مشيراً إلى أن أسس البلاغة والمنطق مشتركة بين العرب والأوروبيين، وشدّد على وجوب تأسيس النقد على افتراضات وتطبيقات وفكر وفلسفة وتوجه.

ورأى مفتاح أن المدارس النقدية الغربية تصلح للتطبيق على الأدب العربي، وقال «أولاً، البشر بشر أينما كانوا، ولا يمكن أن نقول أن هذا نقد غربي وذاك نقد عربي، لأن أسس البلاغة والمنطق مشتركة بيننا، نحن ورثة ما يستخدم هناك، لنا الحق في ذلك، لأن هذه الثقافة التي نتحدث عنها تنتمي إلى البابليين والآشوريين والمصريين والإغريق والروم، أي هذا المجال الذي نسميه في اختزال مجال البحر الأبيض المتوسط، وهذا يعني أنه لا فرق، تلك المفاهيم التي جمدت عندنا وجدت تربة خصبة هناك فطوّروها، فإذن يجب رفض العرقية، والإيمان بالكليات البشرية، والثقافة السائدة هي ثقافة المجال الذي نعيش فيه، ثقافة الإقليم الثالث والرابع والخامس، وخصوصاً الإقليم الرابع في الجغرافية القديمة، يعني بلاد الشام والجزيرة العربية والقدس مركز العالم القديم، وهذه هي في الحقيقة الثقافة العالمية» حسب تعبيره.

وحول صعوبة فهم الكتب النقدية قال مفتاح: «يجب التنبيه إلى أن القراءة المفهومية ليست هي الكتابة العادية، إنها كتابة تحتاج إلى معرفة اللغة التي هي مفاهيم، وليست لغة عادية، فكما أن الرياضيات لها مفاهيمها، والفيزياء لها مفاهيمها، والكيمياء والطب... النقد الأدبي له

مفاهيمــه، إذن إذا لم تفهم المفاهيم لا يمكن أن تفهــم أي شيء، ولا يمكن فهم الكتب إلا بفهم المفاهيم الموظفة» وفق تأكيده.

وفي سؤال حول رؤيتــه للنقد الأدبي في العالم العربي أجاب موضحاً «إن النقاد بمعنى الكلمــة قد يعدون على الأصابع، لأن الناقد يجــب أن يكــون له بعض الإلمــام بالمفاهيم العلمية واللسانية، والاكتفاء بمفاهيم الكتب القديمة وباللغة الطبيعية العادية ليس نقداً، النقد علم من العلوم مستقل بذاته، فالشاعر يقول قصيدته، والناقد يقول قوله، بحيث لا تكون القصيدة إلا مؤشراً، ويترك لك الحرية لبناء عالم خاص، يجب أن يكون مؤسساً على افتراضات وتطبيقات وفكر وفلسفة وتوجه، فالناقد الحقيقي لا يهتــم بالنص الشعري لأجل النص الشعــري، أو اللغة لأجل اللغة، وإنما يحمل وجهة نظر معينة» وفق رأيه.

وعــن رؤيته لحركة الشعــر العربي قال مفتاح الــذي حاز على عــدة جوائز أهمها (جائــزة المغرب الكبرى للكتــاب)، و(جائزة سلطــان العويس): إن على الشاعر أن يقول كلمته، وعليّ أنا كناقد أن أتولى ذلك العمل، وقــد التجأت أحيانــاً إلى الموسيقى لأعالج النصوصــ التي يرفضها النقــاد، ولا فرق عنــدي بين قصيــدة نثر وقصيــدة موزونة وقصيدة تفعيلة، الأساس فيها هو الموسيقى، وهــذا ليســ مجــرد افتراض وإنمــا تثبته الدراسات التشريحية الدماغية القائمة على علم الأعصــاب، هناك معطى ميتافيزيقي، حيث تقول بعضــ الأطروحات إن العالم هو قائــم على الأعداد والنغم، طرح آخر يجعل الاتصال بين العالم العلوي والعالم السفلي يتم بالموسيقى» على حد وصفه.

وقد استلم مفتاح جائــزة الشيخ زايد- فــرع الآداب عــن كتابــه النقــدي الموسوم بعنوان مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة -الموسيقى- الحركة، والذي اعتبرته الهيئة الاستشاريــة للهيئة «دراسة موسوعية تجمع بين الوصف والتحليــل والاستنباط، بمنهج علمــي دقيق استنــد إلى مقومــات العلوم الصحيحــة والعلوم اللسانيــة وعلم النفس وعلم الموسيقى، ويصوغ نواة مركزية لنظرية مستقلة في الشعــر ترتبط بتفسير الظواهر في الكون»، على حد وصفها.[٢]

شعراء عرب وأفارقة:

نظم بيت الشعر في المغرب بمدينة زاكورة الدورة الأولى من مهرجان الشعر العربي الأفريقي. وشارك فيها شعراء من الوطن العربي، ومن أفريقيا السوداء للتفكير في مستقبل الشعر في هاتين المنطقتين، وقد حضرها شعراء من المغرب وتونس ومصر وسورية ولبنان وأيضا من السنغال والكاميرون وبوركينا فاسو والكونغو الديمقراطية.

وقد تمحور موضوع الدورة من المهرجان حول «الزنوجة في الشعر العربي». وكان الهدف من هذا اللقاء التقريب والحوار بين الشعراء الأفارقة وزملائهم العرب من أجل دعم الوحدة وتقوية العلاقات التي تجمع بينهم دفاعا عن الشعر وتشجيعا لحضوره، وقد انعقد لقاء زاكورة في سياق قاري وعربي يسمه التوتر. لذا رأى الشعراء الحاضرون ضرورة التنصيص في أهدافهم على الوحدة العربية الأفريقية، وفي نهاية فعاليات هذه الدورة من مهرجان الشعر العربي الأفريقي قرّر الشعراء المجتمعون في زاكورة مايلي:

- الدفاع عن استمرار مهرجان الشعر العربي الأفريقي وتنظيمه كل سنتين.

- دعم الحوار المتواصل الذي يسمح بتنقل الشعراء وأعمالهم، وتشجيع نشر الدواوين والأنطولوجيات باللغتين العربية والفرنسية.

- اقتراح إدخال النصوص التمثيلية للشعر العربي والأفريقي في المقررات الدراسية.

- تشكيل لجنة علمية يوكل إليها الاختيار الموضوعي للنصوص والأعمال التي يمكنها أن تدمج في المقررات الدراسية للبلدان المعنيّة.

وحيّا المشاركون في مهرجان زاكورة الدور التاريخي الذي ما فتئ يلعبه المغرب باعتباره أرضا للحوار وتوحيد الشعوب والحضارات، كما حيّوا الدور الذي قامت وتقوم به مدينة زاكورة في الصحراء المغربية كصلة وصل بين أفريقيا الشمالية وأفريقيا السوداء، ونوهوا بالدور الذي قامت وتقوم به زاكورة في الصحراء المغربية كصلة وصل بين شمال أفريقيا وجنوب الصحراء.

وعبّر المشاركون في هذه الدورة عن امتنانهم العميق لزملائهم المغاربة لدعوتهم

للمشاركة في هذا المهرجان الأول من نوعه قاريّا. وأكدوا لهم إخلاصهم المطلق للشعر وتضامنهم الفعليّ من أجل بناء قارة أفريقية يسود فيها الشعر كوسيلة رئيسة للحبّ والسلام.[٣]

تعاون بين البابطين والأمم المتحدة:

وقع عبد العزيز سعود البابطين رئيس مجلس أمناء مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري وجورج سامبايو الممثل الأعلى للأمم المتحدة لتحالف الحوارات اتفاقية تعاون تنص على بناء جسور التواصل والتفاعل بين الثقافات والمجتمعات عن طريق الحوار، وإدارة العلاقات بين الأفراد والثقافات على نحو أعمق وأشمل.

وأكدت الاتفاقية على أن مكتب الأمم المتحدة لتحالف الحضارات يهدف إلى تسهيل الاتصال والحوار بين مؤسسات المجتمع المدني من أجل تحسين علاقات التعاون بين الأمم والشعوب عبر الثقافات والأديان، واتفق الطرفان على أن يبلغ كل طرف، الطرف الآخر، بنشاطاته من أجل تحقيق الأهداف والحفاظ على التواصل لتحديد الاهتمامات المشتركة وتطبيقها، كما يتاح للطرفين التعاون مع شركاء آخرين بما في ذلك المنظمات الدولية والإقليمية والهيئات العامة ومؤسسات المجتمع المدني من أجل إقامة برامج ومشاريع تصب في مصلحة حوار الحضارات، ونصت المذكرة على أن هذا التعاون يهدف إلى إضافة قيمة جديدة وبذل أقصى جهد ممكن لاستخدام الموارد المتاحة لإنجاح المسعى في حوار الحضارات.

واتفق الطرفان على نشر النشاطات المتعلقة بالأهداف والأولويات المشار إليها بمذكرة التفاهم بين الطرفين على مستويات مختلفة، بما في ذلك المدارس والجامعات واللقاءات مع الهيئات على المستوى المحلي والريفي والإقليمي، كما اتفقا على خدمة وتهيئة برامج أساسية لتعزيز القيم والأولويات للأمم المتحدة لتحالف الحضارات في الكويت ومنطقة الخليج، وتنظيم محاضرات من خلال خبراء وعلماء دين من أجل تعزيز التسامح والوقوف في وجه التطرف ضمن الأسبوع العالمي للوئام بين الأديان.

وأكد الطرفان على ضرورة دعم إقامة دورات للغة العربية من أجل الحوار بين الحضارات لفهم أفضل للثقافة والحضارة

الإسلامية كجزء من استراتيجية مكتب الأمم المتحدة لتحالف الحضارات في المتوسط، في لشبونة، ودعم تنظيم مناظرة عالمية بعنوان «أصوات الإسلام» في عام ٢٠١٣ من قبل مكتب الأمم المتحدة لتحالف الحضارات، ونصت مذكرة التفاهم على دعم ترجمة الأوراق التابعة للأمم المتحدة لتحالف الحضارات أو الأعمال التي تتعلق بحوار الحضارات بالتعاون مع مركز البابطين للترجمة.[٤]

تنافس الفرانكوفونية والانغلوساكسونية:

سلّط معرض أبو ظبي الدولي للكتاب الضوء على صناعة الكتاب الفرنسي، واحتفل بفرنسا بوصفها «موضع التركيز الثقافي» في دورة هذا العام، حيث استقطب منظمو المعرض أكثر من ستين شخصية فرنسية بين الشخصيات السياسية والبرلمانية والثقافية فضلاً عن ناشرين ومفكرين ومختصين بصناعة الكتاب، استعرضوا خلال أيام المعرض من خلال النقاش الفكري والنشاطات التعليمية والفعاليات العامة، ما تمثله الثقافة الفرنسية اليوم عبر صناعة النشر، حيث شاركت فرنسا بجناح مشترك يمثّل الناشرين الفرنسيين، وعرضت ما يقارب ألف وستمئة كتاب باللغة الفرنسية، فيما شاركت جامعة باريس- السوربون أبو ظبي وحدها بنحو مئة وثمانين عنواناً بالفرنسية.

وحول المشاركة الفرنسية الواسعة في نشاطات وفعاليات المهرجان أكدت إيرينا صادر المشرفة على الجناح الفرنسي ومديرة المكتبة الفرنسية في دبي: أن المشاركة الفرنسية «ليست تجربة طارئة»، مشيرة إلى أن فرنسا تشارك للسنة الخامسة على التوالي في المعرض، ونوهت بأن دول الخليج العربي «تشهد تطوراً وتقدماً ملحوظاً في مجال الترجمة والنشر»، وتضيف «علاقتنا بشركائنا في المنطقة في تطور مستمر، ونحاول في المعرض البحث عن شركاء محتملين إضافيين»، وتوضح أن الجناح الفرنسي «يضم أهم الكتب الفرنسية الحديثة وخاصة الأدبية منها والتي نالت جوائز فرنسية وعالمية هامة»، على حد وصفها.

ولم تقتصر المشاركة الفرنسية بأجنحة العرض والبيع في المعرض، بل شملت المشاركة في الفعاليات المختلفة المقامة على هامش المعرض، حيث ناقش المؤلفان إيمانويل المحاضرة (لدى معهد الدراسات السياسية في باريس) وبينوا (مساعد رئيس اللوفر للشؤون الدولية) من سان شماس روايتهما (ستروم.. انفعالات متحف).

وفي إطار هذه المشاركة تحدث الباحث بيير أريزولي- كليمنتل (المدير العام السابق لقصر فرساي) والناشر فرانسوا دو وارسكيل (رئيس دار سيتاديل ومازينود) حول كتاب الأول (قصر فرساي- قصر وكتاب(، وناقش فيليب جوديدو (رئيس تحرير مجلة معرفة الفنون، المجلة الفنية الأوسع انتشارا في فرنسا) في موضوع (اللوفر أبو ظبي: رؤية للمستقبل)، وكذلك نقاش حول رواية (اختيار الرواية) للكاتب فنسنت ديلوكروا الذي فاز عام ٢٠٠٨ بالجائزة الكبرى في الأدب من الأكاديمية الفرنسية، كما التقى الجمهور مع الروائي وكاتب المسرحيات الفرنسي باتريك شاموازو الحائز على عدد من الجوائز العالمية. ومع الرسامة والفنانة والناشرة الفرنسية واسعة الشهرة نيكول لامبرت، التي أنتجت في ثمانينيات القرن الماضي سلسلة الرسوم الطويلة (التوائم الثلاثة) لمجلة مدام فيغارو.[٥]

اليونسكو وخطر الاتجار بالممتلكات الثقافية:

ضمن الاحتفالات بمرور أربعين عاما على اعتماد اليونسكو اتفاقية «التدابير الواجبة لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة»، أقامت المنظمة بمقرها في العاصمة الفرنسية باريس ندوة تهدف لتحليل الأضرار الناجمة عن عمليات الاتجار غير المشروع المنتشرة في شتى أنحاء العالم بهدف تقييم التدابير المتخذة حاليا للاستجابة لهذه المشكلة، واقتراح حلول للمضي قدما في تحسين هذه التدابير على المستويين الدولي والوطني.

وشارك في الندوة أعضاء من هيئات معنية بمكافحة الاتجار غير المشروع ومنها الإنتربول، والمعهد الدولي لتوحيد القانون

الخاص، والمنظمة العالمية للجمارك، والمجلس الدولي للمتاحف، فضلا عن ممثلين لمؤسسات مختصة بالمزادات العلنية مثل «ساوثبي»، وعدد من المتاحف منها متحف «كي برانلي» في باريس، و«المتحف الوطني» في مالي.

وأشارت بوكوفا المديرة العامة لليونسكو إلى أن «عمليات السرقة أو التدمير أو النهب أو التهريب التي تطال الممتلكات الثقافية تمس الهوية الثقافية للشعوب»، وإن حماية التراث الثقافي ومكافحة المشاكل المرتبطة به مسألتان تمثلان اهتماما مشتركا وتستوجبان ردا أخلاقيا جماعيا، مشددة على أهمية الاضطلاع بالأنشطة الرامية إلى مكافحة الاتجار غير المشروع على جميع المستويات.

يذكر أن اتفاقية «التدابير الواجبة لحظر ومنع استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية بطرق غير مشروعة»، وقعت عليها مئة وعشرون دولة، وتعد أول اعتراف دولي بأن هذه الممتلكات الثقافية ليست بضائع أو سلعا يمكن تداولها.

على صعيد آخر فقد عقدت اليونسكو اجتماعاً طارئاً تركز على بحث المخاطر التي تتعرض لها آثار تونس ومصر وليبيا عقب الأحداث التي مرت بها هذه الدول، ووجهت نداء عاجلاً بضرورة اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية آثارها من عمليات السطو أو التخريب.

وأوضحت إيرينا بوكوفا المديرة العامة لـ«اليونسكو» أن مهمة تلك البعثات الاتصال بالموظفين الذين تمَّ تعيينهم مؤخراً، وتقييم حاجتهم إلى المساعدة في مجال منع الاتجار غير المشروع على وجه الخصوص، ووضع خطط عمل شاملة متوسطة وطويلة الأجل لحماية التراث الثقافي، وأعربت عن مشاعر الفخر التي انتابتها عندما هب المواطنون في كل من تونس ومصر وليبيا لحماية التراث في ظل الظروف والتغيرات العنيفة التي اجتاحت هذه البلدان، وشددت على أن ما حدث من التدمير والإضرار والسرقة في المتاحف والمواقع الأثرية والمكتبات، يثير القلق من تصور أن هذه الفترة من الغليان الاجتماعي ستترك التراث الثقافي عرضة لعبث عديمي الضمير.

وقد حثت منظمة التربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) التابعة للأمم المتحدة والمعنية بالتراث الثقافي العالمي كل الأطراف في ليبيا على الحفاظ على الكنوز الأثرية للبلاد بما في ذلك المستعمرة اليونانية السابقة (سيرين) والمعروفة حاليا باسم مدينة قورينا ومعبد ابوللو الموجود بها.

وناشدت بوكوفا الليبيين والقوات الدولية المشتركة التي تشن غارات جوية على القذافي احترام اتفاقية لاهاي الموقعة عام ١٩٥٤ بشأن حماية المواقع الثقافية في أوقات الحروب.

وقال فرانسيسكو بانداريـن مساعد المديرة العامة لليونسكو لشؤون الثقافة: إنه رغم عدم ورود تقارير بعد بوقوع أضرار إلا أن هناك قلقاً خاصاً بشأن ثلاثة مواقع على الأقل بسبب قربها من طرابلس ومناطق استراتيجية أخرى.

ومن بين خمسة مواقع ليبية تضعها اليونسكو على قائمة التراث العالمي سلط الضوء على موقع لبدة الروماني الأثري والموقع التجاري الفينيقي في صبراتة الذي يبعد ١٣٠ كيلومترا غربي العاصمة الليبية طرابلس.

ومن بين المواقع الأخرى مدينة قورينا القديمة التي قدمها في الماضي القائد الروماني مارك انطونيو هدية إلى ملكة مصر كليوباترا والتي تقع قبالة البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة بنغازي معقل المعارضين الذين يتحدون حكم الزعيم الليبي معمر القذافي المستمر منذ أكثر من أربعة عقود.

وخلال الاجتماع بحث المشاركون حالة التراث الثقافي في كل من مصر وتونس وليبيا، مشيرين لقلة المعلومات الموثوقة عن حالة مواقع التراث الثقافي ومؤسساته، وفقدان علاقات العمل التي كانت قائمة مع أهم المؤسسات والأشخاص الأساسية على المستوى المحلي، والتهديد الذي يمثله إهمال حماية التراث نتيجة للطوارئ الاجتماعية والاقتصادية ولتغير الظروف المستمر.[٦]

الإمارات تستحضر تاريخها:

أكد محمد خلف المزروعي مدير عام هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث بأن

الآثاريين هم النخبة التي تلتقط آثار الزمن لتصنفها وتربطها وتقدمها للناس من خلال الأدلة المادية وغير المادية التي يتمكن من خلالها المؤرخون أن ينسجوا حكاية الزمن، ويرووا لنا كيف وصلنا إلى يومنا هذا، ومن هنا تنبع أهمية المهمة الجسيمة التي يقوم بها الآثاريون لتحمل مسؤولية ترتبط بالدقة والعمل المثابر والصعب من ساعات وأيام بل وسنوات التنقيب لينفضوا غبار الزمن ويرووا لنا قصتنا.

وأضاف: إن شواهد التاريخ القديم والحديث في دولة الإمارات كثيرة ووفيرة تتمثل في مواقع أثرية تمتد من العصور الحجرية وحتى الفترة الإسلامية المتأخرة. وبحوثكم ومشاركتكم في هذا المؤتمر الهام ستصب في تعزيز العمل الثقافي الدولي المشترك صوناً للحضارة الإنسانية.

وفي ذات السياق أكد محمد عامر النيادي مدير إدارة البيئة التاريخية في هيئة (أبوظبي) للثقافة والتراث أهمية هذا المؤتمر التي تنبع من كونه يناقش آخر المستجدات في مجال الآثار في المناطق ذات الطبيعة الثقافية والمباني التاريخية، وكذلك الجبال التي تنتشر في مجال واسع من تضاريس الدولة الجغرافية، كما يتناول مواضيع تتعلق بإدارة التراث الإنساني ومكتشفات من العصرين البرونزي والحديدي في بعض ما يتعلق بأنماط الاستيطان البشري فيه، وكذلك الفترة الإسلامية في العديد من المواقع التي تعود إليها بالدولة.

وقد تناولت أعمال المؤتمر عدة جلسات حول الآثار والمناظر الطبيعية برئاسة وإعداد الخرائط المبكرة لشبه الجزيرة العربية من الجانب الأثري، وآثار العصر الحجري والرواسب الطينية واكتشاف العصر الحجري للإمارات العربية المتحدة، والتقلب المناخي من أوائل إلى منتصف الحقبة الهولوسينية في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، وجرى تقييم التأثيرات المترتبة لتلك السنوات على مناطق شبه الجزيرة العربية ومجتمعات العصر الحجري الحديث، والتي كان من أبرزها ذلك التحول الذي ظهر بعد بداية القحط المناخي خلال منتصف الحقبة الهولوسينية «قبل

٦ آلاف عـام»، حين اختفـى معظم السكان الذين كانوا من البـدو شبه الرحل والرعاة وجامعي الثمار من أجـزاء واسعة من هذه المنطقـة، وهي الحقبة التـي اصطلِح على تسميتها بـ«الألفية المظلمة»، وتزامنت إعادة الاستيطـان البشري خلال العصر البرونزي مع عـودة الظروف المناخيـة المطيرة ضمن شبكة من المستوطنات الزراعية الواقعة على ضفـاف الواحات والتي ظهـرت على طول السفوح المحاذية لجبال الحجر الشمالية.[٧]

جوستين غاردر والفلسفة العربية:

أعرب الروائي العالمـي صاحب الرواية الفلسفيـة الأكثر مبيعاً في العـالم جوستين غاردر عن إعجابـه الشديد باكتساح روايته العـالم العربـي، وشـدد على أنـه لو عرف أنهـا ستحظـى باهتمام عربـي كبير لكان ضمّنهـا درراً من الفلسفـة العربية، وأشار إلى أن الكثـير من الأسئلة الفلسفية العربية والأوروبية أبدية وسرمدية.

غاردر الذي كتب رواية (عالم صوفي) عن تاريـخ الفلسفة عام ١٩٩١، لم يكن يتخيل أن تجذب قراءً مـن غير المتخصصين، إلا أنها أصبحت عام ١٩٩٥ الرواية الأكثر مبيعاً في العـالم، وتُرجمت بعدها الرواية إلى ٥٩ لغة، وبيع منها أكثر من ٣٠ مليون نسخة.

وعن بداياته في مجـال الكتابة الروائية وهو الفيلسـوف المتخصص، قـال غاردر: «درّسـت الفلسفـة لمدة عشـر سنوات، وفي الوقت نفسه بدأت الكتابـة الروائية، وبعد أن أنجزت كتاب (لغـز السوليتير) في بلدي النرويـج، أدركت بأنه من الأفضل أن أتخلى عن تدريس الفلسفة وأتفرغ للكتابة من دون أن أتخلـى عن خبراتي الفلسفية، بل أخذت تجاربـي السابقة كلها لأوظفهـا في كتابي الأشهر (عالم صوفي)»، وفق تعبيره.

وتابـع «لقد بـدأت كتابة هـذه الرواية كنصوص منفصلـة غير ممتعة عن الإنسان والفلسفة والمجتمع والفن وأدرّسها لطلابي، وبعـد أن أدخلـت قصـة فتاة عـادت إلى منزلها ووجدت رسائـل تنتظرها في البريد الإلكتروني، انطلقت الأفكار لدي لأستجمعها برواية متكاملة».

وأضاف «بعـد أن بدأت كتابـة الرواية توقفت عن التدريس مؤقتاً، وهو الأمر الذي

تحوّل إلى توقف دائم بعد أن انتشرت رواية (عالم صوفي) بشكل هائل على مستوى العالم، وحملتني في سفر غير منقطع إلى أنحاء المعمورة كافة لمناقشتها وعرضها». وتابع «عندما كتبت (عالم صوفي) لم أكن أتوقع أن تصبح أكثر رواية مبيعاً في العالم، أو أن تُترجم إلى ٥٣ لغة أخرى، أو أن تحصل على جوائز عالمية.

من المفارقات أني في البداية أخبرت زوجتي أن هذا الكتاب لن يحقق لنا أي مردود، ولكني سأكتبه، فطلبت مني أن أكتبه بسرعة حتى أتفرغ لكتاب آخر يمكن أن يوفر لنا مردوداً مالياً نعيش من وراءه» حسب قوله.

ويطرح غاردر في (عالم صوفي) تساؤلات فلسفية تطال الحياة والوجود من خلال رسالتين أُرسلتا لصوفي، محور هذه الرواية، مضمونهما مختصر ولا محدود في آن معاً، من أنت؟ ومن أين جاء العالم؟، وينطلق غاردر من هذين السؤالين ليغوص عميقاً في تاريخ الفلسفة التي تحمل في طياتها فلسفات انطلقت من نقطة أساسية من هذا الوجود في محاولة للإجابة على هذين التساؤلين.

وأعرب غاردر عن إعجابه الشديد باكتساح رواياته العالم العربي، وقال: «إنه أمر مفاجئ أن أحصل على هذا الاهتمام من القراء العرب أيضاً على الرغم من أن الفلسفة العربية غنيّة جداً بالتجارب، ولو أني كنت أعرف أن كتبي ستحظى باهتمام عربي كنت لأضمّنها أشياءً عن الفلسفة العربية وعراقتها»، حسب قوله.

ويشار إلى أن الأعمال الأخرى لجوستين غاردر، سواء كتبه للأطفال أو رواياته للكبار، مثل (لغز السوليتير) و(من خلال الزجاج) و(على نحو مُظلم) و(فيتا بريفيز) و(ابنة مسؤول الحلبة) و(فتاة البرتقال)، قد أثبتت شعبية كبيرة ونشرت في عدد من البلدان، ونُشر كتابه الأخير (القلعة في جبال البرانس) العام الماضي.[٨]

مهرجان للرواية البوليسية:

أقيم في ميونيخ المهرجان الدولي للرواية البوليسية العالمية بمشاركة واسعة من كل الأطياف التي لها علاقة بأدب الجريمة، وتمَّ في المهرجان تنظيم فعاليات ولقاءات

تعـرف بفعاليات ذلك النوع من الأدب حيث يتم استعراض الجديد في هذا العالم الغامض والذكي وسـط مناقشات ممتعـة تدور في الغالب بين الزوار وبين الأدباء المشاركين.

وقـال اندرياس هوه المشرف على تنظيم فعاليـات هـذا المهرجـان: إن بداية فكرة المهرجان ترجـع إلى سنة ٢٠٠٢ حيث رحب كتاب الروايـة البوليسية في كل أنحاء العالم بفكـرة الاجتماع وإقامـة مهرجان يختص فقـط بالروايـة البوليسيـة العالمية، حيث أصبـح المهرجان علامة مميـزة لمهرجانات ميونيـخ المتلاحقة، إذ إنـه يعتبر المهرجان الأكثر غموضا وإثـارة في تلك السلسلة من المهرجانـات، في السياق ذاته يضيف السيد «هوه» قائـلاً إن أدب الروايـة تطور بشكل كبـير في الثماني سنوات الأخـيرة، فالقراء أصبحـوا لا يشعـرون بالملل وهـم يتابعون أحـداث الروايات، بـل وفي بعض الأحيان يصبحـون أطرافـاً في الروايـة من خلال تنشيط خيالهم في متابعة الأحداث ومحاولة فك اللغز واكتشاف الجناة.

وأضـاف إن أدب الرواية البوليسية هو أدب لـه مواصفات وسمات معينة فهو يدور حول إجابات محددة لعدة أسئلة يقوم عليها بناء الروايـة في الأصل، أول هـذه الأسئلة هو كيف وقع الحدث؟ ومن الفاعل؟ ولماذا؟ ومـن ثم يـزداد غموض الروايـة وحبكتها طبقا لخيال الكاتب وشطارته ومدى مهارته في نقـل القارئ من حـدث إلى آخر معقداً مسالك الرواية وممعناً في غموض الأحداث، حتى يصعب علـى القارئ اكتشاف حل لغز الروايـة التي في الغالب تنتهي بمفاجأة غير متوقعـة له من أجل حبس أنفاسه وصولاً به إلى الصفحة الأخيرة، وأن مبيعات الروايات البوليسيـة وصلت إلى أرقـام مرتفعة، على الأقـل في ألمانيـا التي وصلت فيهـا إلى أن كل خامس روايـة يشتريها الناس هي رواية بوليسيـة وهذا وفـق اتحـاد دور مبيعات الكتب في ألمانيا، لذلك يبدو مهرجان ميونيخ ناجحا وهو يذخر يوميا بآلاف الزوار الذين يربو عددهم في مهرجان هذا العام على ١٢ ألف زائر وفق السيد «اندرياس هوف».

يشار إلى أن أدب الرواية البوليسية ظهر حديثا في عام ١٨٤١ على يد المؤلف «إدجار آلان بو» الذي يعتـبره البعض مؤسس ذلك

النوع مــن الأدب، خاصة بعــد أن أصبحت «روايته عمليات القتل في شارع مورج» علامة فارقة في هذا الاتجاه، وهو أول من ابتدع في رواياته شخصيــة المحقق «أوجست دوبيين» بعد ذلك سار على دربه في هذا المجال كتاب آخرون من أشهرهم السير «آرثر كونان دويل» ثم «أجاثــا كريستي» و«جورج سيمنون» وهم من أبرز مــن كتب في روايات الجريمة على مر التاريخ، وإليهــم يرجع الفضل في نجاح هذا النوع مــن الأدب، فمع ظهور شخصية «شرلوك هولمز» و«الدكتور جون واطسون» في سنة ١٨٨٧ في رواية «دراسة قرمزية» للسير «آرثر كونان دويل» دخلت الرواية البوليسية منعطفــاً جديــداً ازداد تألقــاً ولمعانا حتى جاءت فترة القرن العشرين التي توجت فيها الكاتبــة العالمية أجاثا كريستي لتصبح ملكة الرواية البوليسية في تلك الفترة، فقد احتلت روايتهــا الصدارة العالمية في الفترة من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٥، بعد ذلك دخلت على الطريق نفسه صناعــة الميديا الجديدة من تليفزيون وسينما وازدادت الرواية البوليسية غموضــا وإثارة بعد أن انبثق عنها فرع آخر من أفــرع الجريمة وهــو الجاسوسية التي أدخلــت الجنس في قصصها وأصبحت أكثر تشويقاً وإثارة للقارئ.

وتضمنت بعض فقرات برنامج المهرجان قيام المؤلفين بقــراءة نصوص من رواياتهم أمام الحاضرين ومن ثم يشتركون في نقاشات مثمــرة وممتعة حول الروايــة المقروءة، من تقاليــد المهرجــان أيضاً أن يقــوم المؤلفون بزيــارة السجون وقاعــات المحاكم وقاعات الكتــب والمختبرات الطبيــة ومراكز الطب الشرعي لقراءة رواياتهم، في محاولة لمحاكاة مناخ الروايــة التي غالباً ما تمــرّ أحداثها في مثل هــذه الأماكن، ومــن أشهر حضور مهرجان هــذا العام المؤلــف سيمون بيكت ونوري فيتشي واندريا ماريا شينكل وتوماس راب وسابينــا توماس والكثــير من أصحاب دور النشر الشهيرة في كل أرجاء العالم.[٩]

قطع أثرية نادرة من تراقية:

افتتح رجــل الأعمال البلغــاري فاسيل بوجكوف مجموعتــه الخاصة بأعمال نادرة مــن إقليم تراقية ليتيح بذلك لمحة لحضارة قديمة لا تحظى بالشهــرة ولم تترك تاريخا مكتوبا.

ويستمر معرض «تراقية والعالم القديم» حتى نهاية حزيران الجاري وبه أكثر من ٢٠٠ قطعة أثرية منها قطع إغريقية كلاسيكية بعضها يعرض على الجماهير للمرة الأولى. وتعود أقدم قطعة في المعرض إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولم يتبق الكثير من الآثار التاريخية للتراقيين الذين يقول بعض الخبراء إنهم عاشوا فيما يمثل الآن بلغاريا ورومانيا وشمال اليونان والجزء التركي الواقع في أوروبة منذ عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد حتى استيعاب الإمبراطورية الرومانية لهم في ٤٦ ميلادية.

لكن خبراء الآثار اكتشفوا أعدادا كبيرة من القطع في القبور التراقية ببلغاريا في العقود الأخيرة والتي تمثل أغلب ما يعرف بثقافة الحضارة إذ إنه ليست هناك لغة مكتوبة ولم تترك سجلات باقية، ومن أندر القطع التي احتواها المعرض، والتي تشكل من وجهة نظر القائمين عليه، ودرة المعرض في متحف التاريخ الوطني وجود ٢٠ إناء شراب لكل منها طرف مدبب على شكل حيوان أو رأس حيوان.

ويعشق بوجكوف الأعمال الفنية وهو واحد من أكثر رجال الأعمال ثراء في شرق أوروبة ولديه اهتمامات متنوعة من المقامرة إلى شق الطرق، ومن المتوقع نقل المعرض عند الانتهاء من عرضه في بلغاريا إلى بعض المتاحف العالمية، وفي مقدمتها متحف اللوفر بباريس.[١٠]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG.
٢- وكالة أنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET
٣- وكالة المغرب العربي للأنباء WWW.MAP.CO.MA.
٤- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO
٥- موقع القناة WWW.ALQANAT.COM.
٦- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM
٧- وكالة أنباء الإمارات .WWW.WAM.ORG.AE
٨- موقع العرب أونلاين WWW.ARABONLINE.CO
٩- موقع إيلاف WWW.ELAPH.COM
١٠- وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM.

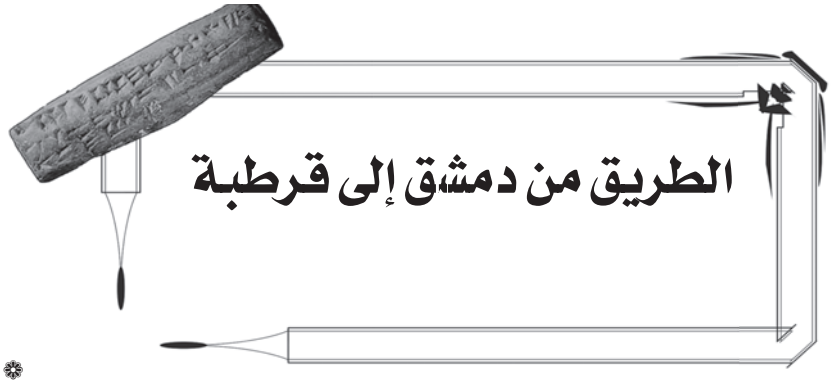

الطريق من دمشق إلى قرطبة

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن*

يعتبر الحامل المكاني للحضارة هو المحدد الأساس للحامل الزماني، باعتباره الحاضر للفعل البشري كتعبير لغوي في منطوق معرفي. الكتاب مثار البحث يبحث في الحضارة الإسلامية والعربية معاً في مكانية هي (بلاد الأندلس = إسبانيا). في فترة زمنية تمتد (٧١١-١٤٩٢م) الكتاب تحت عنوان: «الطريق من دمشق إلى قرطبة.. استعادة تاريخ ضائع». المؤلف الباحث الأستاذ «محمد عبد الحميد الحمد» صاحب المشاريع الكبيرة والمؤلفات التي

* باحث سوري.

أرّخت وحللت لحقبات تاريخية عدة من تاريخ هذه الأمة. من حضاراتها قبل الميلاد إلى واقعها الراهن. الكتاب من إصدارات وزارة الثقافة السورية للعام /٢٠١١/. يقع الكتاب في /٤٧٠/ صفحة من القطع الكبير. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول: إسبانية قبل دخول العرب

تكونت إسبانية قبل العصور التاريخية، ونشأت القرى الأولى منذ الألف السابع قبل الميلاد، وخلال الألف الرابع قبل الميلاد، أدى فائض الإنتاج إلى ضرورة تبادل المنافع مع الجوار في البر، ثم انتقل إلى مرحلة جديدة عندما بدأت السفن تسير بمحاذاة الشواطئ.. لقد دلّ علم الآثار الكنعاني في الألف الثاني قبل الميلاد، أنهم أسسوا محطة تجارية في جزيرة (إيبز=ايبسو) من جزر الباليار الإسبانية، وقد وجدت مدافن أثرية تؤيد الاستيطان الكنعاني على شواطئ (ملقة والمنكب). وقد ذكر (ديودورس الصقلي): إن الفينيقيين قاموا برحلات بحرية بهدف تجاري على شواطئ (ليبيا=أفريقيا) والبلاد الموجودة في الغرب من سواحل المتوسط، وقد عمدوا للإبحار فيما وراء أعمدة هرقل في البحر المسمى أوقيانوس. كما يقول المؤرخ السوفياتي (يولي تسيركين): من الصعب أن نذكر بلاداً مرتبطة بالشرق بشكل أوثق من إسبانية الواقعة في الغرب الأقصى للقارة الأوروبية، فكانت شبه الجزيرة الإيبرية تشهد مرتين خلال ثلاثة آلاف سنة الأخيرة نمواً لثقافة ذات طابع شرقي تماماً، مع أن تلك الثقافة اكتسبت بعض الصفات المميزة الخاصة.. سادت الديانة المسيحية في زمن الإمبراطور (قسطنطين الكبير ٣٠٦-٣٣٧م) وقد انتشر في شبه الجزيرة الإيبرية المذهب (الأريوسي) أتباع الراهب الإسكندري (آريوس=٢٧٠-٣٤٢م) وقد تأثر بفكر الفيلسوف الإسكندري (أوريجانوس=١٨٥-٢٥٤م) الذي نادى إن المسيح هو ابن الله الحي ولكنه دون الأب في المرتبة والوجود.. بعد سقوط روما (٤٧٦م). انقسمت الإمبراطورية الرومانية المسيحية إلى إمبراطوريتين: البيزنطية الشرقية وفيها بطريركية القسطنطينية. والإمبراطورية الرومانية وفيها كرسي البابا في روما. وقام الإمبراطور (زينون الإيسوري= ٤٧٤-٤٩١م)

وأخذ بتعاليم المذهب الخلقيدوني (٤٥١م) وهي أن في المسيح طبيعتين (ناسوتية ولاهوتية). وقام هناك مذهب (بيلاجيوس) وخلاصته عدم الاعتراف بالخطيئة الأولى وتوارثها. وتركزت تعاليم بيلاجيوس في إسبانيا وتقرر فيه بطلان تعاليم القديس أوغسطين وعدم الانصياع لكنيسة روما.. دخل العرب إسبانية عام (٧١١م). وحمل العرب إلى الإسبان نظاماً اجتماعياً أفضل مما هم عليه، وتركوا لهم حرية العبادة والعمل. كما حمل العرب للإسبان تراثهم الثقافي ودينهم ولغتهم، فتعددت الثقافات في شبه الجزيرة الإيبرية، وأطلق على المناطق التي استولى عليها العرب اسم (الأندلس).. كما حمل الرومان إلى شبه الجزيرة الإيبرية اللغة اللاتينية ومعها الأدب والشعر والفلسفة ومن تلك اللغة (اللاتينية) وامتزاجها بالعربية ولدت اللغة البرتغالية الحديثة. عام (١٠٨٥م) ظهرت أناشيد المفاخر التي يرددها المنشدون الجوالون. وعندما اعتلى (الفونسو الحكيم ١٢٥٢-١٢٨٠م) عرش طليطلة وأنشأ في مدينة مرسيا مدرسة عهد بإدارتها إلى (محمد بن أبي بكر القرموطي) بتدريس العلوم

بالعربية للمسلمين والنصارى واليهود، وكان يجيد العربية والعبرية والقشتالية. كما كان في بلاط (سانشو الرابع) ملك قشتالة عام (١٢٩٣م) من الشعراء ثلاثة عشر شاعراً من العرب المسلمين واثني عشر من العرب المسيحيين. وكان (بدرو الرابع ملك آراغون) يتخذ في قصره في شاطبة شعراء من العرب والمسلمين. وأسس تحت إداراتهم مدرسته لتعليم الموسيقا والغناء بالعربية والرومانسية. بدأت الروح الأدبية في إسبانيا على يد الملك (الفونسو الحكيم) الذي سعى إلى امتزاج الثقافات الثلاث الإسلامية واليهودية والمسيحية في المدرسة التي أنشأها في طليطلة عام (١٢٦٥م).

في الفلسفة واللاهوت قامت في إسبانيا على فكرة (الخلاص الإنساني). وظهرت في الأندلس عقيدتان: الديانة اليهودية، والديانة المسيحية. وفي الاثنتان ظهر ما يمكن تسميته الملامح اليونانية في العقيدتين. وخاصة جدل العلاقة بين الإيمان والعقل.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني: تاريخ إسبانيا المسلمة.

كيف فتح العرب المسلمون الأندلس؟ في البداية أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان حملة عسكرية ضخمة بقيادة حسان بن النعمان الذي تمكن بمساعدة الأسطول العربي أن يقضي على المعاقل الرومانية في شمال أفريقيا والمغرب. في هذه الفترة بنى الوالي موسى بن نصير قاعدة بحرية في مدينة تونس وهجر قرطبة بعد أن بنى مئة سفينة حربية انضمت إلى الأسطول الأموي في البحر المتوسط عام /٧٠٤م/.. في هذه الفترة التي سيطر العرب فيها على شمال أفريقيا، قام النبيل (الذريق) واغتصب عرش الحاكم (يوليان) حاكم مدينة (سبتة). وأقام قاعدة في مدينة طليطلة في الداخل، وأرسل الحاكم يوليان إلى العرب يستدعيهم لإحتلال الجزيرة. استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م) موسى بن نصير إلى دمشق وخلفه على الأندلس ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس وجعل قاعدته اشبيلية، ولكن الجنود اغتالوه بعد أن سمعوا أنه عزل من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك (٧١٥-٧١٧م). دعي العرب القدماء (بالبلديين) ومن نصرهم (بالشاميين). وصل الأمير عبد الرحمن قرطبة، واستولى على دار الإمارة. ولقبه الخليفة المنصور العباسي (٧٥٤-٧٧٥م) بصقر قريش. فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودّون الدواوين، وأقام سلطاناً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته، وأنشأ مسجد قرطبة سنة /٧٨٥م). أدخل البربر في ديوان العطاء، كما نظم العلاقة بين السلطة وسلطان البلاد، وتحالف مع الأسرة الملكية التي خلفها لذريق، وتقرب إلى اليهود ورفع عنهم الاضطهاد.. وفي زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل (٧٨٨-٧٩٦م) استطاع توحيد أركان الحكم.. وبعد وفاته خلفه ولده الأمير الحكم الربطي (٧٩٦-٨٢٢م). لم يكن الأمير محمود السيرة، وكان يحب الغناء، وهو الذي أرسل في طلب زرياب من المغرب، وعندما وصل إلى قرطبة كان الحكم قد توفى. خلفه

الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢-٨٥٢م) والده في الحكم، ولكنه كان حازماً، وسياسياً حكيماً، ازدهرت الدولة في زمنه. كان عبد الرحمن بن الحكم أول من أجرى على سفن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وشيد القصور وبنى المساجد، وسك العملة. ثم خلفه ولده الأمير محمد (٨٥٢-٨٦٦م) وأصبحت الأندلس كلها ذات صبغة عربية. وبزغت في تلك الفترة حركة المستعربين المسيحيين. وقام الأمير المنذر (٨٦٦-٨٨٨م) بخلافة والده، وعندما توفي قام أخوه عبد الله (٨٨٨-٩١٢م) بأمور الخلافة، ولكن في عصره قامت بعض الفرق الدينية والصوفية مثل مدرسة (ابن مسرة القرطبي. ت٩٣١م) وجرت بعض الثورات.. ارتقى الأمير عبد الرحمن الثالث عرش قرطبة، واتخذ لقب أمير المؤمنين، ودعوا له في المنابر بلقب الناصر لدين الله عام /٩١٢م/ وتوفي عام /٩٦١م/. استزاد الخليفة الناصر من عنصر العبيد الصقالبة، وأسند إليهم قيادات الجيش، وأصبح العرش قوياً، وازدهرت الصناعة والتجارة. وفي زمن الخليفة الناصر، ساد العلم جميع الطبقات، وكانت المدارس لتعليم أولاد العامة والخاصة، وهناك مدارس للبنات، وكان الخليفة قد أسس مكتبة عظيمة في قرطبة. وبنى الخليفة الناصر مدينة الزهراء سنة /٣٢٥هـ/ ٩٣٧م/.. الخليفة المستنصر (الحكم الثاني (٣٥٠-٣٦٦م) تميز بحبه للثقافة والعلم، وكان يراسل علماء المشرق، وأنشأ للعلماء في قصر مروان مجمعاً علمياً.. أما الخليفة (هشام المؤيد -٩٧٦-١٠٣١م) اشتهر بحبه للعلوم وأمر بترجمات الكتب القديمة.. بعد هذه المرحلة صارت المدن الكبرى التي تقترن بملوك الطوائف هي محور بحثنا لأن الأندلس فقدت وحدتها السياسية، وإن ظلت وحدتها الثقافية والاقتصادية. بدأت الدولة الأموية بالضعف، وبدأ العنصر العربي يتلاشى، وظهر المستعربون في قرطبة. وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر متسامحاً مع اليهود، وتكونت في عهد هشام المؤيد ثلاث طوائف: البربر، والصقالبة والأندلسيين. وتعتبر فترة ملوك الطوائف أعظم فترة اشتهر فيها الشعر والفقه والتصوف والفلسفة، وفي هذه الفترة ظهر الشاعر ابن زيدون والفيلسوف ابن حزم. وفي هذه الفترة صار البحر المتوسط ميداناً للصراع بين ثلاث قوى كبرى: البيزنطية والجرمانية والعربية.. بعد انهيار

الدولة المركزية في اختفاء الخلافة الأموية، ظهرت عدة أسر مسلمة عربية وبربرية في طليطلة وقرطبة وإشبيلية وسرقسطة.. أعلن الأمير عبد الرحمن الناصر الخلافة (٩١٢-٩٦١م) وجمع شمل البلاد واستقر له الحكم في قرطبة. ولما خلفه ولده الحكم المستنصر (٧٦١-٩٧٦م) سارت الأمور على خير ما يرام. وعندما اشتد الظلم قام أحد أفراد الأسرة الأموية بثورة هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة الناصر وتولى الخلافة ولقب نفسه بالمهدي.. ولى سليمان الخليفة الجديد الملقب بالمستعين الشريف علي بن حمود الطالبي ثغر سبتة، وأخاه القاسم بن حمود ثغر الجزيرة الخضراء، وقلد المستعين بن باديس بن حبوس الصهناجي مدينة غرناطة، وأمر منذر بن سليمان التجيبي على ولاية سرقسطة. وسار هو وأنصاره من البربر زحفاً على قرطبة في أواخر (٤٠٦هـ) وهزم الخليفة المستعين سليمان بن الحكم وقتله، وبذلك انقطعت الدولة الأموية من الوجود وبطلت الخطبة في المنابر (٤٠٧هـ=١٠١٧م).. كون القاضي أبو القاسم محمد بن عباد جيشاً بوساطة ثروته الطائلة، وكرمه الزائد، وأحبته العامة والخاصة، وتخلص ابن عباد من شركائه في الحكم وضمّ إليه مدينة باجة، وبدأ يقوى حكمه ضد البرابرة والأفارقة السود.. خلف عباد والده ولقب أول الأمر بفخر الدولة وعين حاجباً للخليفة هشام المؤيد. وله ذهن ثاقب وشجاعة لا مثيل لها، كان محباً للعلم والثقافة. وبعد فتنة قرطبة وحرق مكتبة المنصور بن أبي عامر، انتقل مركز العلم إلى إشبيلية وغرناطة وطليطلة، مما أحدث نهضة في العلم والفلسفة.. خلف المعتمد بن عباد والده على العرش وكان أديباً وشاعراً وأصبحت الأندلس في عهده عربية الثقافة، لكن ابن زيدون لم يعش طويلاً فتوفي في (٤٦٣هـ/١٠٦١م).. ولما وصل الكتاب إلى ابن تاشفين في مراكش، لبى النداء وعبر من سبتة إلى الأندلس واستلمها من حاكمها وهو الراضي بن المعتمد، وجاء إلى اشبيلية واستقبله المعتمد بترحاب. قام ابن تاشفين بوضع رجال له من صلحاء المرابطين في المدن الأندلسية والثغور والحصون كافة. لقد كان المتعمد أخر ملك عربي وبموته اندثر وزال العنصر العربي.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث: تاريخ اليهود في الأندلس.

عاشت القبائل العربية والعبرية متلازمة في الهضاب الصحراوية، جنوب الهلال الخصيب (بلاد الشام)، واختلف حول بداية استقرار العبريين في أرض كنعان. وكانت اللغة العبرية قد تطورت تحت تأثير اللغة الكنعانية. وقد هاجر اليهود وسكنوا مع الفينيقيين منذ الألف الأول إلى قرطاجة وسكنوا مملكة (هنيبعل ٢٤٧-١٨٣ق.م). وعندما أعلنت الدولة الرومانية إيمانها بالمسيحية، كان (الفيزيقوت) على المذهب (الأريوسي) فأعطوا الحرية لليهود، ولكن في زمن الملك (هيلد ريك) دخلت إسبانية في طاعة البابوية عام /٦١٠م/، ومن هنا بدأ اضطهاد اليهود.. تظاهر كثير من اليهود باعتناق المسيحية، ولكنهم ظلوا على مبدأ (التقية). وعندما اعتلى العرش الملك الإسباني في (ريشوسونيد) أصدر أمراً ملكياً، على كل إنسان يقوم بشعائر غير مسيحية يعاتب بالقتل أو الحرق أو الرجم حتى الموت.. وعندما فتح العرب المسلمون أرض المغرب ورأى اليهود عيشة أمثالهم تحت حكم العرب صاروا يغرونهم بفتح الأندلس. وعندما دخل العرب إلى جزيرة الأندلس سمى اليهود (طارق بن زياد= المخلص).. فتح موسى بن نصير أرض الأندلس عام /٧٠٦م/ والتف حوله مزيق من يهود المغرب يحرضونه على فتح الأندلس، ثم فتح الأندلس كاملة في عهد الوليد بن عبد العزيز. ثم عيّن الخليفة عمر بن عبد العزيز على ولاية المغرب السمح بن مالك الخولاني، فأنصف وعدل بين أهل البلاد ثم تولى إمارة الأندلس كلثوم بن عياض القشيري، واستقر الأمر للعرب في الأندلس، وتوطد الحكم العربي عند دخول الأمير عبد الرحمن الداخل عام /٧٥٨م/. إن بداية التعامل كانت حسنة بين اليهود والعرب، ولد المحبة وسهل الاختلاط والتزاوج. كان اليهود يسيطرون على حزمة البناء والعمارة والنحت وعلى فن الغناء والرقص، وعلى دور طراز الملابس، وكان لليهود دور كبير في ازدهار العلم بسبب الحرية والنعمة التي جنوها من العرب المسلمين، ونشروا علوم الأوائل وأتقنوا العربية وبرعوا في آدابها.. استقر صقر قريش في قرطبة، وبنى فيها قصراً وقرّب إليه اليهود والنصارى. وقام هشام بن عبد الرحمن (٧٨٨-٧٩٦م)بإعادة

بناء قنطـرة الوادي على أيـدي مهندسين يهـود. وكان الأمير هشام قـد تلقى تعليماً جيداً بعضـ معلميه من اليهـود تعلم على أيديهـم الحكمـة والأدب وقربهـم وأشفق عليهم. وعندما تولى الإمارة الحكم بن هشام (٧٨٨-٧٩٧م). كان الملك يقلد بلاط الرشيد في بغداد وكان من المغنين (زرقون الاشبيلي) و(منصور اليهوديـان). وسمع الأمير الحكم بزرياب فأرسل إليه منصور المغني اليهودي وجلبه من القيروان إلى قرطبة.. أنزل الأمير عبد الرحمن الداخل البربر في كل الأندلس وأنزل في كورتي لشبونة وباجة جند مصر مع البلدانيين الأول واليهـود، وأنزل في كورتي لبلة وإشبيلية جند حمص مع البلديين الأول (النصارى) ومعهم اليهود، وأنزل البيرة جند دمشـق ومعهم يهود بلاد الشـام، وأنزل في كـورة جبان جند حلـب واختلط العرب مع اليهود والقوط (النصارى) ومهاجرة جاؤوا من أقطـار شتى، فتوصل بذلـك إلى جعل إسبانية أمـة واحدة عرفت في الشرق باسم الأندلـس. وصار أهـل الأندلس لا يفرقون بين اليهـود والنصارى والمسلمين.. في عهد الخليفة (عبد الرحمن الناصر٩١٢-٩٦١م) أصبحـت إسبانيا درة العلم وكعبة الحضارة الإسلاميـة في أوروبـة، إذا قـرب الخليفة إليه العلماء من مختلـف الأديان والأعراق، وبلغـت الأندلـس عصرها الذهبـي. وأمر بتشكيل لجنة من العلماء لترجمة الكتب إلى العربية، وأسس مكتبة ضخمة كدار الحكمة بالقاهـرة. وبالنسبة للدراسـات اللاهوتية اليهودية أغدق علـى المدارس الخاصة من مالـه الخاصـ.. في زمـن الخليفة الحكم المستنصـر بـالله (٩٦١-٩٧٦م)، زاد عدد سكان قرطبة عن المليون، كان اليهود يمثلون عشرهـم، وكان حالهم الأفضـل في العالم. وأمر الخليفة المترجمين اليهود واللاتين أن يترجموا ما وجدوه في مكاتبهم إلى العربية. وصـار المستعربون يتقنـون العربية مهملين اللاتينيـة. كان لليهـود في كل مدينة حاكم لحل قضاياهم الخاصة.. في مجال الفلسفة والتصـوف أبـدع اليهود في ظـل الثقافة الإسلامية. وبفضـل الخليفة الناصر وابنه الحكم جلبت إلى الأندلـس كتب الفلاسفة الأوائل وأبـدع الفلاسفة في الأندلس. ونبغ فلاسفـة وشعراء وأدباء مـن اليهود أمثال: حسـداي بن شغـروط، وولده أبـو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي. ومن علماء اليهـود المشاهير: سعيد بن يعقوب الفيومي

وأبو كثير الكاتب الطبراني وأبو إبراهيم إسماعيل بن يوسف الكاتب المعروف بابن الغزال. ومن الفلاسفة الكبار والعلماء العارفين بأصول الطب وعلم المنطق إسحق بن قسطار وسليمان بن يحيى المعروف باسم جبيرول. ومن الأطباء المشهورين عبد الله بن إسحق المعروف بابن الشفاعة الإسرائيلي.. كما ظهرت مجموعة من المدارس الخاصة بالترجمة من العربية إلى اللاتينية منها: مدرسة أفلاطون التيفوني ومدرسة قشتالة في الترجمة ومدرسة طركونة ومدرسة آل شمطوب ومدرسة صقلية. وظهر من المترجمين: أقسطنطين الأفريقي (ت١٠٨٧م) وكان يهودياً من أهل قرطبة، يتقن العربية. والمترجم ليون الأفريقي (١٤٩٤-١٥٥٢م) ولد في غرناطة، وكان اسمه الحسن بن محمد الوزان. عاش في روما وألف معجماً ثلاثي اللغات (عربي ولاتيني وعبري) وترك كتاباً في وصف أفريقيا.. في التصوف والعلم الإلهي عاش الصوفي الكبير (إبراهيم بن عزرا) في غرناطة ودرس هو وأخوه الشاعر موسى في غرناطة. تعلم العربية والآرامية كتب (الإيضاح في النحو العربي) وقصة (حي بن قصيص).. أما الشعراء اليهود فهم كثر وكان لهم دورهم في إغناء الحركة الشعرية ولهم مكانتهم في بلاط الخلفاء. نذكر منهم: حسداي بن شبروط ومناحم بن سردق الطرطوشي. ودوناش بن لبراط. ويهوذا بن بلعام والعالم اللغوي اسحق بن قفروت.. كما انتشر أدب المقامة في شمال أفريقيا والأندلس، وفضل أهل الأندلس مقامات الحريري على غيرها. ومن اليهود الذين كتبوا في المقامات: الأديب سليمان بن صقيل الذي قدم حوالي /٥٠/ مقامة. والأديب يهوذا بن سليمان الحريزي الذي قدم مقامات الحريزي.. أما أدب الرحلات. فقد أعجب اليهود بأسفار المسلمين. وكان تجار اليهود يجوبون أعالي البحار ومنهم: الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع: تراث الأندلس في الفلسفة وعلوم الأوائل

يقول سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت٩٤٣م): كانت بدايات الفكر الفلسفي قد ظهرت إبان خلافة عبد الرحمن الثاني، عندما بدأ الصراع الفكري بين الفقه المالكي والفكر الفلسفي. وظهر الفيلسوف أحمد بن حفصون السرقسطي،

وكان تلميذاً لأسقف قرطبة ربيع بن زيد، الأسقف (ت١٠٠٧م). ويفصل في مسألة دخول العلوم إلى الأندلس القاضي صاعد بن أحمد الطليطلي (ت ١٠٧٠م) يقول: «كانت الأندلس خالية من العلم، ولم تزل إلى أن فتحها المسلمون سنة /٧١١م/، ولم يشتغل العرب في البداية إلا بعلوم الشريعة، وعلم اللغة إلا أن توطد الملك ببني أمية، وبعد عهد الفتنة وسقوط الخلافة، تحرك ذوو الهمم منهم لطالب العلم». ثم يفصل القاضي صاعد في تاريخ دخول العلوم قائلاً: «انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله (ت٩٧٦م) أناساً لجلب الكتب العلمية من بغداد ومصر والقسطنطينية. وتولى تربية الملك هشام المؤيد أبي عامر المعفري واعتنى بالمكتبة ودراسة الكتب. وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الحكم (المستكفي بالله) (١٠٢٣-١٠٢٥م)، تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم. يقول صاعد: «وبعد ظهور ملوك الطوائف في زمن بني جهور، بيعت الكتب في قرطبة بأوكس الأثمان، وأخذ أبو بكر يحيى بن الخياط عن أبي قاسم مسلمة المجريطي (ت١٠٠٧م) جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة، وهو ومروان بن جناح اليهودي من أهل سرقسطة. وكان معه إسحق بن قسطار خادم الموقف مجاهد العامري، وكان بصيراً بأصول الطب، مشاركاً في علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة. وكان معه من أهل سرقسطة سليمان بن يحيى بن جبيرول، وكان مولعاً بصناعة المنطق، كتب كتاباً سماه (ينبوع الحكمة) وكان من أهل سرقسطة سعيد بن فتموت تلميذ ربيع بن زيد الأسقف الفيلسوف في قرطبة. في هذا المناخ الفكري نشأ وتربى أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة (ت١١٣٨م). ويؤرخ الفيلسوف ابن طفيل في مقدمة حي بن يقظان قائلاً: «لا أصح نظراً ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصايغ (ابن باجة) غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته. أما الفيلسوف أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد طفيل القيسي، فقد ولد عام (١١٠٥م) قرب غرناطة. انتقل إلى مدينة بلنسية ليدرس على العالم ابن السيد البطليوس (١٠٥٢-١١٢٧م) الأدب واللغة والفلسفة، ودرس عليه كتابه (الحدائق). كان أبو بكر بن الطفيل قد درس كل مؤلفات الفلاسفة الشرقيين. تولى أبو بكر ابن طفيل

منصب الوزير والطبيب عند أبي يعقوب في إشبيلية. كما كان يدرس علم الفلك. قال عنه بن خلكان: «كان أعرف الناس بما قالته العرب، وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام. ويقال أنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان حافظاً للقرآن ولكنه طمع في كتب الحكمة (الفلسفة) فقرأ كتبها، وكان عالي الهمة، كريماً سخياً. أما الفيلسوف أبو الوليد محمد بن رشد فقد ولد عام /١١٢٦م/ في مدينة قرطبة نشأ في بيت قضاء و علم، وتولى هو وأبوه القضاء في قرطبة، أخذ الفلسفة عن أبي جعفر التركامي ولازمه مدة وأخذ عنه علومه الحكمية. ودرس عليه مذهب ابن باجة. كانت بداية الدراسة الجدية لكتب أرسطو تحت إشرف ابن طفيل وتوجيهه سنة (١١٦٨م). وكان ابن رشد يعلم الحكمة والطب والفلك ويقضي بين الناس. توفي في مراكش سنة (١١٩٨م) زمن السلطان الناصر ابن السلطان يوسف الموحدي. وقد شهد الشيخ محي الدين بن عربي نقل جثمانه.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس: التراث الروحي والصوفي في الأندلس.

تكونت مدرسة ابن مسرة في الأندلس. نشأت وترعرت في عهد خلفاء بني أمية. أنشأها محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (٨٨٣-٩٣١م) مدرسة في قرطبة. أسلم جده، ورحل إلى بغداد والبصرة وحران واطلع على الفكر العرفاني. وعندما سمع الخليفة عبد الناصر بإنشاء المدارس أسس ابن مسرة مدرسة في قرطبة، وأحب أن يعيد سيرة أفلاطون في الأكاديمية. لقد كانت إسبانية قبل دخول العرب والمسلمين إليها ذات ثقافة عريقة في الفلسفة واللاهوت المسيحي. وكان الأسقف المستعرب ربيع بن زيد يدرس الفلسفة في قرطبة، وعليه درس كثير من العلماء المسلمين المنطق والعلم الإلهي. ومنهم محمد بن عبد الله بن مسرة، درس مؤلفات يحيى النحوي والفلسفة الأفلاطونية المحدثة. كانت دروسه بعد مناقشتها مع طلابه تدوّن وتكوّن كتاباً مثل (التبصرة وعلم الحروف).قال عنه المستشرق الإسباني (انخل بالنثيا): «إن مدرسة ابن مسرة أبرزت نظرية موجودة في تاسوعات أفلوطين تقول بوجود مادة روحانية، تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية». اتبع ابن مسرة منهج الجاحظ في التورية، وكان يظهر التزامه بتعاليم مالك بن أنس، وفي ثنايا كتاباته يخفي تعاليمه الخاصة

(العرفانية) التي اعتبرها جماعة الفقهاء أفكاراً خطرة تهدد سلامة العقيدة..». أما الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي فقد ولد في بلدة مرسية (١١٦٤م) وأصله عربي عريق من سلالة حاتم الطائي. درس الفقه وعلم الحديث على والده، ثم انتقل إلى اشبيلية، وفيها قضى مراهقته وشبابه. عندما توفي والده تحول إلى حياة الزهد وكان قد درس العربية على أبي بكر محمد بن خلف الإشبيلي وأكمل دراسة التصوف على الشيخ موسى بن عمران المرتلي، درس شروحه على كتابي ابن مسرة (التبصرة والحروف)، واطلع على أسرارها العرفانية، وعلمه شيخة موسى بن عمران كيفية محاسبة النفس والاعتكاف طويلاً وصار يزور القبور ويناجي أرواح الموتى. التحق بديوان حاكم اشبيلية، وبدأ يقرض الشعر، ثم سافر إلى قرطبة والتقى بالقاضي ابن رشد. في قرطبة تعرف على الشيخة فاطمة القرطبية وكانت شاعرة تقول أشعار الحب الإلهي. في هذه الفترة التاريخية، اضطهد أرباب التصوف، فارتحل ابن عربي إلى الغرب ونزل في بجاية ودرس العلم الإلهي على أبي مدين الإشبيلي، ووضع كتاباً سماه (الدوائر والإحاطة).ثم مضى ابن عربي إلى تونس، ثم إلى تلمسان عام /١١٩٠م/ ودرس في زاوية أبي القاسم بن قسّي الزاهد، ثم إلى فاس عام (١١٩٤)، وهنا عرف أول حالات الإشراق الروحي، وإدراك الفرق بين النبوة والولاية. وفي فاس درس ابن عربي على الشيخ عبد السلام بن برحان الإشبيلي. وكان على اطلاع في علوم الباطن. وعندما دخل ابن عربي اشبيلية (١١٩٤م) التقى بالفيلسوف ابن طفيل، اطلع منه على المذهب الأفلاطوني في الفلسفة ومنه عرف طريقة التجلي الإلهي. دخل ابن عربي الإسكندرية عام /١٢٠٢م/. ثم تابع مسيره نحو القاهرة وسكن حي الباطنية، والتقى بسلطان العاشقين عمر بن الفارض. في الموصل درس ابن عربي دستور أهل التصوف، أعني (رسالة القشيري) لعبد الكريم بن هوزان، وفي الموصل اطلّع ابن عربي من رهبان ديرمارمتى على فلسفة ديونيسيوس الأريافاغي صاحب كتاب في فلسفة التجلي الإلهي. انتقل ابن عربي إلى أسيا الصغرى إلى بلاط السلطان السلجوقي كيكاوس الأول واستقبله. وفي هذه الفترة كتب للسلطان رسالة في (السياسة الإلهية). وفي قونية استقر في دير ماريرصوم في

ملطية، ومنها انتقل إلى حران. استقر ابن عربي في الرها وتعرف في دير الغرباء خارج الأسوار على خفايا اللاهوت المسيحي واطلع على ما كتبه مار أفرام السرياني. وصل ابن عربي إلى بغداد في سنة (١٢١٥م) والتقى العارف بالله الشيخ أبا حفص عمر السهروردي. جاءت القافلة من بغداد إلى حلب، وسمع به الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وقربه إليه. انتقل الشيخ إلى دمشق واستقبله الملك المعظم ابن صلاح الدين الأيوبي عام (١٢٢٣م). في دمشق انكب الشيخ على التأليف والكتابة وأكمل كتاباته ومنها: الفتوحات المكية، وفصوص الحكم. توفي الشيخ في دمشق يوم الجمعة العام (١٢٤٠م) ودفن في سفح جبل قاسيون، بتربة الصالحية، وأصبح قبره مزاراً.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس: تراث الأندلس في الموسيقى والغناء العربي.

الموسيقى فن لازم الإنسان منذ القدم. وكانت الموسيقى دوماً تعبيراً عن خوالج النفس. كانت سورية (بلاد الشام) على تواصل مع سواحل المتوسط وبلاد الرافدين والهند، وقد وجد السلم السباعي (الدياكوني) مدوناً على الرقم الطينية في أوغاريت على الساحل السوري منذ /١٣٠٠ق.م/. كان السلم السباعي منسوباً إلى الفيلسوف فيثاغورث الساموسي (٦ق.م) وكان أحد أمراء البربر في قرطبة المدعو يوبا الثاني (ت٢٢م) صاحب كتاب (في التمثيل والموسيقى). كان العرب يغنون دون آلات موسيقية، ولا يستخدمون منها إلا الربابة والدف والكف. وعندما فتحوا البلاد أصبحت قريش تعج دورها بالمغنين، وبرزت أسماء نساء منهن: عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين، وعرف من المغنين، حنين الحيري، ونشيط الحيري الذي أخذ عنه طويس وسايب مولى عبد الله بن جعفر، وكون ابن سريج فرقة موسيقية من الموالي. وعندما انتقلت الخلافة إلى دمشق، ظهرت مجالس الغناء في العهد الأموي، وأصبحت الجواري والمغنون من مستلزمات الملك. في العصر العباسي مارس أولاد الملوك العزف والغناء مثل إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة. وظهر في البلاط بعض الموسيقيين نالوا شهرة واسعة ومنهم زرياب الذي برع في بغداد والتحق بقرطبة في الأندلس.

محمود أمين العالم، مفكّر استثنائي

رئيس التحرير

في تسعينات القرن الماضي، كلفتني الدكتورة نجاح العطار، نائب رئيس الجمهورية، ووزيرة الثقافة حينذاك، باستقبال ومرافقة العالم والمفكر العربي الكبير محمود أمين العالم، الذي زار سورية في تلك الفترة أكثر من مرة للمشاركة في ندوات ومؤتمرات، وكانت فرصة حقيقية للتعرّف على جوانب من شخصية وفكر وثقافة هذا الإنسان الموسوعي الذي كان يحب الحياة، ويحب الاستمرار فيها، والمشكلة مع محمود أمين العالم، أنك لا تعرف من أين تبدأ معه، فأعماله

وإنجازاته متنوعة وغنية، فهو واحد من هؤلاء الذين امتد عطاؤهم في الفلسفة والفكر السياسي والنقد الأدبي والإعلام وحتى في الشعر، فقد أصدر ديواناً كاملاً، وبعض الحوادث التي شهدتها مصر العربية كان شريكاً في صنعها أو شاهداً عليها.

لقد وجدت من خلال حديثي معه أن ذاكرته لم تعرف التقاعس عن الاستمرار في اقتحام ميادين المعرفة، وقد حاول في كل ما كتب اكتشاف ما يسمّى بالقانون الداخلي للعمل الفني، وما هو ضروري من المعارف.

لقد عرفته الماركسية على امتلاك الخلفيّة لقانون الضرورة في المجتمع، وبالتالي إمكان اكتشاف الضرورة في الإبداع البشري، وتميّزه لا يعني انفصاله عن تاريخيته أو عن واقعه، ومن هذا المنطلق الخاص كانت له معارك مبكرة خاضها مع مصطفى محمود، ومع الدكتور عبد العظيم أنيس، والدكتور طه حسين، وكان لكتابه «في الثقافة المصرية» مع عبد العظيم أنيس صدى كبيراً في الأوساط الأدبية في الوطن العربي في خمسينيات القرن الماضي، لكنه سرعان ما فقد بريقه على ضوء التحويلات التي حصلت فيما بعد، وظهور نظريات جديدة ومعارك غير مسبوقة في تاريخ المنطقة العربية.

لقد حدثني مطولاً عن مواقفه المختلفة التي قادته إلى السجن مرات عديدة، حيث كان يخرج من سجن ليدخل في سجن آخر، وكان آخر خروج له من السجن عام ١٩٦٤، ليدخل في «الاتحاد الاشتراكي» وليؤسس «الميثاق القومي» الذي تبنى الاشتراكية كأيديولوجيا لاتحاد قوى الشعب العامل، وفي هذه الفترة بالذات أصبح محمود أمين العالم شخصية مصرية عربية بارزة، حيث تسلّم رئاسة تحرير كل من جريدتي «الأخبار» و«الجمهورية» وعيّن مشرفاً على المسرح ومسؤولاً عن الهيئة العامة للكتاب، ومسؤولاً عن إصدار مجلة «الكاتب العربي» وأصبح بحق نجماً فكرياً وأدبياً وسياسياً، ولكنه مع كل هذه المسؤوليات وما حصل من تبدلات وتغيّرات لم يتعب من التفكير والاجتهاد في الميادين التي انخرط فيها بكل طاقاته، ونعني الفكر الاشتراكي ــ العمل السياسي ــ البحث عن التراث ــ كتاباته الكثيرة والمتنوعة التي جمعها في كتاب مهم بعنوان «معارك فكرية» حدد من خلالها «مفهوم الهوية» التي يقول عنها: «لكل مرحلة مجتمعية وتاريخية هويتها المعبّرة عن مكتسباتها ومنجزاتها وممارساتها وأفكارها وعقائدها وقيمها وأعرافها السائدة، لذلك ثمة استمرارية لهوية ثابتة جامدة محددة طوال التاريخ، جوهر إنسانية الإنسان، إن لكل مرحلة جديدة هويتها

التي هي تطور متجدد للهوية في المرحلة السابقة، أو انحدار وتدهور لها، إنه التماثل واللاتماثل، الاستمرار والانقطاع، الثابت والمتغيّر ثقافياً وموضوعياً في جدل التاريخ، ولهذا فكل تثبيت إطلاقي للهوية وجعلها معياراً مرجعياً ناجزاً نهائياً طوال تاريخ مجتمع من المجتمعات هو رؤية تجميدية لا تاريخية وغير موضوعية لهذا المجتمع».

ويذهب محمود أمين العالم على قاعدة هذا المنطلق ذاته في التعامل مع الظاهرات، في تفسير ظاهرة «العولمة» مذهباً عقلانياً واقعياً يختلف فيه مع الذين يرفضونها رفضاً اعتباطياً، كما يختلف مع الذين يندمجون فيها اندماجاً كلياً ويتكيّفون معها من دون شروط، ولذلك يطالب أن يتم التصدي لهذه «العولمة» برؤية حضارية كاملة بعيدة عن العزلة عن حقائق العصر، والتخلف والتبعية ولكنه لا يقدم حلاً لها.

في بحثه عن «التراث، ذلك المجهول» يرى أن الإضافات التراثية متجددة، تختلف دلالاتها باختلاف المراحل واللحظات، التاريخية والاجتماعية،كذلك الأمر بالنسبة إلى المواقف من هذه الإضافات، فإنها تختلف باختلاف هذه المراحل واللحظات، ولهذا فإن كل إضافة تراثية هي نفسها موقف من إضافة تراثية سابقة عليها، وهي موضوع لموقف تراثي لاحق عليها سيصبح بدوره موضوعاً لموقف، أي إضافة تراثية، ونستخلص من هذا كله، أنه لا يوجد شيء واحد أو منجز واحد من منجزات الماضي التاريخي، يمكن أن نقصر عليه كلمة تراث، بل هناك إضافات تراثية متعددة، ومختلفة ومتنوعة، فليس التراث هو التراث الديني وحده، وليس هو الثقافة الرسمية السائدة وحدها، بل هو منجزات الماضي كله بكل عناصرها ومحاورها الدينية والروحية والوجدانية والعلمية والأدبية والفنية والشعبية العمرانية وغيرها.

لقاءاتي مع المفكر العربي الكبير الراحل محمود أمين العالم، كانت أكثر من رائعة، ولا يمكن أن تنسى، لأنه من الشخصيات الحيوية، دائمة الحركة والتجدد والتواصل مع الآخر بكل محبة وتواضع العلماء.